

مكتبة رجل

احسان عبد القادر

Bibliotheca Alexandrina

0110408

مطبوعات



قطاع الثقافة

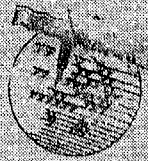
رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعدة

أخبار اليوم

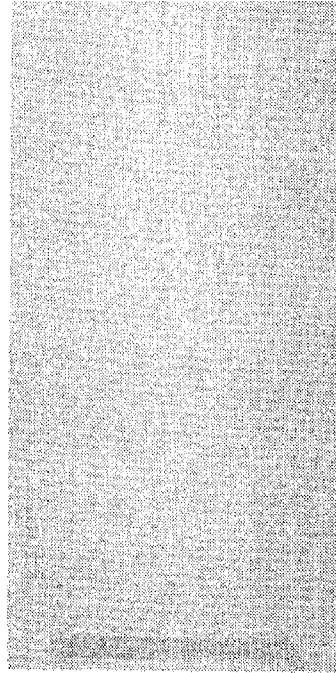
قطاع الثقافة

Library (QOD)



دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠



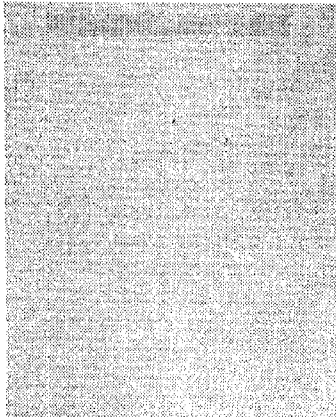


الإخراج الفني :

مجدي حجازي

الغلاف بريشة الفنان :

سيد عبد الفتاح





إنَّ البطل لا يصنع نفسه ..
ولكن تصنعه أمته ..

إحسان



أجد أيام شهر رمضان.. والساعة الخامسة مساء،
قبل الإفطار بساعة ونصف.. وكان راقداً في فراشه
بإحدى غرف مستشفى القصر العيني.. غرفة خاصة
يقف على بابها جنديان من جنود البوليس يحمل كل
منهما بندقية. □

واعتمد فوق الفراش، وبدأ يجمع الصحف اليومية المتناثرة
حوله، ويرتبها الواحدة فوق الأخرى.. وسقطت عيناه للمرة الألف
فوق السطور العريضة الحمراء المنشورة في صدر الصفحة
الأولى: « قرار الاتهام في قضية.... »

ولم يتم قراءة السطر العريض، إنما طوى الجريدة بسرعة كما
طوى غيرها.. وقام واقفاً واتجه إلى الحنفية المثبتة في جانب من
الغرفة.. وبدأ يغسل وجهه.. وأحنى رأسه وترك الماء ينصب فوقها
بقوة كأنما يحاول أن يطفى نارا تندلع فيها.. ثم عاد وهو يدفن
وجهه في المنشفة كأنه لا يريد أن يرى هذه النار. لا يريد أن يرى
شيئاً..

وبدأ يبدل ثيابه.. خلع «البيجاما» وارتدى القميص والبنطلون..
ثم جلس فوق الفراش وأخذ يلبس حذاءه.. ثم دس يده تحت
«مرتبة» السرير وتسلس بأصابعه داخل شق صغير فيها وأخذ
يتحسس قطع القطن المندوف حتى اصطدمت أصابعه بشيء صلب
صغير، جذبته إليه، ووضعها في كفه وأخذ ينظر إليه برهة في حنو
تشويه سخرية كأنه ينظر إلى طفل صغير.. إنه مسدس
«براوننج».. وقد أصبح يسخر من المسدسات الصغيرة.. إنه

لا يحس بها فى يده.. يخليل إليه أنها أقرب إلى لعب الأطفال.. إن أول مسدس حمله فى يده كان مثل هذا المسدس.. صغيرا ضعيفا.. وقد كان أيامها صبيبا.. كان لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره.. وقد كبر بعد ذلك.. أصبح رجلا.. وكبر معه المسدس.. أصبح مسدسا كبيرا.. «برتا».. ولكنه مضطر اليوم أن يعود إلى المسدس الصغير.. وأحس أنه يعود صبيبا!!

ودس المسدس فى جيب البنطلون كأنه يخفى ذكرى عزيزة.. وقام يسير فى غرفته جيتة وذهابا.. ثم ألقى بنفسه فوق المقعد الوحيد.. ونظر إلى ساعته وتنهد.. وكأنه خشى أن يتنهد مرة ثانية. فجذب إحدى المجلات من جانبه وأخذ يقرأ فيها أخبار نجوم السينما..

إن مصر لا تزال تهتم بأخبار نجوم السينما .. كل هذا يحدث له، وفاتن حمامة لا تزال تظهر على الشاشة، وعماد حمدي يبدو فى صورته مبتسما سعيدا كأنه لا يدري.. كأن مصر كلها لا تدري أن أحد أبنائها سيموت فى سبيلها.. سيعدم.. سيشنق.. وألقى بالمجلة على الأرض فى عصبية وتمتم بينه وبين نفسه: - لن أموت.. لن أمكنهم منى!!

ولم يبد شئ من ثورته على وجهه.. إن لم تنظر إلى عينيه فلن تجد شيئا مما فى نفسه، بل ربما اعتقدت أنه سعيد.. سعيد جدا لأن فاتن تمثل فيلما جديدا، وعماد حمدي يبتسم فى صورته..

وكانت هذه طبيعته.. أن لا يبدو شئ من أحاسيسه إلا فى عينيه، ويبقى باقى وجهه خاليا إلا من تعبير واحد لا يتغير.. تعبير مريح هادئ يجذبك إليه، ويسلب منك قلبك وعقلك.. فتحبه وثق به، دون أن يخطر ببالك أن صاحب هذا الوجه يمكن أن يكون بطلا..

وربما هو نفسه لم يعتمد أبدا أن يكون بطلا.. ولم يتصور أبدا أن صورته ستحتل يوما الصفحات الأولى.. وأن الناس كلهم سيتحدثون عنه، وأن الدولة كلها ستقصر اهتمامها عليه.. لم يحس أبدا بدوافع البطولة.. بل لم يعتقد فى نفسه أنه أجرا من غيره من الشباب، ولا أكثر منهم تطرفا فى وطنيته.. كانت تصرفاته كلها

تبدو طبيعية بالنسبة له.. لم يكن يحس فيها بشئ من التفوق، ولا بشئ من الشذوذ.. بل إنه كان يحس بمواطن ضعفه أكثر مما يحس بمواطن قوته، كان يحس مثلاً أنه لا يستطيع أن يواجه الجماهير ويخطب فيهم.. وكان هذا الإحساس يصاحبه منذ بدأ يشترك في الثورات الوطنية التي يقوم بها زملاؤه طلبة المدارس الثانوية.. فكان لا يتقدم الصفوف.. ولا يهتف.. ولا يلقي خطبا حماسية.. بل كان يتولى الجانب العملى فى الثورة.. ويتولاه صامتا بلا ضجة ولا صراخ..

كان إذا حاصر البوليس مدرسته تولى هو تركيب خراطيم الحريق ليسلط ماءها على رجال البوليس.. ثم يتولى جمع الزجاجات وملأها بالرمل ويفرقها على الطلبة كسلاح يقابلون به الرصاص الذى ينصب عليه.. ثم كان يبتكر أسلحة صغيرة ينهر لها زملاؤه الطلبة.. زجاجات مولوتوف.. وكرات من القمماش مغموسة فى الجاز يشعلها ويلقى بها على سيارات البوليس.. والطناسات التى يقدم فيها طعام المدرسة يقلبها إلى خوذات يضعها الطلبة فوق رؤوسهم ليحموها من عصى الجنود.. وشيئا فشيئا بدأ الطلبة يلتفون حوله ويثقون به وينتظرون منه دائما أن يفعل شيئا، ولكنهم ظلوا يعتبرونه زعيما صامتا.. لا يتقدم الصفوف، ولا يهتف ، ولا يخطب فيهم..

وقد أشاع صمته من حوله جوا مثيرا.. وتناقل الطلبة عنه عدة شائعات.. أن فى بيته عشرة صناديق مليئة بالديناميت وأن والده يخفى فى بلده مدفعا رشاشا.. إن أخاه ضابط فى الجيش وهو الذى يضع له خطط الهجوم والدفاع.. إنه يشترك فى الاجتماعات السرية التى يعقدها طلبة الجامعة ... و... و... ونسجت هذه الشائعات من حوله صورة مثيرة لبطل مثير يبهز زملاءه..

ولم تكن هذه الشائعات صحيحة.. كان والده مجرد موظف فى الدرجة الخامسة بوزارة الاشغال.. موظف كبقية الموظفين، يتحدث عن الدرجات، ويحذر ابنه من الاشتغال بالسياسة.. ولم يكن له شقيق ضابط فى الجيش.. ليس له شقيق على الإطلاق.. وليس فى

بيته صناديق مليئة بالديناميت ، ولم يشترك أبداً - حتى ذلك الحين - فى اجتماعات سرية يعقدها طلبة الجامعة.. وأكثر من ذلك أنه لا يشتغل بالسياسة.. لم يحاول أن يتعب رأسه بمناقشة المسائل السياسية.. لم يختار لنفسه مبدءاً سياسياً معيناً.. ولم ينضم لحزب من الأحزاب.. كانت وطنيته مجرد إحساس عاطفى قوى يدفعه مع المجموع، وينعكس فى رأسه كخطط لمقاومة رجال البوليس والتفوق عليهم. هذه الخطط التى تبهر الطلبة!!

كان يكره الإنجليز.. يمقتهم.. يحس بجرح فى كبريائه كلما رأى أحداً منهم.. لكنه لم يكن يعى حقيقة الاستعمار، ولم يكن يعى مدى ما يستنزفه الإنجليز من دم بلده. وكان يكره الملك، ويكره الزعماء والوزراء.. وكان يطالب بإلغاء معاهدة عام ١٩٣٦، ويرفع الأحكام العرفية.. كل ذلك دون فهم عميق للأسباب التى تحرك عواطفه.. مجرد إحساس مرهف بمطالب المجموع.. مطالب الشعب..

وكان فى السابعة عشرة من عمره، طالب فى مدرسة السعيدية الثانوية، عندما حمل إليه أحد زملائه المؤمنين به أول مسدس يقع عليه نظره.. مسدس «براوننج» صغير، وعلبة رصاص.. ولم ينظر زميله فى عينيه ليرى مدى الدهشة التى انتابته وهو يقلب المسدس فى يده.. بل ربما اعتقد الزميل أنه حمل إليه شيئاً عادياً لا يليق ببطولة!

وأخذ المسدس وذهب به إلى بيته.. وأحس أنه قوى.. قوى جداً.. إنه يستطيع الآن، بهذا الشئ الصغير، أن يتخلص من كل أعدائه.. أعداء وطنه.. ولكن كيف؟!

إن إحساسه بهذه القوة الجديدة التى أصبحت بين يديه، صحبه إحساس آخر.. جديد أيضاً.. إحساس بالمسئولية.. مسئولية استعمال هذه القوة.. إنه لا يستطيع أن يقتل من يشاء لأنه ليس قاتلاً، ولا يريد أن يكون قاتلاً.. ورغم ذلك فهو يحس أنه يستطيع أن

يستعمل هذا الشيء الصغير ليقوم به بدور كبير.
وحمل المسدس وعلبة الرصاص.. وخرج من بيته فى خطى
محترسة كأنه يخشى أن ينطلق المسدس من تلقاء نفسه فى أى
وجه عابر يمر به.. وركب الترام إلى نهاية شارع الهرم، ثم سار
على قدميه حتى وصل إلى مكان قصى من الصحراء الممتدة خلف
الأهرام.. وأخرج المسدس وعبأه بالرصاص.. ثم صوبه إلى حجر
منتصب أمامه.. وارتعشت يده.. وجمد أصبعه فوق الزناد..
سيسمع دويًا هائلًا يصم أذنيه ويجمع الناس من حوله.. شئ هائل
سيحدث لو ضغط على الزناد.. وخاف.. واحتاج إلى كل إرادته
ليتغلب على الخوف.. ثم أغمض عينيه وضغط على جفنيه بشدة
حتى يحكم إغماضهما، وخيل إليه أنه يضغط أيضًا على أذنيه
ليسدهما من سماع الصوت الرهيب..
واستطاع أخيرًا أن يحرك أصبعه ويضغط على الزناد..
ولم يحدث شئ.. انطلقت الرصاصة فى طرقة خافتة.. كأنه كسر
بندقية بأسنانه، ومرت فى الهواء تثرز أزيزًا خافتًا كأنه أزيز
بعوضة.. لا دوى.. ولا شئ رهيب؟
وفتح عينيه وهو لا يصدق نفسه.
وابتسم ابتسامة واسعة، كأنه اكتشف عالمًا جديدًا.. ثم أطلق
الرصاصة الثانية. والثالثة.. والرابعة.. والخامسة.. و.. و.. وعبأ
المسدس من جديد، وأخذ يطلقه وهو يحاول فى هذه المرة أن
يصيب الهدف.. يحاول فى صبر وحرص، كأنه اشترى كلبًا أصيلا
يدربه على طاعته..
وأحب المسدس..
كان يضعه تحت رأسه قبل أن ينام ويفتح عليه عينيه أول
ما يصحو، وكان يخفيه فى دولاب ملابسه قبل أن يذهب إلى
المدرسة ثم يفكر فيه طول يومه.. ويتلهف عليه.. ويهيم فى خياله
كأنه عاشق.. ثم يعود إلى البيت آخر النهار مسرع الخطى، ويدخل
غرفته مباشرة ويغلق على نفسه الباب، ويخرج المسدس من
الدولاب ويضمه بأصابعه فى شوق وفرحة.. ثم يعيث به كأنه

يداعب حبيبته.. ويفك أجزاءه كأنه يخلع عن حبيبته ثيابها!!
وكما يقبل العاشق على قراءة القصص الغرامية، بدأ يقبل على
قراءة القصص البوليسية، وعلى مشاهدة أفلام رعاة البقر. وكانت
عيناه دائماً على المسدس وما يستطيع المسدس أن يفعله!
وكان بينه وبين مسدسه موعد عصر كل يوم خميس، وصباح
كل يوم جمعة فيصطحبه إلى الصحراء الواقعة خلف الأهرام
ويطلقه.. وتصل أصوات الطلقات إلى أذنيه كأنها طرقعة القبلات.
وأجاد إصابه الهدف.. كان يصيب الهدف بمجرد أن يشير إليه
بمسدسه، وأجاد جميع الحيل التي رآها في أفلام رعاة البقر وقرأ
عنها في القصص البوليسية.. كان يصيب الهدف وهو مغمض
العينين، ويصيبه وهو مدير ظهره إليه ناظراً في مرآة.. وصغر
حجم الهدف.. بعد أن كان حجراً كبيراً، أصبح قرشاً، ثم أصبح
قطعا فضية صغيرة من ذات القرشين.. وفي المرات القليلة التي كان
يخطئ فيها إصابة الهدف، كان ينظر إلى المسدس في لوم وعتاب
ويقول له:

- كده برضه يا عزيزة!

ثم يبتسم، وكان المسدس يرد عليه:

- معلش الدور ده يا إبراهيم!

إلى هذا الحد أحب المسدس.. عزيزة!

ولكنه كان يخاف هذا الحب..

كانت في صباه رجولة مبكرة تحذره من هذا الحب.. تحذره من
هذه القوة الضخمة التي تنطلق في قلبه كلما ضم المسدس بين
أصابعه.. فأخفى هذا الحب، وكبت هذه القوة.. وحمل مسئولية
المسدس بأمانة فلم يبد به أبداً أمام أحد، ولم يخرج به في
المظاهرات التي يشترك فيها مع زملائه الطلبة.. كان يخشى أن
يفقد أعصابه يوماً، فيطلقه.. بل إنه لم يتحدث أبداً عن مسدسه أمام
الناس.. كان يحمل حبه في صمت، كالعاشق الشريف.

وظل هكذا.. ليس في قلبه إلا عواطفه الوطنية، وليس له هواية
إلا «مسدسه» إلى أن انتهى من دراسته الثانوية، والتحق بكلية

الحقوق، واحتل بين زملائه الجدد نفس المكانة التي كانت له دائما. مكانة الزعيم الصامت الذي لا يفرض زعامته ولكنه يجذبك إليها.. حتى الذين حاولوا الاستهانة به، ومعظمهم من الطلبة المنضمين إلى اللجان الحزبية، لم يستطيعوا أن يكرهوه فهو لا يدع لهم سبيلا إلى كراهيته.. إنه لا يعارضهم في آرائهم بل يستمع إليهم كأنه يتلقى منهم درسا، ولا يشترك في جدالهم الحزبي لأنه لا ينتمي إلى حزب من الأحزاب، ولا ينافسهم في مواقفهم، لأنه لا يتقدم الصفوف، ولا يقود الهتافات، ولا يلقي خطبا، إنما يقوم بدوره خلف الصفوف وإن امتد أثره إلى الصف الأول..

كل ما كانوا يأخذونه عليه.. أنه جاد أكثر من عمره.. إنه لا يتكلم إلا إذا كانت هناك حاجة ماسة إلى كلامه.. وهو لا يلعب الطاولة في النادي، ولا البوكر ولا الكونكان.. بل إنه لا يتقرب إلى الطالبات.. ولا يلاحقهن كبقية زملائه، ويبدو أنه يحتقرهن ويتجاهل وجودهن..

ولم يكن هذا تزمنا منه.. كانت هذه هي طبيعته.. لا يستطيع الكلام الكثير، ولا يحب أن يلعب الطاولة، ويكره أن يشاهد زملاءه يلعبونها لأن صوت نقل أحجارها يذكره بصوت طلقات مسدسه الحبيب.. ولا يحب أيضا أن يجلس إلى مائدة ليلعب البوكر والكونكان.. أما البنات، فهو لا يكرههن، ولكن ليس لهن أثر في حياته.. كانت دنياه خالية دائما منهن.. لم يكن له أخت، ولم يكن يعتبر أمه امرأة كبقية النساء.. كانت في نظره انسانا كاملا ليس له مثيل في الوجود.. انسانا لم يكن أبدا بنتا..

لم يكن متزمتا.. ولم يكن يفضيه أن يلعب زملاؤه الطاولة أو الكتشيينة أو يلاحقون البنات.. كثيرا ما كان اصداقؤه يروون له مغامراتهم الغرامية فيستمع إليها بانتباه شديد.. ولكن هذا الانتباه كان ينصب على تتبع أحوال اصداقائه أكثر مما ينصب على المغامرة نفسها أو على بطله هذه المغامرة.

وقد كان يحب اصداقائه كثيرا.. كما يحب مسدسه.. وكان في حبه لهم رجولة عارمة وشهامة وافتداء.. لم يكن يبخل بشئ في

سبيل أصدقائه.. لم يكن يبخل حتى بحياته.. ومرة أو مرتين كاد يقتل أثناء المظاهرات، وهو يحاول أن ينقذ أحد أصدقائه من القتل.. بل كاد يقتل مرة في سبيل كل الطلبة، عندما ألقى بنفسه في النيل أثناء سير المظاهرات، وتعلق بقارب صغير وجدف حتى وصل إلى قاعدة كوبرى عباس، وصعد إليها ليخلق الكوبرى الذى كان البوليس قد فتحه ليحول دون وصول الطلبة المتظاهرين إلى القاهرة.. ولم يستطع أن يفلق الكوبرى، فقد تصدى له البوليس وأنهاروا عليه بالعصى، فاضطر أن يلقى بنفسه ثانيا في النيل ويسبح حتى الشاطئ..

إلى هذا الحد كان يحب أصدقاءه وزملاءه.. حبا ليس فيه تكلف ولا ادعاء إنما ينبعث من طبيعته.. وربما كان هذا الحب هو سر انجذابهم إليه.. وسر الشعاع المريح الهادئ الذى يحيط بوجهه الأسمر.. سمرة القمح فى موسم الحصاد!! ولم يكن ينتظر له أن يكون أكثر من ذلك.. طالب يهب عواطفه لوطنه وزملائه.. ويحب مسدسه حبا خفيا مكتوما.. هو نفسه لم يكن يعتقد أن دوره فى الحياة، فى هذه الفترة من شبابه، سيتعدى هذا الدور الشريف الذى يقوم به.. إلى أن كان يوم..

وكان خارجا من السينما مارا بشارع عدلى باشا.. ولمح أمام إحدى الحانات زحاما شديدا.. جنودا إنجليز وباعة متجولين مصريين.. وصراخا.. ومعركة..

واقترب ووقف يتتبع المعركة، ضمن جمهور المتفرجين وبدأ مقتله للإنجليز يتحرك فى صدره.. واشتد إحساسه بالمقت حتى أصبح ثورة.. ثار دمه الحار.. وبدأت أعصابه ترتعش.. وتمنى أن ينتصر الباعة المتجولون على الإنجليز.. يجب أن ينتصروا.. ولكن الجنود الإنجليز تكاثروا.. ثم لمح واحدا منهم يخرج مطواة ويشهرها فى الهواء ثم يغمدها فى جبهة أحد الباعة.. وسال الدم.. دم مصرى.. ولم يعد يحتمل.. لم يعد يرى شيئا.. وفى لحظة واحدة قفز وألقى بنفسه فى وجه الإنجليز.. قبضاته.. ورأسه.. وكتفاه

وساقاه.. كل قطعة منه كانت تنقذف فى وجوه أعدائه من تلقاء نفسها.. ولم يكن يدرى كيف يسدد ضرباته.. كنت تصرفاته أسرع من تفكيره..
وبدا يحس بضربات مقابلة تنهال عليه.. كل الضربات تنهال عليه.. إنهم يلكمونه.. يصفعونه.. يركلونه..
ووقع على ركبتيه..

وفجأة تذكر شيئاً.. المسدس.. لو كانت «عزيزة» معه لقتلهم جميعاً.. الكلاب.. كانت عزيزة تستطيع أن تصونه من هذه الالهانة.. تحفظ له كرامته.. سأقتلهم جميعاً.

ورفع رأسه وهو لا يزال راكعاً على ركبتيه فلمح المطواة فى يد الجندي الإنجليزي مشهرة فى الهواء، ثم لمحها تشق الفضاء كالقذيفة متجهة إلى رأسه.. وما برأسه بسرعة، وهب على قدميه.. وأخذ يعدو.. بعيداً عن المعركة. ثم تعلق بسيارة أجرة وطلب إلى السائق أن يتجه به إلى بيته.. فى المنيرة.. وهو يتعجله.. أسرع.. أرجوك أن تسرع.. والسائق ينظر إليه مبتسماً كأنه فيلسوف، ويتفحص الكمادات التى تبرز من خديه، وفوق عينيه، ثم يقول وهو يضحك وكأنه يخفف عنه:

- تعيش وتأخذ غيرها!!

ولم يرد على السائق.. ظل يردد كالمجنون.. أسرع.. أرجوك أن تسرع.. إلى أن وصل إلى البيت.. وقال للسائق.. انتظرنى.. وصعد السلم كأنه أسرع من ساقيه.. واقتحم غرفته دون أن يسمع صرخة أمه عندما فتحت له الباب.. وأخرج مسدسه.. وعاد ينزل السلم كأن ساقيه أسرع منه.. وألقى بنفسه فى السيارة التى تنتظره، وهو يقول من بين أنفاسه المبهورة:

- رجعتى شارع عدلى باشا.. قوام وحياة أبوك!!

وأنطلق السائق بسيارته، ثم التفت إلى الوراق، ونظر إلى الراكب.. نظرة الفيلسوف، وعاد يقول فى ابتسامة حانية:

- بس لو كنت تهدي نفسك شوية يا سيدنا لافندى!!

ولم يرد عليه..

كانت يده تقبض على المسدس وهو فى جيب سترته.. وكأنه وضع فى جيبه - مع المسدس - كل قلبه، وكل عقله، وكل شبابه.
ووصل إلى شارع عدلى باشا.. ولم يجد شيئا.. كانت المعركة قد انفضت ولم يبق منها سوى بقع متناثرة من الدماء فوق الأرض السوداء.

وتلفت حوله يبحث عن أى واحد منهم.. عن أى إنجليزى.. وكان الطريق خاليا منهم..
وهدأت رعشته..

وانفرجت أصابعه عن المسدس المختفى فى جيب سترته.. ثم تذكر شيئا.. تذكر أنه لم يدفع أجرة السيارة.. والتفت إلى السائق فإذا به ينظر إليه نفس النظرة.. نظرة الفيلسوف.. وبين شفطيه نفس الابتسامة.. ابتسامة حانية فيها طيبة وفيها يأس!
وأخذ يدخل كفه فى جيب، ويخرجها من جيب، باحثا عن النقود فلم يجد.. لم يكن معه سوى خمسة قروش.. وكان يعلم أن ليس معه سوى هذه الخمسة قروش، ولكنه فى خلال ثورته نسى..
وقال السائق وهو يرى ارتباكك:

- معلش يا سيدنا لافندى.. خللى عنك.. ولا يكون عندك هم..
الجماعة يدفعوا بذلك!
وقال فى دهشة:

- الجماعة مين؟

قال السائق وهو يضحك:

- جوى.. هو فيه جماعة عندنا غيرهم.. سلامو عليكم!
وانطلقت السيارة.. كأنها تشارك سائقها فى قهقهته..
وسار على قدميه، والهواء البارد يضمّد جراح وجهه.. سار حتى بيته فى المنيرة.. وكان يفكر.. واكتشف أثناء تفكيره أشياء جديدة.. خطيرة.. اكتشف أن دوره لا يمكن أن يكون مقصورا على تنبير المظاهرات الوطنية والاشتراك فيها..
لماذا يقذف البوليس بالطوب.. ولماذا يحطم الفوانيس ويحرق عربات الترام؟!

لماذا؟

لأنه يؤمن بحق وطنه فى الحرية..
والدستور وإلغاء المعاهدة، ورفع الأحكام العرفية.. كل هذه
مطالب تهدف إلى تحقيق الحرية..
ومن الذى اغتصب حريته .. حرية وطنه ؟!
ليس البوليس، ولا شركة النور ولا شركة الترام، ولا زعماء
الأحزاب!

إنهم الإنجليز!
إذن لماذا لا يضرب الإنجليز مباشرة..لماذا لا يوجه المعركة إليهم،
بدل أن يوجهها إلى البوليس؟
وكان هذا هو بدء تفتق وعيه السياسى..
وكان هذا اليوم، هو اليوم الذى اتجه فيه تفكيره إلى تكوين
جمعية سرية لأغتيال الجنود الإنجليز!
وقضى أياما كثيرة مترددا..
إنه ليس قاتلا.. لا يريد أن يقتل
ولكنه لن يقتل.. إنه يحارب.. حربا شريفة.. هم يقابلونه
بأساطيلهم ومدافعهم، وألوف من جنودهم.. وهو سيقابلهم وحده،
ومسدسه الصغير!

وقضى ليلة مفتح العينين.. لم يكن يشعر بجراحه ولا بالكدمات
التي تغطى وجهه، كأنها آثار أقدام ثقيلة داست فوقه. وإنما كان
ينظر فى العالم الجديد الذى تفتح أمامه.. عالم ملئ بالجثث
والدماء.. جثث الإنجليز ودماء الإنجليز.. وجثة الإنجليزى الذى
ضربه على وجهه وشهر المطواة فوق رأسه!
ولم يكن هذا العالم يخيفه أو يزعجه.. كان ينظر إليه فاحصا
مدققا وفى عينيه عزم وتصميم..
وخرج فى اليوم التالى ومسدسه معه.. لم تعد «عزيزة» تفارقه
منذ ذلك الحين.. أصبحت دائما فى جيبه..
ويدأ يدرس خطته.. عرف جميع الطرق المتطرفة التى تؤدى إلى
معسكرات الإنجليز.. العباسية.. المعادى.. الماظة.. طريق

الاسكندرية.. وعرف موعد عودة الجنود إلى ثكناتهم وعرف أن التعليمات تحتم عليهم ألا يخرجوا إلى القاهرة فرادى.. دائما في جماعات.. وعرف الأسلحة التي يحملونها، عرف كل شيء وتجمعت لديه كل المعلومات التي يحتاج إليها.. وأختار مكان المعركة الأولى.. في مصر الجديدة، عند نهاية خط الترام.

وعندما بدأ يضع خطة التنفيذ، اكتشف أنه لا يستطيع أن يقوم بها وحده.. إنه في حاجة - على الأقل - إلى شريك يملك سيارة، ليهرب فيها بعد أن يطلق رصاصته..

وبدأ يبحث عن الشريك الأول.. واختار نفس الصديق الذي أهده المسدس.. كان أبوه يملك سيارة، وكان شابا نظيفا صادقا في عواطفه الوطنية، وكان سهل الانقياد له.. ولكنه لم يعرض عليه ابتداء فكرة اغتيال الإنجليز بل أخذ يتردد عليه كل يوم ويحدثه بأسلوبه الهادئ وكلماته القليلة عن الإنجليز.. عن جرائمهم وفظائعتهم.. إلى أن أوحى إليه بالفكرة فعرضها هو.. عرضها صديقه كأنها من أفكاره وصاح في حماس:

- لماذا لا نقتلهم؟!

وتعلق إبراهيم بهذه الصيحة، وبدأ يبحث مع صديقه خطة التنفيذ!

ومرت اسابيع طويلة قبل أن يحدد اليوم والساعة.. كان يحسب حساب كل شيء بدقة وحرص.. كأنه يخدع الموت! ووقفت سيارة في الساعة الثانية عشرة قبل منتصف الليل، عند نهاية خط ترام المأظلة.. كل شيء حولها هادئ، كأن الليل أصيب بالهلع فكتم أنفاسه..

ولم يتكلم.. مضت مدة طويلة دون أن يتكلم.. لقد اتفقا على الخطة.. واتفقا على أنه إذا قبض على إبراهيم أو سقط صريعا، سيفر الآخر بالسيارة وحده..

وجاء جنديان إنجليزيان.. سكارى.. ووضع إبراهيم يده على مقبض باب السيارة.. ونظر إلى صديقه نظرة حائرة كأنها نظرة

وداع.. وتردد قليلا، ولكنه وجد صديقه أكثر منه ترددا.. كانت شفتاه ترتعشان، وكان فى عينيه نظرة اختلط فيها الخوف بالرجاء، كأنه يتوسل إليه أن يعدل عن التنفيذ.

واستمد من ضعف صديقه قوة.. شد ظهره، وزم شفتيه، ثم ابتسم له ابتسامة صغيرة كأنه يشجعه ويطمئنه، ثم فتح الباب بسرعة ووقف منتصبا فى الطريق فى وجه الجنديين الإنجليزين، ويده قابضة على « عزيزة » داخل جيب سترته..

ومرة ثانية أحس بالتردد، وأحس أن تردده قد طال إنه لا يستطيع أن يخرج عزيزة من جيب سترته، كأنها فتاة تتمتع.. إنه لا يستطيع أن يضغط على الزناد.. لا يستطيع أن يقتل..

وأحس أن قلبه يختنق، وأن ركبتيه لم تعودا تحملانه، كأنه أصبح معلقا فى الهواء..

وكاد يعود إلى السيارة ويهرب.. يفر، ويعترف لعزيزة ولصديقه بضعفه..

ولكن..

فجأة هجم عليه الجنديان وقبضاتهما موجهة إلى صدره.. وفى لمح البصر خطا خطوة إلى الوراء ونزع عزيزة من جيبه.. وأطلقها..

وصرخت عزيزة صرخة مكتومة.. وأزت الرصاصة كآزير ناموسة.. وسقط جندي إنجليزى على الأرض قتيلًا..

وكان آخر ما رآه نظرة هلع تملأ وجه الجندي الآخر..

وقفز إلى السيارة، وقادها صاحبه بجنون كأنه يريد أن يشق الأرض ويختبئ فيها.. وعندما وصلا إلى المدينة هدا من سرعته.. وأصبح يقود السيارة كأنه يتنزه هو وصديقه، أو كأنهما يبحثان عن فتاة يلاحقانه.. هكذا كانت تقضى الخطوة!

ولم يتكلم.. لم يستطع أى منهما أن يتكلم.. حتى عندما وصلت السيارة إلى بيت إبراهيم ونزل منها لم يستطع أن يحيى زميله، ولم يستطع زميله أن يحييه.

وبات مفتح العينين.. وجثة القتل ماثلة أمامه.. ولكن هذه الجثة

لم تكن مدار تفكيره.. لم تكن تأثيره.. إنما كان يناقش نفسه: هل هو على حق؟

ودقات الساعة تطرق على رأسه كأنها تؤكد له: أنه على حق!!
وعندما فتح عينيه فى الصباح.. وأمسك بالجريدة بيد تكاد ترتعش.. لم يجد خبراً عن قتل الأمس.. لقد منعت الرقابة نشر الخبر حرصاً على هدوء الناس..
وكان هذه هى المرة الأولى..

وتوالى بعدها المرات.. وكبرت الجمعية.. أصبح عددها سبعة شبان وكبرت المسدسات.. استطاعوا أن يشتروا مسدسات أكبر.. وأصبح له مسدس كبير.. أكبر من حجم كفه.. «برتا».. وكان يحس وهو يقبض عليه أنه يخون «عزيزة».. ولكن ما ذنبه؟ إن عزيزة لا تريد أن تكبر معه.. تركته يكبر وحده.. إنها كالحب الأول.. يظل دائماً فى عمر الصبا..

وكان السبعة يذهبون كل أسبوع إلى الجبل ويتدربون على إطلاق مسدساتهم ثم يجتمعون لوضع خططهم.. كانوا كلهم يتكلمون كثيراً، ثم يلتفتون إليه ليقول الكلمة الأخيرة.. لم يكن أكبرهم فلم يكن قد تعدى العشرين من عمره، وبينهم من وصل إلى الثانية والعشرين، ولم يكن زعيمهم، فقد اتفق السبعة على أن لا يكون لهم زعيم، ولكن كانت هذه طبيعته.. أن يقول الكلمة الأخيرة.. ولم يتهوروا.. أو على الأقل لم يدعهم يتهورون.. كان يقول كلمته فى حرص شديد.. وكان يترك فترة طويلة من الزمن بين كل عملية وأخرى.. وفى خلال عامين لم تتم أكثر من ثمانى عمليات.. وتمت كلها بنجاح.. لم يستطع البوليس أن يعثر على أثر يتبعه. ولم تستطع الاجراءات الكثيرة التى وضعت لحماية الإنجليز أن تحول دون العملية التالية.. كان دائماً يجد منفذاً، ودائماً يجد خطة..

وأجمعوا، ووضعوا خطة العملية التاسعة..

وقبل التنفيذ بيوم واحد ألغى العملية..

ودهش زملاؤه.. ووصلت دهشتهم إلى حد الاحتجاج، ولم يجد

عذرا يقوله لهم إلا أنه غير مطمئن إلى الخطة..

ولم يكن هذا عذره..

كانت قد مرت به أسابيع وهو يحاسب نفسه ويراجعها..

ما جدوى هذه العمليات التي يقوم بها؟

إنه لا يستطيع أن يقضى على الجنود الانجليز كلهم.. إنهم آلاف.. والاغتيال قد ينقصهم واحدا أو اثنين أو عشرة أو مائة.. ولكنهم لن يخرجوا من مصر.. سيظلون دائما على قلبها..

ثم إن هذه «العمليات» ليس لها صدق بين الناس بعد أن منعت الرقابة نشر أنبائها.. أنهم لا يحسون بها.. لا تثيرهم ولا تحمسهم ولا تجمعهم في عمل واحد.. إنها تبدو كأنها هواية شخصية.. وهو لا يهوى القتل.. إنه يريد أن يؤدي عملا وطنيا إيجابيا يثير الناس، وينبهم، ويكتلهم، ويفتح أبواب معركة يخوضونها جميعا..

كيف استطاع الإنجليز أن يضغطوا على الناس كل هذا الضغط.. وأن يتمكنوا من قلب مصر إلى حد لم يعد يجدي معه قتل أفراد من جنودهم؟!

ليس الجنود الانجليز هم الذين يفرضون الرقابة.. وليسوا هم الذين يتولون تنفيذ الأحكام العرفية.. وليسوا هم الذين يجمعون الوطنيين ويغلقون عليهم أبواب المعتقلات.. إنها سياسة متفكك عليها.. بل سياسة يفرضونها.. ومن الذين يقومون بتطبيق هذه السياسة.. سياسة حماية الاحتلال البريطاني؟!

إنهم العملاء.. الخونة!

وبدا يشعر برغبة!

إنه يعلم إلى أين يقوده تفكيره.. ويعلم أنه عندما يتمكن منه هذا التفكير، فلن يستطيع أن يقاومه، وسيدفعه إلى القتل.. وسيقتل هذه المرة مصريا.. أو مصريين.. وقد حرص منذ وقع في يده أول مسدس، ألا يصوبه إلى صدر مصري.. لم يخرج به في مظاهرة من المظاهرات.. تحمل الكثير من عصي رجال البوليس ومطارتهم، ولم يفكر مرة واحدة في استعمال مسدسه.. لم يكن يستطيع أن يرفع مسدسه في وجه مصري!

ولكنه لا يفكر الآن فى رجال البوليس.
إنه يفكر فى فئة أخرى.. فى العملاء.. الخونة.. إن رجال
البوليس شرفاء، إنهم أداة لتنفيذ سياسة لا ذنب لهم فيها ولكن
هؤلاء العملاء.. الخونة.. إن عليهم الذنب كله.. ولو استطاع أن
يقضى عليهم، لما وجد الانجليز من ينفذ سياستهم.
ولن يستطيعوا هذه المرة إخفاء الخبر.. إن مقتل عميل كبير
لا يمكن أن يخفى.. وسيثور الشعب فرحا لمصرعه.. وسيخاف بقية
العملاء.. و..

وقضى أسابيع أخرى يتعذب بفكرته، ومنطقه الجديد يوقظه من
نومه، ويلح على رأسه..
ولكن كيف يتأكد من أن هذا أو ذاك عميل للإنجليز، خائن
لمصر!

هناك واحد أجمع الناس كلهم على خيانتته.. هو نفسه يتباهى
بأنه عميل.. وعقاب الخيانة القتل.. لقد حكم الناس بخيانتته، وبقي
أن ينفذ الحكم..
وهو الذى سببولى التنفيذ..

وكعادته بدأ يسوق أفكاره إلى زملائه، ويوجههم إليها، ويدعهم
يسبقونه إلى ما يريده.. حتى قرروا أن يحولوا نشاطهم إلى
العملاء.. واقتنعوا أنهم لن يتخلصوا من الإنجليز إلا إذا تخلصوا
من عملائهم أولا..
ووضعت الخطة..

خطة اغتيال عبدالرحيم باشا شكرى.. رجل الانجليز فى مصر!
وتم كل شيء كما رسمه على الورق ، وكأنه إله صغير يسيطر
على القدر .

وأطلق رصاصته، التى لا تخيب.. وأطلق بعدها رصاصتين كأنه
يطارد بها الروح الصاعدة فى طريقها إلى الجحيم.. وجرى نحو
السيارة التى تنتظره.. وكان المفروض أن تتحرك قبل أن يصل
إليها، وأن يتعلق بها ثم تنطلق به.. ولكن السيارة لم تتحرك.. شيء
أصابها.. وهو يسمع من وائه صياحا وصراخا وأقداما تهزول..

وصاحبه يضغط على مفتاح السيارة فتزفر أنينا كشهقات الموت،
دون أن تتحرك..

واجتاز السيارة وأخذ يعدو بكل ما فى ساقيه من قوة، وبكل
ما فى صدره من أنفاس.. كان يعدو بلا تفكير.. لا يدرى إلى أين..
ولكنه يعدو.. والصياح والصراخ يعدوان وراءه.. وسمع صفارات
رجال البوليس.. وسمع من يهتف «حرامى.. حرامى».. والناس
تتكاثر وراءه.. كلهم يعدون خلفه.. ولا يدرون لماذا يعدون.. بعضهم
يعتقد أنه فعلا «حرامى»!

لماذا لا يطلق مسدسه عليهم..
إن رصاصة واحدة كافية لتشتيتهم.. لو سقط منهم قتيل واحد
لفر الباقون!!

وقبض على مسدسه.. وأدار رأسه إلى الخلف، وهو لا يزال
يعدو..

ولكنه لا يستطيع..

إنه ليس قاتلا..

إن هؤلاء الناس أبرياء.. إنهم ليسوا خونة.. وليسوا عملاء
للإنجليز.. ولن يقتل منهم أحدا حتى لو قتلوه!

ولكنهم يقتربون.. وأقواج جديدة تنضم إليهم، وتعدو معهم،
وقد بدأت أنفاسه تتخلى عنه.. وبدأت ساقاه تتصلبان.. وبدأ يشعر
بجفاف حاد فى حلقه كان فيه سكيئا.. وبيست شفاه كأنهما
استحالتا إلى قطعتين من خشب.

وفجأة.. توقف عن العدو..

ولحق به الناس.. وتكاثر الأيدي فوق كتفيه!!

وملا صدره بكل ما بقى من أنفاسه ثم استدار لهم.. وأرأوا
وجهه.. وجها خاليا إلا من تعبير واحد لا يتغير.. تعبير مريح هادئ
يجذبك إليه ويسلب منك قلبك وعقلك.. والذين لم ينظروا إلى عينيه
لم يروا مدى ما كان يعانيه من حيرة وجزع وخوف.
وتساقطت الأيدي من فوق كتفيه كأن الناس ندموا لأنهم
أمسكوا به.. ولم تبق سوى كف رجل البوليس ممسكة به..

وساروا به إلى حيث سقطت جثة الخائن والناس من حوله..
وأوقفوه أمامها إلى أن يأتى الرؤساء ورجال النيابة..
ولم ينظر إلى الجثة.. لم يستطع.. إنه يستطيع أن يواجه الخونة
وهم أحياء ولكنه لا يستطيع أن ينظر إلى جثثهم..
وسمع واحدا من الناس يهمس وهو ينظر فى وجه الخائن
المقتول:

.. يستاهل!!

وارتفعت إلى شفتيه ابتسامة ضعيفة.. كأنه سمع حكما ببراءته..
حكما أصدره الناس..

وبدأ التحقيق فى نفس الليلة.. واستمر شهورا عديدة، قبض
خلالها على كل أعضاء جمعياته، ولم يكن هو الذى أرشد إليهم،
ولكنها نمرة السيارة التى ضبطت هى التى دلت عليهم..

وضجت مصر كلها من حوله.. وأصبح اسمه على كل لسان،
وصورته على الصفحة الأولى من كل جريدة.. وتطوع كثير من
المحاميين للدفاع عنه. بعضهم جاء عن إيمان بوطنيته، وبعضهم جاء
ليستغل القضية فى نشر اسمه والدعاية لنفسه. وجاءته خطابات
كثيرة فى سجنه.. بنات وشبان يكتبون له ويباركون اليد التى
أطلقت الرصاص.. وناس لا يعرفهم يرسلون له فى السجن هدايا
من علب السجائر والفاكهة.. وأمه تبكى ثم تجفف دموعها وترفع
رأسها.. وأبوه صامت كأن ابنه قد استشهد ودخل الجنة! وعرف
من خلال هذه الضجة أنه قد أصبح بطلا..

لم يحس بالبطولة فى نفسه.. إنه لم يتغير، لا يزال يعتقد أن
تصرفاته كانت طبيعية ليس فيها شذوذ.. الناس هم الذين يعتبرونه
بطلا..

ولكن ماذا يجديه أن يعتبره الناس بطلا؟

إنه سيموت!!

سيعلق فى حبل المشنقة، وسام البطولة معلق على صدره..

وهو لا يريد أن يموت.. لا يريد أن يشنق.. يريد أن يعيش.. إنه

يُحس أن الحياة لا تريد أن تفارقه.. إن دمائه أحر من أن تجف،
وقلبه أقوى من أن يتوقف..

وبدا يفكر في الهرب..

لم يعد ينام.. ولا يأكل.. ولم يعد يهتم بسير التحقيق معه.. لم
يعد في رأسه ولا في نهاره وليله سوى فكرة واحدة.. الهرب.

وتعمد أن يجليل التحقيق.. كان يخرج للمحقق كل يوم باعتراف
جديد ويكسب وقتاً يستزيد فيه من التفكير في الهرب..

وقرر أنه لن يستطيع الهرب من داخل السجن..

خير طريق للهرب أن ينتقل إلى مستشفى القصر العيني، كما
انتقل غيره من المسجونين السياسيين..

وبدا يتمارض..

وبحث في نفسه عن علة قديمة.. وأدعى أنه يصاب بأزمات في
الكلية..

ونشرت الصحف أنباء مرضه.. وتتبعها الرأي العام، وبدأ يتهم
الحكومة بإساءة معاملته.. وأرسلت له الحكومة طبيب السجن،
وأرسل له أهله طبيباً خاصاً.. وقرر الاثنان ضرورة نقله إلى
مستشفى القصر العيني.. وربما اتخذ الاثنان هذا القرار قبل أن
يفحصاه..

ونقل إلى القصر العيني بعد أن انتهى التحقيق وبدأت النيابة
تعد تقريرها.. ووضع في غرفة خاصة.. وعينت له حراسة.. جنديان
يقفان على بابه، وضابط اتخذ له مكتباً في الغرفة المواجهة لغرفته..
كان ذلك في أول شهر رمضان..

ومنذ اليوم الأول بدأ في تنفيذ خطته..

بدأ يعود حراسه على أن يروه كل مساء في الساعة الخامسة
مساء وهو يرتدي ثيابه.. القميص والبذلة والحذاء.. ولا يخلعهما
إلا قبل أن ينام في الساعة الحادية عشرة..

وبدا يكسب صداقة الضابط..

كان الضابط شاباً لا يقل وطنية عن سجينه وإن اختلف في
واجبه.. وكان يحكم مهمته سجيناً مع السجن وفي حاجة إلى من

يتحدث إليه ويقتل معه الوقت.. ووجد فى سجينه إنسانا مثقفا دمثا
حلو الحديث، رزين الفكر رغم قلة كلامه..
ووقع الضابط تحت سيطرة الوجه المريح الهادئ الذى يجذبك
إليه ويسلب قلبك وعقلك..

ثم بدأ يكسب ثقة الجنديين أيضا.. كان يعاملهما فى احترام..
احترام لهما واحتراما لنفسه.. وكان يغدق عليهما بكل ما يصله
نقود وطعام وسجائر.

وبدأ يخرج من غرفته ويجلس فى غرفة الضابط..
وبدأ بعد أيام يخرج من غرفته - وهو مرتد ثيابه - ويذهب
ليجلس فى غرفة الأطباء. ثم يعود من تلقاء نفسه إلى سجنه..
ثم بدأ يغيب عن حجرته طويلا.. ويدع الشك يتسرب إلى نفس
حارسه، وقبل أن ينقلب الشك إلى يقين يعود إلى غرفته، ويلمح
علامات الراحة والاطمئنان على وجه الضابط والجنديين.
وكان يطيل مدة غيابه يوما بعد يوم.. ربع ساعة، ثم نصف
ساعة، ثم ساعة، ثم ساعتين.. ثم يعود بعدهما إلى غرفته..
وفى خلال هذه الأيام كان أحد محاميه الشبان قد هرب إليه هذا
المسدس الصغير الذى أخفاه فى مرتبة سريره..

إلى أن تأكد أن الضابط والجنديين قد أطمأنوا إليه، وأنهم
اقتنعوا بأنه لا يفكر فى الهرب.. وزاد فى اطمئنانهم أنهم أحبه..
وحدد يوم التنفيذ.. سيخرج ولن يعود.. ولن يعلن الضابط عن
هربه لرؤسائه إلا بعد مضى ثلاث ساعات على الأقل، يكون خلالها
قد وصل إلى..
إلى أين؟!

لقد أجهد ذهنه فى تحديد المكان الذى يلجأ إليه عقب هربه
مباشرة.. إنه فى حاجة إلى قضاء بضعة أيام فى القاهرة إلى حين
يستطيع أن يتصل بأصدقائه ليديروا له خطة خروجه من مصر..
أيام قد تمتد إلى أسبوع أو أسبوعين، فأين يقضى هذه المدة؟!
إنه لن يستطيع أن يلجأ إلى بيته، أو إلى أحد أصدقائه

فالبوليس سيبحث عنه هناك، ولن يستطيع أن يذهب إلى أحد
الفنادق.. مستحيل..

ومن خلال تفكيره، تذكر محيي..
محيي الدين مصطفى أحمد زاهر.. كما يصمم على أن يذكر
اسمه دائماً..

وابتسم وهو يتذكر محيي.. إنه طالب معه في كلية الحقوق. في
السنة الرابعة.. ليس له قيمة بين الطلبة إلا أنه كان دائماً أول دفعته
في ترتيب النجاح.. وفيه كل ما في أوائل الطلبة.. الانطواء.. واليعد
عن الاشتغال بالسياسة.. والإيمان بأن المظاهرات مضيعة للوقت..
والخوف الذي يبدو أحياناً عجزاً..

وكان محيي يبدو أكثر عجزاً من غيره من أوائل الطلبة،
وخصوصاً كلما وقعت عيناه على إبراهيم.. كان ينظر إليه كأنه
يقف بين يدي الله.. يرتعش وتقف الكلمات في حلقه.. كان ينظر إليه
كأنه شيء كبير ضخيم لا يستطيع أبداً أن يكون مثله.

إن محيي خير من يستطيع أن يختبئ عنده.. لن يخطر على بال
البوليس أبداً أن مثل هذا الطالب يمكن أن يلجأ إليه قاتل هارب..

وابتسم إبراهيم مرة ثانية، وهو يتخيل محيي عندما يلتقي به..
تخيل وجهه المستدير.. وأنفه المستدير.. وفمه المستدير.. وعينييه
المستديرتين.. وفوقهما نظارة أمريكاني حلقتهما مستديرتان. إن كل
شيء فيه مستدير حتى جسده القصير لو امتلأ قليلاً لأصبح
مستديراً..

ولكن..

هل من العدل أن يفرض نفسه على زميله محيي؟
إنه مضطرب.. ولو رفض محيي إيواؤه فلن يفرض نفسه عليه..
ولكن محيي لن يرفض.. إنه يعرف هذا النوع من الطلبة.. إنه نوع
عاجز عن تجسيم عواطفه في عمل إيجابي.. قد يحب ولكنه
لا يستطيع أن يعبر عن حبه، أو يقنع به الفتاة التي يحبها.. وقد
يكون وطنياً ولكنه لا يستطيع أن يطلق وطنيته أو يندفع وراءها..
إن هذا النوع لا يستطيع أن يكون بطلاً، ولكنه لا يرفض أن يساهم

فى بطولة، إذا ما اضطر للمساهمة فيها..
ومحىى إنسان يزخر قلبه بالوطنية، وإن كانت وطنية جافة ليس
لها صدئ فى تصرفاته..
ولكن ماذا يحدث لو رفض محىى إيواءه.. لو أنه كان مخدوعا
فى تقدير وطنيته، أو لو تدخل أبوه وحال دون دخوله البيت..
لا شئ..
سيبحث عن مكان آخر..
وهو لن يموت مرتين!!



وسمع نقرا على باب غرفته، ثم أطل أحد الجنديين برأسه، وهو
يقول.. وابتسامته الواسعة تختفى وراء شاربه كأنها تصل من وراء
كومة من القش:

- مش لازمك حاجة يا استاذ إبراهيم؟
واعتدل إبراهيم فى جلسته، قائلا:
- كتر خيرك يا باشاويش.. بس خد البطيخة دى تحلوا بيها بعد
القطار..

وأشار إبراهيم إلى بطيخة موضوعة فوق الدولا ب..
ودخل الباشاويش إلى الغرفة متجها إلى البطيخة وهو يقول:
- لا والله.. لا يمكن!!
وقام إبراهيم من على مقعده، كأنه يؤدى عملا روتينيا، واتجه
إلى الدولا ب وحمل البطيخة، وقال وهو يناولها للباشاويش:
- والله أنتم أحق بيها منى.. على الأقل أنتم صايمين.. خد يا
شيخ، مافيش تكليف!!

وتلقف الجندى البطيخة قائلا:
- يا سلام عليك يا سى إبراهيم.. كلك كرم!
وخرج بالبطيخة، وأغلق الباب وراءه.. وأخذ إبراهيم يروح
ويجئ فى الغرفة وهو يشعر بهواء بارد يملأ صدره..
إن هذا الهواء البارد لم يهب عليه من قبل عندما كان يقدم على
مغامراته الوطنية.. إنه أيامها لم يكن يهرب، كان يهجم.. وكان

الهجوم يحصر كل عقله وكل إحساسه في الخطة التى يضعها.. لم يكن يشعر بالتردد ولا باحتمال الفشل.. لم يكن يحس بشئ إطلاقاً، كان ينقلب إلى آلة دقيقة تدور حسب خطة وضعت لها.. ولكنه الآن.. وهو يهرب.. يحس بالهواد البارد.. ويخاف احتمال الفشل.. إن الهروب هو أقسى وأشق من الهجوم.. شئ لم يكن يعلمه.. وتنبه على طلقة مدفع الإفطار..

وانتظر حتى انتهى المؤذن من آان المغرب.. ثم فتح باب غرفته، والتقى بالجنديين وقد جلس كل منهما على مقعد وركن بندقيته على الحائط، وتوسطهما مقعد ثالث وضعاً عليه طعام افطارهما، وصاح أحد الجنديين بمجرد أن رآه:

- أفضّل يا سى إبراهيم بيه!

وقال إبراهيم، وهو يضغط على كلماته كأنه يخشى أن تفر منه وتكشف عن نيّاته:

- عشت.. أما أروح أدور على واحد من الدكاترة يكون فاطر زى!!

ثم اتجه إلى الغرفة التى يجلس فيها الضابط وكان هو الآخر يتناول إفطاره، وصاح فى لهجة حلوة بريئة، فيها من الحلاوة والبراءة أكثر من اللازم.. صاح وهو واقف على بابها:

- بالهنا والشفّا!

وصاح الضابط:

- تعالى يا إبراهيم.. تعالى أقعد معاً!

ووضع إبراهيم ضحكة بين شفتيه وقال:

- لا.. أنا ما أقعدش مع صايمين زى حضرتك!!

وانحرف عن باب الغرفة، وسار فى الممر الطويل.. كان يسير فى ببطء.. ولكنه كان لا يريد أن يكون بطيئاً أكثر مما تعود فى مشيته ولا أن يكون سريعاً أكثر مما تعود.. فجاءت خطواته بعضها بطئاً وبعضها سريعاً..

وانتهى من الممر الطويل.. وقبل أن يصل إلى السلم.. فتح غرفة لم يكن فيها أحد، ونزع من فوق المشجب معطفاً أبيض مما يرتديه

الاطباء.. وخرج وأغلق الباب وراءه ثم نزل السلم، وقبل أن يصل إلى نهايته ارتدى المعطف.. وسار فى ممر طويل آخر.. لم يكن هناك أحد.. كلهم مشغولون فى تناول طعام الإفطار..
وقل أن يصل إلى الباب المؤدى إلى الفناء.. لمح طبيباً واقفاً.. طبيياً لا يعرفه.. وتردد.. فكر فى أن يخلع المعطف ويعود إلى غرفته.. واستدار إليه الطبيب قبل أن يخلع المعطف.. ونظر فى وجهه.. وخيل إليه أنه عرفه.. ولكن الطبيب عاد واستدار إلى الناحية الأخرى، وهو يتنسم ابتسامة تبدو فى عينيه ولا تبدو على شفثيه..

وعدل إبراهيم عن خلع معطفه.. وتقدم، وحاذى الطبيب.. ثم جاوره.. واعتقد أنه سيسمع صيحة.. صيحة الطبيب وهو ينهب إلى هربه.. ولكنه لم يسمع شيئاً.. واستمر فى طريقه..

سار فى الفناء الخارجى.. وجاوره دون أن يحدث شئ.. وعندما وصل إلى الشارع خلع المعطف.. وسار فى نفس خطواته التى تسرع حيناً وتبطئ حيناً.. إلى أن وصل إلى موقف سيارات الأجرة، وألقى نفسه فى إحداها، وقال للسائق فى صوت تعمد أن يكون هادئاً:

— ميدان سليمان باشا يا أوسطى!!

ونظر إليه السائق، ولم يعرفه..

لم يكن متنكراً.. ولم يكن يخفى وجهه.. كان يعتمد على أن أحداً لا يعلم بهربه ولا ينتظر أن يلتقى به هارباً، وكان يؤمن بالنظرية التى تقول «إن خير طريقة للتكر، هى ألا تتنكر».. لو أنه وضع على عينيه نظارات سوداء وأطلق شاربه، مثلاً.. لأصبح منظره مريباً، ودقق فيه الناس، وربما عرفوه.

ونزل من السيارة فى ميدان سليمان باشا.. ثم انتظر قليلاً حتى ابتعدت عنه السيارة التى نزل منها، وسار على قدميه حتى شارع معروف، وهناك ركب سيارة أخرى، وقال للسائق:

— الجيزة يا أوسطى..

ونظر إليه السائق ولم يعرفه أيضا..
وقبل أن يصل إلى ميدان الجيزة، أوقف السائق عند باب إحدى
العمارات.. عمارة لم يجد لها بوابا.. ثم انتظر قليلا.. وخرج من
العمارة، وسار على قدميه، حتى وصل إلى شارع همذان ووقف
أمام باب بيت من ثلاثة أدوار.. إنه يعرف البيت. لقد جاء إلى محيى
مرة فى العام الماضى ليقترض منه مذكراته.. وصعد السلم فى
خطى تكاد تكون ثابتة، وضغط على جرس الباب وجذب من صدره
نفسا طويلا واستعاد فى رأسه الكلمات التى أعدها ليقولها لمحيى
عندما يفتح له الباب..

وفتح الباب وبرزت منه فتاة..
ووقفت الكلمات فوق شفثيه قبل أن ينطق بها.. واتسعت عيناه
كأنه مشدوه.. وظل يبخلق فيها صمامتا كأنه أخرس.. ولم يكن
يرى فيها شيئا.. لم ير إلا أنها فتاة..
ولم ير شعرها الأسود الناعم الذى يتدلى خلف ظهرها فى
ضفيرة كأنها جدلتها من أطراف الليل..
ولم ير شفثيها البريئتين.. لم تدنسهما أصباغ ولا قبل، بل
خافت عليهما ابتسامتهما فتعلقت بينهما دون أن تمسهما..
ولم ير عينيها.. سود، فيهما وحشة، وفيهما سر، وفيهما رهبة
وفيهما ذكاء ونشاط وفرحة.. وهناك فى أعماقهما نور يدلك إلى
الطريق..

ولم ير وجنتيها.. مكتنزتان، مشدودتان، مصهورتان كأنها
ورثتهما عن جدود من الهنود الحمر، تتراقص فوقهما غمازتان
كأنما تزغردان فى فرح لا ينتهى..
ولم ير قوامها.. قوام السادسة عشرة وكان ستة عشر فنانا
اشتركوا فى رسمه..
لم ير شيئا منها.. كل ما رآه أنها فتاة. بنت.. وقد حسب حساب
كل شئ فى خطته إلا البنات.. لقد عاش طول حياته وهو لا يحسب
حساب البنات!

وسمع صوتها رقيقا ناعما كأنها توقظه برفق من ذهوله:
- مين يا أفندم!!
ونظر إليها، ثم عاد وخفض عينيه سريعا، وقال فى صوت
أجش:
- محيى موجود، من فضلك؟
وعادت تسأله.. برفق.. وهى تدقق فى وجهه هذه المرة:
.. نقول له مين؟
وكان ينوى أن يقول لها اسما غير اسمه.. اسما مستعارا..
فهكذا كانت تقضى خطته فى حالة التقائه بغريب، ولكنه وجد نفسه
يرفع رأسه إليها وفى عينيه نظرة يائسة، ويقول كأنه يزفر اسمه
من أعماقه:
- إبراهيم.. إبراهيم حمدى!!
واهتزت رموش الفتاة فوق عينيه، وأطبقت شفثيها وكأنها
تبتلع صرختها.. وأبتعدت عن الباب قليلا.. ثم قالت كأنها تكاد تبكى
فزعا:
- دقيقة واحدة.. أما أشوفه!
وقبل أن تغلق الباب.. تنبه إلى نفسه.. ووضع قدمه بين ضلفتى
الباب، وقال وهو ينظر إليها فى قوة كأنه يطالب بحق له:
- أقدر استنى جوه .. لو سمحتى؟
وتراجعت أمامه..
وبخل وأغلق الباب وراءه.. ووقف فى «الصالة الصغيرة» ينظر
إليها نفس النظرة القوية.. لم تكن نظرة قوية فحسب.. كان فيها
تحد.. وتعلقت بنظراته كأنها فراشة لا تستطيع أن تبتعد عن النار..
ثم نزعت نفسها من بين عينيه، ولختفت داخل الشقة..
وأراح عينيه من نظراته القوية المتحدية.. وبدأ كأنه مهموم
يائس.. كأنه يشعر بالفشل..
وهز رأسه كأنه يقول لنفسه: لماذا يلد الناس بنات!

كانت العائلة مجتمعة كعادتها عقب الإفطار ، فى حجرة « القُعاد » والراديو يلقي إليهم أغانيه .
 كان الأب فى جلبابه الأبيض الفضفاض ، وفوق رأسه الطاقية الخفيفة التى لا يخلعها إلا ليضع مكانها الطربوش .. وقد جلس على الأريكة « الاستامبوللى » ووضع ساقه تحته واتكأ على أحد مرفقيه ، وبين يديه جريدة « الاهرام » يطل فيها من وراء نظارته الذهبية ويعيد قراءة مقال سبق أن قرأه عقب عودته من الديوان ، وأمامه مائدة صغيرة عليها كوب شاي فارغ ، بقى فى قعره بعض الثقل الأسود .
 وكانت الأم الطيبة .. مكتنزة ، وبين شفيتها ابتسامة هادئة كأنها قطعة من فمها .. جالسة على الطرف الآخر من الأريكة وبجانبها « علبة الخياطة » وبين يديها مجموعة من الجوارب ترتق فيها .
 وكانت سامية جالسة على مقعد خيزران ، وأصابعها تتحرك بسرعة بين خيوط التريكو .. ليست جميلة كأختها الصغرى .. أو على الأقل ، لا تستطيع أن تلمح جمالها من النظرة الأولى .. إنه نوع من الجمال يكشف لك عن نفسه كلما نظرت له أكثر .
 وكان محيى جالسا على مقعد « أسبوطى » ، كبير ، حتى ليتسع لشخص آخر بجانبه .. وكان يقرأ فى كتاب ، ويرفع أصبعه بين الحين والحين ويضغط على قنطرة نظارته الأمريكانى ، دون أن يكون فى حاجة إلى الضغط عليها .. مجرد حركة تعودها .
 وكانوا كلهم صامتين .. صمتا هادئا مريحا ، كل منهم متفان فى هضم طعام إفطاره بعد صيام يوم طويل .. وكان معداتهم

تبتسم وهي تقوم بعملية الهضم وترسل ابتسامتها إلى شفاههم ليحمدوا بها الله .

وعندما سمعوا صوت جرس الباب ، لم يتحرك واحد منهم ولم يخرج عن صمته .. لم يرفع الأب عينيه عن الجريدة ، ولم ترفع الأم رأسها عن الجوارب التي ترتقها ، ولم تتوقف أصابع الابنة الكبرى بين خيوط التريكو ، ولم يقطع الابن قراءته فى الكتاب .. فقط تحركت نوال وألقت المجلة التي كانت فى يدها وقامت .. فهى تعلم أنها المكلفة بفتح الباب إذا دق الجرس باعتبارها صغرى البننتين ، ولأن الخادمة لا تزال مشغولة فى المطبخ بغسل الصحون. ولم يكن واحد من أفراد العائلة السعيدة ، ينتظر شيئا من وراء جرس الباب .. غاية ما كانوا ينتظرونه أن يكون الطارق هو الكواء ، أو يكون البواب يعيد الأطباق التي أرسلوا له فيها طعام إفطاره كعانتهم فى أيام رمضان .

وعادت إليهم نوال بعد أن فتحت الباب وأجابت الطارق .. ولم يتحرك أحد أيضا .. لم يرفع واحد منهم عينيه إليها .. إنما مالوا إليها بأذانهم منتظرين أن يسمعوا صوتها وهي تحدث أمها وتبلغها عن طرق الباب .

ولكنهم لم يسمعوا شيئا !
أحسوا بها واقفة بينهم ، لا تتكلم .. ورفعوا رؤوسهم إليها فى حركة واحدة ، كأن خيطا واحدا قد شدها .. ونظروا بعيون متسائلة، تساؤلا طبيعيا هادئا ، كأن كل ما حدث هو أنها نسيت أن تتكلم .

ولكنهم رأوا وجهها ممتقعا وشفتيها ترتعشان .. وانقلب التساؤل فى عيونهم إلى جزع ولهفة .
وقال الأب فى صوت غليظ كأنه يؤنبها :
- مين ؟ !

وأدارت عينيهما بينهم ، ثم ركزتهما فوق شقيقها محبى ، وقد زدادت شفتاهما ارتعاشا كأنها فقدت لسانها .
وعادت الأم تقول فى صوت حنون كأنها تتوسل :

- مين يا نوال اللي ضرب الجرس !
وقالت وهى ترتفع عينيها عن أخيها وتهيم بهما فى الفضاء :
- إبراهيم ...
وارتفع صوت الأب .. وقال فى حدة :
- ما تتكلمى كويس .. جراك إيه .. إبراهيم مين ؟!
وأدارت عينيها إلى أبيها وقالت فى صوت خفيف كأنها تشفق عليه:
- إبراهيم حمدى ..
وقفز محبى إلى مقدمة المقعد الكبير الذى يجلس عليه ، وصاح:
- بتقولى إيه .. إبراهيم حمدى ؟!
وعاد الأب يصرخ .
- إبراهيم حمدى مين .. ما تتكلمى ؟!
وقالت وهى تتنهد كأنها تلقى إليهم بكل ما فى صدرها :
- إبراهيم حمدى الللى قتل عبد الرحيم باشا شكرى !!
وتوقفت أصابع سامية بين خيوط التريكو .. وألقت يديها فى حجرها ، واتسعت عيناها وقد ملأتهما نظرات فزعة .
وارتفع صوت محبى رفيعا حادا :
- مش معقول . ده فى السجن !
وقال الأب وهو ينزل ساقه التى كان يضعها تحته ويعتدل فى جلسته ويثبت نظارته فوق عينيهِ :
- ما يمكن إبراهيم حمدى ثانى .. إيه عرفك ؟!
وقالت فى صوتها المتنهد :
- أنا عرفاه من صورته .
ونظرت الام إلى زوجها كأنها تستغيث به ، وقالت وهى تضع يدها على صدرها كأنها تمنع قلبها من أن يشقه :
- وده عايز إيه الجدد ده ؟!
وأجابتها نوال :
- بيسأل على محبى !!

ورقف محبى ، وقال مرتبكا حائرا وهو يتلفت حوله يبحث عن مكان يهرب منه :

- عايز منى إيه .. مش معقول .. ده عمره ما عاز منى حاجة !
ونظر إليه والده بعينين واسعتين كأنه يتهمه ، ثم عاد وأرخى عينيه عنه .. وأطرق مفكرا .

وساد الصمت .. كلهم ينظرون إلى الأب منتظرين كلمته .
وتكلم بعد فترة .. تكلم فى صوت هادىء كأنه يعرف ما يقول :
- أظن تروح تشوفه عايز إيه يا محبى !!

وعاد محبى يتلفت حوله وينظر فى وجوه أفراد عائلته واحدا بعد واحد ، كأنه يسألهم رأيهم .. ثم تحرك من وقفته ، وقبل أن يخرج من الغرفة ، قالت نوال وهى تلمس كتفه بإطراف أصابعها :
- آجى معاك يا محبى ..

وقال الأب فى حزم :

- لا .. خليكى انتى هنا ..

وخرج محبى وكلهم يتبعونه بعيون مشفقة كأنهم يودعونه إلى ميدان القتال ، أو كان أباه ألقى عليه عبثا لا يحتمله ، وسار وهو يشد قامته القصيرة ، ويحاول أن يتزن فى خطواته ، ويضغط على أعصابه ليبدو هادئا ، ويبدل فى ذلك مجهودا نفسيا كبيرا حتى يخنق دماءه فى عروقه فيزدرد وجهه ويبدو كقطعة النحاس المحمى ..



ووجد إبراهيم واقفا فى الصالة .. إنه كما تعود أن يراه فى الكلية .. الوجه الهادىء المريح الذى يجذبك إليه ويسلب منك قلبك وعقلك .. وكان يبتسم .. وكان فى ابتسامته اضطراب .
ومد إبراهيم يده فى لهفة كأنه يمدّها إلى منقذه .

ومد محبى يدا قصيرة مترددة وهو لا يتكلم .. فالتقط إبراهيم يده كأنه يجذبها منه ، وقال فى صوت خافت لا يخلو من حشجة ، وكأنه يهمس :

- أنا آسف يا محبى .. أنا عارف إننى أزعجتكم .. كل اللى

أرجوه أنك تسمع لى .. وبعدين تقرر اللى تشوفه .
وابتلع محيى ريقه كأنه يسترد روحه ، وأخذ ينظر إلى إبراهيم
كأنه ينظر إلى وهم أو إلى مارد انشقت عنه الأرض .. ثم قال وقد
بدأت صدمة المفاجأة تخف عنه :

.. اتفضل ..

وأشار إلى مقعد من القش موضوع فى الصالة .

وجلس إبراهيم ، وهو يقول :

.. أنا أكرر أسفى .. تأكد إننى مش حاضايك .

وجلس محيى على مقعد آخر .. وقال كأنه يبحث عن أى شىء
يقوله :

.. أنت فطرت يا أستاذ إبراهيم ؟

وابتسم إبراهيم ، ابتسامة مجاملة .. كان السؤال قطع عليه حبل
أفكاره .

.. أنا فاطر ..

ثم اعتدل فى جلسته ومال بوجهه ناحية محيى وقال فى لهجة
خطيرة :

.. اسمع يا محيى ... أنا هربت من مدة ثلاث أرباع ساعة بس ..
والبوليس حبيبتدى يدور على بعد ساعة على الأقل .. مش ممكن
قبل كده .. أنا عامل حسابى كويس .. وجيتك علشان استخبي
عندك .. واخترتك أنت بالذات لأنى عارف أن مالكش دعوة بالمسائل
السياسية ، وما حدش يخطر على باله أنه يدور على عندك .. وأنا
مش محتاج أقعد هنا كتير .. غايته أربع أو خمس أيام لغاية ما
أعرف اتصل بناس معينين وأنفذ بقية خطتى .. واللى عايز أعرفه
حالا دلوقت .. تقبل تخيبنى عندك ، ولا لا ؟

وكان محيى يستمع إليه بأنفاس مبهورة كأنه يستمع إلى قصة
خرافية مثيرة ، وهو يرفع إصبعه بين الحين والحين ويضغط على
قنطرة نظارته .

وعندما سكوت إبراهيم .. لم يرد عليه محيى .. إنما أبعد عينيه
عنه وظل صامتا فترة .

وعاد إبراهيم يسأل فى إلحاح :

- إيه رأيك ؟!

ورفع محبى إصبعه وضغط على قنطرة نظارته مرة أخرى ،
وقال فى صوت عميق كأنه كبير عشرة أعوام :

- والله ما أقدرش أقولك يا أستاذ إبراهيم .. أنت عارف إنى
مؤمن ببيك .. كل الناس مؤمنة ببيك ويوطنيتك .. كل واحد كان
يتمنى أنه يقوم بالعمل اللى قمت بيه ، لو يقدر عليه .. لكن أنا مش
لوحدى فى البيت .. أنا قاعد مع عيلتى زى ما أنت عارف .. ولازم
اسأل والدى قبل ما أقولك رأيى ..

وقال إبراهيم كأنه يتعجله :

- اسأله .. ولو ما رضيتش ، تاكد إنى حاسيب البيت حالا !

وقام محبى واقفا ، وهو يقول :

- تسمع .. دقيقة واحدة !

وقال إبراهيم كأنه يستوقفه :

- أنتم عندكم تليفون هنا ؟!

وأجاب محبى فى دهشة :

- لا ..

وعاد إبراهيم يقول فى لهجة حازمة لا تخلو من قوة :

- أنا واثق منك يا محبى .. إنما أنت عارف إنى فى ظروف
حرجة .. ممكن اطلب منك أن ماحدث ينزل من البيت طول ما أنا
هنا!!

وقال محبى كأنه يلومه :

- حاضر .

وعاد إبراهيم يقول قبل أن يستدير له محبى :

- وعلشان أبقي صريح معاك .. أحب أقولك إنى معايا مسدس !
ونظر إليه محبى برهة كأنه لا يفهم ما يعنيه ، ثم قال وكأنه
يتكلم بلا وعى :

- تحب اعملك قهوة ؟!

وقال إبراهيم كأنه يعتذر له :

- لو سمحت .. متشكر ..
واستدار محيى واتجه إلى داخل الشقة ، وهو يسير دون أن يرى شيئا .. لا يرى الجدران ولا المقاعد .. كل ما يراه هو صورة إبراهيم مجسمة فى رأسه ..



وكانت العائلة لا تزال مجمعة فى غرفة « القعاد » على الصمت كأنها أصيبت بنكبة أذهلتها .. لم يتكلم أحد منها ، ولم ينظر أحد منها إلى الآخر ، ولم يرتفع بينها إلا همهمات الأم وهى تقرا لنفسها آية الكرسي .

واستقبلوا محيى بعيون ملهوفة جاحظة تكاد تشد لسانه من فمه ، وبدأ على الأم بعض الارتياح لمجرد أن ابنها قد عاد إليها .. وتنحج الأب فى عصبية كأنه يعد نفسه لأمر هام .. وجذبت نوال ضفيريها إلى صدرها وأخذت تعبت بها كأنها تربت على قلبها حتى لا يبكى ولا يصرخ .. وظلت سامية معلقة العينين فى الفضاء .. واجمة .. كأن يدا سحرية مستها واحالتها إلى تمثال من الشمع .
واتجه محيى بعينيه إلى والده دون أن يلتفت إلى أحد غيره ، وأطرق برأسه برهة ، ثم رفعها وقال وهو يحاول أن يسيطر على لسانه حتى لا يخونه عن الكلام :

- هوه .. إبراهيم حمدى !!

وصمت قليلا .. فاستعجله الأب :

- وعازب إيه ؟

وقال فى ببطء كأنه يعد كلماته .

- هرب من السجن ، وجاى يستخبى عندنا .

وزاد اتساع عيون أفراد العائلة ، وصاحت نوال تقاطعه كأنها تتلطف إلى سماع قصة من قصص البطولة :

- هرب ؟ هرب إزاي !!

ونظر إليها والدها نظرة اسكتتها .. فمالت فى مقعدها كأنها تختبئ من هذه النظرة .. وقال الأب فى هدوء مفتعل :

- واشمعنى اختارنا احنا ؟

وقال محبى وهو يتنهد كأنه يتحسر :
- لأنى بعيد عن السياسة ، والبوليس مش ممكن يخطر على باله
أنه يدور عليه عندنا .
وسكت الأب برهة كأنه يفكر ، ثم قال :
- ما يمكن البوليس تتبعه ، وزمانه محاصر البيت !
وخبطت الأم على صدرها وهى تسمع كلام زوجها ، وقفزت
نوال وأملت من الشباك ثم صاحت ورأسها لا يزال خارج الشباك :
- مافيش حد ..
وقال محبى فى هدوء :
- هوه بيقول إن البوليس مش حبيبتدى يدور عليه إلا بعد ساعة
.. وعازب يعرف رأينا بسرعة .. إذا مارضينا نش نخبه حايبيب
البيت حالا..
وتقلص وجه الأب كأنه يشعر بالم لا يدري مصدره ، وظل
صامتا.
وتعجل محبى والده :
- إيه رأيك يا بابا ؟
وظل الأب صامتا ، وقد زاد تقلص وجهه حتى سقطت نظارته
الذهبية فوق أرنبه أنفه .
وقالت الأم كأنها تساعد زوجها فى تفكيره :
- يا كبدي عليه .. يا ترى أمه عاملة إيه دلوقت ؟
وقالت سامية ، وهى تحاول أن تحرك أصابعها من جديد بين
خيوط التريكو :
- الحقيقة .. يصعب على الكافر !
والأب لا يزال صامتا ..
وقالت نوال وكأنها تتابع فى خيالها فيلما سينمائيا من أفلام
رعاة القرة :
- إنما هرب إزاي ؟
وتنحى الأب كأنه يطلب من عائلته السكوت .. وقال كأنه على
أهبة أن يصدر حكما :

- الواقع إن .. إن ..
وكانما غير فكره ، فصرخ بغتة :
- العيال دول ما فيش حد قادر يلهمهم .. أنا مش فاهم ، بأى
حق يفرضوا أنفسهم على الناس بالشكل ده .. ده مش ..
ولم يتم كلامه ، والتفت فجأة إلى زوجته وقال فى صوت
مبهور :

- إيه رأيك يا تحية ؟!
ووضعت الأم أصبعها فوق خدها ، وقالت وهى تدارى عينيها
كأنها لا تريد أن تؤثر عليه بهما :
- أنا عارفه يا أخويا .. الرأى رأيك .. إنما هوه لا حرامى ولا
مجرم ، غيرشى انهم ضحكوا عليه بالسخامة اللى اسمها السياسة
وخلوه عمل اللى عمله .. إنما .. أصل احنا كمان مالناش دعوه !!
وانطلقت نوال بلا سبب :
- ماضحكوش عليه يا ماما .. و ..
وصرخت فيها أمها كأنها كانت تريد أن تصرخ فى أى إنسان :
- اسكتى انتى يا مسحوبة اللسان .
وقام الأب واقفا ، وهو يعدل الطاقية فوق رأسه ويتلمس
بأصابع قدمه مكان الشبشب ، ونظر إلى ولده قائلا فى لهجة
جديدة:

- أظن الأحسن أقابله بنفسى .. تعال ..
واتجه إلى الباب ، وقبل أن يصل إليه قال محيى وهو لم
يتحرك بعد من وقفته .. قال وكأنه يهمه أن يسمع كلامه كل أفراد
العائلة :

- إبراهيم بيقول مش عايز حد يخرج من البيت طول ما هو
موجود فيه .. وبيقول إن معاه مسدس !!
وتوقف الأب عند الباب وكأنه كرامته أهينت ..
وخبطت الأم على صدرها وقالت مذعورة :
- مسدس .. مابقاش ناقص إلا المسدسات تدخل بيتنا ..
وقالت نوال وعيناها تلمعان :

- مسدس بصحيح !!

وقالت سامية وهى لا ترفع رأسها عن خيوط التريكو :

- دى حكاية كبيرة .. دى مصيبة ووقعت علينا !

وتحرك الأب من جديد دون أن يعلق بشيء ، وخرج وابنه يتبعه.. وتتحنح - كعانتة - قبل أن يصل إلى « الصالة » .. وقام إبراهيم واقفا بمجرد أن رآه .. وظل لا يمد يده إليه كأنه يخشى إن مدها إليه أن يرفضها .. ولكن الأب مد يده إليه وهو يحاول أن يضع على شفتيه ابتسامة باهتة ، وصافحه إبراهيم فى احترام كبير ، وقال محيى يقدم والده :

- والدى ..

وكان إبراهيم يبدو مضطربا .. كان الانتظار قد أثعبه ، وكان يعلم أن الوقت يمر ، وأن كل دقيقة محسوبة عليه .. إنه لم يكن يضطرب هذا الاضطراب وهو فى انتظار أعدائه الذين يقتلهم .. ولكنه الآن يضطرب .. يخاف .. يحس أنه فى حاجة إلى حماية .. إنه ليس قويا يحتمى أعداؤه منه .. إنه ضعيف يطلب حماية الأصدقاء .. وهو يريد أن يهدأ .. يريد أن يرى والدته فيهدأ بين أحضانها .. أو يرى أباه ويهدأ إلى جواره ..

ورفع عينيه إلى الرجل الذى يصافحه .. وتمنى أن يكون هذا الرجل أباه ..

ثم قاوم اضطراب نفسه الذى لا يبدو على وجهه ، وقال فى كلمات يحاول أن يرتبها حتى لا تتعثر :

- أنا أسف يا أقنندم .. أسف جدا .. إنما أنا مضطرب .. ادينى ساعة واحدة بعد ما اخرج من هنا ، واعمل اللى أنت عايزه ..

وقال الأب وهو يدعى الهدوء :

- اتفضل يا ابنى .. اتفضل هنا !!

وسار أمامه ، وفتح بابا جانبيا يؤدى إلى غرفة « الضيوف » .. أثنى على الطراز العربى .. وآيات قرآنية فوق مساند المقاعد المكسوة بقماش عتيق مضى عليه سنين . وجلس الوالد .. وعاد يكرر :

- اتفضل يا ابني .. اتفضل !
وقبل أن يجلس إبراهيم ، عاد الأب يسأل :
- أنت فطرت ؟
وقال إبراهيم :
- متشكر .. ما كنتش باقدر أصوم فى السجن ..
ثم استطرده كأنه يعتذر عن عدم صيامه :
- أصلى انتقلت للمستشفى ..
وسادت فترة صمت قصيرة ، قال الأب بعدها :
- أقدر أسالك كام سؤال ؟
وقال إبراهيم وهو يضغط بيد على يد ، كأنه يريد أن يوقف
الدماء فى عروقه حتى لا يشعر بمرور الوقت :
- اتفضل ..
ونكس الأب رأسه وقال وهو ينظر إلى شبشبه :
- حد عارف إنك هربت ؟
وقال إبراهيم بسرعة :
- البوليس حيعرف بعد ساعة على الأقل ..
وصحح الأب السؤال :
- قصدى حد من أصدقائك ؟
وأجاب إبراهيم :
- فيه ثلاثة عارفين إننى حاهرب ، إنما ما يعرفوش حاهرب
أمتى.. كان تحديد ميعاد الهرب متروك لى .. حسب الظروف !
وعاد الأب يسأل :
- وحد منهم عارف أن يوم ما تهرب حاتيجى هنا ؟
وقال إبراهيم وهو يختصر فى الجواب :
- لا .. لأنى مش متأكد أنكم حتقبلونى عندكم .. مارضتتش
أصرح باسم محبى من غير لازمة .. إنما اتفقت معاهم إننى حاتصل
بيهم بمجرد أن استقر فى مكان ..
وابتسم الوالد كأنه يحبى شهامة إبراهيم ، وعاد يسأل وقد بدا
أكثر هدوءاً :

- ولو خرجت من هنا دلوقت حاتروح فين ؟
وقال إبراهيم وهو لا يزال يتكلم بلهجة سريعة ليشعر محدثه
بأهمية الوقت :
- ما اعرفش .. أظن إنى حاضطر أروح لواحد من الثلاثة دول ،
ومن هناك ندور على حطة تانية ..
وقال الأب فى حماس كأنه أشرك نفسه فى مؤامرة وطنية :
- لكن لازم البوليس عارف إن الثلاثة دول أصدقاءك ، وحاي دور
عليك عندهم !
وقال إبراهيم وهو يتنهد :
- فعلا .. إنما مضطر !!
وعاد الأب ينكس رأسه كأن حملا ثقيلا قد أسقطه من فوق
رقبته .. وسكت .. كأنه لن يتكلم أبدا .
واتسعت عينا إبراهيم كأنه نزع جفنيه عنهما ، وبدا فيهما قلق
عنيف .. واضطراب .. وتحفز .. كأنه ينتظر حكم القدر .
ولم يتكلم محيى .. أخذ ينقل عينيه بين أبيه وإبراهيم دون أن
تستقر عيناه على أحد منهما .. وهو يرفع يده أحيانا ويمسح بها
على شعره .. ثم ينزلها ويعبث بأزرار « بيجامته » ثم يرفعها مرة
أخرى ويضغط بأصبعه على قنطرة نظارته .. ويبتلع ريقه بين كل
لحظة وأخرى .. كأنه عطشان .. تائه .
ورفع الأب رأسه .. وركز عينيه على وجه إبراهيم .. وقال فى
لهجة أب غاضب على ولده :
- تعرف إنى لغاية دلوقت مش موافق على اللى عملته .. ده نوع
من الوطنية لا أقره .
واكفهر وجه إبراهيم وقفز إلى مقدمة مقعده كأنه يهم بالقيام ..
لم يعد وجهه الهادئ المريح يستطيع أن يخفى اضطرابه ..
وامتقع وجه محيى كأنه يرى فرخة تذبح ..
وعاد الأب يتكلم وقد بدا أكثر حزما :
- أنا مش موافق كمان على أنك كنت تيجى هنا .. احنا ناس
مالناش دعوة بالسياسة .. لما كنت فى سنك عمرى ما اشتغلت فى

السياسة .. عنمرى ما مشيت فى مظاهرة .. وما أظنشى إنى حاغير
حيايتى علشان خاطرك بعد ما كبرت وأصبحت مسئول عن عيلة .
وانتفض إبراهيم واقفا ..
ورفع الأب رأسه إليه وسكت عن كلامه ..
وتحرك إبراهيم فى بطء كأنه لم يفقد الأمل بعد.. وظل صامتا..
ثم خطا خطوتين نحو الباب وهو يقول :
- أنا أسف يا أفندم .. أسف جدا .
ولم يرد الأب ولم ينظر إليه ، إنما عاد وجهه يتقلب مرة أخرى
وكأنه فى هذه المرة يعانى ألما عنيفا .
وخطا إبراهيم خطوة ثالثة ..
وقبل أن يصل إلى الباب ... رفع الأب رأسه بغتة ، وقال فى
صوت عميق كأنه يستسلم إلى شىء أقوى منه .. إلى قوة تنطلق
من صدره ولا يستطيع مقاومتها بعقله :
- تعال يا ابنى .. تعال .. أقعد ، أقدر أسألك سؤال كمان ؟
وأجاب إبراهيم فى استسلام كأنه يكاد ييكنى :
- اتفضل ..
- أنت قتلت عبد الرحيم باشا .. ليه ؟
وقال إبراهيم كأنه لا يزال مصرا على جريمته مقتنعا بها :
- لأنه إنجليزى .. خدم الإنجليز .. كل الناس عارفه إنه خاين
وعميل للإنجليز .
وقال الأب :
- مش كنت تسيب الحكومة تعرف شغلها معاه ..
وقال إبراهيم وهو يحاول ألا يحتد :
- ما كانش فيه حكومة تقدر تكلمه .. كان أقوى من الحكومات
كلها .. كان هو الذى ببشيل حكومة ويحط حكومة .. فيه أحكام
كثير الحكومة ماتقدرش تصدرها ولا تنفذها .. لازم الناس هى
اللى تصدرها وتنفذها .. والناس كلها حكمت إن الراجل ده خاين ،
وأنا نفذت الحكم .
وسكت الأب قليلا ثم عاد يسأل :

- أنت منضم لحزب من الأحزاب ؟

- لا ..

- ولا للحزب الوطنى ؟

- لا ..

وسكت الأب .. سكت طويلا ..

ثم التفت إليه ابنه وقال كأنه كان قد نسى شيئا :

- أظن تقوم تنده لوالدتك وإخواتك ، علشان يتعرفوا بالاستاذ

إبراهيم ..

والتفت إبراهيم ومحى إليه فى دهشة وحيرة ، كأنهما لا

يفهمان .. ثم لمحا بين شفثيه ظل ابتسامة خافتة مسكينة ، كأنه

يحاول بها أن يساعدهما على الفهم ..

وفهم إبراهيم .. وحرك شفثيه كأنه يريد أن يتكلم ، ولكنه لم

يقل شيئا ، إنما عاد وجهه مريحا هادئا ، وزادت عليه ابتسامته

أكثر راحة وهدوءا كأنها تنهيدة زفرها قلبه بعد شقاء طويل ..

وقام محى واتجه إلى خارج الغرفة فى خطى سريعة جادة

وكأنه يقوم بأخطر عمل فى حياته .

وساد الصمت فى الغرفة ..

وتنحى الأب ..

وعاد وتنحى مرة أخرى ...

ثم قال دون أن ينظر إلى إبراهيم :

- وإزاي الوالد ؟

وقال إبراهيم وهو يعتدل فى جلسته ويتخذ وضعا أكثر أدبا :

- الحمد لله .. كويس يا أفندم

وقال الأب كأنه يحاول أن يتكلم فى أى موضوع يلهى به

نفسه:

- أظن هو فى الدرجة الرابعة دلوقت ..

- أظن كده ..

قال فى لهجة روتينية :

■ فى بيتنا رجل ■

- أنا لى ابن عم موظف فى وزارة الأشغال .. ودايما يمتدح والدك جدا ..

وسكت برهة ثم عاد يقول :

- يا ترى أنتم تقرّبوا لعبد العزيز بك حامد مدير القلم بتاعنا سمعت ان فيه صلة قرابة !

- أظن إنه صديق والدى ..

- ده كمان راجل كويس ..

- أيوه يا أقنندم ..

وعاد الصمت ، كأن الأب اكتشف أن كلامه ليس مناسباً ، وكأنه لم يجد كلاماً آخر يقوله ..

وقال إبراهيم بعد فترة ..

- أنا مش قادر أشكر حضرتك إزاي .. أنا كنت ..

وقاطعه الوالد بسرعة كأنه لا يريد أن يذكر نفسه بما فعله :

- مافيش لازمة .. أنت زى ابنى محبى .. كل ما هنالك إن دورك فى الحياة مختلف عن دوره .

وعاد محبى وجلس فى مقعده .. وخيم الصمت الثقيل .. كان كل من الثلاثة يبدو محرجاً مرتبكاً لا يدري ما يجب أن يقوله .. كان الأب يسدل جفنيه فوق عينيه فيبدو وجهه من خلف نظارته الذهبية كأن ليس له عينان .. كان يغيب فى تفكير عميق كأنه يحاول أن يقيس المستقبل .. ثم فجأة يرفع جفنيه وتبدو عيناه وهما تلمعان خلف نظارته كأنه يهم بأن يلقي خطاباً سياسياً يبين به رأيه فى وطنية الجيل الجديد .. ثم يكتشف أن الوقت ليس مناسباً لإلقاء الخطب السياسية .. فيطفى لمعة عينيه ويعود إلى التفكير العميق .

وكان محبى يبدو كأن فى رأسه ألف سؤال .. ولا يدري بأى سؤال يبدأ .. فإذا وجد سؤالاً يبدأ به رفع عينيه إلى إبراهيم .. ثم التفت بهما إلى والده .. ثم كأنه لا يجد الجرأة ليلقى سؤاله .. فيسكت ..

وكان إبراهيم فى جلسته المهذبة ، يفكر أحياناً فى خطته ثم يجد

نفسه يفكر فى العائلة التى أقحم عليها نفسه فيرفع عينيه وينظر إلى الوالد كأنه يعتذر له ، ثم ينظر إلى الابن كأنه يشجعه .
وأخيرا تزاحمت الأسئلة فى رأس محبى ، فانطلق واحد منها من بين شفثيه ، وكأنه انطلق رغم إرادته ، فخرج فى صوت رفيع مرتعش :

- إنما قدرت تهرب إزاي يا أستاذ إبراهيم ؟
وأجاب إبراهيم فى اختصار وهو يبتسم ابتسامة صغيرة متواضعة .. كأنه يجيب على سؤال بديهى :
- ولا حاجة .. كانوا سمحوا لى فى المستشفى إنى أتمشى شوية .. النهارده أتمشيت لغاية عندكم !!
وظهرت خيبة الأمل على وجه محبى .. كان ينتظر أن يسمع قصة مثيرة .. قصة شاب يتسلق الجدار العالى .. وينزلق فوق مواسير المياه بينما رصاص الجنود يطارده .. لم يكن ينتظر أن يكون الهرب من السجن بهذه البساطة التى يتحدث بها محبى !!



ودخلت الأم ووراءها البنتان .. لم يزد عليهما شىء ، إلا أن الأم بدلت ثوبها .. وسامية ونوال كل منهما لبست حذاءها .. حذاء بكعب متوسط الطول .

وقام إبراهيم واقفا .. والتقط يد الأم وانحنى يقبلها ويرفعها إلى جبينه .. كما تعود أن يقبل يد أمه .. وعندما التقت عيناه بوجهها الطيب الساذج المكتنز ، وابتسامتها التى تبدو كقطعة من فمها ، تمنى أن يلقي نفسه فوق صدرها .. ويستريح .. كما كان يفعل وهو طفل عندما يعود إلى أمه عقب يوم متعب قضاه فى شوارع المنيرة .

وضغط على أعصابه حتى يقاوم هذه العاطفة الضعيفة التى مرت به .. ثم مد يده يصافح كبرى البنتين ، وسمع صوت الوالد يقول :

- بنتى سامية ..

ثم مد يده إلى الصغرى ، وسمع صوت الوالد :

- نوال ..

ولم يرفع عينيه إلى سامية أو إلى نوال .. لم يرهما وهما تنظران إليه فى لمحات خاطفة ، كأنهما تنظران إلى مخلوق عجيب ليس من حقهما أن تنظرا إليه .

وأحس بحرج شديد ، بلغ حد الضيق .. ليست بنتا واحدة ، إنهما بنتان .. وهو لم يدخل فى حسابه البنات .. كيف يعيش فى بيت فيه بنات .. إنه لم يعيش أبدا فى بيت فيه بنات .. وأحس كأنه ينتهك عرضا .. كأنه يجرح شعور صديقه ووالد صديقه ..

وعاد يضغط على أعصابه حتى لا يبدو شىء مما فى نفسه .. وظل واقفا إلى أن سمع صوت الأم تقول :

- اقعد يا بنى .. اقعد يا حبيبى ..

وجلس ، والأم الطيبة لا تزال تتكلم فى أسلوبها الساذج :

- إزيك يا ضناى .. ازى صحتك ؟

وقال وهو منكس العينين :

- الحمد لله .. الله يسلمك !

وعادت تقول :

- وازاى الست والدتك .. يا ترى كنت بتشوفها ؟

قال وهو لا يزال ينظر إلى قدميه :

- سمحوا بالزيارة من مدة عشرة أيام .. صحتها كويسة ..

الحمد لله ..

قالت وهى تمصمص شفيتها :

- يا كبدى عليها .. ده زمان قلبها متشحطط عليك .. ما هو

ماحدث بيشيل الهم إلا الأم .. يا ترى هيه عارفة أنت فىن دلوقت؟!

قال فى صوت خافت وقد بدأ الحديث عن أمه يعصر قلبه :

- لا ..

وتنحج الأب كأنه يطلب من زوجته أن تسكت ، ثم قال فى

صوت رزين ؟

- الأستاذ إبراهيم حيقد معانا كام يوم .. طبعا من غير ماحد

يعرف ..

وسكت ..

وسكت معه الجميع كأن أحدا منهم لم يفاجأ بهذا القرار ..
ثم قالت الأم وهى تضع أصبعيها تحت ذقنها :

- طيب افرض ياخويا حد جالنا ؟!

وقالت سامية كأنها تحدث أمها وحدها :

- أحسن حاجة نقفل الباب علينا ونعمل نفسنا مسافرين !!

ورفع إبراهيم عينيه إليها بغتة كأنه صعب لهذه الفكرة ..
ورأها .. رأى هذا النوع من الجمال الذى يكشف لك عن نفسه كلما
نظرت إليه أكثر .. وكأنه أراد أن ينتهز الفرصة ويتعرف إلى باقى
وجوه العائلة .. فتسلل بعينه إلى نوال ، وما كاد يرفعهما إليها
حتى التقى بعينيها تمتصانه كله فخفض عينيه سريعا كأنه يخشى
أن يغرق فى عينيها ، وخفضت عينيها كأنها تفر منه .. ولم ير منها
شيئا .. لم ير إلا هاتين العينين .. سود .. فيهما وحشة ، وسر ،
وفيهما ذكاء ونشاط وفرحة ، وهناك فى أعماقهما نور يدلك إلى
الطريق ..

وسمع صوت محبى يرد على أخته :

- بآه ده اسمه كلام .. طيب وناكل ونشرب إزاي .. وبابا يروح

الديوان إزاي ؟!!

وقال الأب :

- على كل حال أنا حاتعمد إنى أخرج كل ليلة بعد الفطار ، ولما

بيجى حد تقولوا له إنى مش هنا !!

وقالت الأم وهى تشوح بيدها ، وتدير عينيها عن إبراهيم كأنها
تخشى أن تخرجه بكلامها ..

- وأنت ذنك إيه يا أخويا تدور فى السكك كل ليلة ؟!

وتكلم إبراهيم ، وانتبه الجميع إليه كأنه إله يتكلم :

- أظن يا أفندم أحسن طريقة أن كل حاجة تمشى طبيعى .. كل

واحد يعمل اللي كان بيعمله ، علشان ما نلفتش نظر حد ..

وقالت نوال كأنها تتم حديثه :

- ولو حد جه يبقى الأستاذ إبراهيم يستخبي فى أى حته !!

وابتسم إبراهيم دون أن يلتفت إليها كأن المفروض أن تعبر عن أفكاره ..

وقال الأب كأنه لا يستطيع أن يتخذ قرارا :

- أهو نبقى ساعتها نتصرف .. ورينا يستر ..

وصاحت نوال كأنها اكتشفت أمرا هاما :

- والبت سنية ؟!

وقالت الأم :

- مالها سنية كمان !

وقال محيي كأنه التقط بذكائه ما تقصده أخته :

- فعلا سنية مايصحش تعرف .. دى بنت صغيرة ولسانها

فالت !

وقالت سامية :

- طيب وحاتعمل فيها إيه ؟!

وتجههم وجه إبراهيم كأنه اكتشف شيئا آخر لم يحسب حسابه

عندما وضع خطته .. وسكت الأب كأنه ينتظر أن يقول آخر كلمة ..

ولعت عينا نوال كأنهما تكشفان عن سر من أسرارهما ، وصاحت

فى صوت خافت :

- أقولكم نعمل إيه .. أقوم أنا دلوقت أدب معاها خناقة ..

وبعدين ننده على البواب يروحها لأمها ..

وقالت الأم :

- والنبي ده انتى جبارة .. يا شيخة حرام عليكى !

والتفت إليها إبراهيم كأنه يهنئها ، والتقى بعينيها مرة أخرى

تنظران إليه كأنهما تشهدانه على ذكائهما ..

وقال الأب :

- يظهر مافيش قدامنا إلا الطريقة دى ..

وقامت نوال وخرجت من الغرفة ، وبعد قليل ارتفع صوتها

وهى تنهر الخادمة .. ثم ارتفع الصوت أكثر حتى أصبح صراخا

حادا ، يصحبه صوت صفعات وبكاء .. ثم عادت نوال وهى منقطة

كأنها كانت فى خناقة حقيقية ، وكان الخادمة كانت تستحق فعلا

هذه الصفحات .. وقالت وهى فى انفعالها تكاد تبكى :

- قومي انتى باه يا ماما اطرديها ..

وقالت الأم وهى لا تقوم :

- والله ما تهنش على .. ده حرام عليكم .. ده احنا فى رمضان!

وقال الأب متأثرا :

- معلش يا تحية ، ما احنا حنرجعها بعد ثلاث اربع ايام ..

وقالت الأم :

- قوم أنت يا محبى اطردها ..

وقال محبى وهو يتمسك بمقعده :

- وأنا مالى ومال طرد الخدامين كمان .. دى عمرها ما كانت شغلتي !

وقالت نوال :

- قومي انتى يا ماما ، وادبها نص ريال من فلوسى ..

وقامت الأم وهى تنتظر إلى إبراهيم نظرة عتاب كأنها تحمله

ذنب الخادمة الصغيرة ، وقالت وهى تخطو خطواتها الثقيلة :

- أقل من خمسين قرش فوق ماهيتها ، رينا ما يسامحناش ..

دى غلبانة وبيتمة !

وخرجت ، وقالت سامية وهى تقلب شفتيها :

- دلوقت شغل البيت كله حيقع على دماغنا .. ومين يا ترى اللي

حايجب حاجة السوق .. أنا وإلا نوال ؟

وقالت نوال :

- يا ستي ما تحميليش هم .. عم على يجيب حاجة السوق ، وأنا

انسخل المطبخ مع ماما يوم وانتى يوم ..

وارتفع صوت الأم من الداخل .. ثم سمع الباب يفتح وصوت

البواب يتحدث .. ثم اغلق الباب .. ثم عادت الأم إليهم وهى تقول :

- رينا يسامحننا ..

وتحرك إبراهيم فى جلسته دون أن يقول شيئا ، كأنه يتألم لهذا

لا رتبك الذى أحدثه فى العائلة ..

وقال الأب :

- أظن الأستاذ إبراهيم تعيان .. أتفضل فى اودة محيى .. وبكره الصبح بإذن الله نكمل كلامنا .
وقام إبراهيم ووقف مرتبكا بين أفراد العائلة ، ثم قال دون أن ينظر إلى أحد منهم :
- تصبحوا على خير !!
وهمهم الجميع ولم يتضح إلا صوت نوال وهى ترد عليه :
- وأنت من أهل الخير ..
وقام معه محيى ، وقبل أن يصل إلى نهاية الغرفة ، قال الأب :
- يا أستاذ إبراهيم ..
وتوقف إبراهيم ، والتفت إليه مستسلما ، واستطرد الأب :
- أنا سمعت أن معاك مسدس .. من فضلك تشيله من جيبك وتحطه فى أى درج من أدراج محيى .. إنما ما تمسكوش فى أيديك أبدا طول ما انت معنا .. أنا ماحبش المسدسات .
وبحركة لا إرادية .. وببساطة .. أخرج إبراهيم المسدس من جيبه وهو يقول :
- تحب أشيله عند حضرتك ؟
واتسعت عينا الأب فى فزع .. وخبطت الأم على صدرها وهى تصيح :
- أبعد البتاع ده عن وشنا الله يخليك .
وانكمشت سامية فى مقعدها ، وابتعد محيى خطوتين وقد فغر فاه كأنه يبحث عن أنفاسه .. وأطلت نوال بعينين مستطلعتين كأنها ترى شيئا سمعت عنه طويلا ولم تره .
وازداد ارتباك إبراهيم ، وقال متلعثما وهو يعيد المسدس إلى جيبه كأنه يخفى عارا :
- أنا آسف .. ما كنتش قصدى ..
ثم وقف بينهم برهة ، واستدار ، وخرج وبجانبه محيى .



وأغلق محيى وراءهما الباب .. وتلفت إبراهيم بدقق فى محتويات الغرفة .. دولاب .. ومكتب .. ومقعدين .. وشماعة معلقة

فى الحائط .. كل شىء نظيف .. مرتب ..
وجلس على أحد المقعدين ، وجلس محيى على حافة السرير
ينظر إليه كأنه يطالبه بالكلام ..
وتكلم إبراهيم ... ولكنه لم يتكلم فى السياسة ولا فى القضية
التي سجن من أجلها .. بل أخذ يسأل محيى عن زملائهما فى الكلية
وعن الأساتذة ويروى له نوادر عن كل منهما .. كان يعلم أنه فى
حاجة إلى كسب اطمئنان صديقه وثقته ، وفى حاجة إلى أن يخفف
عنه الخوف والرغبة ، ويرفع من بينهما « الكلفة » .. واستطاع أن
يحقق كل ذلك بسهولة .. وبدأ محيى يحس بإبراهيم كصديق له ..
وبدأ يحس بالزهو لصداقته ببطل .. هذا البطل الذى كان ينظر إليه
من بعيد كإله لا يستطيع أن يرقى إلى بطولته ، أصبح اليوم
صديقه ، وفى بيته وسينام معه على سرير واحد .
وبعد قليل أصبح محيى هو الذى يتكلم أكثر من إبراهيم ..
وسمعا نقرأ على الباب ..
وقام محيى ، وخطا خارج الغرفة ، ثم عاد يحمل صينية تحمل
أطباق طعام .. وضعها على المكتب ، وهو يقول :
- اتفضل يا إبراهيم !!
وابتسم إبراهيم وهو يسمع صديقه يناديه باسمه مجردا دون
لقب « أستاذ » .. تأكد أنه كسب ثقته واطمئنانه .. وقام إلى طعامه
وأكل بشهية .. إنه منذ أن سجن لم يجد فى نفسه مثل هذه
الشهية .. وكان محيى لا يزال يتكلم ..
وسمعا نقرأ آخر على الباب ..
ولم يتحرك محيى ، بل صاح وهو فى جلسته على حافة
السرير :
- خش ..
ودخلت نوال ، تحمل بين يديها جلابيا « مكويا » وقالت وهى
تنظر إلى إبراهيم فى تردد :
- ما أظنش بيجامات محيى تيجى على أدك .. جيبتك جلابية من
بتوع بابا !!

ووقفت يد إبراهيم التي تحمل الشوكة بين الطبق وقمه ..
وأحس بشيء فى نفسه ينكمش كأنه يحاول الاختباء .. وازدرد
وجهه كأن اللقمة قد وقفت فى زوره .. وسقطت عيناه فوق نوال
ولم يستطع أن يرفعهما عنها .. ورأى هذه المرة وجنتيها المكتنزتين
المشدودتين كأنها ورثتهما عن جدود من الهنود الحمر .. وغمازتيها
اللتين تزغردان فوق الوجنتين .. ورأى شفتيها البريئتين من
الأصباغ ، وابتسامتها المعلقة بين الشفتين .. وخيل إليه أن كل ذلك
يراه من بعيد .. من بعيد جدا .. وكان يعاني دهشة وفزعا ، فلم
يكن يدرى أن « البنات » سيصلن إلى الغرفة التي ينام فيها .
ونظرت نوال إليه بتعجب ، وقالت وهى تستدير لأخيها :

- مش عايزين حاجة كمان ؟

وقال لها أخوها :

- متشكرين ..

وقال إبراهيم وهو يتكلم من بعيد :

- متشكر ..

وخرجت نوال ..

وأتى إبراهيم طعامه ، وهو لا يزال يفكر فى « البنات » اللاتي لم
يحسب حسابهن فى خطته .. ثم صاحبه محبى إلى الحمام ، ثم عاد
وخلع القميص والبنطلون ، ووضع المسدس فى درج من أدراج
المكتب ، وارتنى الجلابة ونام بجانب محبى على السرير ، وأحكم
الغطاء من حوله كأنه يخشى أن تدخل عليه « البنات » وهو نائم .
وكان محبى لا يزال يتكلم .. ويروى ذكرياته فى الجامعة ، ..
وفجأة .. تنبه إبراهيم إلى أن الأغنية التي يذيعها الراديو من الغرفة
قد توقفت ، وانطلق صوت المذيع قائلا :

« سيداتى وساداتى .. نذيع عليكم أخبارا هامة .. جاءنا البيان
التالى من وزارة الداخلية .. استطاع إبراهيم حمدي المتهم الأول فى
قضية مقتل المرحوم عبد الرحيم باشا شكرى ، الهرب هذا المساء .
وكان قد نقل من سجنه إلى مستشفى القصر العيني للعلاج منذ
ثلاثة وعشرين يوما .. ويعلن وزير الداخلية عن مكافأة قدرها

خمسة آلاف جنيه لكل من يقبض عليه أو يدلى بمعلومات تساعد على القبض على المتهم المذكور ، كما أصدر الحاكم العسكرى أمرا بمعاقة كل من يساعد المتهم فى هربه أو يمتنع عن الإدلاء بما لديه من المعلومات ، بالسجن مدة لا تزيد على ثلاث سنوات .. وإليكم نص الأمر العسكرى/ .. »

وامتدت يد وأقفلت الراديو ..

ونظر محبى إلى إبراهيم ثم عاد وأبتعد بعينه عنه ..

ولم ينظر إبراهيم إلى محبى .. ظل معلقا عينيه فى سقف الغرفة ثم قال كأنه يخاطب نفسه :

– أنا ما كنتش فاكرا إنى غالى كده !!

وسكت إبراهيم ..

ولم يتكلم محبى ..

ظل كل منهما معلقا عينيه فى سقف الغرفة دون أن ينظر إلى الآخر .

لم يجد إبراهيم ما يقوله تعقيبا على البيان الذى إذاعته الحكومة . إنه لا يستطيع أن يهون وقعه على صديقه ، فإن وقعه لا يمكن أن يهون .. ولا يستطيع أن يطلب من صديقه أن يعده بالآيشى به ، فليس من حقه أن يطالب بمثل هذا الوعد .. وإن كان فى نية صديقه أن يشى به فلن يجديه وعده .

سكت إبراهيم وهو يحس بالغىظ .. غيظ حاد يمزق أعصابه ويصهر أنفاسه .. لماذا لا يتركونه فى حاله .. لماذا لا يثور الناس ويسقطون هذه الحكومة التى تطارده .. لماذا لا يحدث أى شىء .. أى شىء ينقذ حياته ويعيد إليه مستقبله وأطمئنانه .. لقد قتل الخائن من أجل وطنه .. من أجل الناس .. فلماذا لا يتحرك الناس من أجله .

وشعر بموجة من اليأس الأسود تجتاح رأسه .. إن الناس لن يتحركوا .. سيتركونه يقع كما يقع الفأر فى المصيدة .. وربما كان منهم من يمنى نفسه الآن بالخمسة آلاف جنيه مكافأة الإرشاد عنه .. وشعر بأنه يتخبط فعلا داخل مصيدة .. وإن رأسه يرتطم

بقضبان من الحديد .. وإنه فعلا فأر .. يختبئ ويتوارى .. ويفر ..
والناس تجرى خلفه .

ثم تذكر العائلة التي أقحم نفسه عليها .. هل ترشد عنه وأحس
بالخجل من نفسه لهذا خاطر .. أحس كأنه ناكِر للجميل .. لا ، لن
يرشد عنه أحد من أفراد هذه العائلة .. إنه متأكد .

ولكن هذا البيان الذى أذاعته الحكومة زاده إحساسا بثقله على
هذا البيت الهادئ الوديع الذى طرق بابه ودخله وهو يحمل
جريمته فوق كتفيه .. يجب أن يرحل .. سيترك هذا البيت .. غدا ..
فى أقرب وقت يستطيعه .. لن يبقى فيه .. حرام أن يحمل الناس
وزرا لا ذنب لهم فيه .

وكانت كل هذه الخواطر تزدهم أمام عينيه وترتسم صورها فى
سقف الحجرة .. وصديقه راقد بجانبه .. صامت هو الآخر .. كان
قد زايه الزهو الذى أحس به لأنه يضم فى بيته بطلا .. لم يعد
يفكر فى البطل .. أصبح يفكر فى نفسه .. فى مصيره .. وأحس
أنه واقف على باب دنيا لا يعرفها .. دنيا مخيفة .. تتدلع فى
جوانبها نيران ، وتضج فى أرجائها أصوات مزعجة .. صرخات ..
وهتافات .. وطلقات رصاص .. وهناك ، على مدى البصر ، كان
يلمح فى هذه الدنيا قضبان غلاظا من الحديد .. وخلفها شبان من
زملائه الطلبة .. كلهم فى رداء السجن .. وهو .. إنه معهم .. فى
رداء السجن أيضا .. وشعر بالخوف .. وامتنع وجهه دون أن
يدرى .. وسحب جسده بعيدا عن صديقه إلى الجانب الآخر من
الفرش .. كأنه يتبرأ منه .. وكأن البوليس إذا دخل ليقبض على
صديقه ورآه بعيدا عنه فلن يقبض عليه .

وهو بعد أن سمع بيان الحكومة يذيعه الراديو لم يفكر فى
المكافأة التى وضعت للقبض على السجين الهارب .. لم يفكر فى
هذه المكافأة إطلاقا .. لم تخطر له على بال .. إنما كان يفكر فى
الأمر العسكرى الذى ينص على سجن كل من يساعد الهارب فى
هربه .. إنه يخاف السجن .. لا يريد أن يسجن .. وأحس بقطرات
من العرق البارد تتفصد من جبينه .. وأحس كأنه يرتعش .. كل

خلجة فى جسده ترتعش .. كأنه محموم !
.. ولا يدري أحدهما كم مضى من الليل قبل أن يسمعا طرقا خافتا
على بابهما .. وأدار إبراهيم رأسه ناحية الباب فى حدة .. ثم أدارها
ناحية محبى وقد اتسعت عيناه وارتسمت فيهما نظرات متسائلة
جزعة .

وتكرر الطرق على الباب .. وصاح محبى :

– حاضر

ثم التفت إلى إبراهيم وهو يقوم من رقدته ، وقال كأنه يوقظه :

– يا إبراهيم .. يا أستاذ إبراهيم !

والتقى بعينه المتسائلتين ، فاستطرد :

– اتفضل .. السحور !!

وهدأت عينا إبراهيم ، وقال كأنه يتنهد :

– متشكر .. ما أظنش حاقدر أصوم بكره !

وقام محبى وأضاء النور ، ووضع نظارته فوق عينيه ، وخرج
من الغرفة وهو يقول :

– تحب اسبيلك النور والع ؟ ..

وقال إبراهيم :

– اطفئه لو سمحت !

وأطفأ محبى النور .. وخرج !

واستطرد إبراهيم فى تفكيره .. ثم أحس أن عينيه تضعفان شيئا
فشيئا ، حتى لم يعد يقوى على رؤية أفكاره .. وسقطت جفونه ..
ونام .. كأنه أغمى عليه !



وتسلل شعاع حاد من النافذة ولسع جفني
إبراهيم، ففتح عينيه وأدارهما حوله في ذهول كأنه
لا يدرى أين هو!!
كانت الغرفة قد غمرها ضوء النهار.. والتفت
بجانبه فلم يجد صديقه محيى.. ونظر في «المنبه» الموضوع أمامه..
كانت الساعة التاسعة والثلاث.
وتعجب أين ذهب صديقه.. ولماذا لم يوقظه..
وظل في فراشه منتظرا أن يعود محيى ..
ولكن محيى لم يعد..
وقام من الفراش، ووقف في الغرفة، وهو يتعمد أن يتتعد عن
النوافذ حتى لا يلحظه أحد من الجيران..
ثم جلس على المقعد.. وبدأ يفكر في خطته.. وكان النوم العميق
قد أعاد إليه كل قواه، وأحس أنه يفكر تفكيراً سليماً.. وأنه يرى
المستقبل بوضوح.. وأحس بالتفاؤل، ولم يقلل من تفاؤله ما إذاعته
الحكومة من تهديد وإغراء للقبض عليه.. إن الناس سينقسمون إلى
أفاضل وأشرار.. ولن يغير التهديد والإغراء من الناس.. سيبقى
الفاضل فاضلاً، والشرير شريراً.
وابتسم بينه وبين نفسه كأنه يهزأ من الحكومة ومن الحاكم
العسكري ومن الأحكام العرفية.. ومن المشنقة!!
ولكن محيى لم يعد..
وفكر أن يقوم وينادى من داخل البيت ، ولكنه أحس بالحرص ..
إن في البيت بنات ولا يجب أن يشعرهن بوجوده ، ولا أن يثقل

على البيت بأن يفرض عليه شيئا .. سيبقى صامتا إلى أن يعود
محيى ..

ولم يعد محيى وبدأ يحس بالضيق.. إنه يريد أن يغسل وجهه،
يريد أن يبلل شفتيه بالماء.. يريد أن يبدأ يومه..
وقام وبدأ يرتدى ملابسه.. القميص والبنطلون.. ثم توقف
فجأة، والتمعت فى عينيه نظرة شك وريبة، كأن خاطرا مسموما قد
انتفض فى عقله.. أين ذهب محيى.. ولماذا لم يعد.. ربما أغلقوا عليه
الباب وحبسوه إلى أن يأتى البوليس للقبض عليه!!
وجمع طرفى البنطلون بين يديه - ولم يكن قد ربطه بعد إلى
وسطه - وسار على أطراف أصابعه إلى الباب، وأمسك بالأكرة فى
حذر، وجذب الباب إليه جذبة خفيفة، تأكد بعدها أن الباب ليس
مغلقا..

وأطمأن..

وأعاد إغلاق الباب كما كان، ثم ربط بنطلونه حول وسطه،
وجلس وبدأ يلبس حذاءه.. ثم رفع رأسه من جديد، وعادت نظرات
الشك تلمع فى عينيه.. ربما خرج كل أهل البيت وتركوه وحيدا،
وأغلقوا الباب الخارجى عليه.. أو ربما لم يغلقوه، بل تعمدوا أن
يتركوه مفتوحا حتى يحس بأنهم لا يريدون إيواؤه بعد البيان الذى
أذاعته الحكومة، ويرجونه، رجاء صامتا، أن ينصرف عنهم.. المهم..
أنه لم يعد يستطيع أن يبقى فى هذه الغرفة.. يجب أن يخرج منها
حالا.. الآن.. وقفز من جلسته وتقدم ناحية المكتب، وفتح الدرج
وأخرج مسدسه، وقيل أن يدسه فى جيبه سمع طرقا خافتا على
الباب.. وأعاد المسدس إلى الدرج ولكنه تركه مفتوحا.. والتفت
ناحية الباب، وهو يقول:

- مين..

قالها بلهجة جافة، ثم تنبه إلى جفافها فعاد يقول فى لهجة
مهذبة قبل أن يسمع ردا:

- انتفضل..

وسمع صوتا رقيقا من خلف الباب:

- حضرتك صحيت يا استاذ ابراهيم؟
وخمن أنها نوال.. الأخت الصغرى.. إنه صوتها.. عجيبة.. إنه يعرف صوتها.. إنه متأكد أنها هي..
وأجاب فى أدب:
- أيوة يا أفندم.. اتفضللى!
وانفتح الباب فى ببطء، وأطلت نوال برأسها، وأطلت معها ابتسامة حائرة لا تدرى على أى جانب من شفتيها تضعها.. واحتار مع ابتسامتها.. وجد نفسه موزع خاطر بين لهفته على لقاء صديقه محيى وبين ارتباكته وهو يواجه نوال.. وقال فى صوت تلقائى كأن إنسانا آخر يتكلم فى صدره:
- فین محيى؟
ثم استدرك قائلاً وهو يحاول أن يكون رقيقاً:
- صباح الخير!
وقالت نوال وهى تسلط كل عينيها عليه:
- يسعد صباحك.. محيى راح الجامعة من الصبح.. و.. وقاطعها وهو يبذل مجهوداً كبيراً حتى لا يحتد، ويخفض عينيها حتى لا ترى فيها حدثه:
- راح الجامعة إزاي.. مش كان لازم يكلمنى قبل ما يخرج؟
وقالت نوال وقد أحست بغضبه الذى لا يبدو على وجهه:
- إحنا عملنا مؤتمر الصبح.. وبابا قررر إننا نسيبك نايم لغاية ماتستريح.. اتھيا لنا إنك ما نمتش بقالك سنة من يوم ما اتسجنت! ورفع عينيها إليها كأنه يتعجب من طيبة العائلة وسذاجتها، ثم عاد وخفضهما وهو يقول:
- وأنا أقدر أنام فى ليلة زى دى!
وقالت كأنها تعاتبه وهى ترفع حاجبيها كأنها تتحداه:
- الحقيقة إنك كنت نايم.. ولو إنك ما كنتش بتشخرا!
وأبتسم ابراهيم كأنه يعتذر لها عن مغالاته، وفاق:
- فعلا.. أنا كنت تعبان.. إنما كان لازم أشوف محيى قبل |

ما يخرج.. فيه حاجة كان لازم أقولها له.. بالشكل ده ضاع منا
يوم بحاله!

وقالت كأنها تخفف عنه:

- الأيام كتير بإذن الله.. تحب تغسل وشك!

وتنهد أسفا كأنه لا يؤمن بأن أيامه كثيرة، واتجه نحو الباب
وهو لا ينظر إليها.. بينما كانت تنتظر إلى كل شئ فيه.. إلى وجهه
الأسمر كأنه وجه فلاح عاش طول عمره فى الحقل، ولم ينسحب
عليه يوما ظل المدينة.. وإلى عينييه العسليتين الكبيرتين اللتين
لا يرفعهما خوفا من أن يفضحا أحاسيس نفسه.. وإلى أنفه الكبير
كأنه رأس سهم يتجه إلى صدر أعدائه.. وإلى شفتيه الرقيقتين
الصامتتين اللتين تطلان من فوق ذقن عريض قوى كأنه يختزن فيه
كل إرادته.

وما كاد يتعدى باب الحجرة وهو منكس الرأس، حتى سمع
شهقة خافتة، ورفع عينييه، فرأى سامية واقفة قبالة مبهورة
الأنفاس..

كانت لا تزال فى جلاباب نومها.. جلاباب أزرق من الباتستا،
مشمر الأكمام.. وكانت قد فوجئت برؤية إبراهيم فرفعت يديها
تضم طرفي ثوبها فوق صدرها، ثم كأنها تذكرت أنها لم تساوى
شعرها، فمدت إحدى كفيها إلى رأسها تساوى بعض خصلات
الشعر المنتور فوق جبهتها..

وارتبك كلاهما حتى لم يستطيعا تبادل تحية الصباح.. وظلت
عيناها المبهورتان معلقتين بعينييه المرتبكتين، ثم كأنها تغلبت على
نفسها، ففرت من أمامه واختبأت خلف أحد الأبواب..

ونظر إبراهيم إلى نوال كأنه يعتذر لها ويحتمى بها.. وابتسمت
نوال وتقدمته إلى الحمام، وهى تقول:

- أصل أختى سامية مشهورة بالكسل.. تقوم من النوم وتفضل
تلف من أوده لأوده.. ما تغيرش هدموها إلا يدويك قبل ما بابا ما
ييجى!!

وابتسم إبراهيم دون أن يرد.. ثم دخل الحمام واغلق على نفسه

الباب.. ثم عاد وتأكد من أنه أغلقه جيدا.. ووقف برهة فى وسط الحمام دون أن يتحرك.. إنه يحس بالضيق.. ويحس أنه مقيد فى هذا البيت أكثر مما كان فى السجن.. لقد كان حرا فى السجن.. كان كل من فى السجن رجالا.. أما هنا فحولته قضبان من البنات.. وقضبان فى نفسه من الحياء، ومن إحساسه بأنه يعتدى - بمجرد وجوده - على عفاف بيت كريم..

ولوى شفتيه، وبدأ يغسل وجهه.. وعندما انتهى وقف حائرا أمام الباب.. هل يفتحه.. أم ينقر عليه قبل أن يفتحه حتى ينبه البنات ؟

وفضل أن ينقر على الباب قبل أن يفتح .. ونقر نقرات خفيفة.. ثم اشتد النقر.. ثم سمع صوت نوال:
- اتفضل..

دائما نوال.. كأن ليس فى البيت غيرها..

ولم يحس بالضيق لسماع صوتها.. بل أحس بالراحة، كأنها صديقتها الوحيدة فى هذه الدنيا التى أقحم نفسه عليها.. أو كأنه قرر أن يضمها إلى أصدقائه السبعة الذين كانوا يشتركون معه فى عمليات الاغتيال.. ثم تعجب من نفسه لهذه الراحة التى يحس بها!! وفتح الباب ووجدها أمامه، تبتسم ابتسامة كبيرة.. وجد نفسه يبتسم ابتسامة أكبر منها.. ثم اتجه إلى الغرفة وهى وراءه.. وقبل أن يدخل - إلى الغرفة - عاد والتفت إليها قائلا وهو يشير برأسه إلى النوافذ:

- تسمى تقفلى الشيش..

وبرقت عيناها كأنها فهمت بذكائها ما يقصده، وكأنها تذكرت أنها فى حضرة بطل.. فتقدمته إلى الغرفة وهى تسير فى خطوات خفيفة نشطة، كأنها تؤدي عملا وطنيا خطيرا.. وبدأت تتحنى فوق حافة النافذة لتجذب «شيش» النوافذ وتغلقه..

ودخل وراءها وهو يعتمد ألا ينظر إليها.. وأمسك بمشط محبى ووقف أمام المرأة، وهم أن يمشط شعره.. ثم تذكر وجود نوال، فأحس بالخجل من أن يقف أمام المرأة.. كان مما يعيب الرجولة أن

يقف الرجال أمام المرأة.. فاستدار وطأطأ برأسه ومشط شعره في حركة سريعة، بلا مبالاة.. بينما كانت نوال تقول له وقد انتهت من إغلاق النوافذ:
- اتفضل افطر في أودة السفرة باه، على بال أنا ما أساوى الأودة!!

وتمتم في صوت خافت:

- متشكر..

وخرج من الغرفة.. وما كاد يخطو خطوات حتى التقى بالأم بوجهها المكتنز الصبوح، وابتسامتها الطيبة.. وقالت أول ما رآته:
- صباح الخير يا ابني.. ياللا يا ضنايا أفطر..
وقبل أن تسمع رداً لتحيتها، قالت وقد علا صوتها:
- سامية.. يا أختي راحت فين البت دي.. مافيش جنس حاجة اتعملت في المطبخ..

ثم استطردت وكأنها تخاطب إبراهيم ونوال معا:
- علشان تعرفوا قيمة البت سنية، كانت شايلة البيت كله على دماغها، وما كانش حيلتكم غير الإمارة..

ثم وجت كلامها إلى إبراهيم:

- اتفضل افطر يا ابني..

ثم إلى نوال:

- تعالى انت معايا المطبخ..

وردت نوال معترضة:

- أنا النهاردة على تنظيف الأود.. وسامية هيه اللي عليها المطبخ..

وقالت أمها:

- تعالى بس.. واسمعي الكلام..

وسارت نوال وراء أمها وهي تهز رأسها في حركة غيظ.. وسار إبراهيم متحسسا طريقه إلى حجرة الطعام.. وجلس إلى المائدة وأمامه طبق الفول، وقطعة الجبن، وحببات الزيتون.. وبدأ يأكل منكس الرأس، مثبّتا عينيه أمامه، لا يرفعهما حوله، وكأنه يخشى

إن رفعهما أن يرى حوله بنات عرايا..
وكان يحاول أن يركز تفكيره فى خطته..
كان يريد أن يتصل بأصدقائه فى الخارج، وكانت وسيلة
الاتصال بهم هى محبى.. إنه مضطر أن يزوج بمحبى فى خطته..
ليس أمامه وسيلة أخرى..

وكان يريد أن يقرأ صحف الصباح، لقد تعود منذ قبض عليه أن
يفهم من قراءة الصحف أكثر مما يفهمه القارئ العادى. كانت
قراءة الصحف أمرا هاما بالنسبة له، وقد أقام ثورة فى السجن
عندما منعوا عنه قراءة الصحف.. ولكن هنا - فى هذا البيت - هل
يستطيع أن يطلب الصحف.. بأى حق، وبأى وجه..

وهو يريد أيضا أن يعرف تأثير البلاغ الذى أذاعته الحكومة..
إن نوال لم تشر إليه ولا أختها ولا أمها.. ويبدو أنهم تعمدن عدم
الإشارة إليه - إلى البلاغ - حتى لا يجرحن شعوره، أو يشعرنه
بخطورة وجوده بينهم واختبائه فى البيت.. وهن لطيفتهن،
لا يدرين أنهم بذلك يزدن فى إحراجهم ويعقدن الأمور أمامه.. إنه
يفضل أن يعاملوه على أنه إنسان هارب.. إنسان تطارده الحكومة..
حتى يستطيع أن يناقش خطته معهم بصراحة ولكنهن بنات.. وهو
مضطر أن ينتظر إلى أن يعود الرجال..

وظل يلقى الطعام فى جوفه دون أن يحس له طعاما.. وهو تائه
فى خيالاته وخطته، ويحس بالدقائق التى تمر به كأنها ساعات..
ولم يكن يحسب الدقائق التى تمر به فحسب، بل كان يحسب
الدقائق التى ستمر به حتى صباح اليوم التالى.. حتى يستطيع أن
يفعل شيئا لإتمام خطة هربه..

وانتهى من طعامه.. ومر وقت طويل بعد أن أنتهى منه، وهو
لا يزال جالسا فى مكانه لا يرفع رأسه ولا عينيه، كأنه أعمى
ينتظر من يقوده خلال الطريق..

وسمع صوت نوال بجانبه:

- تحب تتفضل فى الأوده؟!

ورفع عينيه إليها كأنه وجدها أخيرا.. وقام وهو يتمتم:

- متشكر..

ودخل الغرفة، والتفت إليها يريد أن يقول لها شيئاً.. كان يريد أن يسألها عن صفح الصباح.. ولكنه عاد وسكت.. إنه لا يستطيع أن يسألها.. لا يستطيع أن يزيد عبثه على أحد..
وقالت نوال وهى تبتسم:
- لو عزت حاجة، اندهلى..

وهمت أن تخطو، ثم توقفت لتقول:

- الجرنال بابا بيحبىه معاه.. تحب انزل اشتريلك واحد دلوقت؟
وقال وهو ينظر إليها فى دهشة، كأنه يعجب كيف قرأت أفكاره:
- متشكر.. مافيش لازمة.. بس لو سمحتى تفتحى الراديو!
وقالت فى تردد:

- الراديو اليومين دول دمه ثقيل.. ما فيش حاجة تتسمع!
وقال وهو يبتسم:
- على الأقل نسمع الأخبار.
وقالت فى يأس:
- حاضر..

وانصرفت عنه..

وجلس وهو يحاول ألا يفكر فيها.. ولكنه كان يجد نفسه مضطراً للتفكير فيها.. إنه مضطر أن يفكر فى كل من حوله، ليستفيد من كل منهم فى خطته.. وهذه فتاة ذكية جريئة يمكنه أن يعتمد عليها، ربما أكثر مما يعتمد على أخيها.. ولكن.. لا إنها بنت.. هو لا يؤمن بالبنات.. أو يشفق عليهن من أن يتحملن مسئوليات الرجال.. ثم إنه لا يستطيع أن يزج فى خطته بابنة الرجل الكريم الذى آواه فى بيته.. لا يمكن.. إن شهامته تمنعه.. ورغم ذلك فكلما قلب فى ذهنه عشرات الخطط التى يضعها لنفسه، وجد فى كل منها مكاناً لنوال..

وارتفع صوت الراديو..

وكان المذيع يعلن نهاية نشرة الأخبار.

وهز رأسه أسفا ..



ظل إبراهيم جالسا وحده فى الغرفة.. ساهما حيناً، ويقلب فى كتب محبى حيناً آخر.. والزمن يمر به بطيئاً ويزداد ثقله فتوق صدره، إلى أن سمع جرس الباب الخارجى يندق.. وانتبهت كل أعصابه.. وسمع قلبه يندق فى صدره كأنه يرتعش.. هذه الرعدة التى لم يتعودها إلا منذ أمس.. منذ بدأ فى تنفيذ خطة الهرب.. رعدة التوتر والخوف!!

واستراح قليلاً وهو يسمع صوت محبى يحدث أخته.. وبدأ يستعد لملاقاة صديقه.. علق على شفتيه ابتسامة، وكسا وجهه بالهدوء.. ولكن محبى تلكا قبل أن يدخل إليه.. وخيل إليه أنه تلكا طويلاً حتى كادت ابتسامته تسقط من بين شفتيه، ثم سمع نقرا على الباب.. وقال فى صوت بدا هادئاً ليس فيه أثر لاضطراب نفسه:

- اتفضل..

ودخل محبى.. اصفر الوجه كالليمونة الناضجة، وكأنه عائد من رحلة شاقة استنزفت كل قواه وكل أنفاسه، وكل دمه.. وكانت عيناه مضطربتين لا يريد أن ينظر بهما إلى إبراهيم.. وخطواته عصبية، يسير كأنه يترنح...

وفحصه إبراهيم بعينه، واستنتج مدى الاضطراب الذى يعانى، ثم قال دون أن يقف ليحييه متعمداً أن يرفع الكفة بينهما، وكأنهما أصدقاء قدماء:

- أهلاً..

ورد محبى وهو يلقي بكراسه محاضراته فوق المكتب، ويضغط بأصبعه على قنطرة نظارته:

- إزيك دلوقت يا استاذ إبراهيم؟

قالها كأنه يؤدى واجباً.. ورنث كلمة «استاذ» فى أذن إبراهيم رنيناً شاذاً، اضطر بعده أن يصمت كأنه يتدبر أمراً. كان يعتقد أن الكفة قد رفعت بينه وبين صديقه من أمس.. ماذا

حدث.. لعل السبب مجرد اضطراب أعصاب..
وقام من مقعده وقد اتسعت ابتسامته، كأنه يتودد بها إلى
صديقه، ثم اقترب منه وهو يقول:
- وأزى الحال؟

وقال محيى، دون أن ينظر إليه أيضا:
- الجامعة كلها بتتكلم عنك..
وسأله إبراهيم فى اهتمام كأنه بدأ يعمل:
- بيقولوا إيه؟..

ونظر إليه، ثم عاد وأدار عينيه، وهو يقول:
- والله ما سمعتش حاجة .. الحقيقة إنى تعمدت أنى ما اسمعش
حاجة.. كان متهيأ لى انى لو ابدت أى اهتمام كل الطلبة حيعرفوا
إنك عندنا.. فضلت عامل نفسى كأنى ما عنديش خبر.. كأن
ما حصلش حاجة فى البلد.. واضطريت أحضر كل المحاضرات
رغم أنى ما كنتش سامع ولا كلمة منها، إنما لمجرد إنى ما غيرش
عانتى.. أتهيا لى لو ما حضرتش محاضرة واحدة الطلبة كلهم
حيخرجوا يدوروا على ويبجوا ورايا البيت..
ونظر إليه إبراهيم نظرة عطف، ثم قال كأنه يسأل عن شئ
لا يعنيه:

- وكانوا بيقولوا اية عن البلاغ اللى طلعتة الحكومة..
وسكت محيى قليلا، كأنه ظن أن إبراهيم يسأله عن رأيه هو لا
عما يقوله الطلبة.. ثم قال:
- سمعتهم بينكتوا.. واحد قاعد ورايا فى المحاضرة كان بيقول
للى جنبه.. زمان ابوك داير فى السكك بيدور على إبراهيم حمدي
علشان يسلمه ويأخذ الخمستلاف جنيه..
وضحك إبراهيم كأنه يضحك من قلبه.. وبددت ضحكته بعض
الاضطراب الذى يعاينه مخيى، فعاد يقول:

- وواحد صاحبى جه يسألنى.. يا ترى لو إبراهيم حمدي سلم
نفسه يستحق، من الناحية القانونية المحضة، الخمستلاف جنيه!!
قالها وهو يقلد زميله فى التحدث بلهجة فقهاء القانون..

وضحك إبراهيم وهو يقول:
 - لو ضمنت لى الخمستلاف جنيه مستعد أسلم نفسي!
 وضحك محبى، ثم قال بحماس:
 - والله ولا ميت ألف جنيه..
 وأحس إبراهيم أن الاضطراب قد زایل صديقه، وأنه نجح فى
 رفع الكلفة بينهما مرة ثانية..
 وسادت بينهما فترة صمت.. ثم قال إبراهيم كأنه أختار
 موضوعا بلا تعمد:
 - ما شفتش فهمى عبد العزيز..
 وقال محبى وهو لا يحس للسؤال بأى أهمية:
 - لا. يمكن كان قاعد فى البوفيه زى عوايده.. وأنا بارحش
 ناحية البوفيه ابدأ..
 وعاد إبراهيم يسأل بلا مبالاة :
 - وأيه رأيك فيه؟
 وقال محبى وهو لا يزال يتكلم بإهمال:
 - ما أحبوش.. شكله ما يريحنيش.. عامل كده زى الفتوات..
 وكلامه كثير.. والخطب اللى بيقلوها أيام الاضراب كلها كلام
 فاضى..
 وقطب إبراهيم ما بين حاجبيه، ثم عاد وأراح وجهه سريعا قبل
 أن يلحظ محبى تقطيطه، وقال وهو ينظر إلى الارض كأنه يحدث
 نفسه:
 - إنما ده شاب كويس.. قام بأدوار مهمة كثير..
 وتنبيه محبى فجأة إلى أن إبراهيم يتعمد إطالة الحديث عن
 فهمى عبدالعزيز فقال فى تعجب:
 - أنت تعرفه؟
 وقال إبراهيم:
 - أعرفه كويس!
 قال محبى:
 - قصدى.. كان.. كان بيشتغل معاك!

وقال إبراهيم فى اختصار:

- تقريبا!!

وكان إبراهيم أراد أن يدفع محبى دفعة قوية ليفهم قصده فقال:

- ده واحد من اللى كانوا عارفين إنى حاهرب!

وفغر محبى فاه، وارفع حاجباه حتى جاوزا نظارته.. وقال وقد عاد يضغط بأصبعه على قنطرة النظارة:

- وعارف إنك هنا؟

وأجاب إبراهيم فى هدوء:

- لا.. إنما لازم اتصل بيه!

وقال محبى بسرعة:

- وحانتصل بيه إزاي؟!

ورفع إبراهيم عينيه إلى محبى، ثم عاد وخفضهما قبل أن يكشف عن قصده، وقال فى لهجة حاول أن تخلو من خبث:

- أهو ده اللى لسه بافكر فيه!!

ولم يرد محبى.. ساد بينهما الصمت كأن الاثنين يشتركان فى تفكير واحد، إلى أن رفع محبى رأسه قائلاً:

- أنت متأكد من فهمى؟

قال إبراهيم فى تأكيد:

- جدا.. زى ما أنا متأكد من نفسى!

وساد الصمت فترة أخرى، دون أن يحاول إبراهيم أن يتكلم، وكأنه يترك لصاحبه فرصة التفكير واتخاذ قرار وهو يرفع إليه عينيه بين برهة وأخرى فى نظرات مختلطة:

ثم قال محبى فجأة، وكأنه تعب من التفكير دون أن يصل إلا إلى قرار واحد لا بد منه:

- يظهر إن ما فيش طريقة إلا إنى أكلمه بنفسى!

وابتسم إبراهيم بينه وبين نفسه كأنه يهنئها بالانتصار.. كان هذا ما يريده.. وكانت هذه هى عادته، ألا يملأ قراراته على زملائه ولا يطلب منهم شيئاً، ولكنه يقودهم بسياسته إلى القرار الذى

يريده وإلى ما يطلبه منهم.. ويتركهم مقتنعين بأنهم أصحاب القرار، وأصحاب الطلب..
وسكت إبراهيم قليلا كأنه يفكر جديا فيما يقوله زميله، ثم قال كأنه خضع للأمر الواقع:
- أظن هيه دى الطريقة الوحيدة!
وتردد محبى كأنه كان يرجو أن يرفض زميله فكرته، ثم قال فى حيرة واضطراب:
- إنما حاقول له إيه؟
وعاد إبراهيم يتظاهر بالتفكير وهو فى قرارة نفسه يشفق من سذاجة صديقه:
- قول له.. «الأمانة عندنا».. أو أى كلمة يفهم منها إنك عارف أنا فين.. بس بلاش تنطق اسمى..
وقال محبى فى عصبية:
- إنما أنا ما أعرفوش.. وما حدش من الطلبة شافنى بكلمه أبدا.. ويمكن لما يشوفونى يشكوا فى الموضوع..
وقال إبراهيم وهو لا يزال هادئا:
- اعمل نفسك بتدليه كراسة محاضرات.. ولا كلمه وانت ماشى جنبه.. إنما أنا متأكد أن ما حدش حيشك فيك حتى لو كلمته من غير أى احتياط..
وأحس محبى إنه أهين عندما قال إبراهيم أن أحدا لن يشك فيه..
أحس أنه إنسان ليس جديرا بالبطولة. ولكنه قال كأنه استسلم لقدره:
- وبعدين..
وقال إبراهيم:
- ولا حاجة.. سيبه هوه يتصرف بعد كده.. هوه حيعمل كل حاجة.. وحيأخذ الاحتياطات كلها..
وسكت محبى كأنه جرى بخياله إلى الغد.. إلى فناء الجامعة..
إلى زملائه الطلبة.. وإلى فهمى عبد العزيز بالذات..
وقال إبراهيم وهو يبتسم ابتسامة صغيرة:

- أنا آسف يا محيي اللي باتعبك.. مش عارف أشكرك إزاي!
وقال محيي فى لختنا رباتر:
- العفو..
ثم قام وجلس إلى مكتبه، وفتح كتابا من كتب القانون، وأمسك بيده قلم رصاص، وبدأ يستذكر..
وقال إبراهيم كأنه يحاول أن يغير الموضوع قبل أن يبدأ صديقه فى المذاكرة:
- هو الامتحان أمتى؟
ورد محيي دون أن يرفع عينيه عن الكتاب:
- بعد شهر ونصف!
وسكت إبراهيم قليلا، ثم قال:
- كان حقك جبت لنا الجرنال معاك!
وقال محيي ورأسه لا يزال فى الكتاب :
- رمان بابا جاي وجاييه معاه!
وسكت الاثنان.. وأمسك إبراهيم بكتاب آخر وأخذ يحاول أن يقرأ فيه.. وفجأة رفع محيي رأسه، وقال فى صوت أجش كأنه يتعثر بأفكاره المزحمة فى رأسه:
- لكن دول بيقولوا على فهمى عبد العزيز أنه جاسوس السراى!
ورفع إبراهيم رأسه عن الكتاب فى هدوء، وقال فى صوت أكثر هدوءا:
- يا شيخ.. ما تصدقش؟
وعاد محيي يتكلم وكأنه يلح أن يصدقه زميله:
- وبيقولوا أن الحكومة بتعتقله علشان يتجسس على بقية المعتقلين!
وقال إبراهيم وهو لم يفقد هدوءه:
- يا شيخ حرام عليك.. ده من أشرف الطلبة!
وظل محيي قاذفا بعنقه نحو زميله، وكأنه يبحث عن حجة أخرى يقولها.. وقبل أن يثنى رأسه ويعود بها إلى كتابه، قال له إبراهيم وهو يبتسم كأنه يشجعه:
- يا شيخ..

- لو ما كنتش متأكد من فهمى ما كنتش أمنت له على نفسى..
وعليك!
وكأنما اطمأن محيى لسماعه كلام زميله، واكتشف فيه شيئاً
كان قد نسيه.. فعاد إلى كتابه مطمئناً..
وسمع الاثنان جرس الباب..
وانتبهت أعصاب إبراهيم.. وسمع مع جرس الباب دقات قلبه..
هذه الدقات المرتعشة التى تتعبه، وتهز ثقته بنفسه..
وقال محيى:
- ده لازم بابا..
وسمعا فعلا صوت الأب.. وقال محيى:
- عن إندك.. دقيقة واحدة!
وخرج..

وجلس إبراهيم ينتظر.. وكان ينتظر بلهفة أن يدعوه الأب إليه،
أو أن يدخل عليه.. وكان تلهفه لا على سماع الأخبار فحسب، بل
كان يريد أن يطمئن على الأب نفسه.. على حالته العصبية.. وعلى
شعوره نحوه.. وعلى قدرته على تحمله فى بيته بعد البيان الذى
أذاعته الحكومة..

وعاد محيى وحده وفى يده جريدة الاهرام، وقال وهو يناولها
لإبراهيم:

- بابا بيطمئن عليك..
وقال إبراهيم فى عجلة:
- متشكر.. أخباره ايه؟
وقال محيى دون اهتمام:
- والله ما تكلمش.. أصل من عادته فى رمضان أنه يرجع تعباً،
وينام على طول..

وأحس إبراهيم كأن لهفته سقطت فى ثلاجة، ولكنه أقنع نفسه
أنها «بشرة خير» ما دام الأب لم يغير عادته..
وأخذ الجريدة بين يديه وأخذ يقرأ اسمه فى العناوين الضخمة

وبين شفتيه بسمة ساخرة، كأنه يسخر من الناس كلهم الذين يقيمون له كل هذه الضجة.
ولم يبدأ بقراءة البيان الرسمي، بل أخذ يقرأ فى نهم التفاصيل التى جمعتها الصحيفة..
وأخذت ابتسامته تزداد اتساعا..

ليس فى المنشور أثر بأن هناك من يتبعه.. ولم يتقدم واحد من سائقى سيارتى الأجرة اللتين استقلهما فى هروبه، لاداء الشهادة، حتى الطبيب الذى لمحّه وهو يهرب، لم يرد اسمه.
واكفهر وجهه فجأة وهو يقرأ خبراً على جانب الصفحة بعنوان: «التحقيق مع حارس إبراهيم حمدي».. إن وزير الداخلية أمر بتكوين مجلس تحقيق للضابط الذى كان يقوم على حراسته.. هذا الشاب الطيب المهذب.. ما ذنبه؟.... ذنبه أنه وثق به.. وقد خان ثقته.. غرر به.. ضيع مستقبله.. مستقبل شاب مصرى لا ذنب له.. وارتفعت صرخات فى نفس إبراهيم، كأنه يصفع نفسه.. إنه أنانى.. إنه مجرم.. إنه يؤذى كل من يقترب منه.. كل من يثق به.. إن هذا الشاب ليس خائناً.. وليس عميلاً للإنجليز.. فلماذا يؤذيه؟ ورغم ذلك فقد كاد ينساه!!

واشتد به الكرب.. أحس أن أنفاسه احتبست فى صدره وتكاد تخنقه.. وحاول أن يخفف عن نفسه.. أخذ يقول لنفسه : «إنى أهرب من حكم الإعدام.. أما هو فلن يصيبه إلا قرار بالنقل.. أو تأخير ترقيته»..
ولكنه لم يقتنع..

أخذ إحساسه بأنه خان ثقة شاب لا ذنب له، تتجسم فى مخيلته..

وهب واقفاً، وهو يقول لمحى فى لهجة أمرة، لم يتفوه بها من قبل:

- ادينى ورقة وقلم!
وناوله محبى ورقة قطعها من كراسة ثم أعطاه القلم وهو ينظر إليه فى دهشة كأنه مبهوت..

وجلس إبراهيم يكتب:
«عزيزى الملازم أول جميل عزت...»
وتوقف عن الكتابة قليلا.. إنه يريد أن يكتب له خطاب اعتذار..
يريد أن يفسر له لماذا هرب منه، ولماذا خان ثقته.. يريد أن يدافع
عن نفسه..
ويدأ يكتب مرة ثانية:
«بعد التحية.. كان يجب على أن أكتب لك لأبرر ما فعلته و..
...»
وتوقف عن الكتابة..
إنه لا يستطيع أن يكتب له.. إن إرسال خطاب قد يفسد خطته..
بل قد يسئ إلى موقف الضابط أثناء التحقيق الذي تجريه له وزارة
الداخلية..
وألقي القلم من يده..
وألقي رأسه بين يديه، وقد أحس أنه يقسو على نفسه، أكثر مما
يقسو على الضابط الذى لن يعتذر له..
وسمع محبى يسأله فى لهفة:
- مالك يا إبراهيم..
ورفع إبراهيم رأسه وقد استعاب قناعه، وقال فى هدوئه المفتعل:
- ولا حاجة..
ونسى - بين عواطفه المضطربة - أن يمزق الورقة التى كتب
عليها اسم الضابط!!



وأطلت نوال من الباب.. لم يعد باقيا على موعد الإفطار سوى نصف ساعة.. وقالت وهى تتحرك فى الغرفة كان ليس فيها شخص غريب:
- بابا يقول لكم اتفضلوا فى أودة القعاد..
وطوى محبى كتابه فى حركة سريعة كان الملل من القراءة كان يأكل صدره منذ ساعات..
واعتدل إبراهيم فى جلسته وأسقط جريدة الاهرام من يده، وبدأ يتابع نوال فى نظرات مختلصة..
عجيبه.. إنه يكره البنات.. ليس إلى الحد الذى كان يعتقد.. إنه على الأقل لا يكره نوال، ولا يتجاهلها.. بل يشعر براحة كلما سمع صوتها، وكلما أحس بها بجانبه.. راحة كالتى يحس بها إنسان حر.. إنسان لم يقتل، ولم يسجن، ولم يفر، ولا تطارده الحكومة.. راحة كالتى كان يحس بها فى بيته، عندما كان يفلق على نفسه باب حجرته، ويهدأ كل شئ حوله، ويبقى وحده ساعات طويلة، بينما يحس فى قرارة نفسه أنه ليس وحده، إنما هناك شخص آخر.. أمه فى الغرفة المجاورة، وأنفاسها فى البيت كله.. إن نوال تذكره بأمه.. لا، إنها تذكره بالهدوء والراحة.. لا، إنها تذكره بالحرية.. الحرية..

إنه يحس الآن فى هذا البيت بحاجته إلى الحرية أكثر مما كان يحس بها فى السجن.. إنه يحس كأنه ازداد تشبها بالحياة.. أسباب جديدة لا يتبينها جعلت الحياة أثمن لديه مما كانت، وأثمن مما كان يعتقد. ربما كان هذا البيت الذى لجأ إليه، والطيبة التى تحوطه،

والحياة البسيطة السانحة التي تجرى فيه.. ربما كان هذا هو السبب الذى يزيده تشبهاً بالحياة.. إنه لا يحس هنا أن فى مصر انجليز، أو خونة، أو ثورة، أو حكومة ظالمة.. إنه يحس أن مصر كلها كهذا البيت.. طيبة بسيطة، يحوطها الهدوء والسلام.. طافت بذهنه كل هذه الخواطر فى لحظة واحدة، وهو يقوم من على مقعده ويساوى قميصه وسرواله..

وقال محبى وهو يتقدمه نحو الباب:

– اتفضل.. يا استاذ ابراهيم!

وأبتسم عندما سمع كلمة « استاذ ».. إنه كلما سكت عن صديقه فترة، عاد ووضع التكليف بينهما!!

وقالت نوال وهما متجهان إلى الباب:

– أنت يا محبى ما تقعدش على المكتب إلا لما تلخبط كيانه.

وقال محبى دون أن يلتفت إليها:

– علشان تلاقى حاجة تعملها.. يعنى حتعملى ايه إذا مالقتيش حاجة تساويها!

وانحنى نوال تجمع جريدة الاهرام من فوق المقعد حيث تركها ابراهيم، ثم بدأت تجمع الكتب والكراسات والأوراق المتناثرة من فوق المكتب وترتيبها فى نظام جميل.. ولم تعرف إنها دست بين أوراق وكتب أخيها، الورقة التى نسى ابراهيم أن يمزقها.. الورقة التى كتب عليها ابراهيم بخط يده، اسم الضابط الذى كان يقوم بحراسته..



ودخلا إلى حجرة «القعد»..

وانحنى محبى يقبل يد أبيه.. ثم قام الأب من جلسته فوق الأريكة «الاستامبلى» نصف قومة وهو يصافح ابراهيم.. وجلس كل منهما على مقعد فى مواجهة الأب.. محبى فى المقعد «الاسيوطى» العريض الذى يبدو فيه صغيراً إلى حد أن يتسع لشخص آخر بجانبه.. وإبراهيم على مقعد خيزران.. وقد جلس فى أدب وصمت، وهو يعانى بينه وبين نفسه نوعاً من القلق، فلم يكن

حتى هذه الساعة قد حدد بالضبط الدور الذى يجب أن يقوم به
أمام الأب.. هل يقوم بدور الابن المهذب المطيع المسكين، أم يقوم
بدور الرجل الكامل الذى يناقش ويضع الخطط ويجر إليها الأب
نفسه؟ هل يبدو بكل شخصيته أمام الأب، أم يخفى جزءا منها
احتراما له؟!

ورفع عينيه إلى الأب فى لمحة خاطفة.. ورآه كأن لون وجهه
قد تغير عن أمس، وكأنه قد ازداد نحولا وهزالا عن أمس..
ومرت فترة صمت..
ثم تنحنح الأب، كأنه ينفذ بعض همه، وقال فى صوت
مجامل:

- ازيك دلوقت يا ابنى.. على الله تكون نمت كويس امبارح!
وقال إبراهيم:
- الحمد لله يا عمى..
ثم كأنه أراد أن يخفف من حدة التكليف الذى يحيط بهم،
فاستطرد قائلا:

- الحقيقة أنا نمت امبارح أكثر من اللازم!
ولم يعلق الأب.. لم يتكلم ولم يبتسم..
ومرت فترة صمت أخرى.. تبادل خلالها محبى وإبراهيم
النظرات.. ثم قال الأب كأنه يحدث نفسه:
- أنا النهارده شفت والدك خارج من باب وزارة الاشغال.. كنت
حائسى نفسى وروح اسلم عليه.. إنما كان باين عليه إنه مهموم
خالص..

وتنهذ الأب كأنه يعنى نفسه بذكر الهموم..
وقال إبراهيم كأنه لا يزال يحاول أن يخفف التوتر الذى يحيط
بهم:

- أظن والدى خد خلاص على الحاجات دى..
ونظر إليه الأب نظرة غاضبة كأنه ينهره، وقال بصوت غاضب:
- الأب أب مهما كان.. عمره ما يرضى لابنه لا بالضميم ولا
بضياح مستقبله!

وسكت إبراهيم.. وأرخى عينيه وهو يبتلع ريقه..
وكان غضبة الأب قد زوبته بجرأة كان يبحث عنها، فعاد يقول
وهو يحاول أن يبدو صوته هادئاً:
- يا ترى عرفت تتصل باصدقائك النهار ده..
وقال إبراهيم بعد أن نظر إلى محيي نظرة خاطفة كأنه يوصيه
ألا يتكلم:
- بكرة بإذن الله.. كان لازم أفوت يوم علشان البوليس ما
يخدش باله..
وسكت الأب كأنه اقتنع، ثم قال بعد فترة:
- ويا ترى حنتصل بيهم ازاي!
واحتار إبراهيم بماذا يجيب.. وعاد ينظر إلى محيي كأنه يسأله:
«هل والده يقر الخطأ التي اتفقا عليها».. ولكن محيي كان قد عاص
في مقعده أكثر، وغاص وجهه في سحابة صفراء..
واستبدت الحيرة بإبراهيم.. إنه لم يكن يحتار أبداً أمام أى
سؤال يسأله زملاؤه الشبان.. الناثرون مثله.. وكان فى حيرته
يحادث نفسه: «إنه لم يتعود فى حياته أن يطلع أباه على خططه
الوطنية.. فهل يطلع عليها هذا الأب.. هل يقول له إنه قرر أن يتولى
ابنه مهمة الاتصال بأصدقائه.. وإنه سيزج بابنه فى خططه
ويعرضه لكل ما تصبه الحكومة على الوطنيين من عذاب.. وهل
يرضى الأب بذلك.. هل يسكت وهو يرى ابنه يسير بقدميه نحو
الحقل الملغم. إنه رجل وطنى، مخلص فى وطنيته، وإلا لما قبله فى
بيته.. ولكن أى نوع من الوطنية.. وما قدرتها وطاقاتها على
الاحتمال.. إنها على الأرجح وطنية سلبية.. وهى تدافع عن سلبيتها
بعنف وقسوة.. والسيد مصطفى أحمد زاهر سيدافع عن سلبيتها..
سيثور عندما يعلم أن ابنه سيقوم بدور إيجابى.. وقد تنتهى ثورته
بأن يطرده من البيت.. أن يضحي بشهامته فى سبيل سلامته
ويطرد ضيقه الخطير الذى فر إليه والحكومة كلها وراءه.. لا، لن
يقول له شيئاً، يجب أن يبقيه بعيداً عن خططه، كما أبقى والده بعيداً
عنها.. وكما يقف كل الآباء بعيداً عن خطط أبنائهم»..

والتفت إلى محبى لفظة سريعة ونظر إليه بكل عينيه كأنه يسلط إرادته عليه حتى يشل لسانه، لئلا يتكلم ويقول شيئاً لأبيه.. ولكنه كان فى الوقت نفسه لا يزال يحدث نفسه: «لماذا لا أقول له الحقيقة.. إنه رب البيت الذى يؤوينى، ويجب أن أثق به.. لماذا لا أثق فى عقلية الشيوخ.. ربما كان عنده رأى ينفعنى، وينقذنى.. رأى يستمده من تجاربه وحرصه وحماسه الهادئ.. ثم.. الأمانة.. يجب أن أكون أميناً معه.. أقل ما يجب على.. الأمانة.. وكفاه ما عرضته له».

وطال تردده.. إلى أن سمع الأب يقول:
- مش ضرورى.. أنا مش عايزك تقول إلا الحاجات اللى تمسنى وتمس بيتى!
وقال إبراهيم، والكلمات تكاد تتعثر فوق لسانه كأنها ترتطم بتردده:

- الحقيقة لسه ما قررتش اتصل بيهم إزاي.. إنما بكره حيتم كل شئ بإذن الله!
وقال الأب كأنه ينصحه:

- أنا شايف أن ظروفك بقت صعبة جداً بعد البلاغ اللى اذاعته الحكومة.. الناس البطالة كتير، وخمستلاف جنيه مش شوية.. لازم تعمل حسابك على كده..

وقال إبراهيم فى استسلام:
- رينا يستر.. اطمئن يا عمى.. بكره كل حاجة حنتتهى على خير!

ونظر إليه الأب وفى عينيه دهشة وفيها تأنيب، كأنه يتهمه بالوقاحة إذ يتكلم عن الاطمئنان..
يطمئن!! كيف؟

وهل يعلم مثل هذا الشاب مدى حاجته اليوم إلى الاطمئنان؟ وكيف يعلم وليس له زوجة ولا أولاد وليس وراءه هذا الماضى الطويل الذى قطعه خطوة خطوة، وكل خطوة بحساب.. وليس أمامه مثل هذا المستقبل القصير الذى يحتاج إلى كل دقيقة فيه ليصنع

لزوجته وابنائها ما يطمئنه عليهم من بعده.. وليدفع الحياة فيهم بعد أن يتركهم وحدهم..
وأعتدل في جلسته وألقى بأذنيه إلى الراديو كأنه يتابع تلاوة القرآن..

وعاد الصمت.. لا يقطعه إلا صوت القارئ، وإلا نظرات قليلة مختلسة يتبادلها إبراهيم ومحبي، وإلا نحنة الأب بين الحين والحين..

وفجأة، واجه الأب إبراهيم مرة ثانية، وقال في حدة كأنه بنفسه عن بخار اختزنه طويلاً في صدره:

- أنا اللي عايز اعرفه، أنتم عايزين ايه.. ما فيش حد في البلد عاجبكم.. ما فيش راجل ماشيين وراه.. النحاس مش عاجبكم، النقراشي مش عاجبكم، الملك مش عاجبكم.. تبقوا عايزين مين.. مين اللي حضرتك عايزه يحكم البلد.. حتقولى كلهم ما ينفعوش.. كويس.. موافقين.. إنما مين.. هايجين ومهيجين البلد علشان ايه.. ما تسكتوا وتوفروا تعبكم لغاية ما تلاقوا الراجل الكويس اللي انتم عايزينه..

وبوغت إبراهيم بهذه الثورة، والتفت إلى محبي كأنه يسأله عن اللغة التي يمكن أن يحدث بها أباه.. وقبل أن يتكلم، كان الأب قد استطرده قائلاً كأنه يدافع عن نفسه.. عن نظريته في الحياة:

- زمان في ثورة تسعتاشر كان فيه زعيم.. البلد كلها ماشية وراه.. كان فيه سعد زغلول.. وكانوا الناس عارفين هم بيعملوا ايه.. عارفين عايزين ايه.. عايزين سعد زغلول يتفاوض ويحقق الاستقلال إنما دلوقت مين يحل محل سعد زغلول، ومين يقاوض الإنكليز والا يحاربهم؟

والتفت الأب إلى ابنه كأنه يعنيه بكل هذا الكلام، ويتعمد أن يقنعه به ليحمله من مبادئ صديقه..

وكان في لهجة الأب لون من التحدى وكان كأنه يتعمد هذا التحدى.. ويتعمده أمام ابنه بالذات، حتى يقنعه بأنه هو أيضاً - الابن - يستطيع أن يتحدى إبراهيم في آرائه..

ولم يقبل ابراهيم ان يناقش الاب.. لم يقبل التحدى.. وكان يعرف كيف يرد عليه.. كان يستطيع أن يقول انه لا يسير وراء زعيم، ولكنه يسير وراء مبدأ.. وأنه لا يبحث عن شخص يحكم مصر، ولكن يبحث عن الحرية، والمساواة، والرخاء لمصر.. ولكنه لم يرد.. لم يناقش، ربما لطبيعته التي كانت تتسع لسماع كل الآراء دون أن يثار، وربما لأن الاحترام المقروض عليه تجاه الأب يمنع من مناقشته، وربما لأن ذكاءه دله على أنه ليس فى موقف يستطيع فيه أن يدخل فى أية مناقشة سياسية..

وقال فى صوته الهادئ وهو يتعمد أن يغير مجرى الحديث:

- حضرتك اشتركت فى ثورة تسعناشر؟؟

وتنازل الأب عن تحديه بسرعة.. كأن هذا التحدى لم يكن سوى زفرة بخان.. وسرح بعينيه وعلت شفثيه ابتسامة خفيفة كأنه يترحم بها على ذكرى سعيدة.. وقال فى هدوء:

- كل البلد اشتركت فيها.. كان عمرى أيامها خمستاشر سنة. ما كنتش أقدر أروح اسمع سعد زغلول لما يخطب وماكنتش باشترك فى المظاهرات.. إنما كنت حافظ خطب سعد صم، وكان والدى الله يرحمه يوقفنى قدامه ويسمعلنى الخطب، واحدة واحدة.. وأبتسم إبراهيم ابتسامة حانية كأنه يرى أمامه صبيبا فى الخامسة عشرة من عمره، يعيش بقلبه، وخياله، وكل ما يتسع له ذهنه، مع سعد..

واستطرد الأب قائلاً:

- كانت ثورة بصحيح.. وكانت البلد كلها يد واحدة!

ودخلت الأم..

كانت خارجة من المطبخ، وصهد «وابور الجاز» يصهر وجهها المكتنز، فيبدو كأنه وجه عروسة كبيرة من عرائس الاطفال.. وبددت ابتسامتها الطيبة الجو القلق الذى يحيط بالرجال الثلاثة، وكأنها جاءت تحمل إليهم رسالة الحياة والسلام.. فتحرك فى الثلاثة أجمل ما فيهم.. ابتسم الأب ابتسامة حاول عبثاً أن يخفيها تحت قناع الحزم والصرامة الذى يصير على أن يبدو به.. ورفع

محيى رأسه إلى أمه كأنه يرفع إليها قلبه، ونظر إليها من خلال نظارته بعينين والهتين كأنه يلجأ إليها لتحمية تحت جناحيها.. وقام إبراهيم واقفا كأنه التقى بإيمانه.. الإيمان الذى لا يداخله شك فيه.. إيمان يزوده بالحياة كلها.. الإيمان بالأم..

وقالت الأم فى لهجتها المتعجلة، وكأنها دائما مشغولة.. ودائما لا تستطيع أن تقف حتى لا تقف الحياة نفسها:

- فاضل أد ايه على المدفع يا جماعة؟

ثم التفتت إلى ابراهيم وهى تضع يدها على كتفه:

- اتفضل يا بنى.. اقعد.. اقعد يا ضناى.. ربنا يحميك..

ويحرسك!

وقال محيى بعد أن نظر إلى الساعة.. قال بسرعة وكأنه يعلم أن أمه لا تنتظر أبدا جوابا على اسئلتها:

- فاضل خمس دقائق..

وقالت الأم، كأنها تلومه لأنه أجابها:

- طيب اتفضل حضرتك افرش سجادة الصلا لبابا.. ما هو كل واحد لازم يعمل حاجة، البنيتين هلكوا النهاردة يا حبة عيني..

ثم التفتت إلى زوجها قائلة دون أن تغير نغمة صوتها:

- اسمع يا زاهر.. أول البت سنية ما ترجع، بإذن الله، من غير مقاطعة، أنا حزود ماهيتها ريال.. دى اتاريخها كانت شايلة البيت

شيل!

وقال الأب، وهو يتنهد، كأن عودة سنية بمثابة ازاحة الهم عن البيت:

- بإذن الله!

وقام محيى واعتلى حافة المقعد «الأسيوطى» وجذب من فوق الدولاب سجادة الصلاة..

واعتمد إبراهيم على حافة مقعده كأنه يهم بالقيام، وقال وهو يبتسم ابتسامة كبيرة:

- أقدر أساعد فى حاجة يا افندم..

والتفتت إليه الأم وقالت بلهجتها السريعة:

- يا ابني كفاية الهم اللى انت فيه.. ده احنا كلنا نخدمك بعيننا!
وانكمشت ابتسامة ابراهيم فوق فمه، كأنها تغرق فى ذكرى
همه.. أو كأنه يتذكر شيئاً كان قد نسيه.. تذكر أنه ليس عضواً فى
هذه العائلة.. وليست هذه الأم أمه.. وأنه ليس كمحبي.. لم يكن
مثله أبداً.. حتى فى بيته.. لم يتمتع بهذا الهدوء، وهذه الطيبة، ولم
تكلفه أمه يوماً بشئ من أعمال البيت..

وخرجت الأم، وهى تقول كأنها تحدث نفسها:
- أما أروح اغرف الأكل.. زمان البنات محتاسين!
وخرجت، وهى تسير فى خطوات نشطة كأن اكتناز جسدها
حشو من ريش النعام..
وانطلق صوت مدفع الإفطار، بينما كان مقرئ الإذاعة لم يختم
التلاوة بعد.

وقال محبى وهو يقوم من على مقعده:

- أظن المدفع ضرب..

وقال والده دون أن يتحرك:

- استنى لما نسمع الأذان..

وأرتفع صوت المؤذن.. وظل الوالد لا يتحرك إلى أن انتهى
الأذان. ثم قام وهو يعدل الطاقية فوق رأسه.. ووقف للصلاة بينما
قفز محبى من على مقعده، وقال وهو يدفع إبراهيم أمامه تأدياً:
- أتفضل يا إبراهيم..

ثم همس فى أذنه بصوت لا يكاد يتجاوز شفتيه:

- أوعى تكون زعلت من كلام بابا..

وقال إبراهيم بلا مبالاة:

- أبداً..

وخرج الاثنان، والتقيا فى الممر المؤدى إلى حجرة المائدة،
بسامية ونوال خارجتين من المطبخ وكل منهما تحمل طبقاً من
أطباق الطعام..

وابتسمت سامية لابراهيم ابتسامة خجلة كأنها تؤدى بها واجباً

مفروضاً عليها.. ومالت نوال برأسها إليه، وقالت فى صوت خفيض كأنها تحاول أن تخفف عنه:

- أبقى قوللى رأيك فى المسقعة.. أنا اللي عملاها!!
وابتسم إبراهيم ابتسامة كبيرة.. كأنه بدأ يحس من جديد أنه فى بيته.

والتفوا وقوفا حول المائدة.. ثم جاءت الأم تحمل طبقا كبيرا من الأرز، ناولته لسامية لتضعه على المائدة، وهى تقول:
- اقعدوا يا ولاد على بال بابا ما يصلى.
ثم لمحت محبى وهو يمد يده إلى سلطانية المخلل، فنهزته قائلة:

- ما تفرش على مخلل.. خاف على معدتك يا ابنى.. ده حتى حرام عليك.. السنة بتقول إننا نفطر على بلح!!
وقال محبى ضاحكا:
- أصل أيامها ما كنش فيه مخلل!!
وتجاهلته الأم الطيبة، وقالت لإبراهيم وهو حائر أين يجلس:
- اقعد يا ابنى هنا جنب محبى.. نورقنا..
وجلس إبراهيم وهو يقول فى صوت خفيض:
- متشكر..

وعادت تقول له وهى تملأ له كوبا من شراب القمر الدين:
- والنبي يا ابنى انا مش صعبان على إلا الست والدتك.. دى عمرها ما تقدر تتهنى على لقمة وانت بعيد عنها..
وأحس إبراهيم بأن قلبه ينقبض حتى تكاد الدماء تختنق فيه..
إنه يعلم أن السيدة الطيبة لا تعتمد تذكيره بأمه.. لا تعتمد أن تثير شجونه، أو تثير عواطفه التى يخفيها فى أعماق نفسه حتى كاد ينساها.. أنها سيدة طيبة، ورغم ذلك فهى تؤلمه.. تعذبه.. بلا تعمد!
ومد يده يتناول كوب الشراب، ونكس عينيه فى طبقة لا يرفعهما..

وجاء الأب وجلس دون أن يلتفت إلى أحد، ثم رفع الملعقة

وأسقطها فى طبق الشورية، وهو يتمتم «اللهم إنى لك صمت، وعلى رزقك أفطرت»!

وانهمكت العائلة فى تناول طعام الإفطار.. الاب صامت دائما.. والأم تنقل عينيها بين الوجوه، ولا تكف عن اصدار التعليمات، كأنها قائد ماهر يدير معركة حياة أو موت.. «ما تلكش عيش كثير يا محبى.. اعمل حسابك على الكنافة».. «سامية.. قبرى طبق الرز من الاستاذ ابراهيم».. «ما تاكل يا خويا.. انت عايز عزومة ولا ايه».

ورفعت نوال رأسها ، وقالت :

- ايه رأيكم فى المسقعة..

وتذكر ابراهيم انه يجب أن يقول رأيه.. ولكنه أحس بحرج شديد كأنه يهم بأن يقول كلمة غزل لا يصح أن يقال.. وانتظر أن يبدأ أحد من افراد العائلة بإبداء رأيه فى المسقعة.. ولكن واحدا منهم لم يتكلم، وكأنه هو وحده الذى سمع سؤال نوال.. وأحس أنه يجب أن لا يتخلى عنها.. يجب أن يشعرها باهتمامه.. وأن يشعرها بأن «المسقعة» عمل رائع تهنا عليه.. فقال بصوت خفيض دون أن يرفع عينيه إليها، وقد ازداد وجهه حياء:

- مدهشة!!

والتقطت نوال كلمته فرحة، وقالت كأنها تخاطب أفراد العائلة كلها:

- أنا اللي عاملها!

وردت سامية وهى تنظر إليها بتحد:

- بدمتك انتى اللي عاملها.. هو اللي يقشر بدنجان ببقى اسمه عمل مسقعة!!

وصاحت نوال كأنها تدافع عن نفسها:

- لا يا شخية.. بأه كل اللي عملته تقشير بدنجان..

ثم التفتت إلى أمها قائلة:

- والنبي يا ماما، مش انا اللي قليت البدنجان وعملت كل حاجة.. وقالت أمها دون أن تنظر إليها:

- أيوه.. إسكتى بأه.. بس يا سامية!
ونظرت نوال إلى إبراهيم كأنها تشهده على انتصارها..
وقال محبى ساخرا:
- وأنا قاعد أقول يا ترى ايه الغلط اللي فى المسقعة دى!
وردت نوال بسرعة:
- طب حاسب على صوابك..
ورفع الأب عينيه وفيهما نظرة متبرمة، ودار بهما دورة سريعة
بين وجوه المجتمعين، كأنه يأمرهم بالسكوت..
وسكتوا جميعا.. حتى الأم سككت، ولم تتكلم من جديد إلا بعد
أن جاء دور الكنافة..
وانتهى الإفطار..
وانتقل الرجال إلى حجرة «القعاد».. وبقيت الأم وابنتاها يجمعن
الاطباق من فوق المائدة وينقلنها إلى المطبخ..
وساد الصمت فى حجرة القعاد.. الأب صامت فى تبرم، كأنه
يعانى عسر الهضم، وكأن تزامم الأفكار على رأسه قد اجتذب كل
دماائه ولم يبق شئ منها يحرك به معدته.. وإبراهيم صامت فى
قلق، كأنه يتربص فرصة ينتقل فيها إلى الغرفة الأخرى ليخلو إلى
نفسه بعيدا عن الأب، وبعيدا عن فروض المجاملة والتأدب التى
يفرضها عليه وجود الأب أمامه.. ومحبى صامت، يحاول أن يسلى
نفسه بشئ.. فينقر بأصابعه على المقعد، ويضغط على قنطرة
نظارتة، ويتلفت إلى الباب كأنه يتعجل عودة أمه وأختيه..
وبعد قليل دخلت سامية تحمل صينية عليها براد وإكواب
الشاي، وضعتها على مائدة أمام الأب.. ثم التفتت إلى محبى وقالت
كأنها تعنى بقولها لكل الحاضرين:
- اللي حيقوللى أعمل حاجة بعد كده.. حارمى نفسى من
الشباك!
ثم ألقت نفسها على مقعد، وهى تغالى فى إبداء اعيائها..
وقال محبى وكأنه انتهاز الفرصة ليخفف عن نفسه:
- الخوف أنك تقعى على حد..

ورد عليه الأب كأنه يؤيد ابنته، وهو يملأ أكواب الشاي:
- قوم يا محبي هات الجرنال..
وقام محبي، وعاد بالجرنال.. ودخلت الأم وخلفها نوال.. وقالت
نوال وهي تجلس:
- احنا حقنا نعمل زي أمريكا.. كل واحد بعد ما يأكل يغسل
طبقه!

ورفع إبراهيم عينيه إليها كأنه يقول:
- ياريت!!
وقال محبي:
- في أمريكا ما بيكلوش مسقعة.. وإلا ما كنوش غسلوا
الأطباق.. ده غسيل أطباق المسقعة عايز واحد اختصاصي.. زي
حضرتك كده!

وردت نوال بسرعة:
- خلاص.. من هنا ورايح حضرتك تبقى تأكل خضار مسلوق،
علشان تقدر تغسل طبقك!
ووزعت أكواب الشاي.. وبدأ كل منهم يحاول أن يرشف كوبه
ويتمتع به في هدوء..

وفجأة.. رن جرس الباب!
والتفتوا جميعا في حركة واحدة.. لا إلى الباب ولكن إلى
بعضهم البعض.. ووضع الأب كوب الشاي على المائدة وأسقط
الجريدة من يده الأخرى.. ونظر صامتا.. كأنه ينتظر أن يتكلم
أحد..

وقالت الأم وهي تحاول أن تخفي أنفاسها المبهورة:
- ياترى ده مين ده.. سترك يا رب!
وقالت سامية:
- بلاش نفتح!!
وقال محبي:
- مش ممكن.. إحنا مولعين النور واللى بره عارف اننا
وجودين!

وقالت نوال:

- يمكن عم على البواب.. ولا أم البت سنية جية تترجى نرجعها..

وعادت الأم تقول وكأنها لم تعد تحتل:

- دى مش عيشة يا خواتى.. إحنا عمرنا لاكننا حرامية، ولا كان يدخلنا شر.. افتحوا الباب، وزى ماتكون باه..

وظل الأب وإبراهيم صامتين.. الأب ينظر إلى إبراهيم كأنه يسأله فى غيظ : «ما تفعلون فى مثل هذه الأحوال يا حضرات الشبان الثوار»! وإبراهيم يحس بقلبه يدق هذه الدقات المرتعشة التى تعودها منذ بدأ يهرب، والتى لا يبدو أثر لها على وجهه ما لم تنظر إلى عينيه، ويحس أكثر بالحرى أمام العائلة.. يحس بنفسه كأنه يزن ستين طنا من الحديد، ويجلس على صدور كل هؤلاء الأبرياء الطيبين.. وبذل مجهودا كبيرا للاحتفاظ باتزان.. اتزان أعصابه واتزان تفكيره.. قبل أن يقول موجهها كلامه للأب:

- أظن يا أفندم.. حد يفتح شراعة الباب، ويشوف مين اللى جه.. إذا كان حد غريب يعمل إن الباب مقفول بالمفتاح، ويرجع لنا بحجة أنه حبيب المفتاح ونبدى نتصرف..

وتلقت نوال الفكرة كأنها بهرت بها.. ونظر محبى إلى إبراهيم كأنه يشك فى نجاح فكرته.. وتململت سامية فى مقعدها كأن هذا الحال لا يعجبها..

وهزت الأم رأسها ورفعت كفها إلى صدرها كأنها تطرد من حولها شر العفارىت..

وقال الأب، وهو يلوى شفتيه، كأنه يحتقر هذا النوع من التفكير ولكنه لا يجد مفرا منه:

- قومى يا نوال اعملى اللى بيقوله إبراهيم..

وخرجت نوال وهى تتلفت إليهم كأنها تستمد منهم شجاعتها، وودعوها بنظرات متكسرة كأنهم يبتهلون ألا تعود إليهم بشر.

وعادت نوال بسرعة، وقالت وهى ترتجف:

- عبد الحميد، ابن عمى!!

وقال الأب ، كأن الالفاظ انطلقت رغما عنه:
- أعوذ بالله.. يا حفيظ يا رب..
وقال إبراهيم كأنه يخاف ضياع الوقت:
- أظن أروح أنا أقعد فى أوده محبى.
وقال محبى بسرعة:
- ده عبدالحميد لما بيجى ما بيخليش أوده ما يخشهاش.. عامل
نفسه واحد من العيلة!
والأم تهز جسمها الضخم يمنة ويسرة وتدق على صدرها
بيدها دقات منتظمة، وهى تقول: يارب.. يارب.. يارب!
وقالت سامية:
- أقول لكم. يدخل البلكونة ونقفل عليه..
وقال الأب:
- والجيران!
وقالت نوال:
- أحسن طريقة إننا نخش أنا وسامية فى أودة الضيوف ونعمل
أن فيه بنات بيزورونا، والاستاذ ابراهيم يخش يقعد معانا.. و..
وقاطعتها سامية بسرعة:
- والله يا لختى، حيقعد يلف ويدور لغاية ما يخش علينا!
واشتد القلق فى العيون، وبدأ كأن فى رأس كل منهم الف
اقتراح، ليس بينها اقتراح نافع.. واضطرب كل شىء.. كان كل واحد
منهم يهم أن يتحرك ثم لا يتحرك.. والام لا تزال تهز جسدها
المكتنز وتخبط على صدرها وتردد «يارب.. يارب» .. والأب تقلصت
عضلات وجهه حتى أصبح كقطعة الاسفنج لا يبدو منه أنف ولا
فم ولا عينان.. وإبراهيم انقلب اضطرابه إلى ثورة.. ثورة على هذه
العائلة المرتبكة التى لا تستطيع أن تدبر أمره.. ولاحت له من خلال
ثورته المكبوتة صورة مسدسه.. لما لا يأخذ مسدسه ويشهره فى
وجه القادم، ثم يفر إلى الخارج.. إلى أى مكان.. وليكن ما يكون..
وقال فى عصبية وصورة المسدس لا تزال تهتز أمام عينيه:
- يعنى ما فيش ولا حته فى البيت أقدر استخبي فيها.

وانطلق محيى وهو يرفع رأسه كأنه مستغرق فى تفكير عميق:
 - أحسن مكان هو السندرة.. يطلع إبراهيم يستخى فيها، وأظن
 مش ممكن عبدالحميد حيطلع وراه..
 ومرت لحظة صمت، نظر خلالها كل من فى الحجرة إلى الآخر
 ثم التفتوا جميعا إلى الأب..
 وقال الأب فى صوت أجش:
 - أظن ما فيش غير كده..
 ونظر إلى إبراهيم نظرة حادة كأنه يطعنه بعينه.. ثم التفت إلى
 نوال قائلا:
 - روى انتى يا نوال طلعى إبراهيم فى السندرة، وأنت
 يا محيى روح افتح الباب..
 وقال محيى:
 - طيب فىن المفتاح علشان أعمل نفسى إننى بافتح الباب بيه!
 ومدت الأم يدها تحت وسادة «الكنبة» لتخرج مجموعة المفاتيح
 التى تحتفظ بها دائما بجانبها..
 وقالت نوال وهى تشير إلى إبراهيم:
 - تعال..
 ثم تقدمته بخطى سريعة نحو المطبخ.
 كانت «السندرة» عبارة عن سقف معلق فى أحد الأركان تحت
 سقف المطبخ.. ورفعت نوال سلما خشبيا وأسندته إلى الجدار وهى
 تقول لإبراهيم:
 - اطلع..
 ووضع إبراهيم قدمه على السلم وهو يسأل نوال:
 - هو بيشغل ايه ابن عمك؟
 وكان يسألها بأنفاس مبهورة وكأنه يريد أن يطمئن إلى أن ابن
 عمها ليس ضابط بوليس.. ليس عدوا يتعقبه..
 وقالت نوال هامسة:
 - ده واد صايح ما كملش تعليمه.. وبishtغل فى شركة، ويقاله
 سنة رايح جاي عايز يتجوز سامية اختى.. ده بعده!

وصعد إبراهيم درجات السلم، وكأنه اطمأن.. واضطر ان يقوس ظهره حتى يصبح رأسه بين ركبتيه ليستطيع ان يجلس داخل السندرة..

ورفعت نوال السلم واعادته إلى مكانه، وأطفاأت النور وخرجت لتشترك في استقبال الضيف..

ومد إبراهيم يده بصعوبة، وأزاح من تحته حبات البصل والثوم التي جلس عليها.. وسمع محيى من الخارج يقول للقادم:
- أصل من يوم سنه ما خرجت، ومما بتقفل الباب بالمفتاح بعد الفطار على طول!!

وابتسم إبراهيم، كأنه يهنئ صديقه على ذكائه.. وحاول أن يظل محتفظا بابتسامته ليؤنس بها نفسه في الظلام الذي يحيط به.. ولكنه لم يستطع.. أن رائحة الثوم والبصل المختلطة برائحة السمن والعسل الأسود بدأت تتسلل إلى أنفه.. وشئ لزج يلامس صفحة وجهه وجانب عنقه.. لعلها صفيحة زيت.. وأشياء تتحرك عند قدميه.. لعلها فئران.. ولعلها ستقرضه بعد قليل.. وظهره المقوس بدأ يؤله.. وانفاسه بدأت تتململ في صدره.. وعيناه تؤلمان.. تكادان تدمعان، ليس من تأثير رائحة البصل ولكنه يريد أن يبكي.. نعم، انه يحس كأنه على وشك البكاء.. بل إنه يتمنى أن يبكي ليفرج عن هذا الضيق الذي يخنق قلبه.. يبكي حاله.. يبكي إحساسه بالاضطهاد.. انه لم يكن يبكي في السجن لأنه كان يعرف من يضطهده، ويصب حقه عليه.. ولكنه هنا ليس في السجن.. إن الدنيا كلها تضطهده هنا.. ظروفه نفسها هي التي تضطهده.. الظروف التي اختارها بنفسه..

ومضت ساعة.. قاوم كل دقيقة منها بكل إرادته.. قاوم ثورته على نفسه، وقاوم إحساسه بالاضطهاد.. وقاوم رغبته في البكاء.. وقاوم رائحة البصل والثوم المختلطة برائحة السمن والعسل الأسود..

وأفاق على صوت أقدام تتجه نحو الباب الخارجى.. ثم سمع صوت الباب الخارجى يفتح، وفي نفس اللحظة دخلت نوال،

وأضاءت نور المطبخ، ووضعت له السلم وهي تهمس:
- أنزل.. خلاص..خرج!!
وقبل أن ينزل سمع صوت الباب الخارجى يغلّق.. إنه يذكر
تماماً أنه سمعه يغلّق.. ونزل وكل عضلة فى جسده تنن.. وتقدم
نوال نحو باب المطبخ كأنه ينطلق إلى الحرية..
وقبل أن يخطو فى الممر الذى يفصل المطبخ عن باقى الحجرات،
سمع الباب الخارجى يفتح مرة ثانية.. ربما خيل إليه أنه وهم..
ولكنه يذكر أنه سمع شيئاً كأن الباب الخارجى يفتح..
وفجأة رآه أمامه..
شخص غريب.. ييحلق فيه بعينين دهشتين.. ومن خلفه محيى
واقف كالصنم..
وتحرك إبراهيم حركة تلقائية وخطى خطوة سريعة داخل المطبخ
كأنه يختبئ من طلقة مسدس..
وتسمر كل العائلة، لا تتحرك.. صامتة.. ذاهلة.
ثم تحرك الشخص الغريب، وقال وعلى شفثيه ابتسامة خبيثة:
- أسف.. أصلى نسييت المجلة اللى كانت معايا!!
ثم دخل من تلقاء نفسه إلى حجرة «القعاد».. وعاد يحمل فى
يده مجلة.. ثم دار بعينيه على وجوه العائلة الذاهلة، والابتسامة
الخبثية لا تزال بين شفثيه، وقال:
- السلام عليكم.
ولم يرد أحد تحيته، ولم ينتظر رداً.. خرج وأغلق الباب وراءه!!

وخطا إبراهيم خارج المطبخ وقد امتقع وجهه
وارتفعت جفونه فوق عينيه كأنها حملت دقات قلبه
الواجف.. وأخذ ينظر إلى أفراد العائلة في تساؤل
جزع..

كان ينتظر أن يناقشوه فيما يجب عمله.. كان يريد أن يعرف
من هو عبدالحميد.. أخلاقه، طباعه.. وهل يبلغ عنه البوليس؟ يريد
أن يسمع أى شئ، حتى لو شتموه.. فقط يريد أن يسمع شيئا يبدد
هذا الجزع الذى يملأ صدره.. شيئا يعينه على التفكير، وعلى
تحريك ذهنه، حتى يستعين بنشاط ذهنه على إخماد رعشة قلبه.
ولكن.. لم يتكلم أحد من أفراد العائلة الذاهلة.. وعندما بدأ
ذهولهم يتبدد، حولوا عيونهم إلى الأب.. كأنهم يخافون عليه.. كأنه
هو الضحية.

ولم يتكلم الأب.. ولم يلتفت إلى أحد ولا إلى إبراهيم.. واتجه
إلى غرفته فى خطوات ثقيلة متعبة كأنه يجرجر عمره وراءه.
وسارت خلفه الأم، وعلى وجهها جزع ولهفة وخوف، وجسدها
المكتنز يهتز فوق ساقها المرتعشتين كأنه يكاد يسقط من فوقهما.
والتفتت سامية إلى إبراهيم وحديثه بنظرة حادة فيها غيظ
مكتوم، كأنها أطلقت من عينيها يدا ملتهبة تصفعه بها، وتمسكه بها
من قفاه وتلقى به خارج البيت، ليستريح البيت منه.. ثم سارت فى
خطوات عصبية تدق بها الأرض، واختفت فى غرفتها، وصفتت
باب وراءها فى عنف..

ورفعت نوال رأسها إلى إبراهيم وبين عينيها نظرة رحيمة تعتذر

بها.. تعتذر عن أختها، وعن ابن عمها، وعن أبيها، وعن الحكومة التي تطارده، وعن مصر كلها التي أتعبت بمشاكلها.. وحاولت أن تتكلم.. حركت شفيتها لتقول شيئاً.. ولكنها لم تجد شيئاً تقوله.. فرت كل الكلمات من رأسها، وهي تلتقي بوجه إبراهيم المتقنع، وجفنيه المرتعشتين فوق عينيه، وحاولت أن تستعيز عن الكلمات بابتسامة تشجعه.. تخفف بها عن همه.. ولكن الابتسامة اصطدمت بقلبها المدهور الملتاع فلم تستطع أن تصل إلى شفيتها ونكست رأسها، وسارت على مهل كأنها لا تريد أن تبتعد عنه.. كأنها تنتظر أن يستغيث بها لتقف بجانبه وبخلت وراء أختها.. والدموع في عينها..

ولم يبق في الممر الذي يفصل بين المطبخ وباقي الحجرات سوى إبراهيم ومحيى.. وهم إبراهيم أن يتكلم، ولكن محيى أدار عينيه عنه، وضغط على قنطرة نظارته في هذه الحركة العصبية التي لا تفارقه.. واتجه إلى غرفته ووجهه جامد محتقن، اختلط فيه دمة الاحمر ببشرته السمراء فأصبح في لون الغروب.. وكاد إبراهيم يصرخ وراءه.. أحس أنه يريد أن يصرخ في البيت كله.. إنه لا يحتمل هذا الصمت.. لا يحتمل هذا الضعف.. إنهم ليسوا في جنازة.. البوليس لم يأت بعد.. ويجب أن يجتمعوا ليتشاوروا فيما يجب عمله بعد أن راه عبد الحميد.. أن يجتمعوا لوضع خطة، كما كان يجتمع بزملائه أعضاء الجمعية لوضع خطط الاغتيال.. إن الموقف لا يتسع للعواطف.. لا يتسع للخوف، ولا للندم، ولا للكمد.. يتسع فقط للتفكير.. لإجهاد الذهن.. لإعادة حساب الظروف المحيطة بهم.. لوضع الخطط..

ورغم ذلك فقد أحس أن هذا الصمت الذي أحاطته به العائلة، يحمل خطة يعرضونها عليه.. إنه ليس مجرد صمت.. إنه طلب مقدم إليه ملفوف في الصمت.. طلب صامت.. إنهم يطلبون منه أن يغادر البيت حالا، ويريحهم من مشاكلكه.. هذا ما يريده الأب والأم والعائلة كلها.. حتى نوال وسيغادر البيت.

سيغادره حالا..

سيحمل مسدسه ويرحل..

وخطا خلف محبى نحو الغرفة، وعقله يتحرك فى رأسه بسرعة حتى طغى تفكيره على هذه الرعشة التى بدأت تنتاب قلبه منذ فر من السجن.. وبدأ يسأل نفسه:

هل خروجه من البيت سينقذ العائلة ويريحها؟

وأزدحمت سحب الشك فى رأسه وهو يبحث عن الجواب ويحاول أن يرى مصير العائلة بعد أن يغادرها..

وأجهد ذهنه كثيراً ليزيح هذه السحب ويصل من ورائها إلى رأى الصواب، وبدأ يحدث نفسه كأنه يحل مسألة حسابية: «لنفرض أن عبدالحميد قرر أن يبلغ عنى البوليس.. فهل يذهب الآن ليبلغ عنى؟! لا.. فعبدالحميد لا يريد أن يأتى البوليس إلى بيت عمه ليقبض على فيه.. مهما بلغت سفالته ونذالته فهو لن يسلم عمه وأولاد عمه إلى البوليس.. ثم هو يحب سامية ويريد أن يتزوجها فلن يبدو أمامها ساقلاً إلى هذا الحد.. ولكنه سينتظر إلى أن أخرج من البيت بعد أن رأى فيه.. ويتتبعنى بعد خروجى ثم يبلغ البوليس عن مكانى، ليقبض المكافأة.. وسيحقق معه البوليس.. سيستجوبونه، ولن يستطيع أن يقاوم أسئلتهم.. إن هذا الصنف السافل من الشبان يكون عادة ضعيف الإرادة ويسهل التأثير عليه باستغلال جشعه.. وسيعرف رجال البوليس منه الحقيقة الكاملة.. سيعرفون انى كنت لختبئ فى هذا البيت، ثم يقبضون على الأب والأبن.. إذن فالضمان الوحيد حتى أفوت على عبدالحميد غرضه هو ألا أخرج من البيت حتى لا أعطيه فرصة التبليغ عنى.. الضمان الوحيد للعائلة هو أن أبقى معهم، لا أن أغادرهم!»

واستراح إلى هذا التفكير..

وربما استراح إليه أكثر، لأنه لا يريد أن يغادر البيت الآن.. فليس له بيت آخر يستطيع أن يلجأ إليه.

وبدأ يستعد لإقناع العائلة بهذا المنطق حتى يستريحوا لبقائه معهم، أو على الأقل، حتى لا يضطروه إلى مغادرة البيت..

ولكن، هل يقتنعون؟!
والتفت إلى محيي وقال وهو يحرص على أن يبدو هادئاً:
- تفكر ابن عمك شافنى؟!
وقال محيي وهو يجلس إلى مكتبه ويفتح أحب كتبه:
- أظن كده!!
وعاد إبراهيم يسأل وهو يضع على شفتيه ابتسامة يحاول أن
يرفه بها عن صديقه:
- وتفكر إنه حايلخ عنى؟
وأجاب محيي متبرماً:
- والله ما عرفش!
وسأل إبراهيم وهو يضغط على الكلمات كأنه يلح على صديقه
أن يرفع رأسه عن الكتاب:
- إنما تفكر أخلاقه تسمح له أن يبلغ البوليس؟
ورفع محيي رأسه عن الكتاب، وقال فى حدة غير مقصودة:
- أخلاقه زفت.. شاب بايظ حشاش.. سقط فى التوجيهية ثلاث
سنين.. وبعدين راح اشتغل فى شركة.. وما حدش عارف عايش
إزاي ولا بيحيب فلوس مدين..
وقال إبراهيم وهو محتفظ بهدوئه:
- سمعت أنه عايز يتجوز سامية!
ونظر إليه محيي نظرة فيها غضب وفيها تعجب، كأنه أهين..
واستدرك إبراهيم قائلاً كأنه يعتذر:
- نوال هيه اللي قالت لى!
ونكس محيي رأسه إلى الكتاب وقال بصوت خافت:
- كان طلبها السنة اللي فاتت.. وطبعاً ما حدش رضى بيه.. ثم
رفع رأسه واستطرد فى صوت غاضب كأنه يريد أن ينتهى من
الموضوع:
- اسمع يا إبراهيم.. عبد الحميد يبقى ابن عمى صحيح، إنما
ما فيش حد منا يطمئن له، أو يثق فيه.. كلنا عارفين أنه مستهتر
وما عندوش أخلاق.

وقال إبراهيم كأنه لا يريد أن يرحم صديقه:
- وتفتكر نعمل إيه دلوقت؟
وقال محيى وهو يدير عينيه، كأنه واثق أن ليس هناك إلا طريق
واحد يعرفه إبراهيم جيداً:
- والله، زى ما انت عايز!
وقال إبراهيم كأنه يفكر:
- تفتكر أقوم أخرج من البيت دلوقت؟
وقال محيى بصوت خافت كأن هذا القرار الوحيد:
- وحاتروح فين؟
- أروح أى حته.. المهم ما يحصلكمش حاجة بسببى!!
وصمت محيى..
وعاد إبراهيم يقول:
- تفتكر أن عبد الحميد بيع عمه وابن عمه وممرات عمه وبنات
عمه، بخمستلاف جنيه؟
وقال محيى وهو يحاول أن يبدو ساخراً:
- ده بيعنا بنص ريال!
وقال إبراهيم فى تأكيد وفى لهجة جادة:
- ما أظننش!!
ورفع محيى رأسه وفى عينيه نظرات دهشة، كأنه يتعجب من
أن يدافع إبراهيم عن ابن عمه، وقال:
- ما تظننش ليه؟
وقال إبراهيم كأنه يرى الغيب بوضوح:
- الصنف اللى زى عبد الحميد، دايماً يفتكر فى نفسه انه ذكى..
وحايعاويل بيعنى لوحدى، علشان يستر وشه قدام العيلة..
حايعاويل يسلمنى للبوايس من غير ما يسلم حد منكم!
وقال محيى وهو لم يفهم بعد ما يرمى إليه إبراهيم:
- إزاي؟
وقال إبراهيم كأنه يعرض خطته:
- عبد الحميد منتظر دلوقت إننى أنزل من البيت، بعد ما عرفنا أنه

شافنى.. وأول ما انزل حيمشى ورايا ويشوفنى رايح قين، وبعدين
يبلغ عنى.. ويقول للبوليس انه شافنى فى الشارع وتتبعنى.. وما
يجبش سيرتكم خالص!!
وأطرق محبى مفكرا كأنه اكتشف دنيا جديدة لم تخطر بباله..
واستطرد إبراهيم:

- لو ما كنتش مصدقنى.. قوم انزل وأراهنك إنك حتلاقيه واقف
على رأس الشارع!
وقال محبى كأنه يحاول أن يقتنع:
- وإذا ما سبتش البيت، حايعمل إيه عبدالحميد!
وقال إبراهيم بسرعة، وكأنه يخشى أن يفقد السيطرة على
تفكير زميله:
- حيسستنى.. هوه متأكد أنى حاسيب البيت.. اذا ما كنتش
النهارده

- حيبقى بكره !
وقال محبى ساهما:
- كلام معقول.. يعنى طول ما أنت معانا، عيد الحميد مش
حايبلغ عننا!
وقال إبراهيم:
- انا ما بفكرش فى نفسى بس.. انا بفكر فيكم.. لو عبدالحميد
بلغ عنى، البوليس حيفضل وراه لغاية ما يعرف انى كنت هنا.. فى
بيتكم!

وتقلص وجه محبى جزعا، وقال وهو يلتقط أنفاسه:
- والعمل؟
ولجاب إبراهيم فى ثبات:
- زى ما باهرب من البوليس، لازم أهرب من عبدالحميد.. لازم
أخرج من البيت من غير ما يشوفنى ولا يمشى ورايا..
وسكت إبراهيم.. وسكت محبى فترة، وقد قطب ما بين حاجبيه
مستغرقا فى تفكير عميق، ثم قال كأنه يتوسل إلى زميله:

- أظن بلاش تسيب البيت الليلة.. نستنى كام يوم لغاية
عبدالحميد ما يتعب من الانتظار..
وابتسم إبراهيم ابتسامة لم تخرج إلى شفتيه.. أحس أنه قد
وصل إلى غرضه.. ثم قال وهو محتفظ بلهجته الجادة:
- أنا متأكد إنى بكره حاسيب البيت.. المهم إنك تقابل فهمى
عبدالعزيز فى الجامعة وتقول له الكلمتين اللى اتفقنا عليهم.. وبعد
ما حاترجع بنص ساعة حاكون انا بره!
وابتسم محبى كأنه يقول فى سره: «إن شاء الله».. واستطرد
إبراهيم قائلاً:
- يا ترى والدك موافق انى أبات فى البيت الليلة؟
وقال محبى، كأنه امتلاً ثقة بالمستقبل:
- أحسن حاجة إننا نسيبه دلوقت.. هو مش حايقولك اخرج..
وأنا حاطمنه ساعة السحور.
وعاد محبى إلى كتابه، واستطرد قائلاً:
- أما أذاكر لى كلمتين.. الامتحان قرب ومن امبارح ماقرتش
ولا كلمة..
وساد الصمت بين الصديقين، ليكمل الصمت فى البيت كله..
وكان ضمناً ضاجاً.. كانت الضجة فى رؤوس كل من فى
البيت.. ضجة تنفس عن نفسها فى همسات متقطعة تتجاوب بين
جدران البيت..
كانت الأم تهمس للأب وهى جالسة فوق الفراش وساقاها
تحتها، لا تريد ان تستلقى.. والأب مستلق على جنبه مديراً لها
ظهره وهو مفتح العينين:
- والعمل يا زاهر؟!
وأجاب الأب كأنه يجيب على نفسه:
- والله ما انا عارف يا تحية!
وقالت الأم وهى تلقى برأسها فوق كفها:
- أنا مش مطمئة للواد عبدالحميد ده!
وقال الأب وهو يتنهد كأن انفاسه تخرج من بين قضبان ضيقة:

- رينا يستر..
وقالت الأم وهي يتردد كأنها تقاوم شيئا في نفسها:
- والنبي حق الاستاذ إبراهيم يدور له على حنة تانية.. إذا كان
مش خايف علينا يخاف على نفسه!
وقال الأب:
- يعمل اللي هو عايزه.. يقعد، يخرج.. أنا خلاص.. سلمت
أمرى الله.
وقالت الأم وهي تمصمص شفيتها:
- حسبنا الله ونعم الوكيل .
ومدت ساقها تحتها، وأزاحت جسدها المكتنز ورقدت على
جنبها ووجهها مواجه للحائط وظلت مفتحة العينين، وفي رأسها
أشباح تنعكس على الحائط وتكاد تراها بعينيها في الظلام كأنها
أشباح عفاريت.. وأغلقت عينيها حتى لا ترى العفاريت.. ولكن
العفاريت تكاثرت عليها بمجرد أن أغلقت عينيها، فعدت وفتحتهما
واستدارت بجسدها ناحية زوجها في حركة سريعة هزت السرير
كله، ثم ألقت ذراعها حوله، قائلة:
- زاهر.. أنا خايفة يا خويا!
ومد الزوج يده وضغط على الذراع التي ألقيت حوله، وفي رفق
وحنان، وقال:
- ما تخافيش يا تحية.. رينا معانا.
وقالت الزوجة وهي ترتجف:
- أنا عارفة رينا بيعت لنا سى إبراهيم ده ليه.. إحنا عمرنا ما كنا
وش الحاجات دى!
واستدار لها الزوج وهو يرفع ذراعها عنه برفق، وقال:
- تعرفى أنا بفكر فى ايه.. بافكر لو كان إبراهيم ده ابنى كنت
عملت ايه؟
وقالت الأم بسرعة:
- يا اخويا بعد الشر.. تف من بقل!
واستطرد الأب قائلا:

- ولا لو كان محبى هو الذى هرب من السجن، وراح استخبى
فى بيت إبراهيم.. كان أبوه عمل إيه!
وقالت الام، كأنها تلوم زوجها:
- وما فكرتش فى عبدالحميد حيعمل إيه.. ده يقدر دلوقت
يودينا كلنا فى داهية.. انا كل حنة فى بتفرفر.. متهىأ لى أن
البوليس حيخش علينا دلوقت حالا..
وقال الأب فى صوت حزين:

- مش عايز أفكر لا فى عبدالحميد ولا فى غيره.. التفكير
مالوش نتيجة.. الأول بافكر انى أقول لإبراهيم يسيب البيت. ما
جاليش قلب.. انا الذى قلت له يقعد عندنا.. كان لازم من الاول
ما اقبلوش فى بيتنا.. دلوقت خلاص.. لازم اتحمل النتيجة.. وإذا
كان عبدالحميد يقدر يودينا فى داهية إبراهيم كمان يقدر يودينا
فى داهية.. يبقى أحسن حاجة إننا نخليها على الله .. وما تخافيش
يا تحية .. عبدالحميد برضه ابن اخويا، ومهما كان بايظ إنما من
أصل طيب.. وإبراهيم كمان ابن ناس.. وراجل.. ما تخافيش أمال..
انتهى طول عمر ك جامدة وقوية..

وكان يتكلم كأنه يحاول أن يقنع نفسه بكلامه.. كان هو الآخر
خائفاً ساخطاً، حائراً أمام الغد، وأمام ولجبه كرب عاطلة، وأمام
ولجبه كرجل شهم.

ودفنت الزوجة رأسها فى صدر زوجها، ثم انطلقت تبكى،
ودموعها تهز جسدها المكتنز كأنها تقطع دموعها من لحمها.. ثم
تكتم نشيجها، فيخرج نهضة خافتة كأنها أنات..
ولم تكن تبكى وحدها..

كانت نوال تبكى معها فى الغرفة المجاورة.. تبكى بدموع
صامتة وضميرتها ملقاة بجانب رأسها فوق الوسادة، كأنها شارة
الحداد.. والتفتت إليها سامية بعد أن صبرت طويلاً على دموعها،
وقالت فى لهجة لاذعة، تحاول أن تخفى بها شفتها ولهفتها على
اختها:

- تسمى تقوليلى انت بتعيطى ليه دلوقت؟!

وقالت نوال وهى تشد ضفيرتها بيديها كأنها تحاول أن تنزعها من رأسها:

- ده حرام.. حرام يا اخواتى!

وقالت سامية بضيق:

- ايه هو اللى حرام؟!

وردت نوال دون أن تلتفت إلى أختها:

- حرام يحصل له ده كله.. ذنبه ايه بس؟!

وقالت سامية وهى تتجاهل ما تقصده أختها:

- مين هو؟!

وردت فى صوت حالم:

- إبراهيم..

وقالت سامية كأنها تنهر أختها عن ذكره:

- ايوه هو له ذنب.. إنما إحنا ذنبنا ايه؟!

والتفتت إليها نوال فى عصبية وقالت وهى تضرب الوسادة

بقبضة يدها:

- هو مالوش ذنب.. ده كان لازم الحكومة تعمل له تمثال.. ده

بطل.. قتل واحد انجليزى.. ما قتلش علشان يسرق، ولا علشان

مجرم.. قتل علشان وطنه.. زى العسكرى ما يقتل عدوه فى

الحرب..

وسكتت سامية برهة، وهى تبلق فى وجه أختها كأنها تحاول

أن تصل إلى قلبها من خلال عينيها، ثم قالت ساخرة:

- طيب بلاش سيرة القتل وحياة أبوكى، احسن العفاريت تطلع

لنا..

وأدارت نوال جسدها، ورقدت على صدرها، ومدت ذراعيها

فوق رأسها، وقبضت على أطراف الوسادة بأصابع مرتخية، وقالت

فى صوت ضعيف:

- اللى يشوفه ما يصدقش انه يقدر يقتل فرخة.. ده هادى،

ومؤدب وخجول.. ده بينكسف منى!

وقالت سامية كأنها توقظ أختها من أحلامها:

- ده عنيه تخوف.. ماخدتيش بالك من عنيه.. يا أمه!!
وأدارت نوال جسدها مرة ثانية، ورقدت على ظهرها، وقالت
وهى تنظر من خلال الظلام الباهت إلى سقف الحجرة:
- عنيه.. عنيه.. أيوه، شفت عنيه؟!
واغتاضت سامية، وضغطت على شفتيها كأنها تكتم غيظها، ثم
أمسكت بذراع اختها وهزتها بعنف، قائلة:
- نوال، بصى لى هنا.. ورينى خلقتك؟!
وأدارت لها نوال وجهها فى برود وهى لا تزال سادرة فى
أحلامها، وركزت سامية كل عينيها على الوجه المتطلع إليها، وقالت
فى حدة:
- انتى حالك مش عاجبنى من ليلة امبارح.. شايفاكى مطبورة،
ومش على بعضك.. قوليلى بالظبط، ايه الحكاية؟!
وأشاحت نوال بوجهها عنها، وقالت فى برود:
- مالكيش دعوة!!
وصرخت سامية.. وصرافها همس مبجوح:
- ليه دعوة ونص.. ماتتسيش انه مالوش مستقبل.. ده محكوم
عليه بالإعدام!!
وانتفضت نوال كأنها لدغت، وقالت وعيناها تبرقان وسط
الضوء الخافت المتسلل من النافذة:
- ما تقوليش كده.. اوعى تقولى كده تانى مرة.. سامعة!!
ثم انكفأت على وجهها، وبدأت دموعها تنهمر من جديد.. ولم
تكن هذه المرة دموعا صامتة، كانت دموعا تحمل أنفاسا مبهورة
ممزقة..
ومدت سامية ذراعها وأحاطت كتف اختها، ثم مالت ووضعت
رأسها على الوسادة بجانب الرأس المعذب.. والصقت خدها بالخد
المبلل بالدموع وقالت فى لوعة:
- انا خايفة عليكى يا نوال.. خايفة على البيت كله.. خايفة على
بابا وعلى محبى.. انتى مش مقدرة اللى بنعمله ايه؟!
وأدارت نوال رأسها واحتضنت أختها، وارتفع نسيجها..

وعادت سامية تقول وهي تربت على ظهر نوال كأنها طفلة في أحضانها:

- يعنى لو قالوا لك، بابا ولا إبراهيم تختارى مين؟!!
ولم تجب نوال.. انكششت فى صدر لختها، وارتمت نسيجها
أكثر.. وظلت سامية تربت على ظهرها وهي تردد فى حنان:
- بس يا نوال.. بس يا حبيبتي.. بس أحسن بابا يسمعك!!

● ● ●

ومضى الليل وكل من فى البيت لم ينم.. وبعضهم ظل مفتح العينين، وبعضهم سقط جفونه تحت أثقل الدموع..
وجاء الصباح..

وخرج الأب إلى عمله دون أن يرى إبراهيم.. خرج مهموما
باشسا كأنه كبير عشرة أعوام.. كأنه أحيل على المعاش، ولم يعد
يدرى أين يذهب عندما يخرج من البيت..
وقال إبراهيم لمحبي وهو خارج إلى الجامعة:
- وحياتك يا محبى، أول ما تقابل فهمى، ترجع على طول
علشان تلمنى، وبلاس تكمل المحاضرات..
وهز محبى رأسه وأجما، وقال وعيناه جامدتان خلف نظارته:
- حاضر..

وخرج وكل قطعة منه ترتعش.. أطرافه ترتعش، ووجنتاه
ترتعشان، وفتحتا أنفه ترتعشان.. خرج وكأنه ذاهب إلى السجن
بقدميه..

وجرت الحياة فى البيت كما كانت تجرى صباح الأمس.
دخلت نوال تدعو إبراهيم إلى الحمام ليغسل وجهه، وهي تنظر
إليه فى لهفة كأنها تريد أن تلمئن عليه، أو تلمئن على نفسها به.
وتنظر إليها ثم حول عينيه سريعا عنها كأنه مذنب لا يستطيع أن
يلتقى بوجه ضحيته.. ثم دخل الحمام وخرج منه دون أن يلتقى
بالأم أو بسامية.. واعتقد أنهما تعمدتا أن تتجنباه، والّا تحيانه
تحية الصباح.. ربما لم يكن هذا ضحيا.. ولكن إحساسه بمدى

الخطورة التي يعرض لها العائلة، جعله يعتقد أن العائلة بدأت تنفر منه..

ودخلت نوال بعد قليل تحمل له صينية عليها طعام إفطاره.. أنها لم تدعه إلى حجرة الطعام كما فعلت بالأمس.. لابد أن العائلة قد قررت عزله هنا حيث يأكل وينام.. ولا يخرج إلا إلى الشارع.. وابتسم بينه وبين نفسه كأنه يعذر العائلة في تصرفاتها.. وتلكأت نوال بجانبه، وهي تضمه بعينيها كأنها تحاول أن تحميه.. تحميه من الدنيا كلها، ومن نفسه، ومن أفكاره التي تجهلها..

وظل صامتا لا يرفع إليها عينيه.. وخرجت بطيئة الخطى، كأنها تبحث في كل خطوة عن حجة تعود بها إليه..

وأكل لقمة.. ولقمتين.. ثم لم يستطع أن يأكل شيئا.. ووجد نفسه تائها في سحب من أفكاره.. وحاول أن يركز تفكيره في خط مستقيم يصل به إلى شيء.. حاول أن يفكر في خطته التي يكمل بها هربه. حاول أن يفكر في العائلة التي ألقي نفسه عليها بكل ثقله.. حاول أن يفكر في عبدالحميد وما يمكن أن يفعله.. ولكنه لم يستطع.. لم يستطع أن يركز تفكيره في شيء.. وانتهت محاولاته إلى أن وجد تفكيره محصورا في نفسه.. كان يفكر في ماضيه، في حاضره، وفي مستقبله.. وكان تفكيره يصل إلى أعماق نفسه ليكتشفها.. إنه لم يعرف نفسه أبدا قبل أن يدخل السجن.. لم يكن يدري أن له أعماقا.. وله احساسا.. وله عواطف..

ترى.. لو أنه حسب حساب السجن والهرب، والمشقة، وكل هذا العذاب.. هل كان يقتل عبدالرحيم باشا شكري؟!

إنه لم يفكر أبدا في السجن قبل أن يدخله، ولم يتصور المشقة إلا عندما بدأت تلتف حول عنقه.. كان يجد أمامه رجال البوليس السياسى، وكان يدرس عقلياتهم وأساليبهم، ولكنه لم يكن يرى ما وراء هؤلاء الرجال من سجون ومشائق.. وربما كان هذا هو سر انتصاره عليهم، فقد كان يحس أنه ند لهم.. ند للحكومة، بل

أقوى من الحكومة.. وكان تحدى الحكومة لا يحتاج إلى أكثر من الذكاء.. كأنه يلعب الشطرنج، وليس لأحد اللاعبين سلاح لا يملكه الآخر.. ليس أحدهم يملك السجون والمعتقلات والمشائق، والآخر لا يملك إلا ذكاهه والمسدس الصغير الذى يحمله فى جيبه.

وربما كان هذا هو كل الفرق بينه وبين أى شاب آخر.. بينه وبين محبى مثلاً.. أن محبى مثلاً.. أن محبى لا يقل عنه وطنية.. ولكن محبى يرى دائماً السجن، والمشنقة، فيتجنبهما بأن يقف موقفاً سلبياً من القضايا الوطنية.. أما هو فلم يكن يراها قلم يتجنبهما واتخذ موقفاً وطنياً إيجابياً.. ولعله لو رآهما لتجنبهما هو الآخر، وأصبح سلبياً.

لا.. ليس هذا صحيحاً.. أن محبى عندما وضع أمام عينيه السجن والمشنقة خافهما، فسجن نفسه فى الخوف، وشنق نفسه به.. أما هو فقد تحرر من الخوف.. تحرر من صور السجون والمشائق ولم يخف على مستقبله منهما، بل أنه تحرر أيضاً من مستقبله. لم يفكر أبداً فى هذا المستقبل.. لم ير نفسه وزيراً، ولا نائباً، ولا غنياً، ولا فقيراً، ولا سجيناً، ولا مشنوقاً..

هذا التحرر.. التحرر من الخوف.. والتحرر من المستقبل الشخصى.. هو الذى زوده بالقوة، ودفعه إلى العمل العنيف.. ورغم ذلك، فهو اليوم.. الآن.. فى هذا البيت.. لا يحس بالقوة.. لا يحس أنه بطل متحرر.. أنه اليوم لا يريد إلا نفسه.. يريد أن يحرر نفسه من الاحساس بأنه هارب.. يريد أن يرتاح.. يريد أن يضحك.. نعم.. يريد أن يضحك!

وابتسم ابتسامة مسكينة وهو يتذكر أنه لم يضحك منذ عام.. منذ قبض عليه.. لم يضحك أبداً من قلبه.. وقد كان فى السجن يضحك ضحكات جوفاء يجمال بها زملاءه.. ولكنه هنا.. فى هذا البيت.. لا يجد حتى الضحك الأجوف..

ونخلت نوال لتحمل صينية الإفطار وهو لا يزال مستغرقاً فى أفكاره، وأحس بوقع أقدامها، فلم يرفع رأسه.. ربما خيل إليه إنها أقدام سجانته، وهو لم يتعود أن يرفع عينيه إلى سجانته.

ونظرت إليه نوال مترددة، ثم حملت الصينية من أمامه، وهمت أن تعود بها، ولكنها عادت واستدارت له، قائلة كأنها تناديه:
- فيه حاجة مضايقك يا أستاذ إبراهيم؟
ورفع رأسه كأنه يفيق، وقال كأنه يتكلم من بعيد:
- لا. أبدا!!

وعادت تقول، ونظراتها الحانية تمسح على وجهه كأنها تزيل عنه آثار العذاب:

- مش عايز حاجة؟
وقال فى تهكم:
- عايز اضحك!!

واهتزت الصينية فى يدها وأحدثت الأطباق من فوقها رنينا مرتعشا كأنه رنين أجراس صغيرة معلقة فى رقبة قط هارب..
وقالت وقد أحست بمدى العذاب الذى يعانیه، وانطلق هذا العذاب إلى صدرها فشق قلبها:

- بكره حتضحك كتير يا إبراهيم.. بإذن الله..
وتنبهت إلى أنها نطقت اسمه بلا كلفة لأول مرة..
وتنبه هو أيضا..

وأحمرت وجنتاها، واهتزت الصينية فى يدها مرة ثانية وأحدثت الأصباغ هذا الرنين كرنين أجراس صغيرة..

وارتبكت نظرات عينيه، وارتيبكت شفته فلم يعد يدرى هل يضمهما أو يبتسم بهما، أو يستعملهما فى كلام.. ثم قال كأنه يعتذر عن الضعف الذى بدا به أمامها:

- أصلى افتكرت دلوقت، إنى بقالى سنة وشوية ما ضحككتش..
وانتهى لى أنى جعان ضحك!

وابتسمت نوال، وقالت فى حياء، كأنها تحاول محاولة يائسة لإضحاكه:

- تحب أقولك نكتة..

وابتسم ابتسامة كبيرة وقال وهو يهم بالضحك قيل أن تقول نكتتها:

- يا ريت!!
وسرحت بعينيها لحظة ثم قالت ضاحكة من خلال حياؤها:
- يا خسارة.. مش فاكدة ولا واحدة!
ودارت والصينية فى يدها، واتجهت إلى الباب، وقبل أن تصل
إليه، التفتت وقالت وهى لا تزال فى حياؤها:
- أول ما حافتكر نكته حارجع أقولها لك..
ولكنها وجدت وجهه وقد زايسته الابتسامة، فسقطت ابتسامتها
عن شفتيها.. ونظرت إليه كأنها تتوسل له أن يرحم نفسه..
وخرجت مضطربة..
وعاد وحيدا فى الغرفة.. لا يستطيع أن يقرأ، ولا يستطيع أن
يفكر، ولا يستطيع أن يحتمل الفراغ.. ومرت به الثوانى كأنها
وخزات إبر فى لحمه.. إلى أن سمع صوت الباب الخارجى يفتح، ثم
سمع صوت إقدام محبى.. وكانت الساعة قد قاربت الواحدة
والنصف..
وبدل محبى إليه مكفهر الوجه، وحياء دون أن يضافحه.. هزة
من رأسه، وتمتمة من شفتيه.. واستقبله إبراهيم بعينين مستطلعيتين
تكادان تقفزان من محجريهما.. وقال فى عجلة:
- خير، عملت ايه؟
وقال محبى، وهو يلقي كتبه على المكتب فى عنف:
- ولا حاجة!!
وقفز إبراهيم واقفا، وقال وهو يكاد يصرخ:
- ولا حاجة إزاي.. و..
وقاطعه محبى، كأنه ثائر ثورة بكاء:
- مالمقتش فهمى عبدالعزيز.. فضلت أدور عليه، مافيش فايده..
وبعدين سألت عليه، وعرفت إنه اعتقل.. قبضوا عليه..
وجحظت عينا إبراهيم، وقال وهو يحاول غبشا أن يتمسك
بهدهوته الذى اعتاد عليه:
- اعتقل إزاي؟ امتى؟
وقال محبى، وهو يجلس على الفراش ويسقط رأسه بين كفيه:

- امبارح فى الفجر.. بيقولوا إنه ساعدك على الهرب!!
وسكت إبراهيم.. بدأ يجمع إرلته ليستعيد هدوءه، حتى يبدأ
التفكير من جديد.. وطال سكوته إلى أن رفع محبى رأسه وقال فى
لهجة لا تخلو من حدة:
- دلوقت حنعمل ايه؟
وقال إبراهيم وهو ينظر إليه فى ثبات:
- نبتدى نفكر من جديد!!
وقال محبى كأنه يائس من التفكير:
- أظن لازم تفكر بسرعة.. ما فيش وقت.. البلد كلها قايمة على
رجل.. البوليس مش مخلص ولا حتة ما بيفتشهاش.
وبيقولوا إنهم قبضوا على خمسين واحد!
وقال إبراهيم دون أن يتأثر:
- المهم إننا نفكر كويس..
وتعمد أن يضغط على كلمة «إننا» حتى يشعر محبى بأنه
شريكة فى التفكير.. ثم أخذ يروح ويجى فى الغرفة.. ومحبى ينظر
إليه بين الحين والحين نظرات حائرة.. فيها شفقة، وفيها خوف،
وفيها كراهية، وفيها توسل..



وسمع صوت الباب الخارجى يفتح من جديد..
وصوت أقدام الأب.. ثم سمع الأب وهو يقول لسامية
فى عجلة:

– فىن مامتك؟



وقفز محيى وخرج من الغرفة ليستقبل والده، ولكن والده
لم يلتفت إليه، مد له يده دون أن ينظر إلى وجهه، وعاد يردد:
– فىن مامتك؟

وخرجت الأم من المطبخ مهرولة، ثم دخلت وراء زوجها إلى
غرفتهما، وتعمد الأب أن يغلق الباب وراءهما، ثم قال قبل أن يخلع
طربوشه، ودون أن يجلس.. قال وهو مبهور الأنفاس:
– عبد الحميد فات على فى المكتب..

وقالت الأم كأنها تتأهب لسماع قصة طويلة:
– فىه، وقالك ايه؟

وقال الأب ساخرا وكأنه يسخر من نفسه:

– قال لى أنى راجل وطنى عظيم..

وقالت الأم وهى لا تزال تتأهب لسماع قصة طويلة:

– كتر خير.. وإيه كمان؟

وقال الأب ووجهه يتقلص فى ألم:

– وعايذ يتجوز سامية!!

وفتحت الأم عينيها وكأنها لا تستطيع أن تفهم، وقالت:

– ما طلبها السنة اللى فاتت وقلنا له لا!!

وسقطت الأم جالسة على الأريكة، وهى مبحلة العينين، فاعرة

فاها، كأنها صفعت.. ثم تمتمت فى صوت خفيض:

- وذنوب سامية ايه كمان؟

وسكت الأب..

كان قد قرر بينه وبين نفسه أن يعطى ابنته لعبد الحميد.. كان مرغما.. أو، هكذا كان يظن.

وكان يتصور نفسه كريان مركب على وشك الغرق، فيضطر أن يلقى ببعض حملها فى البحر لينقذ البعض الآخر.. وقد قرر أن يلقى بسامية لينقذ باقى العائلة.. ورغم ذلك فهو لن يلقى بها قبل أن يعد لها قارب النجاة..

وعادت الأم تردد وهى لا تزال مبهوتة، تنظر أمامها كأنها لا ترى شيئا:

- ذنوب سامية ايه ياربى.. ذنوبها ايه بس ياخواتى!

وقال الأب وهو لا يحس بما يقوله:

- ربنا عايز كده.. هذه إرادة الله!

وعاد يتذكر كلام عبد الحميد له عندما زاره فى الصباح فى مكتبه.. كان يتكلم همسا.. كان يفح كالنعبان.. وقال أنه واحد من العائلة، لا يقل عن باقى أفرادها وطنية.. تحدث كثيرا عن وطنيته، وعن المظاهرات التى اشترك فيها عندما كان طالبا..

ثم تحدث - بالمناسبة - عن رغبته فى الزواج من سامية.. وكان يتحدث بنغمة خاصة، كأنه يقول أن شرط اعتباره فردا من العائلة هو أن يتزوج سامية، وأن وطنيته متعلقة بتحقيق هذا الزواج..

يريد أن يتزوج بالتهديد.. السافل.. المجرم.. القذر.. لقد هم ساعتها أن يصفعه.. أن يطرده من مكتبه.. وأن يتبرأ منه ومن أبيه.. ولكنه لم يستطع.. كان فى موقف الضعيف.. كان لا يملك إلا أن يستسلم.. وقد فكر ساعتها فى كل الحلول التى تنقذ سامية.. وكان أول ما فكر فيه أن يعود إلى البيت حالا ويطرد إبراهيم.. إنه لا يستطيع أن يتمادى فى تحمل عبئه إلى هذا الحد.. ولكن طرد إبراهيم لن يغير الموقف.. سيظل عبد الحميد يهدده، حتى يتزوج سامية..

وأفاق على صوت زوجته وهى تقول كأنها تولول.. كأنها تنعى
ابنتها..

- مش ممكن.. مش ممكن أبدا.. دى أول فرحتى.. ده ما كانش
عاجبنا الدكتور اللى طالبها، نقوم نرميها للواد عبدالحميد..
وأزاح الأب نظارته من فوق عينيه وقال وهو يضغط على ارنبة
أنفه كأنه يحبس دموعا تكاد تنهار:

- خليكى عاقلة أmaal يا تحية.. فهمينى.. بصراحة.. عبدالحميد
بيهددنا.. إذا ما كنش حيتجوز سامية حيلبلغ عننا.. وصاحت الام
كأنها أعلنت الثورة:

- يبلغ زى ما يبلغ.. إنما انا ما أرميش بنتى الرمية دى..
ما موتهاش بالحيا.. يروح ابراهيم وزفت الطين فى سستين داهية..
إنما بنتى ما تتجوزش الجوازة دى أبدا..
وقال الأب فى أسى:

- لو كان ابراهيم هو اللى حيروح فى داهية لوحده، كانت هانت..
إنما محبى.. وأنا..

وفغرت الام فاهها.. ثم سقط رأسها فوق صدرها واخذت تنتفض
بكاء، وهى تقول من خلال دموعها كأنها طفلة تائهة:

- يا مصيبتى.. يا خرابى.. ماليش دعوة.. ما يحصلش ده كله
أبدا.. ده ما يرضيش رينا.. شوف لى حل يا زاهر.. ما ترميش بنتك
بأيديك يا خويا..

ومد الأب ذراعه وأخذ يربت على ظهر زوجته، وينظر إليها فى
حنان قائلاً:

- بس يا تحية.. انا لسه ما كملتش كلامى.. اسمعى أmaal؟
وأخذ يربت على ظهرها حتى هدأت انتفاضتها، ثم استطرد قائلاً
وفى عينيه نظرات خبث ساذج، كأنه يجرب ذكاءه لأول مرة:
- شوفى يا سستى.. دلوقت إحنا حنوافق على الجوازة دى.. إنما
حنوافق كده وكده.. وطبعاً من حنقدر دلوقت نكتب كتاب، ولا نعزم
معازيم.. وحتى مش حنقدر نلبس الدبل، ولا نعزم اخويا.. إنما هو
بس كلام بينى وبين عبدالحميد.. وحجتنا معانا.. مش ممكن عبد

الحميد يطلب اننا نعمل حاجة وابراهيم قاعد فى البيت.. وبعد كام يوم.. ولا كام شهر، يبقى يحلها رينا.

وكانت الام تستمع إليه وهى مبخلقة العينين، ورموشها ترتعش، كأنها دهشة.. كأنها تشد ذكاءها من رأسها برموش عينيها..

واستطرد الأب قائلاً:

- فهمتى بأه يا ستى..

وقالت الام كأنها تحاول أن تقنعه انها ليست أقل منه ذكاء:

- قصدك اننا حنعمل جوازہ بالكذب!

وقال الأب كأنه يلومها على غبائها:

- مش جوازہ.. مجرد كلام.. مجرد موافقة مبدئية!

وقالت بسرعة:

- وبعدين نرجع فى كلامنا..

قال وهو يبتسم ابتسامة مرة:

- مظلوط..

وسكتت الام قليلاً، ثم عادت تقول كأنها تهتم بالبكاء ثانية:

- والنبي ده حرام.. يعنى حنخسر سمعة البنت، ويقولوا اتخطبت وانفسخت خطوبتها.. والبطال والكويس بيتدى يتكلم علينا..

وقال فى ضيق. كأنه عجز عن ارضائها:

- يا ستى ما حدش حيتكلم.. ما حدش حيعرف بالحكاية دى إلا لحناء، بيننا وبين بعضنا.. وعبدالحميد حيشخ ويخرج على انه ابن اخويا.. ويبتدى يشيل الهم معانا.. تبقى رجله جت.. إذا حب يبلغ عننا بعد كده. حيسالوه وكنت ساكت ليه من الاول..

وقالت الام كأنها لا ترضى عن كل هذا، ولا تطيقه:

- رينا يستر.. ما حدش عارف بكره فيه ايه.. هو حد كان يصدق أن ده كله حيحصل لنا..

وقال الأب كأنه يحدث نفسه، وكأنه لم يسمع تعليق زوجته:

- وحتى لو الناس اتكلموا عن سامنية.. حيقولوا ايه يعنى..

ما فيه مية بنت اتخطبت وانفسخت خطوبتها.. مش أحسن

ما يقولوا عليها ابوها واخوها فى السجن..
وصرخت الأم كأن ابنتها هانت عليها فى سبيل زواجها وابنها :
- ما تجيش السيرة دى.. ما تقولش كده.. انا خلاص ما بقاش
فيه روح.. ولا اقوم والنبي وأحرق نفسى بالجاز..
وقال الأب وهو يحاول أن يرفه عنها:
- انا بقول يعنى ان..
وقاطعته زوجته قائلة:
- ما تقولش.. كفايه كده!
وساد الصمت بينهما فترة.. ثم قال الأب:
- مش ننده لسامية ونقولها على الحكاية!
وقالت وهى تدير وجهها عنه وتشيح بيدها، كأنها تحمله
المسئولية كلها وحده:
- انده لها.. وقول لها أنت!
قال وهو يهم بالقيام:
- انا حانده للولاد كلهم..
وفتح باب الغرفة، ونادى بصوت خفيض مبجوح:
- سامية.. سامية..
وخرجت إليه سامية من المطبخ، نظر إليها مليا فى حنان كأنه
ينظر إلى شهيدة:
- اندهى لآخوكى وأختك.. وتعالوا.
وأطلت نوال من خلف أختها.. ثم اسرعت بمجرد أن سمعت
كلام أبيها.
ونقرت على باب غرفة محبى، ثم فتحت الباب وأنخلت رأسها
وهى تقول بينما كانت تبحث بعينيها عن ابراهيم:
- محبى.. تعال، بابا عابذك!
وقام محبى خارجا، وابراهيم ينظر خلفه، وفى عينيه تساؤل
حاد.. لقد تذكر بسرعة أن الأب من عادته أن ينام بمجرد أوبته من
عمله.. فلماذا لم ينام.. لا بد أن هناك شيئا خطيرا قد حدث وحال
بينه وبين النوم.. وقبل أن يبدأ فى التخمين كان محبى قد خرج

وهو يزيح اخته من أمامه.. وأغلق الباب وراءه..
 واجتمعت العائلة كلها فى حجرة نوم الزوجين.. ووقفت سامية
 ونوال مستندتين إلى حاجز السرير ووقف محبى مستندا إلى
 الحائط بجوار الباب.. والأم والأب جالسان على الأريكة وكلاهما
 يتحاشى النظر إلى أحد من الأبناء..
 وتنحنح الأب مرة ومرتين كأنه يطرد شيئا من صدره، ثم قال
 وهو ينظر إلى كفيه:

- عبد الحميد حييى يزورنا النهارده بعد الفطار..
 وقاطعه محبى قائلا فى قرف:

- تانى!!

ونظر الأب إليه كأنه يلومه على مقاطعته ثم أستطرد:
 - النهارده جالى فى المصلحة، وفهمت منه أنه شاف ابراهيم
 عندنا..

وقالت نوال بسرعة:

- وعايى ايه يعنى..

وحول إليها الأب عينيه وفيهما نظرة غاضبة، ينهرها بها.. وعاد
 يتابع كلامه:

- طبعا انتم عارفين أن ظروفنا وحشة.. وفى الظروف دى
 الواحد بيستحمل كثير، وكلنا لازم نستحمل بعض..
 ونظر إلى أولاده كأنه يحاول أن يرى تأثير كلامه عليهم،
 ويحاول أن يكشف عن أعماقهم ليرى مدى احتمالهم لما سيقوله..
 ورأهم كلهم صامتين، وقد بدأت نفوسهم تميل إلى القلق.. فتنحنح
 مرة ثانية، ثم قال:

- انتم عارفين أن عبد الحميد ولد وحش.. والصنف اللى زيه
 لازم نأخذه بالسياسة.. علشان نتجنب أذيته..
 وقاطعته الأم وهى تلفت إليه مشفقة عليه:
 - يا اخويا ما تقول لهم اللى عايى تقول وتخلص.. ما احنا
 شايلين الهم مع بعض..
 وقال الأب:

- صبرك علىّ يا تحية..
وجذب نفساً عميقاً من صدره، يستجمع به شجاعته واستطرد
وهو لا ينظر إلى أحد:
- عبدالحميد السنة اللي فانت كان طلب سامية.. طبعاً عارفين
إننا رفضناه.. النهارده جه يطلبها تانى، وطبعاً حنرفضه برضه.
وقالت سامية وهى تهز كتفيها:
- ايه التلقيحة دى.. ما البنات مالىه البلد!!
وقال الأب دون أن ينظر إليها:
- إنما حنرفضه بالسياسة.. يعنى حنفضهمه اننا قبلنا، وبعدين
نرفضه.
وقال محيى فى حدة وهو يرفع نظره عن الحائط المستند عليه.
- يعنى عايز يتجوز بالتهديد.. المجرم.. أنا عمرى ما شفت
سفالة بالشكل ده!
وقالت سامية، وفى عينيها نظرات مذعورة، وهى تدق الأرض
بقدمها:
- أنا ما اقبلوش ولا يوم واحد.. ولا ساعة واحدة.. مش ممكن..
مستحيل.. يهدد ما يهددش، أنا ماليش دعوة..
وخطت نوال خطوة إلى جانب اختها، والصقت بها كتفها، كأنها
تحمىها..
وعاد الأب يقول:
- إذا كنتى انتى ما تقبلهوش ساعة.. أنا ما اقبلوش دقيقة. إنما
مضطرين.. وكل اللى اقدر أوعدك بيه إنه مش حيتجوزك، ولو
ضربنى بالرصاص مش حيكذب عليكى كتاب..
وقالت سامية، وقد بدأت دموعها تنهمر:
- يعنى عايزنى أعمل إيه يا بابا..
قال:
- عايزك تسايديه.. تاخذه على عقله لغاية ما ربنا يحلها..
وقالت سامية كأنها لا تصدق أن والدها يطلب منها مثل هذا
الامر:

- أسايره.. أسايره إزاي؟!
 ورد الأب وهو لا ينظر إليها كأنه يخجل أن يواجهها:
 - قصدي إنك تسيبيه يعتقد اننا قبلناه..
 قالت كأنها تتعمد إحراج والدها:
 - إزاي؟!
 وصرخ فيها والدها، وكأنه يدافع عن نفسه بصراخه:
 - ما أعرفش إزاي.. إنما لازم تفهمي إن الكلام ده مش معناه أن
 عبدالحميد بيقاله حق عليكى.. تقطعى إيده لو مدها.. فاهمه!
 ثم خفت صوته، وقال كأنه يتوسل:
 - انا استحملت كثير.. استحملت كثير قوى.. ساعدونى!
 وقالت سامية وهى تمسح بكفها دموعا على خدها:
 - كل ده علشان سى بتاع اللى قاعد جوه.. أنا خلاص، طهقت..
 مش قادرة اسكت.. انا هاخرج من البيت ده.. حاروح أقعد عند
 خالتى.. مش عايزة أقعد هنا دقيقة واحدة.. ما تشوفوا لكم حل..
 احنا حاروح كلنا فى داهية..
 وقامت الام وأخذت ابنتها بين ذراعيها وهى تربت على ظهرها..
 وأحنت نوال رأسها كأنها تقصدها هى بكلامها..
 وقال محبى ووجهه مكفهر، موجها الكلام لآبيه:
 - وتفكر حضرتك أن عبدالحميد مش عامل حسابه اننا يمكن
 نلعب بيه..
 وقال الأب فى ضعف:
 - والله يا ابنى ما انا عارف.. ادينى باعمل اللى بيقدرنى عليه
 رونا..
 وصمت محبى قليلا يفكر فى طريقة اخرى، يبعد بها شر
 عبدالحميد عنهم، ثم كأنه لم يجد فى رأسه شيئا، فتحرك ليخرج
 من هذه الحجرة التى يملأها نشيج أخته سامية..
 واستوقفه والده قائلا:
 - بلاش تقول لابراهيم على حكاية الجوازه دى.. خلينا احنا بس
 اللى عارفين..

وقال محيى فى اكتئاب وهو يضغط بأصبعه على قنطرة نظارته:

- حاضر..

وهم أن يتحرك مرة ثانية، فعاد الأب يقول:

- قول له بس أن عبد الحميد حييجى الليلة، وانه حيقابله..
علشان يعمل حسابه!

وقال محيى فى استسلام:

- حاضرا!

وعاد الأب يستوقفه قائلا:

- هو ابراهيم ما عرفش يتصل بأصحابه لسه!

وقال محيى وهو يزفر الكلمة فى ضيق:

- لسه !

ونكس الأب رأسه كأنه يتمادى فى الاستسلام..

وخرج محيى فى خطوات غاضبة كأنه ذاهب ليقتل ابراهيم، أو
عبد الحميد..

● ● ●

واستقبله ابراهيم رافعا إليه عينيه، ولكن محيى تفادى العينين
حتى لا يلتقى بتساؤلهما..

وجلس مكفهر الوجه، ممطوط الشفتين، وأصابه تعب بعضها
ببعض..

وقال ابراهيم وهو يرسم بين شفتيه ابتسامة يخفف بها عن
صديقه:

- خير انشا الله.. حصل حاجة؟

وقال محيى وهو يزفر ساخطا:

- ما حصلش.. بس عبد الحميد حيشرف هنا الليلة!!

وأحس ابراهيم بالرهشة التى تنتاب قلبه، ولكنه كتمها، وقال فى
بساطة وهو لا يزال يدعى الهدوء:

- ليه؟

وقال محيى بسرعة، وهو يهبط واقفا:

- علشان يشوفك كمان مرة.. علشان يتعرف بيك.. ووالدى
بيشوف انك لازم تقابله.. كده أحسن.. بدل ما نخاف منه، نخليه
يخاف معانا!!!

وقال ابراهيم وهو يطاطئ رأسه:

- خلاص!!

واغتاض محبى وقال فى حدة:

- خلاص ايه ؟

وقال ابراهيم دون ان يتأثر بحدة صديقه:

- قصدى ما دام عمى موافق انى اقابله.. حاقبه..

وقال محبى وهو يحاول أن يفتح كتابا يدفن فيه غيظه:

- وبابا سألنى إذا كنت قدرت تتصل بأصدقائك ولا لسه؟

وقال ابراهيم وقد رفع عينيه إلى صديقه كأنه بدأ يعمل:

- فيه واحد نقدر نتصل بيه دلوقت حالا!!

وقال محبى:

- مين؟!!

وقال ابراهيم:

- واحد اسمه فتحى المليجى..

وقال محبى كأنه يحاول أن يسخر من كل اصدقاء ابراهيم:

- ما اعرفوش..

وقال ابراهيم فى هدوء

- ده مش معانا فى الكلية.. طالب فى كلية الآداب..

وقال محبى وهو لا ينظر إلى صديقه:

- زمانهم أعتقلوه!!

وفقد ابراهيم هدوءه لأول مرة منذ دخل البيت، وقال وهو

يواجه محبى، كأنه يحاول أن يسيطر عليه بالقوة:

- اسمع يا محبى.. احنا كل اللى نقدر نعمله اننا نجرب كل

طريقة.. فى الظروف اللى زى دى ما حدش بيتأكد من حاجة..

يجوز فتحى المليجى أعتقل إنما يجوز برضه انه ما أعتقلش.. المهم

اننا نحاول نتصل بيه.. وإذا ما قدرناش نحاول حاجة تانيه..

وقال محيى وهو يتحدى غضب صديقه:
 - وحانفضل نحاول كده لغاية امتى بإذن الله!!!
 وقال ابراهيم وهو يخفف من حدته:
 - انا عارف انكم تعبانيين منى.. انا بقالى هنا يوم واحد وده
 الثانى، إنما حاسس انكم مش قادرين تستحملونى اكثر من كده..
 والدك وعدنى انه يخبينى مدة اقصاها اربعة ايام.. إذا كان لسه
 عند وعده، أنا مستعد اخرج من هنا فى اليوم الرابع حتى لو سلمت
 نفسى للبولىس!!
 ولانت نظرات محيى، ونظر إلى صديقه فى عطف كأنه تذكر
 موقفه، وقال وهو يعتذر:
 - أنا آسف يا ابراهيم.. ما كنش قصدى.. إنما انت عارف اننا
 مش واخدين على الظروف دى!!
 وسكت ابراهيم كأنه يتعمد أن يزيد محيى أسفا.. وعاد محيى
 يقول بعد فترة:
 - وحانتصل بصاحبك ده إزاي؟
 وقال ابراهيم وهو يدعى التفكير:
 - مش عارف.. ايه رأيك؟
 وابتسم محيى ابتسامة خبيثة كأنه كشف اسلوب ابراهيم فى
 تنفيذ خططه.. ثم قال:
 - طبعا ما فيش إلا أنا!!
 ونظر إليه ابراهيم نظرتة القوية، وقال فى هدوء:
 - لا.. ما تنفعلش!
 قال محيى وهو لا يزال ساخرا:
 - أمال مين.. بابا!!
 وتكلم ابراهيم فى جد، كأنه ليس لديه وقت للمناقشة، ولا وقت
 لاتباع اسلوبه القديم فى التلويح بخططه:
 - لا.. نوال!!
 وبهت محيى، وقال فى دهشة:
 - نوال اختى!! إسمعنى!!

وقال ابراهيم فى حزم:
- لانى خايف أن يكون فتحتى مراقب.. لورحت انت البوليس
حيراقبك انت كمان.. إنما نوال تقدر تروح على انها واحدة صاحبة
لخته..
وسكت محبى يفكر.. ثم قال وهو يضرب حافة مكتبه بقبضة
يده:
- إنما انا ما اسمحش لاختى انها تتدخل فى المواضيع اللى زى
دى.. كفايه انا..
وقال ابراهيم وهو ينظر إلى محبى كأنه يمدده بالقوة:
- كلنا دخلنا فى موضوع واحد..
وقال محبى كأنه طفل عنيد:
- مش ممكن.. اخواتى البنات ما لهمش دعوة بالحاجات دى..
دور على فكرة تانيه!!
وقال ابراهيم كأنه يعلن يأسه:
- تفكر لو كان عندى فكرة تانيه، كنت فكرت فى نوال.. انا
عمرى ما اعتمدت على بنت.. ولا وثقت فى بنت.. إنما الشغلانة دى
مش ممكن تقوم بيها إلا بنت!!
وقال محبى فى حدة:
- ومش ممكن البنت دى تبقى اختى.. كفايه اللى حصل لنا!!
ونظر إليه ابراهيم كأنه يستهين به وقال:
- طيب قوللى فكرة تانيه!
وسكت محبى..
وطالت فترة سكوته..
وسكت معه ابراهيم..
سكوتا عصبيا، يثير ضجة فى رأس كل منهما..
ثم انطلق محبى فجأة كأنه يتم حديثا كان يدور بينه وبين
نفسه:
- وأنا ايه عرفنى بفتحتى ده.. ازاي اسمح لاختى تروح له لغاية

بيته.. ما يمكن يكون سافل، ويدور بعد كده يتكلم عليها فى كل
حته!!

وقال إبراهيم وقد انفرجت اساريره وبدأ يشعر بأنه على وشك
النجاح فى خطته:

- دى حتروح له فى وسط عيلته.. وحاتقابل اخته.. ومش
حاتقول اسمها ولا اسمك، ولا حتقول انا فين.. والمواضيع اللى زى
دى ما حدش بيتكلم فيها.. فتحتى يمكن ما يخافش على اختك من
الكلام، إنما يخاف على نفسه!
وقال محبى:

إنما بابا مش ممكن يرضى.. ده ينبحننا كلنا.. ولا ينشك!

وقال إبراهيم كأنه يصدر أمرا لا يناقش:

- باباك مش حيعرف!!

ولم يناقشه محبى فى هذا الأمر كأنه اقتنع به.. وسكت مرة
تانية.. وطال سكوته.. ثم عاد وانطلق فجأة قائلاً:

- وحاتروح له امتى.. اظن فى نصف الليل!

وقال إبراهيم فى لهجة جدية كأنه يدعو صديقه لأن ينتهى من
وساوسه، ويبدأ فى العمل:

- حاتروح دلوقت.. احنا الساعة ثلاثة ونص لسه.. تقدر تروح

وترجع قبل الفطار.. بيته قرب مننا.. فى الدقى!

وأغلق محبى الكتاب الذى كان قد فتحه.. طواه فى عصبية كأنه
يصفع به القدر، ثم اتجه إلى الباب وفتحه، وصاح بأعلى صوته:

- نوال.. نوال!

وخرجت نوال من حجرتها فى خطوات بطيئة كأنها تحمل فوق

كتفها دموع لختها.. وقالت فى كمد :

- عايز ايه.. مالك بتزعق كده!!

وقال محبى بلا ابتسام:

- تعالى.. دقيقة واحدة..

وانسحب إلى داخل الغرفة، ودخلت وراءه، وسقطت عيناها على

إبراهيم، ونظرت إليه نظرة مسكينة، كأنها تتوسل إليه أن يأخذها

فوق صدره لتبكي حظها وحظه، وحظ البيت كله معهما.
وأدار ابراهيم عينيه عنها، وهو يخجل أن يواجهها بما يدور في
رأسه..

وقال محيي وهو يغلق الباب:
- ابراهيم عايز يقول لك حاجة!!
ورفع إليه ابراهيم عينيه كأنه يلومه لأنه القى هذه المهمة عليه،
ثم حول عينيه إلى نوال ونظر إليها نظرة سريعة ثم خفضهما، وهو
لا يزال اضعف من أن يواجهها..
والتفتت نوال إلى أخيها ثم إلى ابراهيم، وهى دهشة..
لا تستطيع أن تتصور شيئاً يقوله لها ابراهيم.. إلا شيئاً واحداً
لا يستطيع أن يقوله!!

وتنهذ ابراهيم.. جذب نفساً عميقاً من صدره يستعين به لإطلاق
لسانه، ثم قال:

- الحقيقة أن فيه واحد صاحبي لازم اتصل بيه دلوقت حالا.
وما فيش حد يقدر يروح له إلا انتى..
قالها بسرعة، كأنه يريد أن يزيح عن صدره شيئاً ثقيلاً..
وقفزت من صدر نوال ابتسامة ضعيفة، بلغ من ضعفها أن عجزت
عن الوصول إلى شفيتها.. ثم التفتت إلى أخيها صامتة، كأنها
تسأله بصمتها عن حقيقة ما يقوله ابراهيم..
وأحس ابراهيم بالتفاتتها، فاستطرد:
- محيي وأنا ما لقيناك طريقة ثانية.

وبدا إحساس نوال ينشط ويطرد من قلبها الهم الذي تركته فيه
دموع اختها.. أحست أنها مقبلة على عمل خطير.. ولم تحس أن هذا
العمل من أجل مصر.. ولا من أجل بطل.. ولكن من أجل ابراهيم..
الرجل الذي التقت به.. أحست أنها تقترب منه أكثر.. تقترب منه
جداً حتى لتشعر بأنفاسه، وقالت بسرعة:
- وحاروح له ازاي!

وقال ابراهيم وهو لا يزال يرفض أن ينظر إليها، كأنه يحاول
أن يقنع نفسه أنها ليست نوال التي يشركها في خطته.. إنما مجرد

زميل من أعضاء جمعيته:

- بيته فى الدقى.. شارع اسماعيل نمرة ١٥.. إذا فتح لك حد
تانى قولى انك زميلة له فى كلية الآداب وجايه تاخذى منه كراسة
المذكرات.. ولما يقابلك.. ما تقوليش له انتى مين.. ولا انا فى..
قوليله بس انى عايز بدلة ظابط.. وعايز عربية تستننى فى شارع
النيل قبل نادى التجديف من ناحية الجيزة.. تستننى بعد مدفع
الفطار بعشر دقائق.. ولازم كل ده يتم بكرة، يا بعده بالكثير.
قهميه انى مش حاقد راقعد مطرح ما أنا، اكتر من كده!
وكانت نوال تستمع إليه وقد تجمع ذكاؤها كله فى عينيها..
وشفتاها ترتعشان كأنها تشرب بهما كلامه.. والغمازتان فوق
خديها تلوحان حيناً وتختفيان حيناً كأنهما نجمتان من نجوم الفجر
الجديد..

وقالت فى صوت حنون ليس ليه اثر للانفعال، إنما فيه
استسلام وكأنها تسأله «وعايز ايه كمان».. كأن رجلها يأمرها
فتسعد بأمره، وتسعد بالخضوع له:

- وحاقول لما ايه علشان تسيبنى اخرج؟

قال محبى:

- قوليلها انك رايعه تزورى فوزيه ، ولا واحدة من صاحباتك!

قالت نوال وهى هادئة أيضا:

- مش حترضى!!

وقال ابراهيم بعد لحظة صمت:

- قوليلها انك لازم تزوريها قبل ما تيجى هيه تزورك وتطلب

علينا!!

ونظرت إليه باعجاب كثير وقالت:

- فكرة!!

ثم استطردت:

- هوه اسمه ايه؟

وقال ابراهيم وهو يرفع إليها عينييه فى دهشة:

- مين؟

قالت مبتسمة:
- اللي حاروح له؟
قال وهو يكاد يضحك من نفسه:
- فتحي المليجي!!
قالت:
- أروح له دلوقت؟
قال وهو ينظر إليها مبتسما كأنه يودع بين يديها حياته
ومستقبله راضيا:
- حالا..
قالت وهي تقبله بعينيها:
- حاضر..
وهمت أن تنصرف، فاستوقفها محيى، واقترب منها، وقال كأنه
يواسيها:
- خدى بالك من نفسك يا نوال.. ما تتهوريش زى عوايدك.. لو
حسيتى بأى حاجة.. حد بيتبعك.. أو حد بيضايقك.. أرجعى حالا..
قالت وكان فرحتها لم تترك لها طاقة للكلام:
- حاضر..
وخرجت من الغرفة كأنها ذاهبة إلى إبراهيم، لا ذاهبة بعيدا عنه!



لم تجد نوال صعوبة في اقناع والدتها لتسمح لها بالخروج بحجة زيارة صديقتها.. واخذت تبدل ثيابها في هدوء مفتعل..

ورغم الجهد الذي كانت تبذله في افتعال الهدوء، لم تستطع أن تحول دون رعشة أصابعها، حتى أنها مزفت جوربها وهي تسحب على ساقها، فرفعت أصبعها إلى فمها وبللته بريقها ثم مسحت به على الجورب حتى تحول دون اتساع الرقعة الممزقة.. فعلت ذلك وهي تبتسم، كأنها تبتسم لنفسها لتتحايل عليها وتقنعها بالهدوء..

ولم تكن رعشتها رعشة خوف..

كانت رعشة الاقدام على مغامرة جديدة.. رعشة الوقوف امام عالم مجهول، ترى نوره بعين، وترى ظلامه بالعين الأخرى.. وتسمع فيه باحدى أذنيها تغريد الطيور وتسمع بالأذن الأخرى زئير الوحوش.

ولم تكن ترى في هذا العالم إلا انسانا واحدا.. ابراهيم.. كأنها ذاهبة إليه.. كأنها ذاهبة إلى أول لقاء لأول حب.. وكان النور والظلام اللذان تراهما ينبعثان من ابراهيم.. والتغريد والزئير تسمعهما حول ابراهيم.. وكانت تائهة وهي تحاول الذهاب إليه.. تائهة فيه.. وكان احساسها بأنها تائهة يزيد لها لفة عليه.. واصبرا رأ على العثور عليه.. العثور على سلامته وأمنه.. كأنه مريض لا تدري دواءه فتدور ملهوفة تبحث له عن طبيب.. إنها ذاهبة الآن إلى الطبيب..

وخرجت وضميرتها السوداء حائرة معها خلف ظهرها.. وسارت فى الطريق نحو موقف الأوتوبيس، دون أن يخطر على بالها أنها ذاهبة فى مهمة وطنية.. لم تفكر فى البوليس، ولا فى السجن.. فقط كانت تفكر فى الطبيب الذى ينقذ إبراهيم.. وكان كل خوفها ألا تجد الطبيب.. أو أن يهز رأسه أمامها علامة اليأس.. ورغم ذلك فقد كانت أحيانا تذكر نصيحة أخيها لها: «خدى بالك من نفسك يا نوال.. لو حسيتى بأى حاجة.. حد بيتبعك.. أو حد بيضايقك.. أرجعى حالا».. كانت تذكر هذا الصوت، فتنسبه إلى نفسها.. وتقفز إلى عينيها نظرات شك وريبة تديرها بين ركاب الأوتوبيس.. وكانت تمر بها لحظة تعتقد فيها أن كل هؤلاء الناس يعرفون سرها.. وسر إبراهيم.. ويخيل إليها أنهم كلهم من رجال البوليس السرى، وإنهم سيقبضون عليها.. سيأخذونها إلى السجن، قبل أن تصل إلى الطبيب.. وكان قلبها يرتجف.. ولكنها كانت تطرد هذه الشكوك سريعا، فتهدأ عيناها، ويهدأ قلبها.. وتعود تفكر فى إبراهيم.. وفى الطبيب..

ونزلت من الأوتوبيس فى ميدان كوبرى الإنجليز.. وسارت فى شارع اسماعيل، تتبع بعينيها أرقام البيوت.. وعندما وصلت إلى رقم ١٣ تلفتت وراءها بلا تعمد، كان شيئا فى أعماقها يدفعها إلى الحذر.. ولم تجد أحدا وراءها، فخطت عدة خطوات، ووقفت أمام البيت رقم ١٥.. وأشتد وجيب قلبها كأن عمرها كله يتجمع فى الخطوة التالية.. وترددت.. وترددت طويلا.. وكان فى تردها كثير من الحياء، وكثير من الضعف.. كأنها افأقت من أحلامها لتصدم بالواقع.. كأنها عرفت لأول مرة أن إبراهيم هارب من الحكومة، وأنها هنا لتساعده على الهرب.. وكأنها اكتشفت لأول مرة أنها ستدخل وحدها إلى بيت غريب، لتلتقى برجل غريب..

وقاومت تردها بكل ارادتها.. وبدأت تقيس البيت بعينيها.. إنه بيت كبير.. فيلا.. وحديقة.. يبدو أنهم أغنياء.. وخطت إلى الداخل فى خطوات مرتبكة.. وضغطت على جرس الباب كأنها تضغط على

قلبها.. وفتح لها خادم أسمر يرتدى قفطانا أبيض.. ووقف أمامها صامتا كأنه يبشر بليل طويل.. وقالت فى صوت ضعيف متهدج:
- فتحى بك موجود؟!
وقال الخادم وشفتاه تتحركان بسرعة فوق أسنانه البيضاء، كأنه يحول دون انبثاق الفجر:
- نقول له مين حضرتك؟!
قالت وصوتها لا يزال يرتعش
- انا زميلته فى الكلية..
قال:
- اتفضلى.. دقيقة واحدة.. نديله خبرا!
وقادها إلى صالون فخم.. ولكنها لم تستطع أن تلمح فخامته.. لم تستطع أن ترى المقاعد الأوبيسون، ولا التحف المتناثرة فوق الموائد المذهبة.. ووقفت حائرة كأن الحجرة فراغ، ليس فيها مقعد تجلس عليه.
وسمعت وقع خطوات سريعة.. ثم بدت امامها فتاة فى مثل سنها.. جميلة، ولكن ثوبها أجمل منها..
وتمهلّت خطوات الفتاة وهى تقترب منها، ثم مدت يدها تصافحها قائلة:
- بونسوار..
وقالت نوال وهى مرتبكة فى حياثها:
- بونسوار..
وأخذت الفتاة تنظر إليها فاحصة كأنها تتحسس قماش ثوبها لتعرف نوعه ثم قالت فى برودة:
- حضرتك مع أبيه فتحى فى الجامعة؟
وبلعت نوال ريقها وهى تقول:
- أيوه..
وقالت الفتاة وهى لا تزال تطلق نظراتها الفاحصة:
- هوه نايم.. تحبى نبلغه حاجة؟!

واحترارت نظرات نوال فى عينيه برهه، ثم قالت كأنها صممت
أمرا:

- أرجوكى تصحيه.. أنا عايزاه فى حاجة ضرورى خالص..
ونظرت إليها الفتاة فى تعجب ثم قالت:
- أصحى أبيه فتحى!! مش ممكن.. ده يدبحنى.. يابى.. كله إلا
صحيان أبيه فتحى..
وقالت نوال بسرعة:

- تأكدى أنه مش حيزعل لما تصحيه.. دى مسألة تهمة خالص..
ونظرت إليها الفتاة فى سخرية، وقالت:
- وتهمك انتى كمان طيعا؟!

وفهمت نوال ما تقصده الفتاة، وازدحمت دماؤها فى وجنتيها
ثم صعدت إلى رأسها، والتمعت فى عينيه نظرة كشرارة النار
وقالت فى حدة تحاول أن تكتمها حتى لا تصفع الفتاة الواقعة
أمامها:

- أرجوكى تروحي تصحيه.. وإذا ما رضيش يصحى تعالى
قوليلى..

ونظرت إليها الفتاة فى دهشة، ثم قالت بلا مبالاة:
- دى يظهر مسألة مهمة خالص.. يا بختك!!
وقبل أن تنفجر نوال صارخة فى وجهها، استطردت قائلة:
- وأقول له مين حضرتك؟
وهبطت حدة نوال، ثم قالت وهى لا تزال تفكر:
- زينب..

ثم استطردت بسرعة كأنها وجدت طريقا:
- زينب حمدى!!

وهزت الفتاة كتفيها بلا مبالاة، وخرجت.. وتركت نوال ساهمة..
كأن اسم «حمدى» الذى نطقته بلسانها لا يزال يرن بأذنيها.. إنه
اسمه.. ابراهيم حمدى.. هل سطت على اسمه .. هل أصبح هذا
الاسم حقاً لها .. هل يكون اسمها يوماً «نوال حمدى».. وأحسست
أنها تمادت فى أحلامها أكثر مما يجب.. أنها سارت بعيداً فى العالم

المجهول.. وأحسست بحيائها.. حياء لذيذ يدفع قلبها لمجرد أن اسمها واسم إبراهيم اجتماعاً في اسم واحد..
وتلفتت حولها.. ثم جلست على مقعد.. جلست مستريحة سادرة في أحلامها. ثم تنبهت إلى مهمتها، فاعتدلت، وجلست على مقدمة المقعد، واتخذت لنفسها وضعا جديدا..
وتركوها وحدها فترة طويلة..

وبدأت تتنبه إلى الفخامة التي تحيط بها.. إلى المقاعد الأوبيسون، والتحف المتناثرة على الموائد المذهبة.. هل يمكن أن يكون بين أصدقاء إبراهيم فتیان في مثل هذا الثراء.. مرفهون إلى هذا الحد.. لقد كانت تتصورهم جميعاً مجاهدين مشردين.. لا يطيقون الثراء ولا الرفاهية.. ولا يملكون شيئاً إلا المسدسات.. وسمعت وقع أقدام..

ودخل شاب نحيل.. بارز الوجنتين تنفر عروقه من فوق يديه.. وكانت عيناه منتفختين من أثر النوم، وشعره مشعث.. يرتدى بيجاما ومن فوقها «روب» من السرير.. هل هذا هو فتحي المليجي.. لقد كانت تتصوره انساناً ضخماً قوياً بارز العضلات.. إن الذي ينقذ إبراهيم يجب أن يكون انساناً ضخماً..

واستقبلته بعينين دهشتين كأنها لا تصدقه، ومدت له يدها لمصافحته، وهو يبادلها دهشتها، وقبل أن تتكلم لمحت أخته آتية وراءه، فقالت بلهجة حاسمة:

– من فضلك.. أقدر أكلّمك لوحديك!

ورفعت صوتها حتى تسمعه الفتاة..

وهزت الفتاة كتفيها كأنها تقول: «يا سم»! ثم خرجت..

واقتربت منه نوال وقالت هامسة:

– حضرتك الأستاذ فتحي المليجي؟

وقال فتحي والدهشة لا تزال تملأ وجهه:

– أيوه..

وقالت نوال وقد اشتد همسها خفوتاً بعد أن نظرت إليه ملياً كأنها تطلع على بطاقة تحقيق شخصيته:

- أنا جايه من عند ابراهيم حمدي..
واتسعت عينا فتحي، وقاطعها قائلًا فى لهفة:
- هوه فين؟
وقالت نوال:
- ما أقدرش أقولك..
قال كأنه يعتذر:
- قصدى أسألك صحته أزيها.. وعامل ايه؟
وقالت وهى تحس احساسا كاملا بمهمتها الخطيرة:
- صحته كويسة.. وبيقولك انه عايز بدلة ظابط.. وعاييز عربية
تستناه فى شارع النيل، قبل نادى التجديف من ناحية الجيزة بعد
مدفع الفطار ربع عشر دقائق.. ولأزم كل ده يتم يا بكره يا بعده..
ونكس فتحي رأسه، وأخذ يفكر، بينما نوال تنتظر إليه بكل
عينها كأنها تنتظر منه نتيجة امتحانها.. النتيجة التى ستقدمها
لابراهيم..
ورفع رأسه وقال وقد ارتسمت على وجهه إمارات الجذ:
- بدلة الظابط اقدر اجيبها الليلة.. لو كنتى انتى اللى حتستلمها
تقدرى تاخديها من بكره الصبح..
وقالت بسرعة كأنها تتعجل بقية القرارات:
- الساعة كام؟
قال:
- زى ما يعجبك.. الساعة اتناشر مثلا..
قالت:
- فين.. أجي هنا؟
قال:
- لأ.. بلاش البيت أحسن والدى يمكن ما يخرجش بكره
استننى فى ميدان الكوبرى.. عند دكان السجاير.. وأنا حافوت
عليكى، وأسلمها لك.. إذا ما جتش الساعة اتناشر بالضبط.. تيجى
هنا الساعة تلاته.. لأنه يمكن حد يكون مراقبنى..
قالت كأن المهمة أصبحت صعبة:

- يعنى اخرج مرتين فى يوم واحد.. مش معقول؟! ونظر إليها فتحى فى تعجب كأنه لا يفهم ما تقول، وقال:
- مش معقول ليه؟
وكادت تهم بأن تقول له إن أمها لن تسمح لها بالخروج ولكنها تنبعت إلى أنه ليس من حقها أن تناقش فتحى فى مثل هذه المواضع، فقالت:
- قصدى.. المهم.. والعربية حتعمل فيها ايه؟
قال:
- العربية بعد بكرة.. مش ممكن قبل كده..
قالت وهى تهم بالانصراف:
- متشكرة!!
وسألها وهو لا يزال ممسكا بيدها:
- حضرتك أخت إبراهيم.. قريبتة؟
قالت وهى تبتسم ابتسامة خفيفة:
- لا.. معارف..
وخطت نحو البهو الخارجى، ووجدت أخت فتحى تنظر إليها.. نفس النظرة الساخرة، وقالت وهى تودعها بعينيها حتى الباب:
- يا بخت بنات الجامعة.. احنا عندنا فى اللىسيه رجعيين خالص!!
ولم ترد عليها، إنما اشاحت برأسها فطارت ضفيرتها فى الهواء كأنها تصفعها بها..
وخرجت..
عادت إلى البيت، تحمل الدواء..
وكانت فرحة..
كان صدرها ممتلئا بالثقة فى نفسها.. لقد عرفت الطريق.. أنه طريق سهل، ليس فيه ما يخيف.. ليس فيه وحوش، ولا ظلام..
الطريق إلى إبراهيم!
وانطبعت فى ذهنها صورة فتحى المليجي.. الوجه النحيل، والعروق البارزة، والعينان المفتختان من أثر النوم.. وصورة أخته

بنظراتها الساخرة وثوبها الجميل.. اجمل منها.. وصورة البيت..
والمقاعد الأوبيسون، والتحف فوق المائدة المذهبة.. انطبعت فى
ذهنها كل هذه الصور كأنها ذكريات عزيزة.. غالية.. ذكريات أول
لقاء لأول حب.. وسمعت بأذن خيالها صوت أخت فتحى وهى تقول
«يا بخت بنات الجامعة.. دى الليسيه بقت رجعية خالص».. ماذا
كانت تقصد.. وابتسمت بينها وبين نفسها وهى تواجه هذا السؤال..
إنها بنت صغيرة هذه الفتاة.. لخت فتحى.. انها لا تدرى الحياة..
لا تدرى الحب.. لا تدرى أن فى بيتها رجلا.. بطلا.. لا تدرى شيئا..
أن تعليقها لا يعدو مجرد تنفيس عن غيرتها.. كهؤلاء الناس الذين
يلقون التعبيرات الساخرة كلما رأوا فى الطريق فتى بجانب فتاة..
وقد رأتها بجانبه.. لا بجانب شقيقها فتحى.. بل بجانب ابراهيم..
كان ابراهيم دائما بجانبها، وخياله يلوح فى عينيها، وفوق شفيتها،
ويتأرجح مع ضفيريها.. فغارت منها.. ولكنها صغيرة.. صغيرة
جدا هذه الفتاة.. أما هى فكبيرة.. ناضجة عرفت الحياة.. وعرفت
الحب..

ولخلت البيت تحمل فرحتها وثقتها بنفسها..
وسمع محبى وقطع خطواتها، فخرج إليها، وأشار إليها من بعيد
ثم قال همسا وهو يجذبها من يدها إلى داخل الغرفة:
- خير.. لاقيته؟!

قالت وهى تنظر إلى ابراهيم وبين شفيتها ابتسامة ملأت الغرفة
كلها ابتساما:
- أبوه .. لاقيته!

واحتضنها ابراهيم بعينييه، ووجهه ينطلق بالفرح، كانت كل
خلجة فيه تزغرد.. ولم يفرح بالخبر ولكنه كان فرحا بعودتها.. لقد
قضى كل هذه الفترة منذ ذهابها ملهوها عليها.. يفكر فيها.. وقلبه
ينقبض ويتفرد كأنه يجرى وراءها.. وحاول أن يقنع نفسه أنه
لم يكن يفكر فيها إلا ليطمئن على خطته.. وأنه لم يكن ملهوها
عليها، إنما كان ملهوها على نفسه.. حاول كثيرا.. وحاول أن يفسر
إحساسه بأنه نفس الاحساس الذى كان يشعر به وهو يرسل

زملاءه فى الجمعية السرية لتنفيذ خطته.. حاول أن يوجه احساسه إلى هذا الاتجاه.. ولكنه لم يستطع.. أنه احساس جديد ذلك الذى يحس به.. وهو احساس مركز فى شخص واحد.. لا يشمل المجموع كله.. لا يشمل مصر كلها.. كأن الناس كلهم اصبحوا واحدا.. ومصر كلها لم يعد فيها إلا واحد..

وقد ثار على هذا الاحساس.. ثار على لهفته.. انه احساس اقوى منه.. ولهفة تكاد تنهار به.. تكاد تدفعه لأن يصرخ مناديا نوال، ثم يحطم القضبان التى يسدها أمامه حرصه على تنفيذ خطته، ويجرى وراءها يعود بها.. يعود بها إليه حتى لا تغيب عن عينيه.. وظل يقاوم احساسه.. قاوم كثيرا.. إلى أن عادت، فكف عن المقاومة.. وانطلقت خلجات وجهه تزغرد فرحا.

ولأول مرة احتواها بعينيه دون أن يحولهما عنها.. لم يستطع أن يحولهما.. وتعلقت ابتسامته بابتسامتها.. تعلقت طويلا كأنهما لم ينتهيا من الابتسام.. وكان بينهما رسول من الشوق يرى عمره كله وعمرها كله.

وعاد محبى يقول فى لهجة سريعة وقد ضاق بتلكؤها فى الكلام:

- وقالك ايه .. ما تتكلمى!

قالت كأنها هائمة:

- قال لى إنه حيعمل كل حاجة!

وكان ابراهيم قد أفاق على صوت محبى، فاستجمع ارادته حتى استطاع أن يرخى عينيه عن نوال، وقال فى اختصار كأنه لم يعد يستطيع الكلام:

- إزاي؟!

وقالت نوال كأنها تتباهى بنجاحها:

- بكره الساعة اتناشر حيجيب البدة.. وبعد بكره العربية حاتكون جاهزة..

وقال محبى متعجلا:

- حايجب البدة فين؟

قالت:

- حاستناه فى ميدان الكوبرى جنب بتاع السجاير، وحايفوت
يسلمها لى .

وصاح محبى حتى كاد صوته يخرج من الغرفة:

- عال.. مش ناقص إلا إنك تقابلهم فى السكك..

وضغط بأصبعه على قنطرة نظارته، وعاد يقول غاضبا:

- أنا مش ممكن اسمح لك بكده.. كفايه لغاية هنا.. أنا أروح آخذ
البدة منه..

والتفتت نوال إلى ابراهيم كأنها تستنجد به من أخيها الذى يكاد
يحرمها لذة انتصارها، ويحرمها من نشوة حبها..

وسكت ابراهيم برهة.. كان هو الآخر يحس بالضيق.. يحس أن

شيئا فى صدره يعارض فى أن تذهب نوال وتقابل فتحي فى

الطريق.. كأنه يغار عليها.. كأن التقاءها بشباب آخر يجرح كبريائه.

وقال فى صوت خافت وهو يحاول أن يقنع نفسه قبل أن يقنع
محبى:

- ده حايسلمها البدة ويمشى على طول.. المسألة مش حتأخذ
أكثر من دقيقة واحدة..

وقال محبى:

- دقيقة.. اتنين.. أنا اللي حاروح بنفسى.. إنما اخواتى البنات
ما يقابلوش شبان فى السكك..

وقالت نوال فى حدة كأنه تدافع عن نجاحها:

- إنما هو ما يعرفكش.. حيسلمك البدة ازاي، وهو ما يعرفكش!

وسبكت محبى، ورفع إليه ابراهيم عينيه كأنه يتحداه أن يجيب
على هذا السؤال..

وخطا محبى عدة خطوات، ثم استدار إلى اخته قائلا كأنه وجد
الجواب:

- أروح معاكى.. نروح احنا الاتنين!

وقال ابراهيم بلهجة الأستاذ:

- لو فتحي شافك جنب نوال.. حيعمل نفسه مش عارفها

ويمشى على طول.. حيفتكرك جاسوس، ولا حيفتكرك أن نوال كانت بتضحك عليه..

وقال محبى وهو لا يزال فى غضبه:

- ما هو مش ممكن تروح لوحدها.. فكر حضرتك فى أى فكرة..
أما نوال ما تقابلش شبان فى الشارع..

وقال ابراهيم وقد طرد من نفسه ترددها:

- يا محبى احنا قربنا خلاص.. ما يصحش تيجى دلوقت وتقف فى حاجة صغيرة..

وقال محبى وهو ينظر إلى ابراهيم فى حنق:

- دى مش حاجة صغيرة.. لو كان لك اخوات بنات ما كنتش تطلب منهم اللى بتطلبه من اختى..

وسكت ابراهيم فجأة.. وفغر فاه كأنه يهم أن يقول شيئاً ولكنه لم يقل شيئاً.. سكت.. وتقلص وجهه ألماً كأنه يكبت جرحاً فى قلبه.. وأحست نوال بالألم الذى يعانى به ابراهيم.. أحست بجرحه.. فالتفتت إلى شقيقها وقالت فى حدة:

- ايه الكلام اللى بتقوله ده يا محبى.. انا رحى لفتحى فى بيته.. شاب مؤدب.. ما رفعش عينه فى عينى.. وأخته استقبلتنى.. بنت متبرية.. فى سنى.. أصغر منى شوية.. وكانت حاتشلى شيل لما عرفت أنى زميلة أخوها.. خايف من أيه.. حياكلنى يعنى؟!

وقال محبى وهو لا يزال غاضباً دون أن يستطيع النظر إلى ابراهيم:

- طيب ما اتفقش معاكى يسلمك البدلة فى البيت ليه؟

وقالت نوال:

- خاف يكون باباه موجود!!

وعاد محبى يقول، وكان كل المنافذ قد سدت فى وجهه، ويحاول أن يفتح منفذاً جديداً:

- لا.. مش علشان باباه.. علشان يفوت عليكى بالعربية، ويقول لك اركبى جنبى لغاية ما نروح نجيب البدلة.. انتى ما تعرفيش الشبان دول، أنا عارفهم كويس!!

وقالت نوال وهى تدق الأرض بقدميها:
- انت اتجننت يا محبى.. ازاي تقول لى كلام زى ده انت
فاكرنى عبيطة، ولا اتجننت..
ورفع ابراهيم رأسه، وقال ووجهه ينضح الما:
- اسمع يا محبى.. ما فيش لازمه للكلام ده.. انا حاخرج من
البيت دلوقت حالا.. واللى يحصل يحصل..
واتسعت عين نوال كأنها تصرخ بهما جزءا..
وقال محبى مرتبكا، وكأنه يتقهقر بلا انتظام:
- إزاي الكلام ده؟!
وقال ابراهيم فى هدوء، وهو يقوم واقفا:
- لو خرجت من البيت دلوقت، فيه احتمال تسعين فى الميه انهم
يقبضوا على .. ولو خرجت على حسب خطتى يبقى الاحتمال
خمسين بالميه.. يعنى الفرق اربعين فى الميه بس.. مش حاجة!!
وقالت نوال وهى تنظر إليه كأنها تتعلق به:
- لا.. مش حاتخرج.. مش ممكن!!
ثم التفتت إلى شقيقها، وصاحت فى حدة صيحة خافتة:
- محبى..
ونكس محبى رأسه فى الأرض، وقال وهو يضغط على نظارته:
- دى مش طريقة يا ابراهيم.. مش قصدى اقوك تخرج انما
لازم تقدر ظروفى.. ظروفنا كلنا..
وقال ابراهيم فى صوت رقيق كأنه يضع قلبه بجانب قلب
صديقه:
- أنا خارج لانى مقدر ظروفكم.. مقدرها من ساعة ما دخلت
البيت!
وقال محبى وهو لا يزال منكس الرأس:
- انا كل اللى يهمنى خوفى على نوال.. دى مش زى بنات
الجامعة بتوعنا.. ده بابا قعدها فى البيت من قبل ما تاخذ
التوجيهية.. و...
وقال ابراهيم كأنه يعاتب صديقه:

- أنا كمان خايف على نوال..
ورفعت إليه نوال عينيها وفيهما نظرة مترددة كأنها بدأت تخاف فعلا..

واستطرد ابراهيم قائلاً:
- لو كان فيه أى خطر عليها ما كنتش طلبت منها حاجة.. تأكد يا محيى.. أنا ما ليش اخوات صحيح.. انما من ساعة ما دخلت بيتكم وأنا باتمنى انى اكون اخوكم..
وارتفع صوت الأم من خارج الغرفة وهى تصيح:
- نوال.. يا نوال.. يا خويا هيه راحت فين البت دى!
وتحركت نوال قائلة:

- أما أروح أشوف ماما عايزه ايه.
وخطت نحو الباب ثم استدارت قبل أن تخرج وقالت لشقيقتها
وبين شفتيها ابتسامة ترشوه بها:
- ما تخافش على يا محيى.. أنت عارفنى كويس!
وخرجت وأغلقت الباب وراءها.. واستقبلتها أمها وهى واقفة على باب المطبخ قائلة:

- انتى ملهيه فى ايه.. وسيبانى لوحدى فى المطبخ.. انا سمعاكى راجعه من نص ساعة واكثر..
وقالت نوال:
- كنت ياكلم محيى..
وقالت أمها:

- طب روحى اقلعى جزمك وشرابك وحصلينى .. أحسن أختك لاويه بوزها ومش راضية تتحرك..
وهزت نوال رأسها، وقالت:
- حاضر..

ثم دخلت إلى غرفتها، وتلفتت عيناها تبحثان عن اختها سامية.. كانت سامية جالسة فوق الفراش، فى ركن منه، مستندة بظهرها إلى الحائط وذراعاها تضمنان ركبتيها إلى صدرها.. وكانت مرتدية جلباب النوم.. جلباباً أزرق من الباتستا.. وشعرها قد جمعته

فى «ايشارب» قديم.. اصفر باهت.. يبدو كمنديل الرأس.. وكان وجهها فى لون «الايشارب».. اصفر باهت ايضا.. وعيناها ذابلتين من اثر الدموع.. كل شىء فيها ذابل.. كأنها بكت كل دموعها، ثم بكت كل دماؤها..

ونظرت إليها نوال فى حنان، وقالت وهى تقترب منها:
- مالك؟!

وردت سامية فى غضب:

- ماليش.. كنتى فى؟

وقالت نوال وهى تتظاهر بالبراءة:

- كنت عند فوزية.. أصلى خفت تيجى تزورنا، فرحت أزورها
انا!

وقالت سامية وبين عينيها نظرة حادة كالشوكة فى الوردية
الذابلة:

- لا يا شيخة.. على أنا الكلام ده!

وقالت نوال وقد بدأت تعجز عن الاستمرار فى التظاهر بالبراءة:

- أمال يعنى كنت فى؟!

وقالت سامية وهى تتحداها:

- ما أعرفش.. هو حد بآه عارف حاجة فى البيت ده..

وقالت نوال وهى تتودد إليها:

- إيه بس اللى مزعلك ياسامية.. و..

وقاطعتها سامية فى حدة:

- مالكيش دعوة بيه.. كفايه عليكى سى ابراهيم بتاعك.. قال ايه

اللى مزعلنى قال.. ما فيش حاجة.. مبسوطه خالص.. مبسوطه أكثر

منك.. انتى بتفكرى فى واحد محكوم عليه بالإعدام.. وأنا وقع فى

قسمتى واحد بايظ ما كملش تعليمه.. على الأقل أنا احسن منك..

ومدت نوال يدها تحاول أن تلمس كتف شقيقتها، قائلة:

- ما تقوليش كده يا سامية.. ده بابا حلف انك مش حتجوزيه..

مش ممكن يكون ده قسمتك..

وضربت سامية اليد الممدودة إليها، وصاحت:

- ابعدى عني.. سيبينى.. سيبينى لوحدى.. مش عايزه اشوف
حد منكم خالص..
ثم اسقطت رأسها بين ركبتيها، كأنها تحاول البكاء، فلا تجد
دموعا..

وظلت نوال ترقبها فى حنان يشوبه اشفاق وأسى، ثم اخذت
تبديل ثيابها.. ثم خرجت لثلحق بأمها فى المطبخ، وتركت سامية
وحدها.. وتركتها تستعيد للمرة الالف صور حياتها.. وصور
عبدالحميد فى حياتها..

لقد عاش عبدالحميد فى حياتها كلها.. كان ابن العم الذى
التصقت به فى طفولتها وصباها.. وكانت فى الايام البعيدة تعجب
به.. تعجب بذكائه، وجراته.. كانت تعجب به وهو يتحدى أوامر أبيه
وأمه.. وتعجب به وهو يسرق قراطيس البسكوت من بائع
الدندرمه، ويعود إليها لتشاركه فى أكلها وهما يتضحكان.. وتطور
اعجابها مع عمرها إلى عاطفة أقوى من الاعجاب.. إلى نوع خاص
من الحب.. هذا النوع من الحب المنظم الذى يقوم على عملية
حسابية، لا تستطيع إلا أن تستسلم لنتائجها.. فقد كانت العاطفة
تعدها لعبد الحميد، وتعد عبدالحميد لها.. كان معروفا أنهما
يتبادلان الاعجاب.. وأنهما فى المستقبل، سيتزوجان..

وقد استسلمت لهذه النتيجة، كأنها ولدت لها.. لم تحاول أن
تناقشها.. ومنذ أن وعت هذه النتيجة.. منذ كانت فى الحادية عشرة
من عمرها، وهى تعتبر نفسها زوجة لعبد الحميد.. تخل منه،
وتطيع أوامره، وتدافع عنه فى غيبته، وتلجأ إليه لحل مشاكلها
الصغيرة.. وقد خلق فيها هذا التكلف احساسا أكبر من سنها..
كانت تحس انها أكبر كثيرا من اختها نوال.. وأكبر كثيرا من أخيها
محى.. وقريبة جدا من عمر أمها.. وكان هذا الاحساس يدفعها إلى
نوع من التعالى على بقية صديقاتها.. ويدفعها إلى الصمت، لتبدو
به أكثر تعقلا وأكثر اتزاناً.. ويدفعها - رغم كسلها - إلى التظاهر
بالاقبال على أعمال البيت واشغال الأبرة، لتبدو كزوجة ناجحة..
وكان عبدالحميد يكبرها بخمس سنوات.. وكانت ترقب بطرف

عينها تطور شبابه، كأنها ترقب الانتهاء من خيوط «بلوفر» تصنعه
بيديها لترتديه.. كانت ترقب خطوط وجهه وهى تتضح لترسم
رجولته.. وقامت وهى تطول وتنسق.. وعندما لمحت الشعرات
الأولى فى شاربه الذى بدأ يطلقه، أحست أنه اقترب منها جدا حتى
كادت تسمع دقات دفوف «العوالم» وهن يزفونها إليه ..

ولكن عبد الحميد بدأ يغيب عنها طويلا.. ثم بدأت تسمع كلمات
متناثرة من فم أبيها يصفه بأنه « ولد بايظ».. ثم تكررت هذه
الكلمات، وردبتها العائلة كلها.. وأصبح معروفا أن عبد الحميد «ولد
بايظ».. حقيقة لا تقبل المناقشة!

ولم تصدق هذه الحقيقة فى مبدأ ظهورها.. لم تجد فى
عبد الحميد شيئا يستحق أن يصفه بأنه «بايظ».. انه جريء.. وهو
طويل اللسان.. وقد نخن يوما سيجارة أمامها وهو فى الرابعة
عشرة من عمره.. وحاول مرتين أن يقلبها فصدته بعنف.. صدته
لأن العملية الحسابية التى وعثها فى ذهنها كانت لا تسمح له
بتقبلها إلا بعد كتب الكتاب.. ولكن كل هذا لا يكفى لأن يكون
«بايظ».. إنه صنف آخر من الشبان غير صنف شقيقها محبى..
وهى فى قرارة نفسها تميل إلى هذا الصنف.. أنه صنف يفيض
بالرجولة.. والذكاء.. والجرأة على الحياة.. صنف يجعلها تقتنع أكثر
بالزواج..

حتى عندما بدأت تسمع همسات عن مرافقته للراقصات.. وعن
تدخينه الحشيش.. حتى فى هذه الفترة كانت لا تزال تعد نفسها
له.. وإن كان تفكيرها فيه بدأ يشوبه كثير من الهم، وكثير من
الخوف.. الخوف من أن تفقده.. إلى أن جاءها نبأ رسوبه فى
امتحان التوجيهية..

هنا فقط بدأت العملية الحسابية تختل أرقامها فى رأسها.. فقد
كان علم الحساب يفترض فى عبد الحميد أن ينجح دائما فى
الامتحان، وأن يدخل الجامعة وينال شهادة الليسانس، ثم يتزوجها.
وبدأ الشك يداخلها فى مستقبلها.. وبدأت تردد بينها وبين
نفسها: « بس لو كانت أخلاقه كويسه »..

ثم رسب عبدالحميد فى الامتحان مرة ثانية.. فاصبح شكها يقينا.. واعترفت مع بقية افراد العائلة بأنه «ولد بايظ».. واخذت ترقبه كأنه رجل يخرج من حياتها.. ويسير بعيدا عنها.. ولم تفاجأ عندما رسب فى الامتحان مرة ثالثة.. وعندما ترك المدرسة وعمل موظفا صغيرا بالحدى الشركات.. وعندما ترك البيت وأصبح يعيش وحيدا تحوطه الشبهات.. لم تفاجأ فقد استطاعت أن تحول أحلامها مستقبلا بعيدا عنه.. وظلت العملية الحسابية معلقة فى رأسها تقيس بها كل من يتقدم إليها خاطبا..

ولكن عبدالحميد طوال هذه الفترة.. لم ينقطع عن البيت تماما.. كان يزورها.. وكانت تلمح فى عينيه نفس النظرة التى تعودتها.. وكان يعاملها نفس المعاملة.. كأنها لا تزال شريكة مستقبلة.. يأمرها.. ويسألها عن مشاكلها الصغيرة.. ويعطى لنفسه حقوقا عليها.. فكانت تتجاهله صامته.. ويتجاهله معها كل افراد العائلة.. تستقبله وتودعه كابن عم لا كزوج المستقبل..

كل هذا حدث لها دون أن يكون موضع نقاش بينها وبين أحد من العائلة.. فإن احدا لم يفاتها فى خطبتها إليه عندما كانت هذه الخطبة مقررة، واحدا لم يفاتها فى فسخ الخطبة عندما اصبح فسخها مقررًا.. إنما كانت الخطبة شيئا متعارفا عليه دون أن يتخذ أى مظهر رسمى صريح، وكذلك فسخها..

ومنذ عامين بدأ عبد الحميد يكثر من زيارته للبيت.. وبدأ الحديث عن رغبته فى الزواج بها يتضح ويعلو وتتناقله العائلة.. ثم تقدم بنفسه ليخطبها من أبيها.. فرفض.. رفض بشكل حاسم.. رفضته العائلة كلها.. حتى أبوه رفض أن يتوسط له للزواج من ابنة أخيه.. ورغم ذلك ظل عبدالحميد يتردد على البيت مستغلا صفته كابن عم.. ونظرتة إليها لا تتغير.. النظرة التى عرفتة منه فى طفولتها وصباها، والتى تبدو كزهرة تستمد نقاءها من الطين الأسود العفن..

وكانت العائلة كلها تضيق بزيارته وتتهمه بالوقاحة.. أما هى

فلم تكن تضيق بها.. كان إلحاحه وجرائته يرضيان غرورها الخفى..
كان يرضيها أن يظل عبدالحميد متعلقا بأحلام صباه.. أن يظل على
حبها.. حتى لو كان «ولد بايظ».. وكان يرضيها أن تسمع من
شقيقتها نوال قولها «اتفضلى يا ستى.. سى عبدالحميد بتاعك
شرف» فتتهز كتفيها وتشيح برأسها قائلة «ياسم.. هيه تلقىحه»!
ولكنه اليوم يعود إليها وفى يده سلاح يهددها به..
يهدد العائلة كلها..

هل تعذره.. لأنه انسان يحب.. يحبها؟!
هل تستسلم لغرورها، وهى ترى رجلا يرتكب جريمة بشعة
ليتزوجها؟!

أم تحقد عليه.. وتكرهه؟!
إن ما يشقيها هو حيرتها.. حيرتها بين غرورها، والعملية
الحسابية التى تعيش فى رأسها..
إنها ليست خائفة من عبدالحميد.. ليست خائفة من أن تضطر
للزواج به.. ولكنها حائرة فيه.. بل حائرة فى نفسها.. وهى تبكى
حيرتها..
بكت كثيرا..

ثم وجدت بقية من دموع، فعادت تبكى من جديد..
وانطلق مدفع الإفطار.. وانتفض قلبها كأن الطلقة أصابته..
وفتح الباب وأطلت أمها وقالت وهى ممسكة بيدها طبق طعام، فى
طريقها لتضعه على المائدة:
- ياللا يا سامية.. ياللا يا حبيبتي.. المدفع ضرب!!



كان إفطارا صامتا حزينا .. كان كل فرد منهم
يشيع اللقمة إلى جوفه كما يشيع فقيدا عزيزا .
لم يتكلم الأب ولا الأم ولا محيي ولا سامية ولا
نوال .. ولا إبراهيم .. حتى الكلمات القصيرة التي
تعودوا تبادلها سكتوا عنها .. وتحاشوا جميعا النظر إلى إبراهيم ..
كانهم يخشون لو نظروا إليه أن يقتلوه بعيونهم .. ماعدا نوال ..
اختلست نظرة أو نظرتين ثم كفت ، حتى لا تفضحها عيناها .
وكان إفطارا سريعا .. كأنهم يهربون بعضهم من بعض .. كأن
كل منهم يريد أن ينتهي من تشييع الجنازة ليخلو لنفسه .
وقامت سامية قبل أن تمد يدها إلى طبق الكنافة ، وصاحت
وراءها أمها :

- مش تستنى لما تحلى ..

وقالت سامية فى حدة قاسية كأنها تشتمهم جميعا :

- ماليش نفس !

ثم سارت إلى غرفتها فى خطوات سريعة حتى لتكاد تنكفىء
على وجهها ..

وتلفتت نوال بعينيهما كأنها تستأذن المجتمعين ، وقامت لتلحق
بأختها .. لتواسيها .

ثم قام الأب ومحيي فى وقت واحد ، وهب إبراهيم واقفا كأنه
يعتذر عن تأخره .. وتركوا الأم وحدها على المائدة .. لا تزال تأكل
ولكنها لا تنظر إلى الطبق الذى تأكل فيه .. وربما أكلت أكثر مما
تعودت أن تأكل ، ولكنها لم تحس أنها أكلت شيئا .. كانت ساهمة

وعقلها يدور ، ويطحن وساوسها وخيالها .. كأنها كانت تاكل هذه
الوساوس والخيالات .

ودخل الأب إلى غرفة « القعاد » .
ووقف محبى مترددا .. وقف إبراهيم بجانبه ينتظر من صديقه
أن يدعوهُ إلى الدخول ليلحقا بالأب ، ولما وجدته مترددا .. تعداه
وخطا نحو غرفته - غرفة محبى - فى خطوات حزينة ..
ولحق به محبى ، وقال وهو يفلق الباب وراءه :
- أظن نأخذ الشأى هنا أحسن !
وقال إبراهيم فى استسلام خافت :
- زى ما تحب !

وجلس محبى إلى مكتبه وفتح كتابا ، ثم قال بعد فترة وهو
ينظر إلى السطور ولا يراها :
- أنا شايف إن مافيش مانع إن نوال تروح تجيب البدله بكرة ..
بس .. إنما ..

وتوقف محبى عن الكلام كأنه قرر أن يخفى فى نفسه شيئا .
وقال إبراهيم :
- بس إيه ؟

وقال محبى وهو لا ينظر إليه :
- ولا حاجة ..
وقال إبراهيم وهو يبتسم :
- أنا عايزك تطمئن يا محبى .. تأكد أن مش حيحصل لها حاجة!
وتمتم محبى :
- ربنا يستر !

قالها وسكت .. وبدأ مقطب الجبين مكفهر الوجه متهدج الانفاس
كأنه يلهث من الصمت .. كان يجرى فى صمته وراء مخاوفه ..
وراء حيرته بين لهفته على أخته من أن يصيبها مكروه ورغبته فى
أن يساعد إبراهيم فى هربه حتى يخرج من البيت ، فيرتاح ويريح
بيت منه .. وقد قضى طول فترة ما قبل الإفطار وهو يحاول أن
تقرر على رأى .. وحاول إبراهيم عبثا أن يساعده فى تكوين

رأيه.. ولكنه ظل حائرا .. وهو لا يزال حائرا حتى بعد أن قرر أن تذهب أخته لتتسلم البدلة من فتحى المليجي ..

وانقضت فترة طويلة من الصمت .. محبى يتظاهر بالقراءة ، وإبراهيم يتظاهر بالتفكير .. وهو الآخر لا يستطيع أن يحصر تفكيره فى شيء .. يفكر فى نوال ، فيطغى عليه تفكيره فى نفسه وفى خطة هربه ، ثم يطغى عليه تفكيره فى عبد الحميد .. ثم يعود يحاول أن يحصر تفكيره فى نوال ، كأنه يحاول النجاة من نفسه ومن عبد الحميد ومن الدنيا كلها .. يحاول أن ينسى كل شيء ولا تبقى فى رأسه إلا فكرة واحدة .. نوال .. مجرد فكرة !!

وسمعا رنين جرس الباب الخارجى .. وقال محبى وهو يرفع رأسه عن الكتاب ويلوى شفتيه فى تقزز :

- ده لازم سى عبد الحميد شرف !

وسكت إبراهيم برهة وهو يستجمع أعصابه ليواجه بها المعركة القادمة ، ثم قال وهو يخفى عينيه حتى لا يرى محبى فيهما اضطرابه :

- أنا عايزك تفهم عبد الحميد إنى حاقعد هنا على الأقل أسبوعين كمان ..

وقال محبى وقد ارتفع حاجباه فوق حافة نظارته دهشة :

- ليه ؟

وقال إبراهيم :

- علشان يطمئن إنه حيفضل عارف أنا فىن .. وما يحاولش يراقبنى .. ويراقب البيت ، ويبلغ عنى أول ما اخرج من هنا وأروح حته تانيه !

وقال محبى وقد أعاد حاجبيه إلى مكانهما :

- معقول ..

وعاد يقرأ فى كتابه ، فقال له إبراهيم :

- مش حتقوم تقابله ؟

ورفع محبى رأسه وفكر قليلا ، ثم قال :

- بلاش .. أحسن نستنى لما بابا يندهلنا ..



كان رنين جرس الباب قد سقط على أعصاب كل من فى البيت ،
وأحالتها إلى أسلاك تسرى فيها الكهرباء ..

وتحرك الأب فى جلسته على الأريكة « الاستانبوللى » حركة
فيها ألم ، كأنه أصيب بمغص مفاجئ ، وتقلصت أصابعه فوق
جريدة الأهرام حتى كادت تمزقها ثم قرب الجريدة من وجهه كأنه
يهرب فيها من رؤية وجه عبد الحميد ..

وانتهت الأم على صوت الجرس فى لقطة مفاجئة ، كأنها لم
تكن تصدق أن الأجل يمكن أن يحل هكذا سريعا .. ثم أسقطت
رأسها فوق كفها ، ومصمصت شفثيها فى حسرة .. ثم كأنها
تذكرت شيئا ، فرفعت رأسها وقالت لزوجها فى لهجة تعبر عن
التصميم :

- أنا مش حتكلم .. مش حتكلم ولا كلمة .. الكلام كله عليك أنت
.. متهيا لى لو فتحت بقى مش حاخيله .. حاجيب له القديم
والجديد وأحطه فوق دماغه .. واللى يحصل بعد كده يحصل .
وقال الأب وهو يزفر كلماته :

- طيب اسكتى .. ربنا يستر .
وكانت سامية جالسة فى غرفتها ساهمة لا تلتفت إلى محاولات
أختها وهى تسرى عنها ، فانتفضت عندما سمعت جرس الباب ،
وجحظت عيناها والتفتت إلى أختها وأمسكت بيدها وضغطت عليها
فى قسوة ، وقالت وهى ترتعش وصوتها يرتعش معها :
- أنا مش حاقابله .. قولى لبابا إننى مش حاقابله .. مش ممكن ..
موتونى أحسن !

وقالت نوال وهى تحاول أن تحتفظ بهدوئها :
- ياشيخه خليكى عاقله .. إيه كمان حنة الواد ده اللى عامله له
قيمة .. ده بكره ياما نضحك عليه .. حنعمل فيه فصولات تطلع من
نافوخته .. أنا حاروح افتح ، وانتى ساوى شعرك .. والا أقولك
نليكى كده ، علشان أما يشوفك يغير رأيه ، ولا يتجوزش !!
وجذبت يدها من يد أختها وهى تضحك ضحكة مفتعلة ، ثم
بت ، وما كادت تخرج حتى ضاعت ضحكتها من فوق شفثيها..

وحملت الشفتان ألماً مرا فاض به قلبها .
وفتحت الباب ، واستقبلت عبد الحميد دون أن تنتظر إليه ،
وأدارت له ظهرها واتجهت نحو الداخل ، وتركته يدخل وراءها ..
وقال عبد الحميد بعد أن أغلق الباب :
- أنتم مش قافلين الباب بالمفتاح ليه ؟
ولم ترد عليه نوال ..
واستطرد قائلاً وكان يجرى وراءها :
- هو عمى فين ؟
وقالت دون أن تلتفت إليه :
- فى أودة القعاد ..
وتركته وبخلت غرفتها ..
ووقف عبد الحميد على باب حجرة « القعاد » كأنه يستأذن فى
الدخول .. ورفع الأب إليه وجهها صامتا .. وعينين صامتتين .. ثم
أخذ يطوى الجريدة فى بطنه .. ثم قال وهو يقوم نصف قومة :
- اتفضل يا ابنى .. اتفضل ..
وبدخلى عبد الحميد وانحنى يقبل يد عمه .. ثم مد يده إلى زوجة
عمه ، فمدت له يدها وهى تدير رأسها الناحية الأخرى ، ثم سحبت
يدها قبل أن يقبلها كأنها تخاف من لسع شفثيه ..
وجلس صامتا يدعى الأدب ، وهو يحاول أن يخفى ابتسامته
التي تزغرد فى صدره ، ويحاول أن يهدئ من نظرات عينيه حتى
لا تكشف عن ذكائه الحاد الذى يبرق فيهما .. ويحاول أن يضع
رأسه فى وضع يدل على الحياء والتواضع ، فينكسها .. ثم
لا يستريح إلى هذا الوضع ، فيميل بعنقه ناحية اليمين .. ثم
يتصور أنه من الأفضل أن يميل به ناحية اليسار .. ثم تضايقه هذه
المحاولات فيرفع رأسه ويواجه بها عمه .. ثم يعود وينكسها من
جديد ..
وتنحني الأب ، ثم قال وهو يلم ساقيه تحته ، ويفرد الجريدة
من جديد :
- ازى والدك ؟

وقال عبد الحميد فى أدب :
- كويس الحمد لله ..
وفتح الأب صفحة من الجريدة وهو يقول :
- قلت له حاجة ؟؟
وقال عبد الحميد وهو يتمايل برأسه تعاجبا بذكائه :
- قصد حضرتك يعنى ..
وقاطعه الأب فى حدة وهو ينظر إليه فى تحد :
- أيوه .. قصدى قلت له حاجة عن وجود إبراهيم عندنا ؟
وتراجع عبد الحميد ، وعاد إلى حالة الأدب التى يدعيها ، وقال
وكأنه يبعد عن نفسه تهمة الذكاء :
- طبعا لا .. مادام حضرتك ما قلتش له !
وقال الأب وهو يعود إلى الجريدة :
- عملت طيب ..
وتمتت الأم دون أن يسمعها أحد :
- وده يعمل طيب أبدا ..
ثم مصمصت شفقتها ، وعادت تسند رأسها على كفها كأنها
تخشى عليها أن تسقط من فوق عنقها ..
وقال عبد الحميد بعد فترة صمت :
- امال فين محبى ؟
وقال الأب وهو لا ينظر إليه :
- فى أودته ..
ثم استطرد كأنه يريد أن يقنع عبد الحميد بأنه لم يعد يخافه ،
ولم يعد يخفى شيئا :
- ومعاه إبراهيم ..
وسكت عبد الحميد ، ونظر إلى الأب من تحت جفنيه ، كأنه
يتسلل بهما إلى موضع يطعنه منه ، ثم قال وهو يهم بالقيام ،
كأنه هو الآخر يريد أن يقنع الأب بأنه مصر على أن يتدخل فى
ثوبته :
- أما اقوم اقعد معاهم !

وقال الأب وهو يسقط الجريدة عن وجهه :
- لا .. خليك هنا ..
ثم استطرد ملتفتا إلى زوجته :
- أندهى لمحبي يا تحية .. وخلي الأستاذ إبراهيم يتفضل معاه !
وأسرع عبد الحميد قائلا كأنه يستمهل زوجة عمه :
- بس فى حاجه يا عمى أحب أقولها قبل ما ييجى محبى ..
وقال الأب فى قرف :
- قول ..
واستطرد عبد الحميد :
- قصدى الموضوع اللى كلمت فيه حضرتك النهارده الصبح ..
موضوع سامية .. أنا عارف أن الظرف مش مناسب .. إنما كل اللى
عايزه كلمة من حضرتك .
واكفهر وجه الأب وقال كأنه يصفعه بلسانه :
- وتفتكر أن الظرف مناسب علشان تطلب كلمة من حضرتى ..
أنا ما عرفتش أكلّمك النهارده الصبح فى المكتب .. إنما ..
وسكت الأب فجأة .. فقد تذكر الخطة التى رسمها لنفسه ..
تذكر أنه قرر أن يتظاهر بالموافقة على ما يطلبه عبد الحميد ، حتى
يتجنب شره ..
وقال عبد الحميد فى صوت هادئ كأنه أعد درسا حفظه جيدا:
- ياعمى أنت عارف إنى عايز سامية من زمان .. من يوم
ما وعيت .. وسبق طلبتها السنة اللى فاتت .. وجيت امبارح علشان
أقول لحضرتك إنى اشتغلت شغلة كمان بعد الضهر .. اشتغلت
مندوب شركة تأمين .. باطلع منها بخمستاشر جنيه فى الشهر ،
أقله .. فوق ماهيتى يبقوا سبعة وعشرين ولسه .. إنما ما قدرتش
أكلم حضرتك امبارح .. ماجتش فرصة .. رحى لك النهارده فى
المكتب .. الظروف اللى جدت مالهاش دعوة بالموضوع .. وأنا مش
عايز أكثر من كلمة .. يا أه ، يا لا .. حضرتك واخذ عنى فكرة
وحشه خالص .. أنا صحيح غلطت وأنا صغير إنما دلوقت خلاص ..

عقلت .. لو سألت مدير الشركة بتعنتنا يقول لك إنى أحسن موظف عنده ..

وكان الأب يستمع إليه ، كأنه يستمع إلى قراراته ، لا إلى مرافعة دفاع .. واستجمع كل إرادته ليتحفظ بهدوءه ، ويريح وجهه من الألم ، ثم قال :

- على كل حال أنت ابن أخويا ، وسامية بنت عمك .. ما خافش عليها معاك .. وربنا يسهل لك ، ويسهل لها ..
وتهلل وجه عبد الحميد ، وقال كأنه لم يعد يستطيع أن يحرم نفسه لذة انتصاره :

- هيه فين ؟

ونظرت الأم إليه كأنها تخنقه بعينيها ثم تمتمت :
- مصايب !

ولم يسمعها عبد الحميد ، وعاد يقول للأب :
- حضرتك قلت لها حاجة ؟

ورفع الأب عينيه ، وقال فى تقزز لا يستطيع أن يخفيه :
- أيوه .. قلت لها !

وقال عبد الحميد فى لهفة :
- وقالت إيه ؟!

وسكت الأب قليلا كأنه لا يستطيع أن يكذب على لسان ابنته ، ثم قال :

- والله . البنات فى الحالة دى ما بيقولش حاجة .. بيسكتوا !
وعاد عبد الحميد يسأل :
- إنما ..

وقاطعه الأب صارخا وكأنه لم يعد يطيق ؟

- أنت بتحقق معايا ولا إيه يا ولد .. اختشى ، عيب ..

وقال عبد الحميد وهو يتراجع ، وفوق شفثيه ابتسامة باهتة
أسفة ، كأنه يلوم بها ذكاهه :

- أنا أسف .. الحقيقة فرحتى هيه اللى جرائتنى ..

وقال الأب فى لهجة حازمة وقد بدأ يستعيد هدوءه :

- المسألة دى مش عايزك تجيب سيرتها لغاية ما الأستاذ إبراهيم يسيب البيت .. وهو بالذات مش عايزه يعرف بيها .. فاهم.
وقال عبد الحميد والابتسامة لم تنسحب بعد من فوق شفثيه
الغليظتين :

- حاضر .. لك حق يا عمى ..
والتفت الأب إلى زوجته وقال كأنه يستنجد بأحد ليساعده على
عبد الحميد :

- قومى أندهى لمحى يا تحية ..
وقامت الأم كأنها تشد معها أطنانا من الحديد ، وقالت :
- وأقوم بالمرّة أنا .. مش عارفه الليلة مالى !
وخرجت الأم وهى تسير فى خطوات ثقيلة متعبة .. ونظر الأب
إلى عبد الحميد ثم عاد إلى جريته وهو يقارن بينه وبين إبراهيم ..
لا يدري لماذا .. ولكنه تمنى ساعتها لو أن ابن أخيه هو إبراهيم ..
حتى لو سجن ، وشنق .. أخف عليه أن يعطى ابنته لرجل مشنوق
من أن يعطيها لعبد الحميد ..
وتنحنح عبد الحميد ، ثم قال وهو يتعمد ألا يضيف على سؤاله
لهجة الاهتمام :

- والأستاذ إبراهيم حايقعد هنا كتير يا ترى ؟
ورفع الأب عينيه عن سطور الجريدة كأنه يستعين بالله ، وقال
وهو يخلق أبواب الحديث :

- ماعرفش .. رينا يسهل له !
ودخل محى ، وخلفه إبراهيم ..
وقام عبد الحميد واقفا .. ولم يتحرك الأب إنما اهتزت الجريدة
فى يده هزة خفيفة ، ثم عادت ثابتة أمام وجهه ..
ومد محى يدا طرية باردة إلى عبد الحميد ، كأن دمائه
وأعصابه ترفض أن تشاركه فى التحية ، وقال فى قرف :
- إزيك يا عبد الحميد ..

ولم يرد عبد الحميد ، وسحب يده من اليد الطرية وتوجه بها

إلى إبراهيم ، وقال وهو يصافحه فى حرارة تبدو ولا تدفىء ، وبين شفثيه ابتسامة واسعة تفتح فمه ، كأنه يستقبل به طبيب أسنان :

ـ أهلا .. أهلا .. ده شرف كبير ..

وقال محيى وهو ينظر إليه ساخرا :

ـ الأستاذ إبراهيم حمدى .. طبعاً تعرفه !

وقال عبد الحميد وهو لا يزال متطلعا إلى إبراهيم :

ـ مين ما يعرفوش .. البطل الللى أنقذ البلد من الخونة .. أهلا

وسهلا !!

وقال إبراهيم فى برود :

ـ تشرفنا ...

وكان إبراهيم ينظر إليه بكل عينيه الواسعتين كأنه يغوص بهما فى أعماقه .. وظل ينظر إليه .. لا يخفض عينيه عنه .. حتى اضطر عبد الحميد أن يحول نظره عنه ، ويتلفت حوله باحثا عن مقعده ..

وقال عبد الحميد بعد أن جلس :

ـ أنا أرجوك أنك تعتبرنى زى محيى تمام .. وتعتبرنى فى

خدمتك دايما .. أى حاجة تفكر إنى أقدر أعملها قوللى عليها ..

وقال إبراهيم فى اختصار :

ـ متشكر ..

ومضت فترة صمت ، عاد عبد الحميد بعدها يقول :

ـ إنما تعرف أن ماحدش كان ممكن يظن إنك هنا .. أنا نفسى

ماكنش ممكن أصدق !

وتلملم الأب ثم قال فى حدة وهو يدير رأسه إلى عبد الحميد :

ـ إيه الكلام البايخ الللى بتقوله ده .. ماتشوف لك سيره تانيه؟!

وسكت عبد الحميد ، بعد أن نظر إلى إبراهيم كأنه يشهده على

عقلية عمه ..

وقال إبراهيم بعد فترة ، وهو يحاول أن يدرس شخصية

عبد الحميد أكثر :

ـ والأخبار إيه فى البلد !

قال عبد الحميد فى حماس وقد اشرق وجهه كانه كسب
اطمئنان إبراهيم :

- البلد حالتها زفت .. دول حيودوا البلد فى داهيه .. حايبيعوها
بيع للإنجليز .. الواحد مش عارف يعمل إيه .. نفسى أئتم على
شوية شبان . ،نعمل حاجة ننقذ بيها البلد ..
وابتسم إبراهيم كانه عرف حقيقة عبد الحميد ..
وقال محيى ساخرا :

- يا سلام .. من أمتى بأه ياسى عبد الحميد الوطنية دى كلها ؟
وقال عبد الحميد كانه غضب :
- أنت ماتعرفنيش يا محيى .. ماتعرفش أنا عملت إيه ولا باعمل
إيه .. أرجوك تسكت !

وهز محيى كتفيه تماذا فى السخرية وسكت ..
وسكت كل من بالغرفة ..

وبدا عبد الحميد يحس أن الثلاثة ينظرون إليه كأنهم يضربونه
بعيونهم . وإنهم يحاصرونه بأنفاسهم كأنهم ييصقونها فى وجهه ..
وأحس أنه أخطأ فى تقديم نفسه إلى إبراهيم .. كان يجب أن يبدو
أمامه أكثر رزانة ، وأكثر تعقلا ، وإن يبدو كأنه مقدر لخطورة
الظروف التى تحيط بالعائلة .. وأخذ يحدث نفسه : « يجب أن
أغير الاتجاه .. سأبدو صامتا .. مقطبا .. ولن أسأل عن شىء ..
سأتركهم يقولون لى كل شىء بلا سؤال .. يجب أن استعمل ذكائى
.. كل ذكائى» .

وكانت قسما وجهه وهو يحدث نفسه تتغير حسب ما يقرره
فأختفت ابتسامته ، وهذأت عيناه ، وبدا رزينا وقورا ، مفكرا ، كانه
يفكر فى موضوع خطير .

وفى نفس الوقت كان إبراهيم يحس بأن العائلة تخطيء فى
معاملة عبد الحميد هذه المعاملة الجافة .. يجب أن يشعر ، بثقتهم
فيه .. يجب أن يدعوه بطمئن إليهم ، وأن يتجاهلوا نيته السيئة
حتى لو بدت صريحة .. وأخذ يفكر فى كلمة يقولها تقربه من
عبد الحميد ..

وقبل أن يقول شيئاً ، وقف عبد الحميد وسار متجهاً إلى خارج
الغرفة ، ولحقه صوت الأب :
- رايع فين ؟
والتفت إليه عبد الحميد دهشاً ، كأنه يعاتبه على سوء ظنه ،
وقال في أدب وقور :
- رايع اشرب يا عمى ..
وخرج عبد الحميد ..
ومال إبراهيم برأسه إلى محبى وهمس في أذنه :
- حسن معاملتك له شويه ؟
ورفع الأب رأسه على صوت الهمس ، ثم عاد ووضعه ثانية في
الجريدة ..



لم يكن عبد الحميد يريد أن يشرب .. كان يريد أن يبتعد عن
الغرفة ريثما يبدل شخصيته وأسلوبه ، ويعود إليها في شخصية
جديدة وأسلوب جديد .. وكان يريد أن يبحث عن سامية ليطمئن
على أحلامه .. وليتزود من عينيها بالدعة والبراءة والهدوء .. كل ما
لا يجده في نفسه يجده في عينيها ..
وسار نحو المطبخ وهو يدق الأرض بقدميه كأنه يوقظ
النائم .. وخرجت نوال من غرفتها على وقع قدميه ، ونظرت إليه
كأنها تقيس طوله وعرضه ، ووقف قبالتها وهو يهمس ، بينما يطل
بعينه داخل الغرفة :
- فين سامية ؟
وقالت نوال وهي تبتعد عنه كأنها تزيح نفسها من أمام عينيه :
- أهى قدامك !
ثم سارت إلى داخل المطبخ ، وهي تعتمد أن تترك سامية تواجهه
وحدها .
وخطا عبد الحميد خطوة ووقف يسد باب الغرفة ، وقال في
صوت خافت :
- ازيك يا بنت عمى ؟

وكانت سامية واقفة فى وسط الغرفة مرتكزة على حافة السرير ورأسها مدلى فوق صدرها كأنها تبحث فى قلبها عن مزيد من الدموع .. ورفعت عينيها إليه بغتة وقد فوجئت به .. وهمت أن تغضب وتثور ، ولكنها التقت بنظرته إليها .. النظرة التى تعودتها منه فى طفولتها وصباها ، والتى تبدو كزهرة تستمد نقاءها من الطين الاسود العفن .

وضعف غضبها ، وخفت ثورتها .. واشاحت عنه بوجهها كأنها تفر منه .. تفر من طفولتها وصباها .. وتفر من غرورها وهى تواجه الرجل الذى يلهث وراءها .. وعاد عبد الحميد يقول فى صوته الخافت ، كأنه يخفى أحلامه فى طياته :

.. أنت مش قاعده معانا ليه ؟!

ولم ترد عليه .. إنما ارتفعت الدماء إلى وجنتيها ، كأنها عادت إليها لتحميمها .. من نفسها !

وخطا عبد الحميد خطوة داخل الغرفة وهو يقول :

.. ما بترديش ليه مالك مبوزه كده ؟!

والتفتت إليه سامية ، وقالت وهى تحاول محاولة يائسة أن تحتفظ بهدوئها :

.. من فضلك سيبنى .. دلوقت !

وقال وهو يخطو خطوة أخرى نحوها :

.. إيه بس اللى مزعلك ؟!

وصرخت فى وجهه كأنها لم تعد تحتل :

.. أبعد عنى .. أوعى تقرب لى .. أنا باقولك أهو .. أحسن والله ..

والله .. انده لبابا !

وقال فى جد كأنه يستعمل حقه عليها .. حقه الذى تعودته فى

طفولته وصباها :

.. سامية . جرى لك إيه .. هوه عمى قالك إيه ؟

وقالت وهى تنكس رأسها من جديد كأنها على وشك البكاء :

.. ياريتة ما قال لى حاجة !

وقال كأنه يربت بصوته على قلبها :
- مش ده اللي كنا عاوزينه طول عمرنا ؟
قالت وكأنها اهينت :
- أنا ماكنتش عايزاك .. مين قالك إننى كنت عايزاك .. أعوز واحد
ماكملش تعليمه وأخلاقه زفت وقطران !!
قال وهو يبتسم كأنه يهزأ من عقليتها :
- واللى كملوا تعليمهم عملوا إيه يعنى .. عمى ما هو كمل
تعليمه ، وبعد ثلاثين سنة لسه موظف درجة خامسة !
وقالت تقاطعه فى حدة :
- ضفر بابا يرقبتك ..
واستطرد كأنه لا يأبه بكلامها :
- ومحبي عاش طول عمره يمسح عينيه فى الكتب ، ويكره
يتوظف بأتناشر ولا خمستاشر جنيه .. ماتبيقش عبيطه .. التعليم
مش مهم ، المهم الشطارة .. والمهم أنا وأنت .. احنا طول عمرنا
مكتوبين لبعض .. طول عمرى حاسب إنك ليته ، وأنت حاسبه إننى
لك . فاكركه لماكنت باجيب لك البسكوت ونقعد ناكله سرا ..
النها ربه حاجيب لك كل حاجة .. حاجيب لك بيت بحاله .. وكل لقمة
حنا كلها سوا ..
وقاطعته سامية وهى تهز رأسها فى عنف تحاول أن تسكته ،
فيتأرجح شعرها خلف رأسها كأنه يقول « لا .. لا » .. قاطعته قائلة
وهى تدق الأرض بقدمها :
- البسكوت اللي كنت بتجيبو لى كنت بتسرقه من بتاع
الدندمة .. حتسرق لى البيت منين يا ترى ؟!
وأرخت عبيد الحميد عينيه كأنه يكبت جرحا انشق فى قلبه ،
وقال :
- ماطوليش لسانك يا بنت عمى .. أنا مطول بالى عليكى ، لأننى
عارف أن الكلام ده مابتقوليهش بلسانك .. بتقوليه بلسان عمى ..
لسان العيلة كلها .. العيلة اللي ظلمتنى وظلمتك معايا ..
وقالت سامية وهى لا تزال تتحداه :

- وكان مين ظلمك لما سبت المدرسة قبل ما تاخذ الشهادة ؟!
وقال عبد الحميد وهو لا يزال صابرا :
- رجعنا للشهادة .. يا ستى مستعد ابتدى اذاكر من جديد وأخذ
لك ميت شهادة !
وسكتت سامية ، وأشاحت عنه بوجهها ..
واستطرد وهو يقترب منها أكثر :
- بس على شرط تذاكرى معايا ، وتسمعىلى درس بدرس !
ومد يده يحاول أن يمسك بيدها ، فابتعدت عنه قائلة فى حدة :
- أوعى تلمسنى .. أبعد عنى .. مش عايزه اشوفك .. مش عايزه
يا أخى .. هوه بالعافية !
وسكت عبد الحميد ، وارضى عينيه فترة ، ثم عاد ورفعهما وقال
كأنه يتنهد :
- سامية ..
قالت وهى لا تزال محتدة :
- عايز إيه .. عاوز منى إيه .. خلصنى ؟
قال وهو يبتسم فى يأس :
- ولا حاجة . . عايزك تضحكى . تبترسمى على الأقل !
وفتحت سامية شففتيها عن أسنانها فى حركة مفتعلة ، وقالت :
- أهو .. ادينى ابتسمت .. اتفضل بأه !
وقال عبد الحميد وهو يهم بالتحرك ولا تزال النظرة فى عينيه
لا تتغير .. النظرة التى تبدو كزهرة تستمد نقاءها من الطين الأسود
العفن :
- أنا حتفضل دلوقت .. وبكره حاتشوفينى تانى !
وقالت سامية فى صوت ضعيف كأنها تأسف لذهابه :
- مش عايزه أشوفك لا بكره ولا بعده ..
قال وبين شففتيه ابتسامة الواصل :
- حاتشوفينى بكره وبعده وكل يوم فى عمرك ..
واستدار لها وخرج من الغرفة ، وعيناها تلهثان وراءه ..
وذهب إلى غرفة « القعاد » ، وتمهل قليلا على بابها وهو يدير

عينيه فى الجالسين ثم كأنه اكتشف أنه تعب من النظر إلى وجوههم وتعب من الجو المضطرب الذى يحيط بهم ، فتقدم وهو يقول :

- تسمح لى ياعمى ..
ومد يده ليلتقط يد الأب ، فاعطاها له دون تردد ، قائلا :
- سلم على والدك ..
وانحنى يقبل يد عمه ، ثم مد يده إلى إبراهيم وقال فى وقار :
- شد حيك !
ورد إبراهيم وهو يبتسم له ابتسامة حاول أن تكون كبيرة :
- الشدة على الله ..
وقال محيى كأنه يتودد إلى عبد الحميد :
- ما تخليك شويه .. لسه بدرى !
وقال عبد الحميد وهو لا يزال محتفظا بوقاره :
- اصل ورايا ميعاد .. تصبحوا على خير ..
وخرج وراءه محيى زيادة فى التودد إليه ، وقال له عبد الحميد وهما عند الباب :
- اعتمد على يا محيى .. أنا دلوقت بقيت مسئول معاك .. لازم
تقوللى كل حاجة أول باول .. علشان أكون جنبك .
وقال محيى وهو يفتح له الباب :
- طبعا .. ما انت حاتكون معانا كل يوم ..
وضغط عبد الحميد على الباب حتى لا يفتحه محيى ، ثم همس قائلا :

- هوه جاي يقعد هنا اد إيه .. ماتعرفش ؟!
وقال محيى فى لهجة طبيعية :
- اقله أسبوعين .. هوه عامل حسابه على كده !
وهز عبد الحميد رأسه ، ثم خرج وهو يقول :
- ما تنساش تقفل الباب بالمفتاح ؟!
ونزل السلم وهو لا يزال متقمصا الشخصية الوقور التى قرر أن يبدو بها أمام العائلة .. ثم ما كاد يصل إلى الشارع حتى عاد

إلى طبيعته .. والتمعت عيناه بالذكاء النشط .. وارتفعت إلى شفثيه
ابتسامته الساخرة التى تتسلل من تحت شاربهِ الرفيع كأنها تتسلل
من الظلام .. وأسّرت خطواته كأنه يريد أن يصل إلى نهاية الحياة
قبل غيره .

وسار إلى محطة الأوتوبيس وهو يفكر فى سامية .. إنها تريده
أن يأخذ شهادة .. الغيبة .. ماذا تجديه أو تجديها الشهادات ؟ لقد
عاش طول حياته معتمدا على ذكائه .. وأخذ كل ما يريد من الحياة
بالذكاء .. الذكاء وحده ولو عاد إلى صباه وإلى مدرسته مرة ثانية
لما فكر فى أن ينال شهادة .. ولما أراد أن يكون مثل أخيها محبى ..
إن هؤلاء الناس من أمثال محبى لا يعيشون الحياة ، ولكنهم
يوجدون فيها فقط .. إنهم لا يساوون أكثر من قصاصة الورق
التي يحملونها ويسموننها شهادة .. أما هو .. فإنه يساوى الحياة
كلها .. كل ملذاتها ، وكل جمالها ، وكل نشاطها .. وهو يساوى
سامية أيضا .. وسياخذها بدون شهادة .. سيأخذها بذكائه .

إنه يحبها .. وحبها يختلط بكبريائه . وباعتداده بنفسه .. فهى
الشيء الوحيد الذى خسره بسبب ذكائه ، ولكنه سيستردها بالذكاء
أيضا .. سيستردها وينتصر بها على عائلته كلها التى لا تؤمن
بطريقته فى الحياة .. سيستردها ويأخذ معها خمسة آلاف جنيه ..
إن هناك خمسة آلاف جنيه بين يدي عمه .. ولكنه يترفع عنها ؟
الغبى .. لماذا يترفع عنها ؟ الوطنية !! ولكن ما دخل الوطنية هنا ..
إن إبراهيم حمدي سيقبض عليه حتما إن لم يكن اليوم فغدا .. ولن
تتقذه وطنية عمه .. فالموضوع ليس موضوع وطنية .. ولكنه
موضوع خمسة آلاف جنيه .. من يأخذها .. إذا لم يأخذها هو ..
فسيأخذها غيره .. وهو أولى بها .. إنه يستطيع أن يبدأ بها
مشروعا تجاريا ضخما .. وأن يصبح من كبار الأثرياء وأن يبنى
لسامية فيلا .. ويشتري لها سيارة .. وخدم وحشم .. ومصاغ
ومجوهرات .. ولن يكلفه كل ذلك أكثر من مكالمة تليفونية لضابط
البوليس السياسى .. أو للنائب العام .. ويعددها يقبض المكافأة
السخية .. الخمسة آلاف جنيه .. بعد أسبوعين فقط .. عندما يخرج

إبراهيم حمدي من بيت عمه ، سيرفع سماعة التليفون ويطلب
بالخمسة آلاف جنيه .. ولو كان عمه أكثر ذكاء .. لو رأى الدنيا
على حقيقتها ، لما أحوج به إلى الانتظار هذين الأسبوعين ولاشترك
معه في تسليم إبراهيم حمدي للبوليس ثم اقتسم معه المبلغ ..
ولكنه غبي .. هذا العم .. وما أكثر الأغبياء في هذا البلد .
ونزل من الأتوبيس ، وسار متجها إلى شارع سليمان باشا ،
وهو لا يزال سادرا في أفكاره .. ثم جلس إلى مائدة في المقهى
الذي تعود التردد عليه وصفق مناديا الجرسون ، وطلب منه أن
يأتى إليه بدفتر التليفون .. ثم أخذ الدفتر بين يديه في لهفة وبدأ
يقلب صفحاته في اهتمام .. ووقف عند اسم « الأميرالاي محمد بك
همام - رئيس البوليس السياسي » .. ثم أخرج من جيبيه مفكرة
صغيرة وسجل فيها نمرة تليفون الأميرالاي محمد همام .. ثم عاد
يقلب الصفحات ، ووقف عند اسم « النائب العام » وسجل في
مفكرته رقم تليفونه .
وطوى دفتر التليفون .. وجاء أحد أصدقائه وخط على كتفه
قائلا :

- الليلة فين يلذن الله ؟
وقال ضاحكا في قهقهة عالية كأنه يعلن بها انتصار ذكائه :
- الليلة للصبح ، واللى خلقك !!
وقام يحتفل بالذكاء ..

يوم آخر !!

إنه اليوم الثالث منذ طرق إبراهيم باب البيت ..
اليوم الثالث فقط .. ورغم ذلك فكل من فى البيت
يحس أنه عاش عمره كله وسط المشكلة .. يأكل
المشكلة ، ويشرب المشكلة ، وينام ويصحو فى المشكلة ، ويتنفس
المشكلة .. كأنهم لم يعيشوا أبدا إلا وبينهم بطل هارب تطارده
الحكومة ، وتضع للقبض عليه مكافأة قدرها خمسة آلاف جنيه ،
وتهدد كل من يؤويه بالسجن ثلاث سنوات .
وجاء الصباح الجديد ، وكل فرد فى العائلة يعرف دوره ،
ويعرف إحساسه وعواطفه ، ويعرف ما يدور برأسه .. لا شيء
جديد .. وليسوا فى انتظار شيء جديد .. لا شيء يزيد من همهم ،
فقد تشبعوا بالهم حتى لم يعد فيهم منفذ لهم جديد .. ولا شيء
يريح .. فلن يريحهم إلا أن يخرج البطل من البيت .
وكل منهم يتحرك فى بطنه كأنه يخشى أن أسرع فى حركته أن
يوقظ البوليس .. وكل منهم قد أرمى جفونه فوق عينيه كأنه
يتجاهل ما حوله وما فى نفسه .. وكل منهم قد تهدل كل مافيه
كأنه استسلم للقدر .

وكانت نوال أول من استيقظ ..

ريما لم ينم أحد فى البيت ، وربما لم تنم هى أيضا .. ولكنها
كانت أول من فتحت عينيها . وأبقتهما مفتوحتين وكفت عن محاولة
النوم .

وكانت الساعة الخامسة صباحا عندما فتحت عينيها .. وأخذت تستعرض العمل الذى تقرر أن تقوم به .. ستذهب لاستلام بدلة الضابط من فتحى المليجى .. ستقابلها فى ميدان الكوبرى .. بجانب دكان بائع السجائر .. و .. وأخذت تستعرض كل التفاصيل .. تفاصيل كثيرة يصورها لها خيالها .. وكانت تكاد ترى بعينيها ميدان الكوبرى .. كل شبر فيه .. وترى عربات الترام والناس الجالسين فى العربات .. وعسكرى البوليس الذى يروح ويغدو هناك .. وطفلا يجمع أعقاب السجائر .. وعربة كارو محملة بالخضار .. وسيارة كاديلاك تمرق وفيها شاب .. والشاب يلتفت إليها ويطلق صفيرا يعبر به عن إعجابه .. وشحاذ يقترب منها وتنهره بشدة .. وبعض طلبة الجامعة يتسكعون حولها .

كل هذه الصور تمر أمام عينيها ، وهى تعبس حيناً ، وتهذاً حيناً، وترتجف حيناً ، وتبتسم حيناً .. ولم تكن تعبس أو تهذا أو ترتجف أو تبتسم للصور التى تمر بخيالها ، إنما تبعا لإحساسها وكان إحساسها غير مرتبط بخيالها .. كان إحساسها يتحرك وحده فى ناحية ، وخيالها يتحرك فى الناحية الأخرى .. وكان المجهود الذى تبذله ، وتتألم فى بذله ، هو محاولة الربط بين هذا الخيال وهذا الإحساس .. كانت تحس بالخوف بينما ترى فى خيالها صورة العربة الكارو المحملة بالخضار . ثم يخف إحساسها فجأة فتكاد تبتسم كأنها مقدمة على لعبة مسلية ، ثم ترى فى خيالها صورة عسكرى البوليس ينظر إليها شزرا .. وكانت خلال هذه الحيرة تنجح فى محاولتها الجمع بين خيالها وإحساسها لبرهة قصيرة تتساءل خلالها : « لماذا حدد لها فتحى المليجى موعدا فى هذا الميدان المزدهم بالحركة .. أما كان الأجدر أن يلتقيا فى مكان منزو أكثر هدوءا وأكثر أمنا ؟ »

ثم كانت تجيب نفسها : « لابد أن هذا المكان أكثر درءا للشبهات، وأبعد عن مراقبة البوليس !! »
وكانت عندما تجد هذا الجواب تبتسم كأنها تهنىء نفسها ،

وكانها أصبحت فعلا عضوة عاملة فى جمعية سرية وطنية !
ثم كان خيالها يعود ويفترق عن إحساسها ، وتعود ثانية إلى
حيرتها وتخبطها إلى أن تنجح مرة ثانية فى السيطرة على تفكيرها
فيفقز أمامها سؤال آخر : « ماذا يحدث لو طلب منها فتحى المليجى
أن تركب معه فى السيارة بدعوى الذهاب لإحضار البدلة ، كما
حذرنا أخوها ؟ هل تطيعه وتركب معه ؟! »
وكانت تزعم شفتيها وتجيّب نفسها فى إصرار : « لا .. لن أركب
معه .. مستحيل ! »

ثم كانت شفتاها تنفرجان وخلجات وجهها تلين وهى تقول
لنفسها : « ولكن إبراهيم هو الذى أرسلنى إليه .. وإبراهيم رجل
نبيل .. لا يمكن أن يرسلنى إلى شاب لا يطمئن إليه .. لا يمكن أن
يعرضنى لما لا يرضاه لى .. لابد أنه واثق من فتحى المليجى ،
ويجب أن أثق به أنا أيضا .. سأركب معه فى سيارته لو طلب إلى ..
سأذهب معه إلى آخر الدنيا لو أراد .. فى سبيل إبراهيم ! »
وظل هذا هو حالها إلى أن تركت الفراش .. وتركت فيه أختها
لا تنام ولا تستيقظ .. وبدأت الحياة تدب فى أرجاء البيت .. حياة
بطيئة متوترة كأن البشرية كلها تجتاز الصراط المستقيم .. وخرج
الأب إلى عمله .. وأمسكت الأم بالمقشة وانحنت فى تشاقل وألم
تكنس الأرض .. وهمّ محيى بالذهاب إلى الجامعة ، واقترب من
نوال وهى تساوى الفراش ونظر إليها من وراء نظارته فى أسى ،
وقال فى همس محشرج :
- خدى بالك من نفسك !

ثم استدّار لها قبل أن يسمعها ترد عليه ..
واستطاعت سامية أن تترك الفراش .. وسارت كسولة متعبة
إلى المطبخ لتبدأ فى إعداد الأوانى ، دون أن تغسل وجهها أو تصلح
خصلات شعرها المدلاة فوق جبينها .. ولحقت بها الأم بعد قليل ..
واتجهت نوال ونقرت على باب غرفة محيى لتفزع عن إبراهيم
وتدعه يذهب إلى الحمام ، وقالت وبين شفتيها ابتسامة طيبة تحمل

فى طبيبتها تنازع خواطرها :
- صباح الخير ..
ورد إبراهيم وهو ينظر إليها كأنه يرى فى وجهها نور الصباح:
- يسعد صباحك !
وتركته ليدخل الحمام ، ويعود .. ثم عادت إليه تحمل صينية
الإفطار كعادتها منذ التقيا .. وقال لها وهو يبحث عن نفسه فى
عينها :
- أنا باتعبك يا نوال ..
قالت فى حياء :
- لا .. أبدا ..
قال كأنه يذكرها :
- أنا لولا إنى متأكد أن مش حيحصل لك حاجة ، ماكنش ممكن
أبعثك لفتحى !
قالت كأنها تطمئنه :
- أنا مش خايفه ..
قال وهو يجد فى نفسه جرأة عجيبة ليظل مركزا عينيه على
وجهها :
- تنزلى من هنا الساعة اتناشر إلا ربع .. علشان ما تقفيش فى
الميدان كثير !
قالها فى صوت متنهد كأنه يحدثها عن حبه !
وقالت ولا يزال حياؤها يريكها أمام عينيه المسلطين عليها :
- بس مش عارفه أقول لاما إيه علشان تخلىنى افزل ؟
وقال إبراهيم وكأنه واجه مشكلة عويصة :
- آه صحيح .. حاتقوليلها إيه ؟
قالت بعد تفكير :
- مش حاقول لها حاجة .. حانزل من غير ما تعرف !
قال وهو دهش :
- ازاي .. مش معقول .. ما تقوليلها إنك رايحه لواحدة

صاحبك، زى امبارح !
قالت فى هدوء كأنها تعرف جيدا ما تقول :
- لو قلت لها ، وما رضيتش .. حتفضل حاطانى جنبها طول
النهار .. بلاش أقول لها أحسن !
قال وكأنه يتكلم بشفتيه بينما قلبه يتكلم حديثا آخر :
- وبعدين ..

قالت وهى تبتسم :
- ما تخافش .. أنا حانزل ولجى من غير هيه ما تعرف !
وانسحبت من أمامه وقلبه ينسحب وراءها ، والتفتت إليه قبل
أن تخرج ، وقالت كأنها تبحث عن حجة لتتزوج منه بنظرة أخرى :
- مش عايز حاجة !

وتعلقت نظرتيه بها كأنه يقيدها إليه برموش عينيه .. ولم يجب
.. إنما ابتسم ابتسامة صغيرة صامتة ، فى صمتها رجاء كبير ..
وكأنها تلقت رجاءه ، فارتجفت عيناها ، وانصهرت وجنتاها ..
وأغلقت الباب وراءها !

وتسللت إلى حجرتها ، وفتحت دولابها وأخرجت منه خذاءها
وجوريها وحقيبتها و « بلوز » و « جيب » .. ثم حملت كل ذلك
وزهدت إلى حجرة « الضيوف » وهى تسير متسللة لا يسمع لها
صوت ، ووضعت ما حملته على أحد المقاعد .. ثم عادت ودخلت
المطبخ .

كانت سامية واقفة أمام الحوض تغسل الأوانى .. والام واقفة
مديرة لها ظهرها ترتب دولاب المطبخ وتضع كل شىء فى مكانه .
وأشارت نوال إلى أختها إشارة خفية من وراء ظهر الأم ، لتلحق
بها .. وتلقت سامية الإشارة بدهشة ، ثم جففت يديها ، وخرجت
وراء أختها لتلحق بها فى غرفتهما .

وقالت نوال فى همس :

- أنا لازم انزل دلوقت ..

وقالت سامية فى حدة وبلا همس :

- ليه .. رايحه فين !
وقالت نوال وهى لا تزال تهمس :
- ماتزعقيش .. محيى طلب منى أنى أروح مشوار علشان حاجة
مهمة خالص !
وقالت سامية وقد انتقلت إليها عدوى الهمس :
- إيه هيه الحاجة المهمة دى ..
قالت نوال :
- بعدين تعرفى .. المهم لازم انزل دلوقت .. كمان عشر دقائق
لازم أكون فى الشارع !
قالت سامية :
- ولما انتى مش عايزه تقولى .. عايزانى ليه ؟
قالت نوال :
- علشان مش عايزه ماما تعرف إنى نازلة !
وقالت سامية فى تحد :
- ليه ؟
قالت نوال :
- لأنها مش حترضى .. انتى عارفة ماما !
قالت سامية فى تهكم مر :
- وعايظه خدامة السيادة ، اللى هيه أنا .. تعمل إيه ؟
قالت نوال كأنها تشرح خطة :
- أنا حاقول لماما إنى داخله الحمام اغسل الشرابات والمناديل
المتكومة .. وانتى عليكى تطفى ماما فى المطبخ .. ما تخلوهاش تخرج
منه ، ولا تدور على بنفسها أبدا .. وإذا اتأخرت عن كده قوليلها
إنى بعد ما خلصت غسيل .. ابتديت استحمى !!
وقالت سامية فى غيظ :
- لا .. ماليش دعوة .. أنا مش طرطورة ولا شخشيخة .
ياتقوليلى أنت نازله رايحه فين .. يا اتفضلى انزلى واللى يحصل
يحصل ..

وقالت نوال فى توسل :

- والنبي يا سامية .. علشان خاطرى .. ده محبى هو اللي
عايزنى أنزل .. وبعد ما ارجع حاتعرفى كل حاجة .. أصلى حلفت
إنى ما أقولش حاجة أبدا .. محبى حلفنى على المصحف .
وقالت سامية وقد عادت إلى تهكمها :

- محبى .. والا إبراهيم ؟
وقالت نوال وقد بدأت تحتد :

- وحياة بابا .. وحياة ماما .. وحياة شرف النبي .. إنه محبى .
وقالت سامية :

- خلاص .. خلى محبى ينفحك !
وتركتها وعادت إلى المطبخ ..
وانتظرت نوال قليلا وهى تلهث من الغيظ .. ثم احتدت نظراتها
كانها صممت على شىء .. وسارت وراء أختها إلى المطبخ وقالت
وهى تحاول أن تتكلم فى لهجة طبيعية :

- ماما .. أنا داخله اغسل شوية الشرابات والمناديل المتكومين
دول !
' وردت الام دون أن تنظر إليها :

- طيب بس شهل قوام .. وتعالى علشان تنضفى الفاصوليا مع
أختك ..
ونظرت نوال إلى أختها كأنها تتحداها أن تفضحها ..
وردت سامية النظرة ، بنظرة ضعيفة كأنها لا تستطيع أن
تفضح أختها ..
وتسللت نوال إلى « حجرة الضيوف » ، وبدأت ترتدى الثياب
التي حملتها إليها .
وكانت حجرة الضيوف منعزلة تقريبا عن بقية الحجرات ،
واقربها إلى الباب .. وكانت مغلقة دائما .. لا تفتح ، ولا تفتح
نوافذها إلا إذا جاء إلى البيت ضيف غريب .. فخرجت منها نوال
متجهة إلى الباب الخارجى وحذاؤها فى يدها ، دون أن يحس بها
أحد .

وفتحت الباب فى حذر شديد فلم يسمع لفتح صوته .. ثم
نكرت قليلا قبل أن تخرج .. ووضعت الحذاء من يدها على
لأرض .. وعادت تتسلل على أطراف أصابعها إلى داخل البيت ..
ودخلت حجرة « القعاد » والتقطت جريدة كانت ملقاة هناك ..
جريدة الامس .. وعادت ووقفت أمام الباب الخارجى .. ونزعت
قصاصة ورق من الجريدة وكورتها بعد أن بللتها بشفتيها ؛ ثم
حشرت في قفل الباب ، فحالت دون خروج لسان القفل .. ثم
حملت حذاءها وتعدت الباب وهى تتلفت حولها .. ثم أغلقته وراءها ..
فانغلق دون أن يقفل بالقفل .

ووضعت حذاءها فى قدميها .. ونزلت السلم ، وهى لا تزال
دون وعى منها - تسير على أطراف أصابعها .
وأصبحت فى الشارع .. وأسرعت خطاها نحو محطة
الأوتوبيس ولم تكن تفكر فى المهمة الوطنية التى تقوم بها ، وكانت
تفكر فى أمها .. إنها المرة الأولى فى حياتها التى تتسلل فيها من
وراء أمها .. المرة الأولى التى تخرج فيها من البيت بدون إذن ..
وكانت خائفة .. خائفة من أمها .. ومن أبيها .. وكان خوفها يحمل
فى طياته تأنيب ضميرها .. تأنيبا قاسيا كأنه صفعات كف ظالمة ..
وحاولت كثيرا أن تقنع ضميرها .. إن تهده .. كانت تقول لنفسها
أنها ذاهبة لتنقذ إنسانا .. لتنقذ بطلا .. لتساهم فى عمل وطنى ..
وأن هذا العمل يبررتسللها من البيت ، ويبرر خروجها بدون إذن ..
ولكن ضميرها كان يرفض أن يصدقها ، وصوت فى أعماقها كان
يقول لها : « يا كذابة .. إنك ذاهبة من أجل إبراهيم .. إبراهيم
بالذات .. لا لأنه بطل .. بل لأنه إبراهيم ! » .. وكانت تسمع هذا
الصوت ، فتتلىج أطرافها .. ويمتقع وجهها .. إنها الحقيقة .. إنها
تفعل كل ذلك من أجل إبراهيم .. ماذا يمكن أن تفعله أيضا من
أجله .. أشياء كثيرة .. إن الطريق طويل وهى منقادة فيه بلا إرادة ..
شئ قوى يدفعها .. تيار جارف لا تستطيع أن تقاومه .. وهى

خائفة .. خائفة من نفسها .. خائفة من ذكائها .. خائفة مما تستطيع أن تفعله بهذا الذكاء خلال اندفاعها فى هذا الطريق .. وخائفة على أمها ، وعلى أبيها .. خائفة عليهما من نفسها .. وأحست كأنها تعتذر لهما .. كأنها واقفة أمامهما منكسة الرأس تعترف بأنها تسلمت من البيت بدون إذن .. وإنها خانت ثقتهما فيها .. خانت المبادئ التى نشأت عليها ..

وأحست أنها تبكى .. إنها فعلا تريد أن تبكى ، لعل دموعها تعتذر لها لدى أمها ..

وظلت سادرة فى هذه الأفكار والأحاسيس ، وهى راكبة فى الأتوبيس وبعد أن نزلت منه .

ثم وقفت فى ميدان الكوبرى ، بجانب بائع السجائر ، وهى تتعجل الوقت لتعود إلى البيت قبل أن تنتبه أمها إلى غيابها .. لم يعد يهمها أن يراها أحد .. لم تحاول أن تتلفت حولها لترى من يمر بها .. لم تر عربات الترام ولا الناس الجالسين فى العربات .. ولم تر عسكري البوليس الذى يروح ويغدو .. ولا الطفل الذى يجمع أعقاب السجائر .. ولا الشحاذ الذى يمد لها يده .. ولا الشاب الذى يركب السيارة ويصفر إعجابا بها .. ولا عربة الكارو المحملة بالخضار .. لم تر شيئا مما تخيلته قبل أن تصل إلى الميدان .. ولم تر أن هناك فى جانب بعيد من الميدان عند ناصية شارع من الشوارع المتفرعة منه ، تقف عينا تنظران إليها من خلال نظارة .. عينا ملهوفتان ، فيهما جزع ، وفيهما تربع ، وفيهما خوف . إنه محبى .. شقيقها .. واقف هناك .

وقد قضى محبى طول ليله ، وطول صباحه ، يحاول أن يطمئن نفسه على أخته وهى ذاهبة لملاقاة فتحى المليجى .. ويحاول أن يقنع نفسه بأن فتحى لن يدعوها إلى ركوب سيارته ليغريها . ولكنه لم يطمئن ، ولم يقتنع ... وجد نفسه يخرج من الجامعة ويذهب إلى الميدان قبل الموعد الذى يعرفه بفترة طويلة .. ووقف هناك منزويا عند الناصية يبحث عن أخته ، ويرقب وصولها ..

وهو لا يدرى بالضبط ما يمكن أن يفعله عندما يراها .. ولا يدرى ما يمكن أن يفعله إذا رآها تتركب سيارة فتحنى المليجى ، ولو رأى السيارة تختفى بها ... ماذا يفعل .. هل يصرخ ويجرى وراء السيارة .. هل يبلغ البوليس ؟! ربما لم يستطع أن يفعل شيئا من ذلك .. ربما تجمد فى مكانه ، وبكى حتى تغيم الدموع على زجاج نظارته فلا يعود يرى شيئا.

ولكنه يجب ألا يتجمد .. ويجب ألا يبكى . يجب أن يستعد لإنقاذ أخته .. إنه يستطيع على الأقل أن يأخذ رقم السيارة ويبلغ عنها البوليس ، بتهمة خطف أخته .. إن معه قلما .. ومعه مفكرة .. وتحسس القلم والمفكرة فى جيبه .. إن كل شيء معه ليلتقط رقم السيارة .. ولكن ماذا يجديه رقم السيارة .. ستكون أخته قد تلوّث قبل أن يعثر عليها البوليس .. سيكون هو قد تلوّث .. شرفه .. كرامته .. لا .. ليذهب إبراهيم إلى الجحيم .. ليشنق ألف مرة .. إنه يستحق الشنق .. أما هو - محبى - فلا يستحق أن يتلوّث شرفه .. سيذهب ويقف بجانب أخته ، سيحفظها من الذئاب .. وسواء سلمها فتحى المليجى البدلة وهو بجانبها ، أو لم يسلمها ، فلا يهم .. المهم ألا يترك أخته للذئاب . الذئاب الذين يعرفهم جيدا !!

ورغم ذلك فلم يتحرك عندما رأى أخته .. لقد رآها وهى تنزل من الأتوبيس .. ورآها وهى تسير لتقف قريبا من بائع السجائر .. ورغم ذلك فلم يتحرك من مكانه .. إن قلبه يضطرب وعينيه جاحظتان خلف نظارته متجهتان إليها .. ومخاوفه تشتد .. ورغم ذلك فهو لا يتحرك من مكانه .

وربما لو انتبهت نوال وتلفتت فى أنحاء الميدان ، لرائته ، هناك منزويا ، ملتصقا بجدار أول بيت عند قمة الناصية .. ولكن نوال لم تلتفت .. أو تلفتت غير منتبهة .. فلم يكن فى خيالها سوى صورة واحدة .. وجه فتحى المليجى .. وأى وجه كان يصادف عينيه غير هذا الوجه ، لم تكن تراه .. وكان إحساسها كله موجها إلى مرور الوقت .. كانت متعجلة

لا يهملها شيء إلا أن تعود سريعا قبل أن تكتشف أمها غيبتها ..
والوقت يمر بطيئا .. بطيئا جدا .. والساعة قد تجاوزت الثانية
عشرة .. إنها الآن الثانية عشرة وخمس دقائق .. ربما لن يجيء ..
وتذكرت أنه اتفق معها إذا لم يحضر ، أن تذهب لملاقاته فى بيته
فى الساعة الثالثة بعد الظهر .. هل تعود إلى بيتها .. وهل تستطيع
أن تتسلل من وراء أمها مرة أخرى .. و ..
وقبل أن تجيب على تساؤلها .. رآته ..
فتحى المlijى ..

تذهبت على بوق سيارة تحاذيها وتتحرك أمامها ببطء .. ورائه
فيها .. وكان يقود السيارة ، ورفع ذراعه عن عجلة القيادة وأشار
إليها بأن تتبعه .. ثم انحرف بسيارته إلى شارع النيل .. وتحركت
من مكانها وقلبها يضطرب ، وخطواتها مرتبكة ، وهى تحاول أن
توقف عقلها عن التفكير .. لا تريد أن تفكر فى شيء .. كأنها لو
فكرت لعدلت عن خطتها .. ورائت السيارة قد وقفت عند أول
الشارع ، فاقتربت منها ببطء .. خائفة . كأنها تقترب من قفص
الأسد .. وما كادت تحاذيها حتى أطل عليها فتحى المlijى من
نافذة السيارة .. ثم مد إليها ذراعيه بلفافة كبيرة ، أسقطها بين
يديها ، وقال فى سرعة :

– العربية حتكون جاهزة بكرة ..

وفى لفظة من عينيها كان قد انطلق بسيارته ..

هكذا فى ثانية واحدة ، انتهى كل شيء ..

ولم يحدث شيء ..

ما أبسط البطولة ..

إنها كالقبة ، تخافها البنت إلى أن تكتشف بساطتها ومتعتها ..
وحملت اللفافة الكبيرة وسارت منكسة الرأس ، دون أن تلتفت
وراء السيارة المنطلقة ، وعلى جانب شفيتها ابتسامة ساخرة كأنها
تأسف على هذه الأوهام التى كانت تتخيلها .
وكان محبى فى الجانب الآخر من الميدان قد سقط قلبه عندما

رأى أخته تتابع السيارة وتختفى وراءها فى شارع النيل .. أحس أن الذئب قد أنشب أنيابه فى لحم أخته .. فى شرفه .. فى كرامته .. وأحس أن كل قطعة من جسده قد حملت آثار الأنياب ، وتنزف دماء .. وأحس أن شيئاً فى داخله يعوى كأنه أصيب بالسعار .. وتحرك من مكانه ، وكل شيء فيه يلهث ، إلا قدميه .. كان يسير ببطء .. لا يدري لماذا .. لا يدري إلا أنه لا يستطيع أن يجرى ، كأنه يخاف إن جرى أن يثير ثائرة الذئاب فتجرى وراءه .. ولكنه لم يكد يعبر الشارع ، ويخطو خطوات حتى رأى أخته تعود حاملة اللقافة بين يديها ، وتسير منكسة الرأس ، متجهة إلى محطة الأتوبيس ..

وتوقف عن السير .. ولم يحس بالراحة .. إنما أحس بخيبة أمل .. أحس بإحساس كأنه النقرة .. النقرة على نفسه .. لماذا انتقاد إلى كل هذه الأوهام التى أحاطت به ، ولماذا عجز عن مواجهة الأوهام عندما خطرت له !!

وهم أن يتجه إلى أخته ليصحبها إلى البيت .. ولكنه عدل .. واستدار .. وسار يائسا تعيسا ، متجها إلى الجامعة دون أن يحاول الوصول إليها .

ولم تره أخته أيضا ..

ركبت الأتوبيس وهى تطمئن نفسها إلى أن مهمتها قد نجحت .. وأنها ستصل إلى البيت قبل أن تكتشف أمها غيبتها .. وأخذت تستعيد اللحظات التى مرت بها ، واستعادت قول فتى : « العربية حتكون جاهزه بكره » . وفجأة انفتحت عيناها كأنها انتهت إلى شيء .. إن معنى هذا أن إبراهيم سيغادر البيت غدا .. غدا لن يكون إبراهيم فى البيت .. لن تراه .. لن تنقر على بابه لتفسح له الطريق إلى الحمام .. ولن تقدم له طعام إفطاره .. ولن تحس بأنفاسه حولها .. ولن يمتلىء صدرها بهذا الإحساس المثير .. سيعود كل شيء فى البيت راكدا .. مملا .. كدقات الساعة .. وسيعود الحديث تافها ، ليس فيه من موضوع إلا أنه ليس صمتا . وستعود

الهمسات بينها وبين أختها حول خطابها .. الطويل ، والسمين ، والدكتور والمهندس . وسيعود خيالها لا يمثل واقعا ، ولا يتجسد فى أحد .. وستعود تنتظر .. تنتظر دائما .. تنتظر موعد الإفطار .. وموعد السحور وتنتظر خروج أبيها ، وعودة أبيها .. وتنتظر العيد... وتنتظر أن تتزوج أختها .. ثم تنتظر من يتقدم ليتزوجها .. ستعود كل هذه الحياة الراكدة الضحلة ... ولن يكون فيها إبراهيم .. لن تراه .. لن تراه أبدا .. إن إبراهيم لا يعيش فى الحياة الراكدة الضحلة .

وانقبض قلبها ..

أحسّت كأن الأوتوبيس وهو يهتز ينفض عنها الحياة ، ليركها إنسانة هامة .. تعيش بلا حياة .

ونزلت من الأوتوبيس وسارت إلى بيتها وهى تحمل اللقافة الكبيرة ، كأنها تحمل عمرها لتلقيه فى البحر . وصعدت السلم على أطراف أصابعها .

ودفعت الباب برفق فانفتح .. ودخلت والبيت كله صامت .. وألقت اللقافة على الأرض فى حرص .. ونزعت الورقة الصغيرة من قفل الباب ، ثم أغلقته فى هدوء .. وخلعت حذاءها ، وحملت اللقافة والحذاء ودخلت بهما حجرة « الضيوف » .. ثم بدلت ثيابها بسرعة .. وتركت كل شيء ملقى على مقاعد الحجرة ، وخرجت منها وأغلقت بابها .. ثم اتجهت على أطراف أصابعها إلى المطبخ . ووقفت تنظر إلى أمها وإلى أختها ، كأنها لا تصدق عينيها .. إنهما كما تركتهما ..

سامية واقفة أمام الحوض تغسل الأوانى والصحون ، وأمها لا تزال ترتب فى الدواليب .. كأن كل شيء يتجمد فى هذا البيت حتى الزمن .. ولكن .. إنه لم يمر عليها منذ خروجها من البيت أكثر من نصف ساعة .. كل هذا حدث فى نصف ساعة .. ولمحت أمها خيالها ، فقالت لها دون أن تلتفت إليها :
- خلصتى الغسيل ؟

وقالت فى صوت متهدج :

- أبوه يا ماما ..

واستطردت الام فى لهجة آلية :

- طيب ياللا اقعدى نضفى الفاصوليا .

ونظرت سامية إلى نوال غاضبة كأنها تهددها بإفشاء سرها ،
ونظرت إليها نوال فى حنان كأنها تشكرها لأنها لن تفشى سرها ..
ثم دخلت وحملت قرطاسا كبيرا فيه الفاصوليا ، وهمت خارجه ،
فاستوقفتها أمها :

- على فين !

قالت نوال :

- رايحه اقعد فى أودة القعاد .. جنب الراديو !

وقالت الام وهى تعود بوجهها إلى الدولاب :

- والنبي دى مياصة .. يعنى ما تعرفيش تنضفى الفاصوليا إلا
على الراديو .. يا كبدي عليكى يا سنية .. كانت تنحط فى المطبخ ما
تخرجش منه !

وخرجت نوال قبل أن تتم الأم كلامها .. ووضعت قرطاس
الفاصوليا على المائدة الصغيرة فى حجرة « القعاد » ثم عادت إلى
حجرة « الضيوف » وحملت ملابسها واللفافة الكبيرة .. وممرت
على حجرتها فألقت فيها بثيابها .. ثم تسللت إلى الحجرة التى
يجلس فيها إبراهيم ، ونقرت الباب نقرة خافتة ، ثم دخلت ،
واللفافة بين يديها ، وبين عينيها نظرة حزينة كأنها دمعة معلقة بين
جفنيها ..

وقال إبراهيم وهو يتناول اللفافة من يدها ويبتسم لها ابتسامة
كبيرة كأن قلبه يهيم بأن يقفز من بين شفتيه :

- أنا مش عارف أشكرك ازاي ..

وقالت وهى لا تنتظر إليه :

- فتحى بيقول لك العربية حتكون جاهزة بكره !

قال وهو حائر أمام نظرتها الحزينة :

- مرسى ..
وسكتت ..
قال وقد اشتدت لهفته على حزنها :
- حصل حاجة ؟
قالت وإحدى يديها تشد فى أصابع اليد الأخرى كأنها تريد أن
تزعها :
- أنت حتروح فىن بعد ما تسيب بيتنا ؟
قال وكأنه عرف سبب حزنها :
- والله ما اعرفش ..
قالت وهى تنظر إليه كأنها تطالبه بحق لها :
- وحنظمن عليك ازاي ؟
قال كأنه يتهم من يأسه :
- لو مسكونى حتعرفوا من الجرايد !
ونظرت إليه فى عتاب جاد ..
ثم استدارت له وخرجت ، وكأنها غضبت منه ..
وعادت إلى حجرة « القعاد » وعقلها تائه لا تستطيع أن تجمع
نى رأسها .. وفردت قرطاس الفاصوليا .. وأخذت تلتقط الواحدة
بعد الأخرى وتنظفها .. ولا يزال فكرها تائها عنها .. ثم فجأة
حست بدموعها تنهمر فوق خديها .. كان فكرها قد عاد إليها
دموعا!!

عاد محيى إلى البيت فى موعد خروجه من
الجامعة ..

ولم يقل شيئا لأخته ولا لإبراهيم .. لم يقل لهما
□ إنه تتبع نوال وراقبها وهى فى انتظار فتحى المليجى
لتنسلم منه بدلة الضابط .. نخل صامتا ذليلا منكس الرأس ، وهو
يشعر بالسخافة .. سخافته لأنه كان يشك فى أخلاق فتحى المليجى
.. بل وفى أخلاق كل الشبان المشتغلين بالسياسة .. وقد حمل هذا
الشك طول عمره .. كان طول عمره يعتبر اشتغال الطلبة بالسياسة
مجرد « شقاوة » ، ولم يكن يعتقد أن هناك فارقا بينه وبين هؤلاء
الطلبة إلا أنهم يمتازون بالوقاحة ، والصفافة .. كان يعتقد أن
حماسهم لوطنهم لا يزيد عن حماسهم فى ملاحقة أية فتاة تمر
بهم.. وأن الهتافات الصاخبة التى يهتفون بها لا تصل إلى قلب
واحد منهم إلا بقدر ما تصل كلمات المغازلة التى يهمسون بها فى
آذان الفتيات .. لم يكن يعتقد أنهم رجال ، وأن فيهم خلق الرجولة..
وصحيح أنه كان يثق فى إبراهيم .. كان يثق فيه من قبل أن يلجأ
إليه .. ولكن إبراهيم كان دائما صنفا آخر من الشبان .. كان
صموتا، متحفزا ، لا يقحم نفسه ، ولا يدعى زعامة ، ولا يتظاهر
بوطنيته .. ولكن .. يبدو أن هناك كثيرين غير إبراهيم ، كلهم
رجال.. وكلهم على خلق .. و .. وهو يشعر بأنه ظلمهم .. ظلم
زملاءه المشتغلين بالسياسة .. بل يشعر أنه يراهم فى خياله كما
لم يراهم من قبل .. شرفاء ، مخلصين .. ويسمع هتافاتهم كما لم

يسمعها أبدا .. صادقة قوية كأنها طلقات مدافع تقذف القلوب من الأفواه .

ودخل إلى حجرته وحيا إبراهيم دون أن يرفع إليه عينيه كأنه يخفى تحت جفونه خجله من نفسه ..

وقال له إبراهيم كأنه يبلغه خبرا سارا :

- البدة جت .. نوال جابتها !!

وقال محيي وهو يتلفت حواليه حتى لا ينظر إليه :

- هيه فين ؟

وقال إبراهيم :

- فى الدولاب.

وقال محيي كأنه يبحث عن أى شىء يقوله حتى يستعيد هدوء

نفسه :

- قستها ؟!

وقال إبراهيم :

- مظلوطه .. متفصله على .. بكره بإذن الله حابقى ملازم أول..

وسكت محيي .. لم يستطع حتى أن يبتسم ..

واستطرد إبراهيم وهو يبتسم ابتسامة ضيقة يحاول أن يطمئن

بها صديقه :

- بكره العربيه حاتكون جاهزة والعملية حاتم !

والتفت إليه محيي وقال وهو يتكلم فى حماس وإخلاص كأنه

يحاول أن يعوض إبراهيم عن الشكوك التى كان يحملها فى

صدره!

- اسمع يا إبراهيم .. تأكد إنى مش عايزك تسبب البيت .. لا أنا

ولا بابا .. إذا كنت مش متأكد من العملية بتاعة بكره .. بلاش ..

خليك قاعد معانا لغاية ما تطمئن ..

وسكت إبراهيم برهة وهو ينظر إلى محيي كأنه يقيس

إخلاصه..

واستطرد محيي كأنه أحس بأنه تمادى فى حماسه :

- يوم ولا يومين زيادة .. مش حايفرقوا !!

وقال إبراهيم :

- متشكر يا محيي .. إنما أحسن لي أني أسيب البيت بكره ..
وتأكد إنني مش حانسي اليومين اللى قعدتهم معاك .. اليومين دول
أنقذوا حياتي .. وأنا عارف المتاعب اللى سببتها لكم .. عارفها
كويس .. ومش حانسي جميلكم على أبدا ..

وقال محيي في صوت مبجوح :

- ده واجب .. المهم إنك تكون مطمئن على نفسك ، ونكون
مطمئنين عليك ..

وقال إبراهيم وهو يهز كتفيه كأنه يسخر من نفسه ، ومن
نصيه في الدنيا !

- أنا عمرى ما حاطمئن على نفسى .. ولا حد حايطمئن على ..
خليها على الله !

وقال محيي في أسى :

- ما تقولش كده .. ربنا معاك !

وسكت إبراهيم ..

وبدا محيي يبذل ثيابه .. ثم مرت بهما الساعات وكل منهم
يحاول أن يرفه عن الآخر .. يتناقضان حديث الجامعة .. والحوادث
السياسية ويحاولان الضحك .. ضحكا ثقيلًا كأنهما يجتبانها من
صدريهما بآلات رافعة .

وجاء الأب في موعده .. وهم محيي بأن يخرج من الغرفة
ليستقبله ، فقال له إبراهيم :

- بلاش تقول لعمى على حكاية بكره !

وسأله محيي وهو دهش كعائته :

- ليه ؟

قال إبراهيم :

- علشان كل حاجة تفضل ماشيه طبيعي وعلشان عمى يعرف
ينام كويس .. اصل انتظار ساعة الإفراج أسوأ حالات السجن ..
وخروجي من البيت معناه الإفراج عنكم ..
وقال محيي دون أن يقتنع :

- طيب ، مش حاقول له !

وقال إبراهيم :

- ما تقولش لحد أبدا .. لا لطنط ولا سامية .. وقول لنوال
ما تقولش هيه كمان ..

وقال محيى وهو ينسحب :

- طيب ..

وخرج .. ثم عاد بعد قليل وفى يده جريدة الاهرام دون أن يبدو
على وجهه شىء جديد ..

واختطف إبراهيم الجريدة من يده ، وأخذ يبحث عن نفسه بين
السطور .. كان يقرأ أخبار نشاط البوليس فى تتبعه .. وأخبار
الاعتقالات .. وكان يحاول أن يقرأ فى كل سطر أكثر مما يحمله ..
وكانت تعابير الاهتمام التى تبدو على وجهه تنطفيء رويدا رويدا ،
وتحل محلها تعابير الارتياح .. إن البوليس لا يزال بعيدا عنه ..
بعيدا جدا !

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة مساء والاب نائم ..

وفجأة .. دق جرس الباب ..

وارتعش قلب إبراهيم فى صدره ، هذه الرعشة التى بدأ يحس
بها منذ انقلب إلى بطل فار بعد أن كان بطلا مهاجما .. وخفقت
جفون محيى كأنهما جناحا عصفور محبوس خلف زجاج نظارته ..
ونظر كل منهما للآخر برهة .. ثم كأنهما اتفقا على الخطة .. فخرج
محيى من الغرفة وأغلق بابها وراءه .. وما كاد يخرج حتى التقى
بنوال خارجة من المطبخ ، ممتعة الوجه وضميرتها تكاد تلتف حول
عنقها كأنها تحاول أن تخنقها ..

وقال لها محيى فى همس :

- ما تفتحيش الباب إلا لما تعرفى مين ..

قالت :

- حاضر ..

وسارت فى خطوات متعثرة نحو الباب .. بينما ظل محيى فى
مكانه منتظرا أن تعود إليه أخته بالنبا .

وسمع أخته تفتح « شراعة » الباب .. ثم سمعها تفتح الباب^١
نفسه ..

ثم عادت ..

وخلفها عبد الحميد ..

وانقلبت شفتا محيي امتعاضا ، كأن شيئا بدأ ينقلب فى معدته..

وقال عبد الحميد فى همس وهو يصافح ابن عمه :

- عمى نايم ؟

قال محيي وهو لا يتحرك من مكانه :

- أيوه ..

وقال عبد الحميد وهو يضحك ضحكة مكتومة :

- أحسن !!

ولم يضحك محيي مع ابن عمه ، إنما ظل صامتا وهو يكتم
غيظه .

واستطرد عبد الحميد :

- أنتم قاعدين فين ؟

وتحرك محيي نحو غرفته ، وفتح بابها ، وهو يقول فى قرف :

- لتفضل !!

واستقبله إبراهيم وقد استرد هدوء نفسه ، وسلط عليه كل
عينيه ، وصافحه وهو يبتسم ابتسامة كبيرة ، يحاول أن يبدو من
خلالها مرحبا به .

وجلس الثلاثة يتحدثون .. وحاول عبد الحميد أن يبدو فى
الشخصية الجديدة التى رسمها لنفسه .. الشخصية الوقورة
المتحفظة التى تقدر خطورة الموقف .. حاول ألا يتحدث كثيرا .. وأن
يجيب إجابات قصيرة فيها بعض الغموض كأنه يخفى شيئا ..
وحاول ألا يسرف فى الابتسام والضحك .

ولكنه تعب من هذه الشخصية بعد فترة قصيرة .. ووجد نفسه
يتحدث كثيرا ، ويجيب على كل سؤال بقصة ، وابتسم ويضحك
بلا حساب .. إنه من هذا الصنف الذى لا يستطيع أن يسكت عن
استعمال مواهبه .. لسانه ، وذكائه وسرعة خاطره ، وخفة دمه ..

واعتماد أن يتباهى بهذه المواهب ويجريها مع كل من يصادفه .
وكان أحياناً يتنبه إلى أنه أسرف في الحديث ، وإنه خرج عن الشخصية التي يريد أن يبدو بها .. فيسكت فجأة ، ويعانى الكثير من محاولته التمسك بالسكوت ، ومن إخفاء القصص والآراء والملح التي يزدحم بها رأسه وتكاد تقفز على لسانه ..
وكان إبراهيم لا يريده أن يسكت .. فإذا رأى ساكتاً لاحقه بالأسئلة .. ويتحایل على سكوته بأن يفتح أمامه أكثر من موضوع يغري بالنقاش .. حتى يضعف عبد الحميد ، فينفلت لسانه ، ويعود يتكلم .. ويتركه إبراهيم يتكلم كأنه يراه على حقيقته من خلال حديثه .

وفجأة سأل إبراهيم :

– ماتعرفش حد في البوليس ؟

وبوغت عبد الحميد بالسؤال ، وتردد قليلاً ، ثم قال باهتمام وكأنه بدأ يلعب دور شرطنج :

– ليه ؟

وقال إبراهيم بلا اهتمام :

– عايز أسأل عن جماعة أصحابي .. أشوفهم اعتقلوهم ولا لا ؟

وقال عبد الحميد وفي عينيه نظرة ذكاء :

– أنا اعرف ضابط من المحافظة بيقتد معانا في القهوة !

وقال إبراهيم وهو ينكس رأسه حتى لا يرى عبد الحميد عينيه :

– ما تعرفش تجيب منه أسماء المعتقلين !

وقال عبد الحميد وقد اشتد لعان الذكاء في عينيه :

– أظن الأسهل تقول لى عايز تسأل عن مين .. وأنا أسأل لك

عليهم !

ورفع إبراهيم عينيه إلى محبى كأنه يستشير .. وقال محبى

وعلامه استفهام كبيرة تبدو على وجهه :

– عبد الحميد مالوش دعوة بالحاجات دي !

وقال عبد الحميد وهو يخفى لهفته :

- على كل حال أنا مستعد أقوم بأى حاجة يكلفنى بيها الأستاذ إبراهيم ..

وسكت إبراهيم كأنه يفكر..

وطال سكوته ..

وقال عبد الحميد وهو يبتسم :

- أرجوك تثق فيّ يا أستاذ إبراهيم .. أنا مابطلبش إنى أعرف حاجة .. إنما باطلب إنى أكون محل ثقتك !

وقال إبراهيم فى صوت خافت وكلمات بطيئة ، كأنه يصرخ بسر خطير :

- أصحابى اللى عايز أسأل عليهم ، واحد منهم اسمه محمد المرتضى ، والثانى اسمه سمير أيوب ..

وصرخ محبى منزعجا :

- إيه ده .. مين عرفك بالجدع ده علشان تقول له حاجات زى دى ؟!

ونظر إبراهيم إلى محبى ثم نكس رأسه وقال فى صوت مؤثر :

- أنا النهارده محتاج لكل إنسان .. وأنا واثق فى عبد الحميد !

وسكت محبى .. وفهم .. وإن كان لم يفهم تماما ما يرمى إليه إبراهيم .

وقال عبد الحميد فى حماس :

- اطمئن .. بكره حارد عليك !!

وقال إبراهيم فى صوته الخافت الهادىء :

- بس حاتسأل صاحبك الطابط ازاي .. اوغى يحس إنك مهتم

أكثر من اللازم .. أسأله بالراحة ومن غير اهتمام .. وخذ يومين

ثلاثة أربعة .. ماتستعجلش عليه ، أحسن يشك فيك !

وقال عبد الحميد وهو يبتسم كأنه يأسف لأن إبراهيم لا يقدر

ذكاءه :

- سيب الحكاية دى على أنا .. دى حاجات بسيطة !!

واستأذن عبد الحميد وخرج من الغرفة ، بعد أن شد على يد

إبراهيم فى حرارة .. خرج وهو يعتقد أنه وضع إبراهيم فى جيبه ..

وكاد يرفع يده إلى رأسه ليصافح ذكاءه مهنثا .
وقال محيى لإبراهيم وهو يكاد يهمس :
- إيه اللي عملته ده ؟
وقال إبراهيم وقد عاد يخفى عينيه عن صديقه حتى لا يرى
فيهما سره :
- ما هو كان لازم اكسب ثقته علشان اضمن إنه مش حيراقب
البيت ويشوفنى وأنا خارج من هنا ..
وقال محيى :
- ما يمكن يروح يبلغ عن أصحابك اللي قلت له عليهم ؟
قال إبراهيم :
- ما يهمش ..
قال محيى وكأنه يتهم صديقه بالقسوة :
- ما يهمش إزاي ؟
وقال إبراهيم وهو يبتسم ابتسامة خفيفة :
- ماليش أصحاب بالاسم ده .. ويمكن مافيش حد بالاسم ده
أبدا .. ولو بلغ عنهم البوليس يبقى من مصلحتنا لأنه فى الحالة
دى حيساعدنى فى تضليل البوليس ..
وفغر محيى فاه كأنه يلتقط به شيئا من الهواء ، ثم ضم شفثيه
وقال :
- أنا برضه استنتجت إنك كنت بتضحك عليه .
قالها محيى وهو يحس بمرارة .. فلم يكن يعتقد أن الأبطال
يلجأون إلى الكذب والخداع .. كانت البطولة فى نظره مجرد اندفاع
وتضحية وثورة صريحة .. ولم يكن يحس بهذه المرارة وهو يرى
إبراهيم يخدع البوليس .. كان يرى فى خداعه للبوليس بطولة ..
ولكنه يحس بالمرارة الآن ، وإبراهيم يخدع ابن عمه .. لماذا .. هل
أشفق على ابن عمه .. هل كان يفضل فى قرارة نفسه ألا يرى ابن
عمه مغفلا مخدوعا .. هل كان يفضل أن يراه ذكيا خطيرا ،
لا يستطيع أحد أن ينتصر على ذكائه حتى لو كان المنتصر هو
إبراهيم ؟

إنه لا يدري ..

وهو حائر فى تفسير إحساسه .. لا يدري إلا أنه يحس بمرارة ينضج بها قلبه ، وتسيل مع لعبه حتى تصل إلى شفتيه .. ولم يخرج عبد الحميد من البيت ، إنما تلكأ فى أنحائه باحثاً عن سامية .. ووجدها فى غرفتها ، جالسة فوق حافة السرير ، وقد بدلت ثيابها ، وعقصت شعرها .. وفى يدها مجلة ترفعها أمام وجهها .

ولم تكن تقرأ .. كانت تنظر فقط إلى السطور .. وكانت تعلم أن عبد الحميد فى البيت .. وكانت تنتظر خروجه من غرفة محبى ليبحث عنها .. وكانت تعد نفسها ليجدها .. وتعد كل شيء للقاءه .. تعد « تبويزتها » .. وتعد نظرتها الساخرة .. وتعد الكلمات الجارحة .. وتعد غرورها الذى يتغذى على ملاحقة عبد الحميد لها وإصراره على الزواج بها .

ولو كان عبد الحميد قد خرج من البيت دون أن يبحث عنها ، لصعقت بحسرتها .. ولكنها كانت مطمئنة .. إن الشيء الوحيد الثابت فى حياتها منذ كانت صبية هو حب عبد الحميد لها ..

ووقف عبد الحميد يسد بابها بقامته ، وقال فى صوت خفيض وابتسامة حلوة ، ليس فى حلاوتها افتعال .. ولا ذكاء :
- لسه زعلانه منى ؟!

وانزلت المجلة من أمام وجهها ، وبدت كأنها فوجئت به .. ثم قالت وهى تهز كتفها :
- حازل منك ليه .. وأنا أقدر ؟!

وتقدم عبد الحميد وجلس بجانبها على حافة الفراش .. وانزاحت نفسها من جانبه حتى التصقت بحاجز الفراش .. وقال فى هدوء :
- أنا عايز اكلمك فى صراحة يا بنت عمى .. أنا عارف انتى زعلانه منى ليه . فاكده أن الظروف ما كانتش تسمح بأنى أطلبك من عمى اليومين دول .. إنما الظروف دى مالهش دخل فى الموضوع .. تأكدى من كده .. إنما اللى خلانى اطلبك إنى أقدر أسعدك .. أقدر أفتح بيت من كله ..

وقاطعته سامية :

- مافيش لازمه للكلام ده دلوقت .. مش بابا وافق .. خلاص !!

وقال عبد الحميد فى إصرار:

- لا . مش خلاص . أنا عايزك انتى تكونى مطمئنة ..

ثم استطرد فى صوت ناعم كأنه يحلم :

- أنا مش سافل زى ما انتى فاكره .. لو كنت سافل كان زمان

فى ايدى دلوقت خمسة آلاف جنيه .. كان زمانى غنى .. بدل

ما اعملك شقة ، ابنى لك فيلا .. وبدل ماخليكى تمشى على رجلكى

أجيب لك عريية .. وكنت عملت لك فرح كبير .. أم كلثوم .. وتحية

كاريوكا .. وزيطه .

وسكت وهو ينظر إلى عيني سامية ، كأنه يحاول أن ينقل

أحلامه إلى رأسها الايحاء ..

وقالت سامية وعيناها فى عينيه ، وكأنها بهرت بأحلامه :

- وكنت حاتجيب الفلوس دى منين ؟

قال وهو يهز كتفيه كأن الأمر بسيط :

- ولا حاجه .. تليفون للنائب العام ولا للبوليس .. تليفون

واحد.. واقبض خمسة آلاف جنيه ، حته واحدة .

وقالت سامية فى جزع وكأنها آفاقته على هاوية تحت قدميها :

- يا خبر .. أنت مجنون .. تودينا كلنا فى داهية علشان خمسة

آلاف جنيه !!

وقال عبد الحميد وهو يتراجع :

- الكلام ده لو كنت سافل زى ما انتى فاكره .. أنا صحيح

ما أعرفش إبراهيم ، ولا حد فيكم يعرفه .. وصحيح إنه حينقبض

عليه حتما . إذا ما كنش النهارده حيبقى بكره .. إنما مش ممكن

طبعا إننى أعمل حاجة زى دى ..

وقالت سامية فى حدة :

- ده يبقى إجرام ..

وقال عبد الحميد وهو لا يزال يحاول أن يؤثر عليها ، كما اعتاد

أن يؤثر عليها وهى صبية :

- فعلا .. مع أن ممكن أن كل ده يحصل من غير ملحد من
عيلتنا يجرى له حاجة .
وقالت سامية وهى تحاول أن ترى إلى أين يحاول أن يقودها :
- إزاي ؟!!!
قال :

- بسيطة .. نستنى عليه لما يخرج من هنا ، ونشوفه حايروح
فين .. نمشى وراه ..
وقالت سامية محتدة وقد احتدت معها عيناها وقسمات وجهها :
- عبد الحميد .. قصدك إيه .. فهمنى عايز تقول إيه .. إيه لزوم
الكلام ده دلوقت ؟!!!

وقال عبد الحميد دون أن ينظر إليها كأنه يخفى ذكاءه عنها :
- عايز أقول لك إنى مش سافل زى ما انتى فاكركه .. إذا كان
فيه واحد فى العيلة دى عنده أخلاق يبقى أنا .. وكل الفرق إنى
مشيت فى سكة لوحدى .. ماخدتش شهادة لأنى كنت عارف إنى
مش محتاج للشهادة ، وإنى أقدر اكسب من غير شهادة أكثر من
اللى بيكسبه أى واحد فيهم ، وأحب أقول لك إن إبراهيم نفسه بيتق
فى .. أكثر منكم كلكم .. أكثر من عمى ، وأكثر من حضرتك كمان ..
ولسه دلوقت اهو كلفنى بشغلانه حاتنقذ حياته .

وكان عبد الحميد يتكلم بحماس ، كأنه يحاول أن يمسح من
فوق سبورة كل ما كتبته عليها .. كان يحاول أن يمسح من رأس
سامية كل ما قاله لها .. لقد أراد أن يضمها إلى جانبه .. أراد أن
يقنعها برأيه فى الحياة .. أراد أن يقدم لها الثراء والنعيم .. ولكنها
غبية هذه الفتاة ، كآبها وأخيبها .. وهو يحب هذه الفتاة الغبية ..
لماذا يحب الأذكاء أمثاله هؤلاء الفتيات الغبيات .. لماذا لا يكف عن
محاولة الزواج بها .. لا .. سبيتزوجها .. وسيقدم لها الثراء والنعيم
رغم أنفها ، ودون أن تعلم من أين أتى به .. وهو ليس فى حاجة
إليها لتنفيذ خطته .. سينفذها وحده .. وسيصل .. إنه يرى طريقه
واضحا ينيره الذكاء .

ورفع عبد الحميد عينيه على صوت سامية قائلة :

- وكلفك بإيه إبراهيم ؟
قال وهو ينظر إليها كأنه لا يزال يسائل نفسه لماذا يحبها ..
وماذا يحب فيها :
- ماقدرش أقول لك .. سر ..
ثم قفز من فوق حافة السرير وهو يقول:
- أما أقوم بأه قبل ما عمى يصحى ، ويقول لى كلمتين مالهمش
لازمه !
واتجه إلى الباب .. ثم استدار إلى سامية وقال فى ضعف ..
ضعف يستغربه من نفسه :
- خليكى معايا يا سامية .. واطمنى
وودعته سامية بعينين تختلجان بالحيرة .. الحيرة بين العملية
الحسابية التى اقتنع بها عقلها والتى ترفض قبول عبد الحميد
زوجا ، وبين عواطفها التى تربطها بصباها منذ كانت تعد نفسها
زوجة له ..
وودعته صامته .. بلا كلام ..
وخرج عبد الحميد .



وعاد اليوم يسير مع دقائق الساعة كما تعود أن يسير منذ جاء
إبراهيم .. بطيئا .. غاية فى البطء .. مرهفا ، غاية الارهاق ..
والقلوب مثقلة .. لم يجد عليها عذاب جديد ، إلا عذاب قلبين يقف
كل منهما على حافة هاوية تفصله عن الآخر ..
كانت نوال لا تستطيع أن تنسى أن إبراهيم سيقترك البيت غدا ..
ولا تطيق أن تتصور البيت وليس فيه إبراهيم .. بل لا تطيق أن
تتصور نفسها بعيدة عن إبراهيم .. ليس بجانبها .. ولا تراه .. ولا
تنشغل به .. ولا تلتقط أنفاسه .. وحاولت كثيرا أن تنسى الغد .. أن
تنسى إبراهيم وتنسى نفسها .. كانت تتحرك كثيرا بين حجرات
البيت .. وكانت تحاول أن تشغل نفسها بكل كبيرة وصغيرة
تصادفها .. ولكن رأسها وقلبها كانا دائما مع الغد .. وكانت ترى
الغد يوما أسود يفغر فاه مخيفا كأنه باب الجحيم .. وحاولت أن

تقنع نفسها بأن عواطفها مجرد أوهام .. وحاولت أن تتصور نفسها أكبر من سنّها ، عاقلة رزينة ، لا تتعلق بالأوهام .. ولكنها فشلت .. وعشرات الأفكار تطرأ على رأسها .. أفكار مجنونة طائشة.. إنها تفكر فى أن تهرب معه من البيت .. وتفكر فى أن تمزق البدلة التى حملتها له .. إنها تكره هذه البدلة . تكرهها كأنها كفن سيلف إبراهيم .. سيلف حبها ، قبل أن يدفن .. وتفكر فى أن تصرخ .. وتفكر فى أن تنتحر .. لا تريد أن تراه يبتعد عنها .. إنه ليس حلما من أحلامها التى تصير عليها .. إنه حقيقة لمستها بيديها.. إنه أول طارق يفيض غلاف القلب البكر .. لا .. لن تتركه يذهب .. ولكن .. إن كل أفكارها تتحول إلى دموع .. دموع تنسكب فى قلبها .. ثم يفيض بها القلب فتنسكب على وسادتها .. واللبل من حولها صامت ثقيل ، كأنه صحراء سوداء ، تركها الله بلا رحمة ..

وفى الحجرة الأخرى كان يرقد إبراهيم ..

إنه أيضا يتعذب .. ولا يستطيع أن يجد سر عذابه .. بل لا يريد أن يجده وأن يعترف به .. وهو يحاول يائسا أن يستجمع إرادته ليفكر فى خطة هربه .. فى الغد .. ويحاول أن يتحمس لهذا الغد .. وأن يفرح به .. لقد نجح فى أولى مراحل الهرب ، ومن حقه أن يفرح ، وأن يتفاءل ، وأن يتحمس .. ولكنه لا يستطيع .. إنه يحس بفتور وهو يستقبل غده .. ويحس بتكاسل كأنه لا يريد أن يرى الغد .. كأنه يريد أن يكون هذا اليوم هو الأبد .. لا يوم آخر بعده .. كأنه لا يريد أن يغادر هذا البيت .

وكل ما فى البيت تتوالى صورته فى رأسه .. مكتب محيى .. وحنفية الحمام .. والسندرة التى اختبأ فيها مرة .. وحجرة القعاده .. وكوب الشاي .. و .. و .. وصور أهل البيت تتراءى أمامه كالخيالات .. صورة الأب وقد اختلطت بصورة أبيه .. ولا يستطيع أن يفرق بينهما .. وصورة الأم وقد اختلطت بصورة أمه . -وسامية.. ومحبي .. و .. لا .. إنه لا يريد أن يراها .. لا يريد أن يرى نوال حتى فى خياله .. إنها ليست من حقه .. ليست من حق خياله ولا قلبه .. ولكن قلبه وخياله يلحان عليه .. ويتغلبان على

إرادته ، فيطلقهما وراءها .. ويتجرع مزيدا من العذاب .. عذاب
الحرمان حتى من الأمل .. ثم يعود مرة أخرى يحاول أن يتغلب
على عذابه . يحاول أن يقنع نفسه بأنه لا يجب .. ولا يمكن أن
يحب .. إن حياته كلها لم يكن فيها مكان للبنيات .. وهى الآن أضيق
من أن تتسع لنوال .. ولكن قلبه وخياله أوسع من حياته .. وهما
يتسعان .. ويتسعان .. إلى أن يفسحا مكانا كبيرا لنوال .. بل هو
يستطيع أن يتصور نفسه زوجا لها .. ويستطيع أن يرى نفسه
يخرج فى الصباح إلى عمله ويعود ساعة الغداء .. ونوال تودعه فى
خروجه ، وتستقبله فى عودته .. ما أسعد هؤلاء الناس البسطاء
الذين يذهبون إلى أعمالهم ويعودون منها .. وما أهنأهم ..
وما أطيّب حياتهم .

ثم يضم أصابعه فوق كفه ، ويضغط عليها بكل أعصابه كأنه
يحاول أن يخنق نفسه .. يخنق قلبه وخياله وآمال ليست من حقه .



وأتى الغد ..

ودخلت نوال إلى إبراهيم ، بعد أن خرج أبوها وأخوها ، كان
السهر يرسم حول عينيها هالتين من السواد ، كأنهما عشان للأرق
.. وكأنها لم تتم طول عمرها .. وكانت غاضبة . غاضبة من نفسها
ومن إبراهيم ومن عذابها .

وقال لها إبراهيم وهو يحتضنها بعينين يائستين :

– مالك ؟

قالت وهى تضع الصينية على المكتب ودون أن تستدير إليه :

– ماليش !!

وسكنت ..

وسكت معها ..

وترددت برهة ، ثم استدارت لتخرج فقال إبراهيم كأنه يتعلق
بها حتى لا تتركه وحده :

– أقدر اطلب منك خدمة ؟

قالت وظهرها له وهى تبدو كالثائرة :

- اتفضل ..

قال بعد تردد كأنه يبحث عن الخدمة التي يطلبها منها :
- والله البدلة اللى جبتىها امبارح جييها مقطوع .. ممكن
تخيطيه.. أصلها بدلة ظابط ، وما يصحش يكون فيها حاجة
مقطوعة .

وحاول أن يضحك ، فبدا كأنه يبكى .

وقالت نوال وهى تستدير له :

- هيه فين ؟

وفتح إبراهيم الدولاب واخرج سترة البدلة ، وناولها لها ..
وأخذتها نوال وهى تبخلق فيها كأنها ترى الكفن الذى تخيلته فى
ليلتها .. وظلت واقفة لا تتحرك ، والسترة فى يدها تبخلق فيها
بعينين فزعتين .. ثم فجأة .. انهمرت دموعها .. ثم تدلى ذراعها إلى
جانبيها حتى سقطت السترة على الأرض .. وارتمت فوق الدولاب ،
ورأسها فوق ذراعها الثانية .. وأصبحت دموعها نشيجا حادا ،
تحاول أن تكتمه فلا تستطيع .

وبهت إبراهيم ..

ونضح وجهه بالعذاب ، كأنه هو الآخر يهم بالبكاء.

واقترب منها ، ورفع ذراعيه كأنه يهم بأن يحتضنها ليتلقى
دموعها فوق صدره .. ولكنه عاد وخفضهما .. ووقف حائرا مرتبكا
لا يرى ما يقول ولا ما يفعل .. ثم قال وكلماته تتمزق بين شفقتيه :

- ليه بس يا نوال !!!

والتفتت إليه وقالت من بين دموعها :

- طبعا أنت ما يهمكش حاجة .. حيهمك إيه يعنى !!!

قال فى أسى :

- ازاي ما يهمنى يا نوال .. أنا ما بقاليش حاجة تهمنى فى
الدنيا إلا أنت ..

قالت وهى تنظر إليه كأنها لا تصدقه :

- لو كان يهمك ماكنتش تسيب البيت من غير ما تقول لى رايح
فين .. ولا أقدر اطمئن عليك ازاي .. زى ما تكون خايف منى .

قال وهو يطأطأ رأسه كأنه يلقيه من فوق عنقه :
- أنا خايف عليكى .. خايف عليكى منى .. أنا حياتى كلها خطر..
واللى بيدخل فيها بيعيش معايا فى خطر .. كفايه اللى استحملتوه
علشانى اليومين دول ..

قالت فى حنان وهى ترفع رأسها إليه :
- أنا ما يهمنىش الخطر .. إنما يهمنى إنى اطمئن عليك .. يمكن
تكون عايز حاجة أقدر أعملها لك .. أنا مش جبت لك البدلة !! يمكن
أقدر أجيب لك حاجة ثانية ..

قال وهو يهرب من عينيها :
- احلف لك إنى مش عارف حا اخرج من هنا اروح فىن ..
قالت وقد عادت تتحدث كأنها تهم بالبكاء مرة ثانية :
- مالىش دعوة .. لازم فيه طريقة توصلنى لك .. قول إنك مش
واثق منى .. قول إنى ما همكش ..

وسكت .. وألقى برأسه مرة ثانية من فوق عنقه .. وقطب ما بين
حاجبيه يفكر ، وكان الوقت أضيق من أن يتسع للتفكير الهادئ ،
فيزداد تقطيب ما بين حاجبيه كأنه يحاول أن يعصر مخه كله فى
لحظة واحدة .

ونظرت إليه برهة طويلة .. ثم استدارت لتخرج وهى تنتفض
كالعصفور الجريح .. ورفع رأسه وراءها ، وقال كأنه يبتهل إليها :
- نوال ..

وتوقفت .. والتفتت إليه وهى تكاد تنهار ..
وقال كأنه عدل عن رأيه ، واختار شيئاً آخر يقوله :
- مش حتصلحى البدلة

وتقدمت نحوه خطوات .. وانحنت تلتقط سترة البدلة من على
الأرض ، وانحنى معها فى نفس الوقت .. وتلامست أيديهما فوق
السترة ، فسرت فى كل منهما رعشة كان الحياة تتدفق فى
عروقهما لأول مرة ، لتروى جسديهما بالحب .
وتباعدت الأيدي سريعاً ..

وقال فى صوت مبهور كأنه لم يعد يستطيع أن يقاوم :

- اسمعى ... الطريقة الوحيدة .. إنى بعد ما اسيب البيت ،
تروحى كل يوم اتنين وكل يوم اربع تستنى فى ميدان عبد المنعم
الساعة حذاشر الصبح .. وانا لو قدرت ، ولو كنت لسه فى مصر ،
حاقابلك هناك ، ولا حابعت لك واحد يطمنك على ويقول لك انى
فين.. مافيش قدامنا إلا الطريقة دى ..
وأضاءت وجهها باتسامة .. واحمرت وجنتاها ، كأنهما اطلتا من
وراء الليل مع نور الفجر .. ورفعت إليه عينيها ثم خفضتهما سريعا
كأن الحب أقوى من أن تراه بعينها ..
وقال كأنه يبرر خطته :
- أنا اخترت ميدان عبد المنعم علشان قريب من البيت ..
وما تبقيش تستنى كثير .. ربع ساعة بس .. إذا ما جيتش تعرفى
انى ماقدرتش آجى .
قالت كأنها تعاتبه لأنه يشككها فى آمالها :
- لا ..حاتيلى بإذن الله !!
وحملت السترة .. وخرجت تسير كأنها تسبح فى أحلامها ..
وقلبها البكر ينبض بأول موعد غرام .

عقرب الساعة يدور..

وقلب نوال يخفق بأول موعد غرام فى حياتها،
وهى جالسة فى حجرتها فوق فراشها تصلح سترة
البدلة التى سىرتديها ابراهيم فى هربه.. إنها
الضابط.. ولم تعد تتصور هذه البدلة كفنا لابراهيم، أو لحبها.. إنها
تضمها بأصابعها كأنها تحتضن أحلامها، وتمرر ابرتها فى نسيجها
بحنان وحرص كأنها تخشى على النسيج أن تجرحه الأبرة، وتنظر
إليها بعينين مبتسمتين كأنها تنظر إلى ثوب عرسها.. هل سيأتى
ابراهيم للقائها وهو مرتد هذه البدلة.. كيف يبدو بها.. وابتسمت
وهى ترى فى خيالها قامته الطويلة النحيفة، وعينيهِ الواسعتين،
وشفتيه الرقيقتين فوق فكه العريض القوي، وأنفه الكبير كأنه رأس
سهم موجه إلى صدر عدوه.. وكل ذلك فى بدلة ضابط.. واتسعت
ابتسامتها، ثم احمرت وجنتاها وهى تسمع لأجاسا رقيقة عذبة تدق
فى صدرها كأن خيالها قد انتقل من أمام عينيها وسرى فى
جسدها كله، وأصبحت تحس بابراهيم ملتصقا بها.. ملتصقا بها
جدا.. صدره فوق صدرها.. وشفتاه قريبتان من شفتيها.. وأنفاسه
تملا أذنيها.. واتحنت فوق البدلة فى خفر كأنها تميل فوق عنق
ابراهيم.. وكتمت ابتسامتها بين شفتيها حتى لا تقضخ خيالها..
ولكن كل شئ يمكن أن يقلل من سعادتها.. لقد اختفت المساة من
حياتها ومن تفكيرها، لم يخطر على بالها أن ابراهيم قد لا يأتى إلى
لقائها.. قد يقبض عليه.. وقد يستمر فى هربه حتى يتجاوزها
ويتجاوز مكان اللقاء.. كانت ثققتها فيه أقوى من كل الاحتمالات، إنه

أقوى من البوليس وأقوى من أن يخلف وعده لها، ستلقاه يوم الاثنين ويوم الأربعاء.. وكل يوم اثنين وأربعاء.. ورغم ذلك فهناك في أغوار نفسها ظل يتحرك.. وهى تخاف على سعادتها من هذا الظل.. إنه ليس خوفاً من البوليس.. ولا خوفاً على مصير إبراهيم.. إن يحدث له شيء.. هذا مؤكد.. ولكن السعادة عندما تفيض إلى هذا الحد يخاف المرء أن يفقدها.. كأن من طبيعة الله ألا يمنح السعادة إلا ليأخذها بعد حين.. لا يعطى إلا ليأخذ.. وكأننا نحن البشر قطع من الحديد قضى علينا أن نصهر فى الحوادث حتى نموت.. يلقى بنا القدر فى أفران الشقاء.. ثم يرفعنا ويلقى بنا فى الماء البارد العذب ليطفئ نارنا وننفث فى ارتياح ابخرة الشقاء.. ثم تتوالى علينا المطارق.. ثم نصهر من جديد فى الأفران.. ثم الماء العذب والراحة.. ثم المطارق.. ثم .. الموت.. كلنا فى هذه الحياة لا مفر لواحد منا.. لكل نصيبه من الشقاء ونصيبه من السعادة.. كل شيء بميزان.. اشتراكية إلهية توزع السعادة والشقاء بالآفة والدرهم.. لا سعادة «مشفية»، ولا شقاء «مشفى».. إنما لحم على عظم!!

ووجدت نفسها تتوجه إلى الله وأنها تتوسل إليه أن يصون سعادتها.. أن يعفيها من نصيبها من الشقاء.. وسمع صوتاً من داخلها يتمتم: «اللهم أجعله خيراً».. ثم عادت تنعم بخيالها.. نعيماً صافياً لا يعكره خوف ولا شك..

وحملت السترة بعد أن أتمت إصلاحها وذهبت إلى إبراهيم فى الحجرة المجاورة.. طرقت الباب، ودخلت وهى تسير فى خفر كأنها تزحف إليه.. ومدت له يدها بالسترة، ورفعت عينيها إليه فالتفتا بعينييه تضمامها برفق ورحمة.. ولم يتكلما..

مد يده وأخذ منها السترة.. ولم يستطع حتى أن يلفظ كلمة شكر.. كأنه وضع لسانه وقلبه وذهنه فى عينييه اللتين تضمامها برفق ورحمة..

واستدارت فى بطن كأنها لا تستطيع أن تخلص نفسها من عينييه.. وخطت خطوتين نحو الباب.. ثم توقفت.. وعلت شفيتها

ابتسامة صغيرة كأنها تطلق رنين الاجراس من صدرها. وفكرت قليلا.. ثم استدارت مرة ثانية وواجهته، وقالت فى صوت خافت وفى حياء:

- معاك قلم؟!

قالتها واتجهت إلى مكتب أخيها وأخذت تبحث فوقه عن ورقة بيضاء..

ونظر إليها ابراهيم دهشا، وهو يبتسم، ثم بدأ يبحث معها فوق المكتب عن قلم، دون أن يسألها عما تنتويه..

ونزعت نوال ورقة بيضاء من إحدى كراسيات أخيها، ثم وضعتها أمام ابراهيم والقلم فى يده، وقالت وقد اتسعت ابتسامتها كأنها ترشوه بها:

- اكتب هنا «لا إله إلا الله»!!

وازدادت دهشة ابراهيم وقال وقد ارتفع حاجباه:

- ليه؟!

قالت وهى لا تزال تبتسم:

- اكتب بس.. علشان خاطرى!

وانحنى ابراهيم وكتب «لا إله إلا الله»

وأخذت نوال الورقة، ثم أخذت القلم من يده، وانحنى تكمل

السطر وكتبت «محمد رسول الله»..

ودون أن تتكلم، ألقت القلم فوق المكتب، ثم أمسكت الورقة

وقطعتها إلى ورقتين.. ورقة تحمل «لا إله إلا الله» التى كتبها بخط

يده، وورقة تحمل «محمد رسول الله» التى كتبتها بخط يدها..

ثم أعطته الورقة التى تحمل خط يدها وشهادة أن «محمد

رسول الله» وقالت وهى تبتسم:

- خللى دى معاك دايمًا.. أوعى تضيعها!!

واحتفظت لنفسها بالورقة الأخرى التى تحمل شهادة «لا إله إلا

الله» واستطردت قائلة فى خفر وهى تطوى الورقة بأصابعها فى

حرص، دون أن تنظر إليه:

- أصل بابا كل ما يسافر، بيكتب هوه وماما ورقة زى دى..
علشان يرجعوا لبعض تاني!!
ولم ينتبه ابراهيم إلى سذاجة الفكرة.. بل لم يشعر بالفكرة
نفسها.. إنما شعر بحب كبير. والتمعت عيناه كأنهما تشعان حيا..
ودون أن يتعمد امتدت ذراعا، وأمسك بكتفى نوال، وقال كأنه
يتنهد:
- نوال..

ولم تجبه.. ولم ترفع جفניה عن عينيها.. ولم تحس بكفيه وقد
ألقاهما فوق كتفها.. إنما أحست بدمائها تتسابق إلى وجنتيها،
وكان الدماء فى سباقها فاضت عن عروقها.. وأحست بحبها أكبر
من قلبها حتى بل يعد يستطيع أن يسعه.. وأحست بروحها أكبر
من جسدها حتى يرتج جسدها من ضخامة الروح..
وصحب نشوتها احساس بأنها يجب أن تقاوم حتى لا يفيض
حبها عن قلبها، ولا تفيض روحها عن جسدها، ولا تفيض دماؤها
عن عروقها..

لماذا تقاوم؟

لماذا تقاوم نفسها؟

لا تدري..

ولكنها يجب أن تقاوم..

وسحبت نفسها فى رفق من بين كفيه وسارت بخطوات سريعة
مرتبكة نحو الباب، كأنها تهم أن تطير فلا تستطيع.. ثم التفتت إليه
قبل أن تخرج، وقالت وهى تتزود منه بنظرة أخيرة وفى صوتها
رنين الأجراس الصغيرة:

- مش عايز حاجة!

ونظر إليها فى ابتهاال، وعيناه تسالانها فى رجاء: «لماذا
تتركيني؟» ثم ارتد السؤال إليه، وحملت عيناه شحنة كبيرة من
اليأس ووجد نفسه يتساءل: «لماذا أتركها.. لماذا أغادر هذا البيت..
لماذا لا أبقي فيه.. بجانيها.. متى أستريح.. وأهدأ.. وأستقر.. لماذا
لا أكون واحدا من هذه الملايين الهادئة، المستريحة، المستقرة. واحدا

من سكان هذا البيت.. إنها لا تدري.. لا تدري أنها ستفقدني،
وسأفقدوها..

ونظر إليها كأنه يشفق عليها من مصيره، وقال فى صوت
خافت:

- متشكر..

ثم كأن ما ردا استيقظ فى صدره.. المارد الذى جعل منه بطلا..
فاستطرد وقد تغيرت نبرات صوته، وأصبحت أكثر قوة:

- بالحق.. بلاش تقولى لحد أنى حاسيب البيت النهارده إلا بعد
عمى ما ييجى وينام ويصحى من النوم..
قالت مبتسمة:

- حاضر..

ثم استطردت وهى تشير بعينيها إلى الورقة الصغيرة التى
لا يزال يحملها بين أصابعه:

- أوعى تضيع الورقة اللى معاك؟!

قال وقد عاد صوته حنوناً:

- مش ممكن؟!

وخرجت نوال.. وهرعت إلى غرفتها وهى لا تزال تحاول أن
تطير فلا تستطيع.. ثم فتحت دولابها وأخرجت علبة صغيرة من
الذهب بداخلها مصحف صغير.. وحملتها وجلست على سريرها
وفردت الورقة التى كتبها إبراهيم.. وأخذت تقرأ «لا إله إلا الله»
كأنها تقرأ خطاب غرام للمرة العاشرة وتقبل كل حرف فيه
بعينيها.. عادت وطوت الورقة، وفتحت العلبة الذهبية الصغيرة
ووضعتها فيها.. تحت المصحف الصغير.. ثم أغلقت العلبة.. وعلقتها
حول رقبتها، وتركتها تتدلى فوق قلبها..

● ● ●

وعقرب الساعة يدور..

والحياة فى البيت تسير كما تعودت أن تسير.. الام فى المطبخ
وسامية تتحرك متكاسلة كعادتها.. تقف فترة بجانب أمها فى
المطبخ، ثم تتذكر أنها لم تعقص شعرها، فتدخل إلى غرفتها وتقف

أمام المرأة، وقبل أن تتم عقص شعرها، تعود ثانية إلى المطبخ والمشط فى يدها.. ثم تضع المشط بين أسنانها، وترفع غطاء وعاء فوق وابور الجاز.. وتقلب ما فيه.. ثم تعود إلى مرآتها وتتم عقص شعرها، ثم تتذكر انها يجب أن تبديل ثيابها فتفتتح دولابها.. وبديل أن تخرج الثوب الذى ترتديه، تجلس على الأرض بجانب الدولاب وتأخذ فى ترتيب محتوياته..

وأبراهيم سجين فى غرفته، والورقة الصغيرة بين يده، يقرأها ويحقق فى خط نوال.. الالف طويلة.. والحاء مضحكة.. ويبتسم.. ثم تنتابه نوبة من اليأس، تعقبها نوبة من التصميم على تحدى الحكومة، والبوليس والإنجليز، حتى ينقذ حياته.. من أجلها.. ثم يتنهد كأنه يتنفس من تحت جبل..

ونوال نشوى بسعادتها. لا تكف عن الحركة.. تطوف بحجرات البيت، وكل ما تلمسه تحيله نظيفا أنيقا مرتبا.. وتدخل المطبخ فتتشط «وابورات الجاز» وتزداد حرارة الحلل.. والعلبة المذهبة التى تحمل إيمانها وأحلامها تتأرجح فوق صدرها وتلتصق حيناً بثوبها، وتهتز حيناً فتتخبط بين نهديها كأنها تبحث عن مكان تنفذ منه إلى القلب..

. وجاء محبى فى موعده.. لا جديد.. ولكنه يبدو أكثر قلقا.. كأن دقات الساعة تنقر فوق أعصابه.. وهو يحاول أن يخفى قلقه. أن يخفى تعجله للساعة التى يخرج فيها إبراهيم من البيت.. وكلما أمعن فى محاولته ازداد اضطرابا وتعثر فى تصرفاته وكلماته..

وأوصاه إبراهيم ألا يبلغ والده خبر مغادرته البيت إلا بعد أن يعود الوالد وينام، ويصحو من نومه.. ولم يكن إبراهيم يرمى من وراء ذلك إلا أن يحصر الخبر فى أقل عدد من أفراد البيت.. حتى لا يتسرب إلى عبدالحميد.. أو حتى لا يضطرب سير الحياة فى البيت اضطرابا قد يثير انتباه عبدالحميد - إذا جاء - فيدخله الشك ويعود إلى مراقبة البيت..

وقال محبى كأنه يواجه مشكلة عسيرة:

- وإذا بابا سألنى إزاي عرفت تتصل بأصحابك.. أقول له أيه؟!

وأجاب ابراهيم بعد تفكير:
- قول له انك قابلت واحد منهم فى الجامعة.. وانك اتفقت معاه
على أنه يستنانى بعربية..
وقال محيى فى اقتضاب:
- معقول..
واستطرد ابراهيم:
- واكد لعمى أن ما حدث من أصحابى عرف أنى مستخبي
عندكم!!
وهز محيى رأسه موافقا.. ثم كأنه تذكر شيئا، فعاد يقول:
- ولما يشوفك خارج وأنت لابس بدلة ظابط؟
وقال ابراهيم:
- قول له إنك أنت اللى جيت البدلة من صاحبي!!
وسكت محيى، كأنه لا يملك إلا السكوت..
وجاء الوالد.. فى موعده أيضا.. يسير على مهل وهو يزحف
بقدميه، وكأنه يخفى ابراهيم فى ثيابه ويخشى أن تسقط عنه ثيابه
فبيدو ابراهيم من تحتها.. وهو أكثر من قلق.. إنه بائس.. حزين..
ممتعض من الحياة كلها.. وهو متعب من طول التفكير فى المشكلة
التي يعيش فيها، ففضل أن يتخلص من التعب باليأس
والاستسلام.. وأصبح كل ما يبذله من مجهود، هو مجهود لوقف
تفكيره وتجاهل كل ما يدور حوله..
وحيا أولاده وأعطى جريدة الاهرام إلى محيى ليحملها إلى
ابراهيم.. ودخل غرفته وأغلق بابها وراءه.
وجاء عبدالحميد كما توقع ابراهيم.. جاء يفوح نكأؤه من حوله..
ولم يبق طويلا..
دخل وجلس مع ابراهيم ومحيى، وأكد لابراهيم أنه اتصل
بصديقه ضابط البوليس الذى يعمل فى المحافظة وأنه سيعرف منه
أسماء المعتقلين غدا..
وقال ابراهيم فى رزانة:
- إن شاء الله.. شد حيلك.. ده أنت بتعمل لى خدمة كبيرة قوى!!

ولم يكن عبدالحميد قد اتصل بضابط البوليس.. ولا حاول
الاتصال به بعد.. ولكنه أراد أن يربط نفسه بإبراهيم وأن يشعره
بإخلاصه.. ثم قام ويحدث عن سامية، ونظر إليها بعينين ضاحكتين
وقال:

- أزيك يا بنت عمي؟!

وقالت وهي تشيح عنه بدلال:

- الله يسلمك..

- قال وهو يبتسم..

- وحشتك!!

قالت وهي تنظر إليه بطرف عينيها؟

- يا سم؟!

واتسعت ابتسامته كأنه تلقى منها اعترافا بحبها.. وخرج من
البيت وهو يسير على أطراف أصابعه حتى لا يوقظ عمه من نومه،
وحتى لا ينبهه إلى وجوده في البيت..

● ● ●

واستيقظ الأب في الساعة الخامسة.. وكانت يقظته بمثابة يقظة
البيت كله.. عادت الحركة، وبدأ الاستعداد لطعام الإفطار..
ودخل الأب إلى الحمام.. وخرج ليؤدي فريضة صلاة العصر..
ثم جلس على الأريكة في حجرة «القعاد» وهو ساهم.. لا يفكر،
ولكنه يحاول أن يهرب من أفكاره..

وجاء محيي يحمل جريدة الاهرام.. وتناولها منه الأب وأسقط
عينيهِ تورا فوق صفحاتها.. وظل محيي واقفا قبالته مترددا حائرا،
حتى اضطر والده أن يرفع رأسه إليه، قائلا في تساؤل عصبى:

- أيه.. فيه أيه.. مالك واقف كده؟

وقال محيي بسرعة كأنه يحاول أن يتخلص من حمل ثقيل:

- ابراهيم حايسيب البيت النهارده!

واتسعت عينا الأب حتى صغرت بينهما نظارته، وقال في شهقة
كأنه ابتلع حفنة من ماء:

- بتقول أيه؟!

وعاد محيي قائلا:
- ابراهيم حايصيب البيت و..
وقاطعه الاب:
- أمتى.. الساعة كام؟
وقال محيي:
- ساعة ما المدفع يضرب!
وأحس الأب أنه ينفس عن عذاب كبير.. وأحس بابتسامة كبيرة
تملا صدره.. ولكنه قدر أن المناسبة تقتضى منه أن يخفى
ابتسامته، وأن يكبت الراحة التي يحس بها. فسيطر على تعابير
وجهه حتى يظل محتفظا بإمارات الجد، وقال وهو يدعى اللهفة:
- إنما هو عمل حسابه كويس.. مطمئن إنه حايصيب البيت من
غير ما يجرى له حاجة؟
ولم يكن الأب يتظاهر بهذه اللهفة أمام ابنه، إنما كان يتظاهر بها
أمام نفسه.. كان يريد أن يرضى بها عواطفه، وشهامته، وأحاسنه
الطبيعي بخلقه الكريم.. ولذلك لم يهتم كثيرا برد محيي عليه قائلا:
- أيوه.. هو عامل خطة وماشى عليها!
وقال الأب وهو لا يزال يدعى اللهفة:
- وحايروح فين بعد ما يخرج من هنا؟
وقال محيي وهو لا يزال واقفا أمام أبيه كأنه موظف يقدم
تقريره إلى رئيسه:
- ما أعرفش والله.. كل اللي أعرفه أن فيه جماعة أصحابه
منتظرينه..
ورفع الأب عينيه إلى ابنه وقال كأنه يوجه إليها اتهاما:
- واتصل بأصحابه دول إزاي؟
وقال محيي وهو يخفى عينيه عن أبيه:
- قابلت واحد منهم فى الجامعة.. واتفقت معا..
ونظر الأب إليه نظرة اختلط فيها الغضب بالذعر.. وقبل أن
يتكلم استطرد محيي قائلا كأنه يدافع عن نفسه:
- إنما ما حدثش منهم عرف إنه قاعد عندنا..

وظل الأب ينظر إلى ابنه بعينه الغاضبتين المذعورتين برهة ثم
حول عينيه عنه، كأنه قدر أن الوقت ليس مناسباً لتأنيبه، أو كأن
فرحته الخفية بمغادرة إبراهيم البيت قد كفرت عن تمادى محيى
فى مساعدته.. وزم شفتيه وقال:
- هيه.. بأه كده!
وسكت..

وشجع سكوته محيى، فقال مستطرداً:
- وجبت له منهم بدلة ظابط.. علشان يلبسها وهو خارج!
وعاد الأب ينظر إلى ابنه فى دهشة كأنه لا يصدق أنه يستطيع
أن ينغمس فى المؤامرة إلى هذا الحد.. وبذل مجهوداً كبيراً حتى
لا يصرخ فى وجهه مؤنباً ثم قال بعد برهة صمت:
- ربنا يكتب له السلامة..

وأحس أنه لا ينافق وهو يدعو لإبراهيم بالسلامة.. أحس أنه
مخلص فعلاً بالدعاء له، وأن سلامة إبراهيم متعلقة بسلامته
شخصياً وبسلامة بيته.. ثم بدأ شعوره بالراحة يطفئ عليه.. شعر
أنه أدى واجباً وانتهى منه سالماً.. ثم شعر ببصيص من الزهو
والفخر يملآن نفسه.. ألم ينقذ بطلاً ووطنياً.. ألم يحم فى بيته رجلاً
التجأ إليه.. ألم يكن شهماً.. اليست هذه هى الرجولة.. لقد قام بعمل
سيسجل له طول عمره.. إن لم يسجل فى التاريخ فسيسجل على
صفحات نفسه.. وسيكون فيه درس لابنه.. درس يعلمه أن الوطنية
ليست هتافات، ولا مظاهرات، ولا منشورات، ولا اغتيالات.. ولكنها
خلق، ورجولة وشهامة..

وكان محيى قد خطا خطوتين وجلس فوق مقعده المفضل.. المقعد
الاسيوطى.. ولكنه ما كاد يجلس، حتى قام والده من جلسته، وقال
له وهو يتحسس موضع الشبشب بأصابع قدمه:
- تعال معايا!!

وسار الوالد إلى غرفته وخلفه محيى.. ثم بحث عن حزمة من
المفاتيح موضوعة فوق «الكومدينو» بجانب السرير واتجه إلى
الشفونية وفتح درجاً من أدراجها وأخرج محفظة صغيرة قديمة،

فتحتها فظهرت فيها مجموعة صغيرة من أوراق النقد، التقط من بينها ورقة من ذات الخمسة جنيهات أعطاها لمحيى قائلا:

- أدي دول لابراهيم.. يمكن يحتاج لهم؟!

ونظر محيى إليه قى دهشة، كأنه لا يصدق أن والده يمكن أن يتمادى فى كرمه وعطفه إلى هذا الحد، ثم ابتسم ابتسامة صغيرة كأنه تذكر طيبة قلب أبيه، وقال:

- ربنا يخليك للناس كلها يا بابا..

وأدار الأب وجهه عنه متشاعلا بإعادة وضع المحفظة فى الدرج حتى لا يرى ابنه ضعفه أمام عواطفه.. وقال:

- والدتك عرفت بالموضوع؟

وقال محيى:

- لسه.. حضرتك أول واحد يعرف!

وقال الأب:

- مش حاتقول لها؟!

وقال محيى :

- حاضر..

ودخلت الأم، أتية من المطبخ وقطرات من العرق تتناثر فوق وجهها كحبات من النور المتبلور، وقالت وهى تتحدث فى عجلة:

- آيه اللي مقعدكم هنا فى أوده النوم:

ثم استطردت دون أن تنتظر جوابا:

- النهارده ما تعملوش حسابكم على حاجة.. احنا مهيفين..

ما فيش إلا عدس وكشوى.. أصلى خلاص عدمت من المطبخ

وشغل البيت.. من بكره تشوفوا لكم حل.. سامع يا زاهر

وقال الأب وهو يبتسم:

- قول لها يا محيى !

وتردد محيى وقد علت شفثيه ابتسامة هو الآخر، وعادت الأم تقول:

- يقول لى آيه.. يا أختى ما تتكلموا.. انتم مخبيين آيه؟!

وقال الأب وهو ينظر إليها فى حنان:

- ابراهيم حايسيب البيت دلوقت؟
وردت الام فى عجلة:
- بركة..
ثم تنبّهت إلى انها تسرعت فى الاقصاد عن عواطفها،
فاستدركت قائلة:
- وماله مستعجل ليه.... اوعى يكون زعل من حاجة.. ده
خلاص باه واحد منا!!
وقال محيى:
- ما زعلش ولا حاجة.. هو كان عامل حسابه على كده..
وجلست الام على الكنبه الموضوعه فى مواجهه فراشها، كأنها
تريح عواطفها.. وصمتت قليلا واكتشفت خلال صمتها موجة
حزينة تتجاوب فى أعماقها. شعرت بنوع من الاسف والحسرة،
كان كل شئ قد صمت من حولها فجأة بعد ضجيج كبير كان يملأ
حياتها، ويثير فيها الاهتمام والنشاط.. كأن المدعوين فى فرح، أو
المعزين فى ماتم، قد انصرفوا ولم يتركوا لها إلا ذكريات نشاطها
فى إقامة الفرح أو تنظيم الماتم، وتمتعت فى صوت حزين:
- والنبي صعبان عليه..
وهم محيى أن يغادر الغرفة فاستوقفته والدته قائلة:
- إلا قولى يا محيى.. هو ابراهيم مش شايل مصحف؟
وقال محيى:
- ما اظننش..
وقامت الام من جلستها وفتحت درج «الكومدينو» واخرجت
مصحفا صغيرا ناولته لمحبي قائلة:
- خذ يا بنى، أديله المصحف ده.. رينا يحميه.. وينجيه، ويرجعه
لامه بالسلامة.. يارب..
وقال محيى وهو يتناول المصحف:
- قلبك فيه الخير يا ماما..
ثم خرج من الغرفة، وسار فى خطوات سريعة إلى غرفته،
متهلها لاعطاء ابراهيم الهدايا التى يحملها إليه..

وكان ابراهيم قد انتهى من ارتداء بدلة الضابط، وبدأ فيها فتيا
انيقا.. وكان واقفا امام المرأة ينظر إلى نفسه وبين شفتيه ابتسامة
صغيرة.. لم تكن ابتسامة اعجاب بنفسه، بل كانت ابتسامة أقرب
إلى السخرية من نفسه.. كأنه يأسف بها على حظه فى الحياة.
واستدار إلى محبى عندما دخل الغرفة.. وقال محبى مبتسما
وهو يناوله الخمسة جنيهات:

- بابا باعت لك دول.. يمكن تحتاج لهم!!

وتردد ابراهيم فى أن يمد يده..

وقال محبى وهو يقترب منه أكثر:

- مؤكد أنك محتاج لهم.. ده مش وقت كسوف يا ابراهيم!

وكان ابراهيم مقتنعا فعلا بأنه محتاج إلى هذه النقود.. بل إن
أحدى المشاكل الهامة التى كانت تصادف تفكيره وهو يضع خطة
هربه هى مشكلة النقود.. كان وهو فى السجن تصله النقود عن
طريق والديه، أما وهو هارب فكيف يعثر على والديه والنقود.
ومد يدا مترددة وأخذ الورقة ذات الخمسة جنيهات ووضعها
فى جيبه دون أن ينظر إليها، وهو يقول فى صوت متأثر:
- أنا مش عارف اشكركم إزاي.. حافظ طول عمرى حافظ
جميعكم و..

وقاطعه محبى وهو يمد إليه يده بالمصحف:

- وده من ماما!!

وتناول ابراهيم المصحف، ورفع إلى شفتيه، ثم وضعه فى
جيب سترته العلوى، وهو يقول فى حنان كأنه يذكر أمه:
- رينا يخليها..

وسكت قليلا كأنه لا يستطيع أن يتكلم ليشكر.. لا يستطيع إلا
أن يصمت.. ثم رفع رأسه وقال وهو يتنهد:

- فاضل أد إيه على المدفع؟

ونظر محبى إلى الساعة فى يده وقال:

- خمس دقائق.

واتجه ابراهيم إلى المكتب، وفتح الدرج وأخرج مسلسه

الصغير، ونظر إليه فى أسى.. كأنه يأسف لاضطراره لحمله.. بل كأنه يأسف لأنه عرف المسدسات يوما ما.. إنه لا ينظر إليه اليوم كما كان ينظر إليه قبل أن يسجن.. ليس فى نظرتة حب.. ولا لهفة.. ولا احساس بالقوة.. إنه ينظر إليه كأنه زوجة لم يعد يربطه بها إلا عقد الزواج.. وجذب خزان الرصاص من المسدس، ونظر إليه كأنه طبيب اسنان ينظر فى اسنان مريضه. ثم حرك الزناد مرة ومرتين.. ثم أعاد وضع خزان الرصاص، وأخفى المسدس فى جيب سترته الخارجى.. ومحى واقف خلفه ينظر إليه فى حذر وخوف كأنه ينظر إلى أحد الحواة يلعب بالثعابين..
والتفت إليه ابراهيم قائلا:

- أقدر أسلم على عمى قبل المدفع ما يضرب؟
وقال محبى، وهو واقف ينظر إليه كأنه ينتظر أن يتحرك القطار به ليلوح بيده مودعا:
- اتفضل..

وتحسس ابراهيم الجيب الصغير الذى يضع فيه الورقة التى تحمل خط نوال.. ويريد أن يتأكد من وجودها.. ثم خرج من الغرفة مع محبى، وفى طريقهما إلى غرفة «القعاد» التقت بهما سامية، فشبهت شهقة حادة وقد رأت بدلة الضابط قبل أن ترى فيها ابراهيم، ووضعت يدها على صدرها وهمست همسة حادة:
- بسم الله الرحمن الرحيم..

ووقف ابراهيم قبالتها برهة ومد لها يده مبتسما، وقال وهو يصافحها وينظر إليها فى حنان وشكر:
- نشوف وشك بخير!

وصافحته سامية مذهولة.. ولحقت به لختها نوال وهمست فى اذنها:

- أصله حايز خرج دلوقت..
واستردت سامية أنفاسها وهى تقول:
- ده أنا اتخضيت.. إنما تعرفى أن البدلة لايقة عليه.. منتهى الوجاهة!

وابتسمت نوال كأن الثناء موجه إليها.. إلى رجل تملكه..
ونظرت إلى ابراهيم وهو فى بدلة الضابط وهى مبهورة يكاد قلبها
يقفز من بين شفتيها ليستقر فوق كتفه بجانب النجوم..
وسارت الاختان خلف الشابين إلى غرفة القعد.. وصوت المقرئ
فى الراديو يستقبلهم بآيات الله..
وانحنى ابراهيم يحاول أن يقبل يد الوالد، فجنبتها الوالد منه، قائلاً:
- استغفر الله.. أتفضل يا بنى!
وانحنى ابراهيم مرة ثانية يحاول أن يقبل يد الوالدة، فجنبتها
منه قائلة:

- العفو يا بنى. رينا يحميك ويحرسك!!
وجلس ابراهيم خجلاً مرتبكاً، وبدأ كأنه يهم بإلقاء خطبة..
وابتلع ريقه مرة ومرتين، وقال:
- الواقع يا عمى أنا مهما قلت مش حاقدر اشكرك.. كفايه انى
اقول لحضرتك انى جيت هنا وأنا خايف تطردونى.. إنما لقيت فى
البيت ده وطنية وشهامة ما لقيتهاش فى أى حته ثانية طول
حياتى.. و..

وقاطعه الأب قائلاً دون أن ينظر إليه:
- ما فيش لزوم يا ابنى للكلام ده.. أنا عملت الولجب، وأقل من
الواجب.. المهم سلامتك.. لازم تحترس.. أنت ظروفك صعبة..
صعبة قوى!!

وقال ابراهيم فى ارتباك..

- رينا يستر..

- وقالت الأم:

- رينا معاك يا بنى.. رينا مع كل مظلوم.. وعلى كل ظالم..
وصمت ابراهيم.. واشتد ارتباك.. كانت عواطفه أكبر من أن
يعبر عنها.. وأكبر من أن تدعه يصمت.. ورفع عينيه يتنقل بهما بين
وجوه أفراد العائلة كأنه يبحث فيها عن كلمة يقولها.. ووقفت عيناه
برهة على وجه نوال كأنه يستغيث بها.. فلم يجد فى عينها سوى
الحب.. حب يزيد فى عذابه.. ويستنفد كل طاقتة فى الضغط على

أعصابه حتى لا ينهار أمامها.. وحول نظره عنها.. ونظر إلى سامية
لعلها تقول كلمة يستطيع أن يرد عليها.. ولكنها كانت صامتة..
وفى عينيها حزن عميق كأنها تنتظر بهما إلى جثة شهيد.. ومحى..
إنه ينظر إلى الأرض.. والوالد.. إنه يجهد نفسه هو الآخر فى البحث
عن كلمة.. وقد وجد كلمة هو نفسه مقتنع بعدم جدواها وقال:
- مش لازمك حاجة يا ابنى.. أقدر أعمل لك حاجة.. توصينى
بحاجة؟!

وقال إبراهيم فى صوت مخلص:
- متشكر يا عمى.. حضرتك عملت لى أكثر مما أستحق..
وقال الوالد:
- العفو..
ودوى صوت مدفع الإفطار.. وارتفع صوت المؤذن من الراديو..
وقامت الأم قائلة:
- أما أقوم أغرف الشورية.. يا لالا يا جماعة!
وقام أفراد العائلة.. ووقف محبى فوق مسند المقعد وجذب
سجادة الصلاة من فوق الدولاب، وفردها على الأرض.. ووقف
الوالد متوجها إلى الله..
وانتظر محبى وسامية ونوال أن يتقدمهم إبراهيم إلى غرفة
الطعام، ولكنه ظل واقفا، وقال:
- أتفضلوا أنتم.. أنا حاسلم عليكم دلوقت، وحانزل وانتم
بتفطروا.
ولم يتحرك واحد منهم، ونظر كل منهم إلى الآخر يدعوهم إلى
الكلام.. واستطرد إبراهيم قائلاً:
- أرجوكم.. اتفضلوا انتم.. كل حاجة لازم تمشى طبيعى..
ما حدش عارف ايه اللى يمكن يحصل فى آخر لحظة..
وقالت سامية وهى تنظر إليه فى شفقة:
- وأنت مش حاتاكل؟
وقال وهو يشكرها بعينه:
- لا..

قال في لهفة:

- ده أنت ما كلتش من الصبح.

وقال:

- معلش.. ما انا فاطر!!

وقالت نوال:

- طيب أعمل لك ساندويتش تاخده معاك..

قال وهو يبتسم في حنان:

- مرسى.. أصل ممنوع على الضباط يأكلوا سندويتشات في الشارع.

وعادت الأم من المطبخ وأطلت عليهم وهي تحمل سلطانية

الشورية، وقالت وقد سمعت ما يقوله ابراهيم:

- لا والنبى.. مش ممكن تنزل من بيتى وانت جعان.. ده حتى

حرام!

وقال في أدب:

- معلش يا طنط.. انا شبعان..

ثم اتجه إليها والتقط يدها في يده.. واحتفظ بها حتى لا تجذبها

منه، وانحنى قبلها كأنه يضع عمره فوق الكف الكريم الطاهر..

وقالت:

- ربنا يحميك يا ابنى.. ويكتب لك في كل خطوة السلامة..

ثم صافح محبى في حرارة.. ونظر كل منهما إلى الآخر.. كان

في عيونهما كل ما يريدان قوله.. ثم صافح سامية وهو يبتسم لها

ابتسامة كبيرة.. وقالت له وهي أقرب إلى البكاء:

- ربنا معاك..

ثم وضع يده في يد نوال.. وتمنى ألا يسحبها أبدا.. وأرخى

جفنيه فوق عينيه كأنه لا يريد أن يرى أمنيته.. وسمعها تهمس:

- خد بالك من نفسك..

ثم بصوت أضعف:

- علشان خاطري..

وخرج أفراد العائلة الواحد بعد الآخر إلى غرفة الطعام في

خطوات حزينة بطيئة كأنهم يشيعون فقيدا.. وجلس ابراهيم على

مقعد وهو يتنهد كأنه تحمل في هذه اللحظة.. لحظة الوداع.. أقسى ما تحمله في عمره.. إلى أن أنتهى الوالد من صلاته.. ولم يكن قد صلى إلا بجسده.. كان عقله وقلبه متعلقين بما يدور حوله في الغرفة.. سمع في صلاته صوت ابراهيم وهو يطلب من عائلته أن تذهب إلى حجرة الطعام ليسير كل شئ سيراً طبيعياً.. ولم يناقشه بعد أن أنتهى من الصلاة.. مد يده مصافحاً.. قائلاً:
- مع السلامة.. وأعتبر البيت دايماً بيتك.. وأنا والدك!
وانحنى ابراهيم يقبل اليد التى تصافحه، ثم قال:
- انا حاستنى دقيقة واحدة.. وحلخرج.. متشكر يا عمى..
متشكر جداً!

وهز الوالد رأسه فى صمت..
وخرج ليلحق بعائلته حول المائدة.
ولم يبدأ أحدهم فى الأكل.. ولم يتكلم أحد.. ظلوا واجمين.. ثم سمعوا وقع قدميه.. ولمحوا خيالا يمر بهم.. ثم صوت الباب يفتح فى حرص.. ويفلق فى هدوء..
خرج ابراهيم..
والعائلة لا تزال واجمة..
وفجأة سقط رأس نوال فوق المائدة وأجهشت بالبكاء.. وانحنى سامية فوقها تربت على شعرها.. وإذا بها تبكى معها..
وانزلحت نوال مقعدها بساقيها فى عصبية.. وقامت تجرى إلى غرفتها ودموعها تجرى أمامها..
وجرت سامية وراءها.
والأب، والأم، ومحبي صامتون..
وسدت الأم يدها، وأمسكت «بكيشة» الشورية وحركتها فى السلطة.. ثم توقفت ومسحت بمعصمها دموعاً بدأت تتساقط فوق خديها.. ثم قالت وهى تعود وتمسك بالكيشة:
- والتبى دى حاجة تقطع القلب!!

دخل أفراد العائلة كل إلى غرفته.. وأستلقى كل منهم على سريره.. وقد أرتخت أعصابهم بعد أن ظلت متوترة طوال الأيام الأربعة التي قضاها إبراهيم في البيت.. كان كل منهم يحس بنوع من الراحة كأنهم عادوا جميعا من رحلة شاقة متعبة، أو كأنهم اجتازوا بسلام فترة مرض خطير ألم بهم، وانتقلوا إلى دور النقاة.. ضعف لذيد واسترخاء واطمئنان..

كان الأب مستلقيا على ظهره في فراشه ينظر إلى السقف، وبين شفثيه ابتسامة صغيرة طيبة، وأنفاسه منتظمة هادئة، وإحساسه بالزهو لا يفارقه.. إحساس رب العائلة الذي قاد السفينة بمهارة وسط الأمواج حتى وصل بها إلى شاطئ الأمان.. ثم كان يستعرض في مخيلته الأيام الأربعة الماضية، ويتبين مدى الأخطار التي كان معرضا لها هو وبيته، فتتسع ابتسامته ويهز رأسه تعجبا من نفسه.. كيف قبل أن يعرض بيته لهذه الأخطار.. إنه لا يدري.. ربما لم يتبين هذه الأخطار عنما سمح لإبراهيم بالاختباء في بيته.. لم يفكر ساعتها تفكيراً منطقياً.. ولا حسب حساباً دقيقاً لكل الظروف.. إنما سمح لإبراهيم بالاختباء في بيته، نتيجة إحساس.. ربما كان إحساساً بالعطف، أو شهامة أو وطنية.. وقد أعماه هذا الإحساس عن كل ما يمكن أن يتعرض له من أخطار.. أخطار لم يحس بها فعلاً إلا بعد أن أصبح إبراهيم مختبئاً في بيته، وبعد أن سمع بيان الحكومة يذاع في الراديو برصد مكافأة خمسة آلاف

جنيه للقبض على ابراهيم، وعقاب كل من يساعده على الهرب..
وهو لم يفعل شيئاً لدرء هذه الأخطار.. كل ما فعله أنه استسلم..
ولكن الله انقذه، وانقذ بيته.. الله وحده..
ووجد نفسه يتوجه إلى الله ويتمتم فى صدره.. «الحمد لله.. لك
الحمد والشكر يا رب».

ولكنه عاد وصعب عليه أن يحرم نفسه من مقومات الزهو، ألم
يقبل ابراهيم فى بيته وهو يعلم أنه هارب من السجن، والحكومة
تطارده.. ألم يقاوم المكافأة.. ألم يقاوم التهديد بالسجن.. ألم يتحمل
سماجة عبدالحميد ويتحايل عليه.. لماذا يحرم نفسه من الاحساس
بالبطولة.. لماذا لا يزهو.. لقد قضى عمره كله يطل على الحركة
الوطنية دون أن يلقى بنفسه فى غمارها.. كان يحفظ خطب سعد
زغلول ولا يتعدى حماسه لها دائرة نفسه، ومناقشته مع زملائه
القلائل.. ويواظب على تتبع الحوادث الوطنية فى الصحف، ويحكم
عليها أحكاماً مختلفة دون أن يعلن حكمه أو يشترك فى تنفيذ
الحكم.. وكان يحس وهو يقرأ أشعار حافظ ابراهيم وشوقي
ومقالات الكتاب الوطنيين أنها كلها تعبر عن احساسه، كأنه هو
الذى نظم هذه الأشعار، وهو الذى كتب هذه الآراء.. ولكنه لم
يحاول أبداً أن يعبر عن احساسه بنفسه.. كان دائماً فى حاجة لمن
يعبر له عن احساسه.. فى حاجة لمن يكتب، ولن يثور ولن
يستشهد، حتى فرج عن احساسه.. ان السلبية لا توجد إلا حيث
توجد الايجابية.. المتفرجون لا يوجدون إلا حيث توجد الحركة..
ورغم ذلك فهو لا يقل وطنية عن كل هؤلاء.. لا يقل وطنية عن
المتظاهرين، أو عن هؤلاء الكتاب، بل لا يقل وطنية عن الشهداء..
وقد جاءته الفرصة الذى اثبت فيها لنفسه أنه ليس اقل من غيره
وطنية.. فلماذا ينكرها.. لماذا لا يزهو، ويملاً صدره بعبير البطولة؟
وأتسعت ابتسامته.. وأستدار فى رقده ناحية زوجته، وهى
راقدة بجانبه وظهرها له.. ونظر إلى الجسد المكتنز العالى، بعينين
مبتسمتين، كأنه يهنئها بزوجها!!

وكانت الزوجة قد انتهت من تفكيرها فى يومها.. لم تعد تفكر فى ابراهيم.. إلا أنه ضيف حل وارتحل.. واختفت من ذهنها بسرعة كل المشاكل التى صحبت وجود ابراهيم، وكل الاخطار التى احاطت بالبيت بسببه.. ولم تعد تخاف شيئاً.. كأنها نسيت أيضاً أن تخاف المستقبل.. إنما كانت تفكر فى الغد تفكيراً عادياً طبيعياً.. فى الغد ستنظف البيت كله.. وستفتح النوافذ على سعتها.. وستبدل مفارش السرير. وستدعو عم على البواب ليساعدها فى تنقيض السجاجيد.

ثم كأنها تذكرت شيئاً.. فقالت فى همس دون أن تتحرك من رقتها:

- زاهر.. زاهر.. أنت نمت؟!

وقال زوجها فى صوت هادئ وهو يبادلها الهمس:
- لا.. لسه!

قالت وهى لا تتحرك أيضاً من رقتها:

- أظن بكرة نبعت باه للبت سنية.. احنا داخل علينا عيد، وما حدش يقدر يسد إلا هيه؟!

قال وهو يبتسم:

- ما فيش مانع..

قالت وظهرها له:

- بس على الله أمها ما تكونش ودها بيت تانى.. أصلها وليه طماعة، ماتصبرش..

قال وهو لا يزال يبتسم:

- وهى حتلاقى بيت أحسن من بيتنا.. ولا ست أحسن من ستنا! وأبتسمت الأم فى دلال.. دلال داخلى، لم يبد منه شئ.. ثم أغمضت عينيها فى سعادة، ولم تمض لحظات حتى ارتفعت انفاسها ثقيلة، كأنها تجرها بعنف من تحت أثقال الشحم واللحم.. وغمض الأب عينيه ليهم بالنوم.. ثم فجأة فتح عينيه بسرعة وقد تذكر شيئاً مزعجاً.. أخافه.. محبى.. ابنه.. هل يتمادى فى

الطريق الذى دفعه إليه ابراهيم.. هل يشغل بالسياسة كباقي الطلبة
المشتغلين بالسياسة.. هل يشترك فى المؤامرات والاغتيالات.. هل
يخرج فى المظاهرات ليعود إليه جريحا وربما شهيدا.. هل يسجن..
وهل يكون يوما هاربا كابراهيم، تطارده الحكومة.. لا.. مستحيل..
ولكن محبى ذهب والتقى باصدقاء ابراهيم فى الجامعة ودير معهم
خطة الهرب، وقد اخفى عليه الخبر.. إنها المرة الاولى التى يخفى
عنه شيئا.. لقد كان دائما يعرف عن ابنه كل شئ.. كل حركاته وكل
سكناته، وكل ما يدور برأسه.. ولكنه اخفى عليه خبر التقائه
باصدقاء ابراهيم.. ماذا يخفى عنه ايضا.. وماذا يمكن أن يخفى عنه
فى المستقبل.. وماذا وضع ابراهيم فى رأسه من آراء وخطط.. ومن
أدراه، ربما كانت الخطة الموضوعة أن يظل محبى على اتصال
بابراهيم، وفى خدمته.. لا.. مستحيل.. مستحيل قطعاً.. إنه لا يمكن
أن يدع ابنه يغامر بمستقبله، وينقاد إلى هؤلاء الطلبة المهرجين.. إنه
هو الذى صنع هذا المستقبل لابنه.. صنعه يوما بيوم.. كأنه كان
ينسج له ثوب الحياة.. ولن يدع الثوب يتمزق بعد أن كاد ينتهى
من صنعه.. سيسير ابنه فى الطريق الذى رسمه له، سينال
الليسانس هذا العام، ويكون ترتيبه الأول بين زملائه، ويعين معيدا
فى الجامعة.. لا شئ يمكن أن يحدث.. سيقطع من رأس ابنه كل
ما يمكن أن يكون ابراهيم قد وضعه فيه.. إنه لم يؤوى ابراهيم فى
بيته ليسرق منه ابنه، ما كان أغباه يوم أن آواه، ووضع به بجانب
محبى.. فى حجرة واحدة وفى فراش واحد، كأنه كان يقرب
زجاجة السم من ابنه.. فيم كانا يتحدثان طوال الليل، فى السياسة
طبعاً.. فى المؤامرات.. فى الخطط.. ولابد أن ابراهيم قد حشا صدر
محبى بأوهام البطولة.. البطولة الفارغة.. شقاوة العيال.. ولكن
محبى أعقل من ذلك.. انه يعرف ابنه جيدا.. إنه رصين لا ينقاد
بسهولة.. والوقت لم يفت.. سيحادثه بحزم.. سيحادثه غدا صباحاً..
لا، سيحادثه عقب طعام السحور.. بحزم.. وسيفتح عينيه جيدا على
ابنه.. لن يضيع منه..

وحاول أن يغمض عينيه وينام.. ولكنه اغمضهما ولم ينام.. ظل قلقا فى انتظار جرس المنبه، يعلن ساعة السحور.. وفى الحجرة الأخرى ينام محبى.. إنه يحس أن سريره قد اتسع جدا بعد أن تركه ابراهيم ولم يعد ينام بجانبه فيه.. كأن السرير لم يكن ابدا بهذا الاتساع، وهو لا يستطيع أن يغمض عينيه.. انه يعيد ثم يعيد ذكريات الأيام الأربعة التى مرت به كأنه يجترها ليشبع احساسه منها.. وقد حاول عبثا أن يوقف تفكيره فى هذه الذكريات.. حاول ان يتناساها باستذكار دروسه، ولكنها كانت تطل عليه من بين سطور الكتب، فطوى الكتب ومنح نفسه اجازة من الاستذكار.. ثم استلقى على فراشه يحاول أن ينام.. ولكنه لا يستطيع.. ورغم ذلك فهو لا يشعر بالقلق، وقد زايه شعور الخوف والحنق الذى صاحبه فى الأيام الماضية.. لم يعد يفكر فى الأخطار التى كان يعيش فيها إلا على انها ذكريات.. ما أروع البطولة.. إنك لا تكاد تنتهى من العمل العظيم حتى تنسى الأخطار التى صحبتها.. أنها كعملية الوضع.. لا تكاد الأم تنتهى من الولادة حتى تنسى الأمها.. وتذهب لولادة جديدة.. إن الولادة عملية بطولية.. والامهات بطلات وابتسم وهو يكتشف هذه الفلسفة، ثم اتسعت ابتسامته وهو يكتشف فى نفسه الإحساس بالبطولة ترى هل يعرف زملاؤه فى الجامعة يوما أنه بطل.. هل يعرفون انه اخفى ابراهيم فى بيته بينما الحكومة كلها تطارده وتبحث عنه.

ورأى فى خياله صورة زملائه يلتفون حوله.. وهو يروى لهم ذكرياته.. ويبالغ قليلا فى رواياتها.. ورأى زملاءه يصفقون له.. ثم رأى نفسه فى خياله محمولا على الاعناق. والطلبة من تحته. طلبة يعرفهم، وطلبة لا يعرفهم، والجميع يهتفون «عاش محبى بطل الجامعة»!!

وسرحت عيناه وراء خياله.. وابتسامته تتسع.. وقلبه يخفق بشدة كأنه لا يستطيع أن يواجه كل هذه الجماهير الملتفة به.. وأحس بنفسه يرتفع من فوق فراشه فوق اكتاف زملائه..

ثم تنبه إلى نفسه..

وانكمش..

انكمش كل شئ فيه، كأنه يخاف هذا الخيال.. وهز رأسه فوق الوسادة كأنه يقول لا.. لا.. لا يجب أن يعرف زملاؤه شيئا.. لو عرفوا فستعرف الحكومة.. وسيقبض عليه، ويزج به فى السجن.. لا.. إنه لا يريد أن يسجن.. لن يسجن.. عليه أن يضع كل ارادته فوق لسانه، حتى لا يقول شيئا لزملائه.. لا يريد منهم أن يصفقوا له، ولا أن يحملوه على الأعناق ولا أن يهتفوا باسمه، لأنه لا يريد أن يسجن.

ثم كان يعود، ويستسلم لخياله..

وفى الحجرة المجاورة تنام الأختان..

كانت نوال قد انقشعت دموعها عن احلامها.. احلام مشرقة مغردة كالليوم الصحو عقب اليوم المطير.. وكانت صورة ابراهيم وهو مرتد بدلة ضابط تملأ خيالها كله.. وكان خيالها يسبق عمرها إلى يوم الاثنين القادم.. ستلقاه يوم الاثنين فى ميدان عبدالمنعم.. وارتسمت صورة الميدان امام عينيها، ورأت نفسها واقفة فى وسط تتلفت حواليتها فى انتظار ابراهيم.. أى ثوب ترتديه.. البنى.. لا.. الأبيض.. والقفاز الأبيض فى يديها.. وحقيبتها البيضاء.. لا.. حقيبتها السوداء.. وحذاؤها الأسود.. إنها واقفة وسط الميدان مرتدية ثوبها الأبيض فى انتظار ابراهيم.. هو آت من ناحية شارع عبدالمنعم، مرتديا بدلة الضابط وعلى عينيهِ نظارة سوداء.. وهو يصافحها.. ثم يسيران جنبا إلى جنب فى الشارع الضيق الظليل المتفرع من الميدان.. لا.. إنه آت فى سيارة يقودها بنفسه.. والسيارة تقف أمامها، وهو يبتسم لها ابتسامته الضيقة القوية التى تميل قليلا على جانب شفتيه.. وهى تتردد كثيرا فى الركوب بجانبه.. وقلبيها يضطرب.. هل تركب؟.. وماذا يقول عنها أن قبلت أن تركب بجانبه.. لعله يعتقد انها بنت سهلة.. لا.. أن ابراهيم ليس من هذا النوع، ولا يمكن أن يسئ الظن بها.. يجب أن تطيعه.. وتركب

بجانبه.. والسيارة تمزق بسرعة.. سرعة جنونية.. وتأخذها إلى بعيد.. ثم تقف فجأة فى مكان ليس فيه أحد.. بل ليس فيه ارض.. كأنها وقفت بها فى السماء.. وهو يلتفت إليها ويحدثها.. إنه يحدثها عن الزواج.. ثم تطل عليهما صورة ابيها.. هل يوافق على الزواج؟! وتعبس قليلا وهى تتخيل اباه يهز رأسه علامة الرفض.. ولكنها تبتسم.. فهى واثقة من طيبة قلب ابيها.. سيوافق اخيرا!! وتغرق فى خيالها.. والصور تتوالى امام عينيها.. وتتغير.. وأصابعها ممسكة بالعلبة الذهبية الصغيرة التى تضم المصحف وتضم الورقة التى كتبها ابراهيم بخط يده.. العلة التى لا تزال معلقة فى صدرها فوق قلبها، كأنها تحمل فيها ابراهيم نفسه.. وأفاقت من خيالها على صوت اختها سامية:

- نوال.. نوال.. انتى سرحانة فى ايه؟

وقالت نوال بلا وعى منها:

- يا ترى ابراهيم فىن دلوقت؟

وقالت سامية كأنها تطيب خاطر اختها:

- ما تخافيش عليه.. ده من الصنف اللى ما يتخافش عليه!!

وسكتت الأختان.. وقبل أن تندمج نوال فى خيالها سمعت صوت سامية قائلة:

- تعرفى انا بافكر فى ايه.. بافكر فى عبدالحميد لما حايعرف أن ابراهيم ساب البيت.. ده حيتجن. وحاشمت فيه شماته!

وقالت نوال وهى تعلم أن اختها لن تشمت ابدا فى عبدالحميد:

- ولا حيتجن ولا حاجة.. دول بقوا أصحاب..

وقالت سامية كأنها لم تسمع كلام اختها:

- تفتكرى بابا حيطرده لو جه بكره؟

وقالت نوال:

- ماظنش.. يطرده ليه؟!

وسكتت سامية، وعادت تفكر فى عبدالحميد.. وهى تفكر فيه منذ خرج ابراهيم من البيت.. خيل إليها أن الذى خرج هو

عبدالحميد لا ابراهيم .. خرج من حياتها .. لن يعود يلاحقها ويلح
فى زواجها.. سيطرده ابوها من البيت.. وستعود حياتها راكمه،
تستعرض أسماء وأشكال رجال غرباء يتقدمون للزواج بها.. وليس
بينهم من تتدلل عليه، ويشبع غورها ويربط صباها بشبابها..
وهى ليست سعيدة.. لماذا.. اليس هذا ما تريده.. ألم تكن تريد أن
يخرج عبدالحميد من حياتها!! ولكنها رغم ذلك ليست سعيدة ، أنها
لا تريده أن يخرج، وقد بكت بحرقة عندما خرج ابراهيم.. بكت مع
اختها.. ولكنها كانت تعلم أنها لا تبكى ابراهيم بل تبكى عبدالحميد..
وعادت تقول لأختها فى صوت ضعيف كأنها تتكلم خلال سحب
تحيط برأسها:

- إنما تفكرى عبدالحميد يقدر يعمل حاجة؟
وكانت تتمنى أن تجيىها أختها بأن عبدالحميد يستطيع أن يفعل
شيئا ليتم زواجه بها، ولكن نوال قالت:
- ولا يقدر يعمل جنس حاجة.. حايعمل ايه يعنى؟
وقالت سامية كأنها تتعلق بالأمل:
- يعنى حانسحب كده من سكات بعد ما يعرف اننا كنا بنضحك
عليه لغاية ما ابراهيم يخرج؟
وأدارت نوال رأسها ناحية أختها، وقالت مبتسمة فى حنان:
- تعرفى أنا متهى لى أيه يا سامية.. متهى لى انك لسة بتحبى
عبدالحميد زى زمان؟
وقالت سامية فى حدة كأنها تدافع عن سرها:
- طب نامى أحسن لك.. باين انك حاتبتدى تخرفى؟
وأدارت ظهرها فى عصبية ناحية أختها، ودفنت رأسها فى
وسانتها كأنها تخفى حبها فى طياتها.. تخفى نفسها..
وعادت نوال إلى خيالها، والصور المتتالية المتغايرة تمر أمام
عينها.. وابتسامة حلوة تائهة فوق شففتها..

● ● ●

ودق جرس المنبة معلنا ساعة السحور..

وكانت الأم أول من تنبهت، ولكنها لم تفتح عينيها.. وقالت دون أن تتحرك من رقدتها، وهى لا تزال مغمضة العينين:
- زاهر.. زاهر.. يا زاهر.. السحور!!
وسكتت كأنها عادت إلى النوم.. ثم ردت بعد قليل وهى لم تتحرك بعد:

- زاهر.. قوم يا زاهر.. ياللا يا خويا.. السحور!!
وقال الأب وهو يفيق من نومه القلق:
- ما تسيبيني على بال ما تسخنى الأكل!
وتحركات الأم فى كسل، وأعتدلت جالسة فوق الفراش، وهى لا تزال مغمضة العينين، ثم فتحت عينيها ببطء، ونزلت من فوق الفراش، فى تثاقل.. وهى تقول كأنها تتألم:
- هيه.. مش عارفة مالى.. جسمى كله سكاكين!
ثم سارت، وهى ترفع قدميها بصعوبة، واتجهت إلى غرفة ابنتها، ونقرت فوق الباب، وسمعت صوت نوال قائلة:
- صاحيين يا ماما..

فلم تلح عليهما، وتركت بابهما، ثم اتجهت إلى غرفة الطعام، وجلست فى تكاسل وهى لا تزال تتألم، وأشعلت وابور السبريتو ووضعت فوقه طبق الفول..

وبعد قليل اجتمعت العائلة حولها، بعد أن تولى أفرادها إيقاظ بعضهم البعض.. وبدأوا يتناولون طعام السحور فى تكاسل وهم يحشرون الأكل فى أفواههم حشرا، كأنهم يؤدون واجبا ثقيلا لا بد من الانتهاء منه.. ولم يتكلموا عن إبراهيم.. كأن ما حدث لم يصبح بعد ذكريات يتحذثون عنها، بل لا يزال حقيقة يعيشون فيها، ويستسلمون لها بلا كلام..

وشرب محبى كوبا من عصير قمر الدين وهم بالقيام عائدا إلى غرفته.. ونظر إليه الوالد فى تردد كأنه يشفق عليه من أن يحرمه من نومه، ثم قال كأن لسانه سبقه إلى الكلام:
- استنى يا محبى شوية.. عايزك!

ونظر محيى إلى أبيه وهو يرسم بعينه علامة استفهام، ثم
جلس فى مكانه، وتبادلت الأختان نظرة وتحركتا لتتسحبا إلى
غرفتهما.. فقالت لهما امهما كأنها تحتهما على سرعة الانسحاب:
- كل واحدة منكم تشيل طبقين وتحطهم فى الحوض، وتسبب
عليهم شوية ميه.. وتسببهم لغاية النهار ما يطلع..
وخرجت الأختان..

ولحقت بهما الأم وهى تتنهد ألما..
ونظر محيى إلى أبيه كأنه يستعجله الكلام..
وقال الأب فى صوت هادئ بعد أن رشف آخر ما فى كوب
عصير القمر الدين:

- ما قتلش.. انت قابلت أصحاب ابراهيم إزاي؟
وأحنى محيى رأسه ينظر إلى سطح المائدة وهو يضغط بأصبعه
على قنطرة نظارته فى حركة عصبية كأنه يخشى أن تقع منه.. لقد
كان ينتظر أن يفاتحه والده فى هذا الموضوع، ولكنه لم يكن ينتظر
أن يفاتحه الآن.. فى هذه الساعة.. وقال فى صوت خافت:
- قابلت واحد منهم فى الجامعة، وقلت له أن ابراهيم عايز
عربية تستناه وبدلة ضابط يلبسها..
وقاطعه الأب:

- ما سألش ابراهيم قاعد فين؟
وقال محيى بسرعة:
- سألنى.. وقلت له ما أقدرش أقول لك!!
وقال الأب:

- ورضى بكده؟
وقال محيى وهو يشعر بثقل التحقيق:
- أيوه .. سكنت على طول!!
وعاد الأب يسأل:
- وجبت منه البدلة إزاي؟
قال:

- قابلته تانى يوم، وانا خارج من الجامعة وخذتها منه!!
وأبتلع محبى ريقه كأنه يبتلع كذبته.
وقال الأب وعيناه كلها فوق وجه ابنه:
- وأيه عرفك أن مافيش حد كان مراقبكم؟
قال محبى:
- دى الحكاية ما خدتش دقيقة واحدة.
وسكت الأب كأنه يتهم ابنه بالغيباء.. وقال فى امتعاض:
- ما قلتليش ليه قبل ما تروح؟
وارتبك محبى قليلا، ثم قال وهو لا ينظر إلى والده:
- ما حبتش أزعج حضرتك!
وقال الأب فى تهكم:
- وما حسبتش تزعجنى فى ايه كمان؟
قال محبى:
- ما فيش حاجة تانية والله يا بابا!!
قال الأب:
- مين عارف.. يمكن عامل خطة مع ابراهيم.. ما انت خلاص
بقيت بتاع سياسة؟
وسكت محبى..
وقال الأب فى حدة:
- ما تتكلم..
وقال محبى بصعوبة:
- مش عامل خطة ولا حاجة.. ما فيش حاجة مخبىها على
حضرتك!!
وسكت الأب قليلا وهو ينظر إلى ابنه نظرات فاحصة ثم قال
وهو يفتعل الهدوء:
- اسمع يا محبى.. انا اذا كنت سمحت لابراهيم يقعد عندنا،
فمش معنى كده انى باشتغل بالسياسة.. ولا انى اسمح لك تشتغل
بالسياسة.. ده راجل استجار بيينا وأجرناه.. إنما إحنا مش زيه..

ولا مستعدين نعمل العمال اللى بيعملها.. مفهوم؟

وقال محيى:

- مفهوم يا بابا..

وعاد الأب يقول فى حزم:

- أنت فاضل عليك شهرين وتتخرج وبعد كده تبقى تعمل اللى
تعمله.. إنما قبل ما تتخرج أنا المسئول عنك.. وعابذك توعدننى
دلوقت أنك ما تتصلش بحد من أصحاب إبراهيم.. وأنك ما تخبش
عنى حاجة..

قال محيى وهو يريد أن ينتهى:

- أوعدك يا بابا..

وقال الأب مؤكدا:

- توعدننى بايه؟

ورد محيى:

- أوعدك اننى ما خبش عنك حاجة.. وانى ماليش دعوة
بالسياسة.. ولا بأصحاب إبراهيم..

وقال الأب كأنه يخرج ابنه بثقة فيه:

- انت راجل.. وأنا واثق بكلمتك.

ثم أراح كرسيه، ووقف وهو يقول لابنه:

- تصبح على خير واتجه إلى غرفته..

وسار محيى وراءه إلى غرفته..



وجاء الصباح..

وكان أول ما فعله الوالد أن أرسل بواب البيت فى شراء جريدة الاهرام، وكانت المرة الاولى التى يشتري فيها جريدته قبل أن ينزل من البيت.. وتلقاها فى لهفة كأنه كان ينتظر أن يقرأ على صدر الصفحة الاولى خبر القبض على ابراهيم.. أو خبر مقتله.. ولكنه لم يجد شيئاً فى الصفحة الاولى.. وقلب بقية الصفحات بسرعة، ولما لم يجد شيئاً.. ألقى الجريدة على الاركة وبدأ يستعد للذهاب إلى عمله.

وتسلل أفراد العائلة الواحد بعد الآخر - ما عدا الأم - كل منهم ينظر فى الجريدة خفية عن الأب.. ووجدت نوال نفسها بعد أن نظرت فى الصفحة الاولى، تقلب بقية الصفحات ثم تستقر عيناها فوق صفحة الوفيات، وتأخذ فى قراءة الأسماء.. ثم تنبهت إلى نفسها قبل أن تتم قراءة كل الأسماء، فانقبض قلبها، وألقت الجريدة من يدها كأنها تدفع خاطراً أسود عن رأسها..

وخرج الأب إلى عمله

وخرج محبى إلى الجامعة..

وفتحت النوافذ كلها.. وبدأت عملية تنظيف هائلة فى البيت كله.. واستدعى عم على البواب ليساعد فى تنفيذ السجاجيد.. وتركوه يتنقل فى انحاء البيت، كان هناك تعمد لاشهاده على أن ليس فى البيت رجل غريب..

ودخلت نوال غرفة شقيقها محبى.. لقد أصبحت تعتبرها غرفة ابراهيم.. وهى ترى ابراهيم فى كل مكان فيها.. هنا كان يتناول

طعام افطاره.. وهنا كان ينام، وهى تحس به كأنه قريب منها..
قريب جدا.. وتسير فى انحاء الغرفة فى خطوات بطيئة مرتبكة كان
عينى ابراهيم تراقبها..
وفتحت الدولاب، ووجدت البنطلون والقميص اللذين كان
يرتديهما ابراهيم، وتركهما بعد أن خرج مرتديا بدلة الضابط..
وأمسكت بالقميص بين يديها فى رفق وحنان كأنها تهم بأن
تضمه إلى صدرها.. تضم ابراهيم.. ثم وضعت القميص جانبا،
وأمسكت بالبنطلون وطوته فى عناية وعلقتة على مشجب داخل
الدولاب.. ثم عادت وحملت القميص وذهبت به إلى غرفتها
ووضعتة فى دولابها، وقد قررت بينها وبين نفسها أن تغسله
بيدها، وتكويه بيدها، وتحفظه فى دولابها بين ثيابها..
وانتهت عملية تنظيفات البيت فى الساعة الثانية عشرة.. وذهب
عم على البواب يبحث عن سنية الخادمة عند أمها..
وبدا كل شئ لامعا، مرتبا، مشرقا.. كأن البيت يبتسم بعد طول
عناء..

وكادت الساعة تقترب من الواحدة عندما دق جرس الباب..
وفتحت نوال..

ودخل عبدالحميد مسرعا، وحياها دون أن ينظر إليها:
- أزيك؟!

وأجابت نوال وهى تبتسم ابتسامة ساخرة:
- الله يسلمك!

ولم ير ابتسامتها، إنما سبقها إلى الداخل مهرولا، كأنه يحمل
نبأ خطيرا.. وسارت خلفه وهى تضحك فى سرها كأنها ترى
صورته عندما يسمع المفاجأة التى تنتظره، ثم دلفت إلى المطبخ
لتتضم إلى أمها..

والتقى عبدالحميد بسامية فى طريقه وهى لا تزال فى ثياب
البيت، وقال لها دون أن يحييها:
- ابراهيم بيعمل ايه؟!

وهم أن يتخطاها متجها إلى الغرفة التي تعود أن يجد فيها
ابراهيم - غرفة محيى - ولكنه سمع إجابتها:
- خرج!!

والتفت إليها كأنه لا يصدق أذنيه، وقال وهو لم يستوعب بعد
المفاجأة:
- بتقولى أيه؟!

ونظرت إليه سامية يعينين حزينتين مشفقتين، وقالت فى صوت
ضعيف كأنها تطيب خاطره:
- ابراهيم خرج.. ساب البيت!!

وأتسعت عينا عبدالحميد وقد التقى بالمفاجأة كلها. فبدأ
كالمجنون.. واستطاع بلمحة من ذكائه، ومن تعوده اساءة الظن
بالناس أن يكتشف الخطة التي دبرت حوله، وقال وهو يفح كأنه
حيوان جريح:

- خرج.. خرج إزاي.. مش معقول!؟
ثم تركها، واندفع إلى غرفة محيى، والقى بنفسه على بابها،
وفتحه، وأجال فيها عينية المجنونتين.. ووجنتاه ترتعشان.. وفتحتا
أنفه ترتعشان.. وقال وصوته يرتعش:

- راح فين.. قوليلى راح فين!؟
وقالت سامية وهى مذعورة من جنونه:
- ما أعرفش.. والله العظيم ما أعرفش.

وأرتفع الصوت المحشرج حتى كاد يصبح صراخا:
- طبعا ما تعرفيش.. والمغفل الكبير اللى هو انا ما يعرفش
راخر.. ضحكتم على .. مش كده.. خلاص، اتفضل يا سى
عبدالحميد من غير مطرود.. ما فيش جواز.. ما فيش فلوس.. إنما
ده بعدكم.. والله لوديك كلكم فى داهية.. والله لضلمها عليكم.
والذنب مش حيكون ذنبى.. ذنب أبوكى اللى حب يضحك على ..
إنما انا لحمى ما يتكلش حاف.. انا لحمى مر.. انا حاوديك فى
داهية.. حاهيب عيشتكم..

واندفع نحو الباب الخارجى..
وجرت وراءه سامية، وهى تصرخ:
- عبد الحميد.. عبد الحميد..
ولم يتوقف، وفتح الباب وخرج منه، وصفقه وراءه قبل أن
تلتحق به..
وعادت سامية إلى غرفتها مهرولة وفتحت دولابها.. وبدأت
تبدل ثيابها فى عجلة.. دون أن تلتفت إلى نفسها فى المرأة..
وشفتاها لا تزالان ترددان بصوت خافت «عبد الحميد.. عبد الحميد»
كأنهما ترددان صدى صرخة مفزعة انطلقت من صدرها..
وتفكيرها مرتبك.. لا تستطيع أن تحصره فى شئ، ولا تدرى ما
ستفعله.. وكل ما فى رأسها أنها تذكرت حديث عبد الحميد لها
بالأمس عندما كان يتحدث عن تبليغ البوليس عن إبراهيم..
وانتهت من إبدال ثيابها.. ووضعت قدميها فى حذاءها، بلا
جورب.. ثم جذبت حقيبتها فى يدها، وهرولت خارج الغرفة دون أن
تساوى شعرها.. والتفت بأماها خارجة من المطبخ وهى تقول:
- هوه عبد الحميد ماله بيزعق كده ليه؟
ولم ترد عليها وجرت نحو باب الشقة..
ولحقت بها نوال صارخة:
- سامية.. سامية.. رايحة فين؟
ولم ترد عليها سامية، وخرجت وأغلقت الباب وراءها..
وأعادت نوال فتح الباب، وأطلت من فوق حاجز السلم وهى
تصرخ:
- طيب استنى لما اجى معاكى يا سامية!
ولم تسمعها سامية..
أصبحت فى الشارع..
وتلفتت بعينين مذعورتين تبحث عن عبد الحميد..
ومدت عينيها إلى آخر الشارع الذى يقع فيه البيت فلم تره..
وسارت فى خطى سريعة مهرولة إلى شارع الجيزة، وكل شئ

فيها مذعور.. وقلبها، وعيناها، وشفتاها، وساقاها، ويدها..
وخصلات من شعرها تتطاير في الهواء، وتتدلى فوق وجهها كأنها
تصرخ من الذعر.. وهي لا تزال تتمتم في صدرها «عبدالحميد..
عبدالحميد.. عبدالحميد»..

وهي لا تدري ما ستفعله عندما تجد عبدالحميد.. كل ما تدريه
إنها يجب أن تجده.. أنه ذاهب لتبليغ البوليس عن إبراهيم.. إنها
تعلم ذلك.. تحسه.. واحساسها يصل إلى حد اليقين.. ويجب أن
تمنعه.. لا لتتقذ إبراهيم.. ولا لتتقذ عائلتها.. ولكن لتقذ
عبدالحميد.. تتقذه من نفسه.. تتقذ حبها الخفى له.. تتقذ صورته
التي رسمتها له في قلبها.. كأنها تخاف أن تفتضح سفالته،
فيتحطم الأمل الذي يعيش في أعماق صدرها.. ويتحطم غورها
بملاحقته لها.. ويتحطم زهوها أمام العائلة كفتاة مرغوبة.. يرغبها
عبدالحميد إلى حد اللحاح الثقيل..

ووصلت إلى شارع الجيزة. وتلفتت بعينيها المذعورتين تبحث
عن عبدالحميد.. ثم شهقت شهقة حادة عندما رآته على الرصيف
المقابل، واقفا أمام دكان بائع سجاثر، يتحدث في التليفون ..
هل ابلغ البوليس عن إبراهيم.. بالتليفون؟!
وصرخت كالمجنونة

- عبدالحميد.. عبدالحميد..

وكان عبدالحميد أبعد من أن يسمعها.. فقفزت من فوق
الرصيف، وهمت أن تعبر الشارع إليه.. ولكن الترام قطع عليها
الطريق.. فوقفت في وسط الشارع تنتظر أن يمر بها الترام وهي
تحاول أن تتبع عبدالحميد بعينيها من خلال عرباته.. وخیل إليها أنه
أطول ترام التقت به في حياتها.. خیل إليها أن الثانية التي استغرقها
مرور الترام من أمامها هي ساعة..

وعندما مر الترام لمحت عبدالحميد ينزع سماعة التليفون من
فوق أذنه، ويعيدها مكانها.. ثم يسير في الطريق متجها إلى ميدان
الجيزة..

وجرت لتلحق به..
وصرخت عندما فاجأتها سيارة كادت تدهسها..
ووقعت حقيبتها من يدها عندما كادت تصطدم بدراجة..
والتقطت حقيبتها، وأتمت عبور الشارع وهي تلهث كأنها كانت
تخوض فى النار..
وجرت وراء عبدالحميد وهي لا تزال مركزة عينيها عليه.. ورأته
يتجه نحو موقف سيارات الأجرة، عند طرف الميدان.. ثم يركب فى
أحدى هذه السيارات..
وانطلقت به السيارة.. ومرت من أمامها.. فصرخت كأنها تلفظ
قلبها من فمها:
- عبدالحميد!
ولكن عبدالحميد لم يسمعها ولم يلتفت إليها، ورأته فى لمحة
وهو ساهم مقطب الجبين، وقد ركز عينيه الغاضبتين فى قفا
السائق..
وانطلقت سامية نحو موقف السيارات، ووضعت نفسها فى
أحدها وهي تقول للسائق فى صوت يكاد يكون نشيجا:
- حصل التاكسى اللى قدامنا ده..
وانطلقت بها السيارة.. واستطردت فى توسل:
- قوام ونبى يا أسطى.. قوام!
وقال السائق، وهو يتراقص بسيارته بين بقية السيارات
والعابرين:
- عنيه يا ست هانم.. حانحصل أبوه كمان.. عيب
على.. ما اكونش الاسطى أبو سريع فى زمانى..
وقهقه السائق، وهو يتراقص بسيارته، مطاردا السيارة
الأخرى..
وسامية جالسة داخل السيارة مبهوثة، لا تدري ما تفعله.. كل
تصرفاتها تلقائية.. تصرفات غريبة عليها.. ولو فكرت قليلا لما
أقدمت عليها..

إنها المرة الأولى فى حياتها التى تنطلق من البيت وتخرج بلا
أذن من والديها.. ولا تتبئ احدا بوجهتها.. لأنها لا تدرى وجهتها..
وهى المرة الأولى التى تركب فيها سيارة أجرة وحدها..
ولكنها لا تحس بأنها راكبة سيارة.. إنها تحس بأنها تجرى
فعلا وصدرها يلهث كأنها تجرى فعلا.. وعيناها زائغتان من نوافذ
السيارة تبحثان عن السيارة الأخرى التى يركبها عبدالحميد، وكلما
وجدتها تعلقت بها بعينيها، إلى أن تضيق من أمامها مرة أخرى..
فتعود تبحث عنها.. وهى لا تزال تردد:

- قوام.. قوام والنبي يا أسطى!
ثم أصبحت تردد كلمة «قوام» بشكل ألى، دون أن تعى معناها،
وكانها محمومة تهرف من لسع نار الحمى..
والسائق لا يزال يتراقص بسيارته ويقترّب من السيارة الأخرى
فيصيح فى فرح:

- جييتك يا أسطى حسنين!!
وانطلقت السيارتان.. أحدهما تتبع الأخرى فوق كوبرى عباس..
ثم فى شارع قصر العيني.. ثم فى ميدان عابدين.. ثم فى شارع
السلطان حسين.. ثم فى ميدان باب الخلق.. ثم اتجهت السيارة
الأولى إلى المدخل الخلفى لبناء المحافظة ووقفت أمام الباب
الكبير.. بينما السيارة الثانية لا تزال عند أول الميدان، ولكن سائقها
لا يزال يتبع السيارة الأولى بعينه.. فجرى وراءها إلى أن وقف
بجانبيها، وهو يقول مقهقها:

- برضة حصلتك يا أسطى حسنين!
ويحثت سامية بعينيها فى السيارة الثانية، وهى لا تزال مكانها،
فلم تر فيها عبدالحميد، فصرخت:
- هوه فبن... راح فبن الأفندى اللى كان راكب معاك؟؟
وقال سائق السيارة الأولى وهو ينظر إليها فى دهشة:
- نخل جوه..
وأشار بيده إلى مبنى المحافظة..

وفتحت سامية باب السيارة بيد مرتعشة مرتبكة، وألقت نفسها منها، واتجهت تجرى داخل المحافظة، فقفز وراءها الأسطى أبو سريع، ولحق بها وامسكها من ذراعها، وهو يقول كأنه يهدد:

- الفلوس يا ست؟!

وقالت وهي تحاول أن تنزع ذراعها من يده:

- استناني شوية.. خليك مستنى!

ونظر السائق إلى شعرها المهوش فوق رأسها، وإلى عينيها المذعورتين، وإلى ثيابها المرتبكة فوق جسدها، وقال بعد أن ترك ذراعها ووقف يسد طريقها:

- ما استناش!!

وقالت فى توسل:

- أعمل معروف يا أسطى.. انا راجعة حالا!

وقال الأسطى فى برود:

- برضه يصح تدفعى.. تمنناش قرش!

ونظرت إليه وهى تكاد تبكى، ولمحت فى عينيه نظرة تصميم أخافتها. فنكست رأسها فى ذل، ثم فتحت حقيبتها بأصابع مرتعشة، وبست يدها فيها، تبحث عن كيس نقودها.. ثم برقت عيناها كأنما خطرت لها فكرة.. وأعادت اغلاق حقيبتها ثم دفعتها فى وجه السائق، وقالت فى حزم، وهى تضغط الحروف بين شفتيها:

- خد، خلى الشنطة معاك لغاية ما أرجعلك، وتوصلنى البيت تانى!

وتغيرت نظرة السائق.. أصبح ينظر إليها فى اشفاق ورثاء.. ومد يده ليأخذ الحقيبة، ولكنه عاد وانزل يده، وقال وهو يفسح لها الطريق:

- ما فيش لازمة.. انا حاستناكى.. بس ما تتأخرىش!

ودخلت سامية إلى مبنى المحافظة.. ووجدت نفسها فى فناء كبير مرصوف تقف فيه مجموعة من السيارات الخصوصية

وسيارات البوليس.. وسارت فى خطى مهزوزة مترددة كأنها
تقتحم وكر لصوص.. وعيناها قد ازدانتا اتساعا، واشتد الذعر فى
نظراتها.. كأن وجوه السائقين والناس الذين تراهم فى الفناء وجوه
غريبة.. ليست وجوها آدمية..

ووجدت بابا ضخما على يسارها، يؤدى إليه سلم عريض قليل
الدرجات.. فأتجهت إليه وقدمهاها تزحفان فى حذر.. وصعدت وهى
تنظر إلى الداخل كأنها تنتظر أن تجد عبدالحميد واقفا فى
انتظارها..

ولم تجده..

ووقفت حائرة..

وناس، وجنود بوليس، يمرون بها دون أن يأبه واحد منهم بها،
أو يثيره منظرها المرتبك، والحيرة التى تطل من عينيها..
ومالت على جندي بوليس جالس على مقعد بجانب أحلي الأبواب
يتحدث مع رجل واقف قبالة، وقالت فى صوت مبجوح مرتبك:
- من فضلك..

وانتظرت أن يلتفت إليها..

ورفع إليها الجندي رأسه، ونظر إليها نظرة سريعة، ثم عاد يتم
حديثه مع الرجل وكأنه لم ير شيئا..
واقتربت منه خطوة أخرى، وقالت وصوتها أشد ارتياكا:

- من فضلك يا شاويش..

ونظر إليها الجندي بتعال، قائلا:

- خير.. فيه إيه ؟!

وقالت فى رجاء:

- من فضلك ما شفتش واحد طويل، ولا بس بدلة بنى، دخل هنا
دلوقت؟!

وقال الشاويش وهو يعتدل فى جلسته ويتخذ هيئة الحكام:

- وأسمه إيه الأفندي ده؟

قالت فى عجلة:

- اسمه عبدالحميد زاهر..
ورفع الجندي يده ومسح على شاربه المشعث ، وأخذ يزوم
بشفتيه، ثم فكر قليلا، كأنه يحاول أن يتذكر هذا الاسم، وقال:
- هيه.. وييقالك أيه عبدالحميد زاهر؟
قالت:

- ابن عمي..
وطاطا الشاويش رأسه، ثم عاد ورفعها، وقال في لهجة أمرة
كأنه وكيل نيابة محقق:

- وجايه ورا ابن عمك في المحافظة ليه؟

قالت وهي تكاد تنفجر باكية:

- كان مديني ميعاد هنا..

وقال الشاويش:

- بأه كدة.. هيه.. كويس والله!

وقالت سامية وهي تكاد تياس:

- والنبي ما شفتوش، يا شاويش؟

وصمت الجندي قليلا دون أن يتحرك من مقعده أو يبدو عليه

تأثر، ثم انطلق قائلاً:

- هوه مش جدع أسمر كده، وعنده حتة شنب صغير؟

وقالت سامية في لهفة:

- أيوه.. هو.. راح فين؟

قال الجندي وهو يشير إلى الباب الجالس قبالة:

- نخل..

قالت في عجلة:

- أقدر أشوفه؟

قال في برود:

- ممنوع..

قالت في توسل:

- ده عايزني ضروري.. حاجة مهمة خالص!

قال وهو يمسح بيده على شاربه مرة ثانية:

- معاكى، أمارة؟

قالت فى حدة:

- بس قول له، وهو حايعرف!

قال وكأنه يحادث نفسه:

- أقول للباشا؟!

قالت:

- باشا ايه .. قول له هو!!

قال كأنه يتباهى بذكائه:

- ما هو عند الباشا.. اللوا الكبير!

قالت فى حدة كأنها تأمره:

- طيب قول للباشا..

ونظر إليها الجندى مليا، ثم قام متكاسلا قائلا:

- طيب استنى عندك شوية!

ودخل الجندى إلى الحجرة، ورفعت سامية عينيها، فاصطدمتا

بلوحة كتب عليها «القلم السياسى»..

وعاد الجندى بعد قليل، وقال فى لهجة أكثر أدبا:

- أتفضلى!!

ودخلت سامية وهى لا تزال تزحف بقدميها فى خطوات مترددة

خائفة.. وقلبها ينتفض فى صدرها، ويدق دقات عنيفة متوالية

كأنها دقات الطبول التى تسبق تنفيذ حكم الإعدام..

ووجدت نفسها فى حجرة متوسطة الاتساع.. هادئة.. رطبة بها

مكتبان، يجلس إلى أحدهما ضابط من ضباط البوليس، ويجلس إلى

الثانية رجل فى ثياب مدنية..

ووقفت حائرة فى وسط الغرفة، إلى أن سمعت صوت الرجل

الذى يرتدى ثيابا مدنية يقول لها فى صوت مهذب:

- اتفضلى يا هانم.. أى خدمة؟!!

وأتجهت إليه كالتمليذة المذنبة وقالت فى صوت كالبكاء:

- هو فين عبدالحميد.. انا عابزة عبدالحميد!
ونظر الرجل فى ورقة أمامه:
- قصدك عبدالحميد أفندى زاهر؟
قالت فى فرح:
- أيوه.. هوه !
قال:
- بس هو دخل عند سعادة الرئيس دلوقت!
قالت وقد عادت تتوسل:
- أعمل معروف خلىنى أدخل له.. ضرورى أشوفه دلوقت..
دلوقت حالا!
قال وهو ينظر إليها نظرات فاحصة:
- حضرتك تبقى..
وقاطعته فى عجلة كأنها تقطع الزمن:
- أنا بنت عمه.. وخطيبته!
وعاد الرجل ينظر إليها نظرات فاحصة.. إلى حالها المرتبك، وإلى
النظرات المضطربة فى عينيها.. ثم جذب طربوشه من فوق المكتب
ووضعه فوق رأسه، وأماله فى عناية، وقال وهو يقوم من على
مقعده متكاسلا:
- طيب اتفضللى استريحى شوية..
وجلست سامية على حافة المقعد الذى أشار لها عليه، وهى تتبع
الرجل بعينين مبتهلتين كأنها تنتظر بهما إلى السماء..
ودفع الرجل بابا جانيبا، واختفى وراءه..
وعاد بعد قليل.. وقال وهو لا يزال واقفا بجانب الباب الذى
خرج منه:
- اتفضللى يا أفندم..
وأبقى الباب مفتوحا لتمر منه..

● ● ●

كان عبدالحميد فى ثورة غضبه قد أحس أنه فقد كل شىء فقد

كل آماله التى علقها على وجود ابراهيم فى البيت.. فقد المكافأة السخية التى كان يمنى نفسه بقبضها، وفقد سامية.. لن يتزوجها.. وفقد احساسه بأنه سيد الموقف.. لحس انه اهين فى ذكائه عندما خدعوه واقتنعهوا أن ابراهيم سيبقى فى البيت على الأقل أسبوعين.. وأعمته كل هذه الاحاسيس عن التفكير السليم.. أعمته عن ذكائه.. وبدأ يتصرف كالمجنون متصوراً انه لا يزال يستطيع أن يستخلص شيئاً من آماله، ولو على حساب خراب العاطفة كلها.. وهرع إلى الشارع واتصل بالتليفون باللواء محمد بك همام رئيس القلم السياسى، وأبلغه أن لديه معلومات أكيدة تؤدي إلى القبض على ابراهيم حمدي، فطلب إليه همام بك أن يأتى لمقابلته حالا..

وأستقل عبدالحميد سيارة الأجرة، وظل طول الطريق وهو لا يفكر فيما سيقوله لهمام بك.. بل كان يفكر فى خطته التى فشلت.. وكان الغضب واليأس يشعلان فى رأسه نارا يرى من خلالها وجوه عائلته التى خدعته.. عمه.. وزوجة عمه، ومحبي، ونوال.. حتى سامية اشتركت فى خداعه.. ثم يرى صورة ابراهيم بابتسامته الهادئة التى تميل إلى جانب شفتيه، فتزداد النار اشتعالا فى رأسه، ويمتلئ صدره بالحقد الأسود، ثم يقطر الحقد فى اعصابه فيرفع قبضته يدق بها على ركبته وهو جالس فى السيارة، كأنه يدق رأس ابراهيم ليخمد ابتسامته التى تغيظه!

وعندما دخل قناء المحافظة بدأ يكبت ثورة غضبه، وبدأ يشعر بالحيرة والارتباك.. وبدأ يسأل نفسه: لماذا جاء.. ؟ ولكنه أستمر فى طريقه، مدفوعاً بغيظه وثورته.. ودخل إلى حجرة السكرتارية. وعندما طلب إليه السكرتير أن يجلس ريثما يسمح رئيس القلم السياسى بمقابلته، بدأ يعد فى رأسه ما سيقوله.. وفجأة اكتشف أنه لن يستطيع أن يقول شيئاً.. أنه لا يدرى أين اختفى ابراهيم، فلن يستطيع أن يرشد البوليس عنه..

ربما كان محبى أو عمه يعلم أين ذهب إبراهيم.. ولكن هل يستطيع حقا أن يبلغ البوليس عن عمه أو عن ابن عمه؟! وتحرك فى صدره شئ كالسكين يشق لحمه.. إنه لا يستطيع.. أنه يعلم أنه لا يستطيع.. أن هذا الشئ الذى يتحرك فى صدره طالما منعه من الأقدام على تصرفات كثيرة.. لولا هذا الشئ لكان اليوم من أغنى الأغنياء أو لكان فى السجن.. وهو يكره هذا الشئ.. يكره ضميره.. لكنه لا يستطيع أن يقاومه.. أنه تجاهله أحيانا، ولكن هذا الشئ الملعون يتحرك فى اللحظة الأخيرة.. دائما فى اللحظة الأخيرة، وعندما يتحرك لا يستطيع أن يقاومه..

ربما يستطيع أن يبلغ البوليس عن الصديقين اللذين طلب إليه إبراهيم أن يتحرى عنهما، وأن يبحث عما إذا كانت الحكومة قد اعتقلتاهما أم لا.. وعن طريق هذين الصديقين يستطيع البوليس أن يجد إبراهيم.. ولكن..

سيسأله البوليس، من أين عرف هذين الأسمين.. فإذا قال أنه عرفهما من إبراهيم شخصيا، سيعود البوليس ويسأله، أين التقى بإبراهيم.. ولن يستطيع أن يقول أنه التقى بإبراهيم فى بيت عمه.. وإلا خرب بيت عمه.. وضميره - الشئ الذى يتحرك فى صدره كالسكين - يأبى عليه أن يخرب بيت عمه.. وندم لأنه جاء إلى المحافظة..

وفكر فى أن يهرب.. أن يعدل عن مقابلة همام بك!! ولكنه لا يستطيع أن يهرب، وإلا وضع نفسه موضع الاشتباه من البوليس..

وقرر أن يلقى أى كلام يقوله، ولا يهم بعد ذلك أن يثبت كذبه. ودعاه السكرتير إلى الدخول..

ودخل إلى حجرة متسعة خافتة الضوء فى نهايتها مكتب ضخم يجلس وراءه همام بك.. رقيقا، مهذبا، لم تستطع الرقة المفتعلة ولا التهذيب المفتعل أن يخفيا الخبث الذى يطل من عينيه الضيقتين..

وقام همام بك ولف من وراء مكتبه وجاء إليه ماذا يده فى
| ترحيب كبير، كأنها اصدقاء قدماء..
وصافحه عبد الحميد بيد مرتعشة، والهيبة والحيرة تكادان
تقتلعان قلبه..

وأجلسه همام بك على أريكة من الجلد وجلس بجانبه، بلا تكلف،
وبدا يحادثه فى بساطة.. ولم يكن يحدثه عن ابراهيم حمدي.. بل
كان يحدثه فى مواضيع عامة كأنهما جالسان فى قهوة يتبسطان
ويلعبان عشرة طاولة.. كان يريد أن يكسب ثقته، وأن يحرره من
الرهبة.. وفعلا بدأ عبد الحميد يهدأ، وبدأ يلم أطراف تفكيره الممزق.
وبعد دقائق قليلة، وقبل أن يصل الحديث إلى ابراهيم حمدي،
دخل السكرتير، وهمس فى أذن همام بك ببضع كلمات، فابتسم
همام بك وقال بصوت مسموع:

- خليها تتفضل!

وبخلت سامية..

ووقفت جامدة فى وسط الحجرة، وعيناها متحجرتان فوق
عبد الحميد..

ونظر عبد الحميد إليها فزعا، كأنه رأى السكين الذى يتحرك فى
صدره، منتصبا أمامه.. رأى ضميره!!

وقال وهو مبهور:

- ايه اللى جابك..

وقالت سامية فى صوت ضعيف وهى تحاول أن تتمالك نفسها:

- جيت وراك.. حد يسبب خطيبتك بالشكل ده..

وضغطت على كلمة «خطيبتك» كأنها ترشوه بها..

ونقل همام بك عينيه الخبيثتين بينهما ثم قال لسامية، وهو
يقوم واقفا فى أدب مقتعل:

- أتفضلى يا هانم..

وجلست سامية على الأريكة بجانب عبد الحميد، بينما جلس
همام بك على مقعد عريض، وهو يقول:

.. ما شاء الله.. ومخطوبين بقالكم زمان ١٩
والتفتت سامية إلى عبدالحميد، وقالت دون أن تدير رأسها إلى
همام بك:

.. بقالنا أسبوع واحد بس!
وظلت معلقة عينيها بعبد الحميد كأنها تحاول أن تذكره
بنفسها.. بحبه لها.. بأمله فى الزواج بها.. بكل ذلك، أن يصون
سرهما، وسر عائلتهما..

ورفع عبدالحميد عينيه إليها، ثم خفضهما سريعا.. وقد احتقن
وجهه وأخذ يضغط إحدى يديه باليد الأخرى فى عصبية كأنه
يحبس الدم فى يده، حتى لا ينسكب من أطراف أصابعه.. كان
ثائرا.. وكانت ثورته منصبة على سامية.. كيف تتبعه.. وكيف تدخل
المحافظة وحدها. كيف سمحت لنفسها بأن تخرج إلى الشارع بهذا
الشكل.. كيف وانتها الجراة.. إنها مجنونة.. قليلة الحياء!!
وأحس أنه أهين فى عرضه.. وفى شرفه.. لأن بنت عمه..
حبيبتة.. دخلت المحافظة وحدها..

ولكن ثورته ما لبثت أن انقلبت على نفسه.. إنه هو السبب.. هو
الذى دفعها إلى هذا السلوك.. هو الذى مرمرطها فى الشوارع، وفى
المحافظة.. ترى ماذا فعل بها رجال البوليس قبل أن يسمحوا لها
بالدخول..

وأشتدت ثورته، وكلما تمادى فى محاولة كبثها، ازداد وجهه
احتقاناً، وازدادت عصبيتته، ورعشة يديه..
وهمام بك لا يزال ينقل عينيه الخبيثتين بين الفتى والفتاة،
يحاول أن يستشف سرهما، ثم قال وهو لا يزال محتفظاً بلهجته
المهذبة:

.. إحنا كنا بنقول آيه؟
وأنطلق صوت عبدالحميد مرتفعاً كأنه لم يعد يستطيع أن يكتم
ثورته، ولم يعد يحتمل هذا الأسلوب المهذب الذى يحادثه به همام
بك، وقال فى لهجة تكاد تكون حادة دون أن ينظر إلى سامية التى

لا تزال تعلق عينيها فوق وجهه:
- أنا يا افندم كنت جأى ابلغك معلومات عن ابراهيم حمدى اللى
قتل عبدالرحيم باشا شكرى..
وقاطعته شهقة حادة صدرت من سامية، اعقبتها بتمتمة خافتة:
- عبدالحميد..
وانتبه همام بك إلى صوت الشهقة فى يقظة.. وأكمل عبدالحميد
كلامه بسرعه، كأنه يريد أن يسكت سامية حتى لا تتدخل فى
الموضوع:
- أنا شففته النهاردة ماشى فى الشارع.. شارع.. شارع
العباسية!
وسكت كأنه انتهى مما يريد قوله، وأطمأن إلى أن سامية قد
عرفت أنه لن يفشى السر..
وتنهدت سامية فى ارتياح.. تنهيدة عميقة كأنها أطلقت ابخرة
كثيفة كانت تملأ صدرها.. ابخرة الخوف والجزع!
ولاحظ همام بك، علامات الارتياح التى بدت على وجه سامية،
وقال وبين شفتيه ابتسامة خبيثة يحاول أن يخفيها:
- وبعدين؟
ورفع عبدالحميد حاجبيه فوق عينيه فى دهشة، كأنه فوجئ
بهذا السؤال وقال، وهو لم ينته بعد من رسم الاكذوبة فى خياله:
- وبعدين.. وبعدين مشيت وراه..
وسكت كأنه يلتقط أنفاسه، وتعجله همام بك قائلاً:
- كويس خالص.. وبعدين؟
وقال عبدالحميد، وقلبه يرتعش:
- وبعدين شففته ركب عربية.. رحت ضارب لساعدتك تليفون
على طول!
وقال همام بك:
- وشفت نمرة العربية؟
وقال عبدالحميد:

- لا والله، أصلى كنت ماشى وراه من بعيد.. ما قدرتش اشوف
نمرة العربية.. حتى كانت النمرة متأكلة وأرقامها ممسوحة.. وأول
ما حط رجله فيها جريت على طول..
قال همام بك وهو لا يصدقه:
- ما شفتش ولا رقم من النمرة؟
وقال عبدالحميد وهو يبتلع ريقه:
- أيوة شفت رقم تمانية.. ورقم واحد!
وابتسم همام بك كأنه يحاول أن يقنعه بأنه صدقه رغم كذبه
وسأله:

- والعربية كان لونها ايه؟
وقال عبدالحميد فى عجلة:
- سودة!!
وقال همام بك:
والهانم خطيبتك كانت معاك؟
قال عبدالحميد فى حدة، كأنه مصر على أبعاد سامية من
الموضوع:

- لا.. لا.. ما كنتش معايا!
وأدارت سامية رأسها ناحية همام بك وهزت رأسها علامة
الموافقة، وفى عينيها نظرة ساذجة.. وابتسم لها همام بك وعاد
يسأل عبدالحميد:

- وحضرتك ساكن فى العباسية؟
قال عبدالحميد:
- لا فى شبرا!
قال همام بك وهو يحاول أن يدفعه إلى التمداد فى الكذب:
- لازم خطيبتك هى اللى ساكنه فى العباسية؟
وقال عبدالحميد:

- لا.. أنا كنت فى العباسية، لأنى كنت رايع لواحد صاحبى
أعمل له تأمين!

وقال همام بك وهو لا يزال محتفظا بهدوئه وابتسامته المهدبة:
- واسمه ايه صاحبك؟
وتردد عبدالحميد ريثما يبحث فى رأسه عن اسم أحد أصدقائه
ثم قال:
- اسمه محمد نوقل!
ثم استطرد كأنه خشى أن يبحث البوليس عن صديقه فى حى
العباسية فلا يجده:
- الحقيقة هو ساكن فى مصر الجديدة.. لكن أنا نزلت فى
العباسية علشان آخذ الترمائ الأبيض من هناك!
وسكت عبدالحميد..
وقام همام بك ودق جرسا صغيرا موضوعا فوق مكتبه، ثم قال
وهو لا يزال واقفا:
- الواقع دى معلومات قيمة جدا يمكن تساعدنا فعلا..
وقبل أن يرد عبدالحميد، نخل السكرتير.. ولاقاه همام بك فى
وسط الغرفة ثم انتحى به جانبا، وهمس فى أذنه بيبضع كلمات..
خرج بعدها السكرتير توا.. وعاد همام بك وجلس على مقعده..
وقال له عبدالحميد..
- انا فى الخدمة دايما يا افندم..
وقال همام وابتسامته بين شفقيه:
- على كل حال احنا متشكرين قوى.. لو عرفت أى حاجة ثانية
لازم تيجى تقول لى .. والا يمكن تفكر حاجة نسيت تقولها على
طول تيجى .. احنا بنعتمد كتير على امثالك من اللى قلبهم على
البلد..
وأحس عبدالحميد احساسا خفيا بأن همام بك يعتمد اهانتة،
وقام واقفا ووقفت معه سامية ، وقال:
- تسمح لى يا افندم ..
- متشكر .. مع السلامة .. بس سيب عنوانك عند السكرتير ،
يمكن نحتاج لك علشان نكتب الكلمتين اللى قلتهم فى محضر ..

ولا مش ضرورى .. أنا الكلام اللى باسمعه بينكتب فى رأسى ..
رأسى فيها بيحى مليون محضر ..
وأشار هممام بك إلى رأسه متباهيا، ثم مد يده وصافح
عبد الحميد وسامية، وتبعهما حتى باب غرفته..
وحياهما السكرتير فى الغرفة المجاورة باحترام كبير.. وخرجا
إلى النور.. والتفتت إليه سامية بعينين فرحتين، كأنه كان غائبا عنها
وعاد إليها.. عاد سالما.. بطلا .. ولكنها اصطدمت بعينه غاضبتين ،
وقال فى صوت غاضب مبجوح وهو يمسك بيديها ويضغط عليهما
بقوة :

- إزاي تسمى لنفسك تيجى وراى بالشكل ده .. أنتى
اتجنتتى، ما حدش رباك .. ده شكل تخرجى بيه فى الشارع .. من
أمتى بنات العيلة بتدخل المحافظة؟
قالت وهى تبتسم كأنها تتباهى بغضبه :
- أصلى خفت لا تكون زعلان..
قال فى حدة :

- لا يا شخة .. باه كنت خايفة لاكون زعلان .. لا والله ..
ما كانش لازم أزعل .. انتى جاية علشان كنت خايفة على بيتكم ،
وعلى سى ابراهيم بتاعكم.. مش خايفة لاكون زعلان !!
- لا .. والله العظيم ابدا .. انا كنت خايفة عليك !
قال فى حدة :
- من ايه باه ياستى؟
قالت فى خفر :

- خايفة ما ترجع ليش تانى .. الكلام اللى قلت مش صحيح
يا عبد الحميد.. إذا كانت الدنيا كلها تضحك عليك .. انا مش ممكن
أضحك عليك ..

قال وهو يسحبها من يدها ناحية ميدان باب الخلق :
- طيب تعالى .. انا خلاص مش ناوى أتجوز .. ومش ناوى
انخل لكم بيت!

ونظرت إليه سامية وهى تمد فى خطاها حتى لا يسبقها :
- ما تقولش كده يا عبدالحميد ..
وقاطعها الاسطى أبو سريع سائق السيارة الأجرة التى جاءت
فيها قائلا وهو يشير إليها بيده :
- أنا هنا يا ست ..
وتوقفت وقالت لعبدالحميد :
- ده التاكسى اللى جيت فيه.. أصل نسيت اجيب فلوس من
البيت علشان ادفع له !!
وتردد عبدالحميد قليلا كأنه يعد فى عقله ما يحمله من نقود ..
ثم اتجه نحو السيارة ، وهو يقول لسامية :
- اتفضلى !
وقالت :
- ما نرجع فى الأتوبيس ولا الترمائى .
وقال وهو يدفعها أمامه :
- أركبى بس ..
وركبت سامية ، وركب عبدالحميد بجانبها .. وعادت تنظر إليه
بعينين فرحتين كأنها ذاهبة معه إلى بيتهما ، عقب حفلة الزفاف ..
وعبدالحميد غاضب .. يزفر أنفاسه فى قسوة .. كان يستعيد كل
كلمه قالها لهما بك ويحاول أن يعثر على الثغرات التى قد يفتضح
منها كذبه .. وكان يشعر بغلظته .. ويشعر أنه كان غيبا ..
ويستسخر نفسه .. وشعوره بالسخافة يمزق قلبه ..
وقالت سامية ، وهى تمد يدها فى حياء وتضعها فوق يده :
- ما تزعلش نفسك يا عبدالحميد.. خلاص كل حاجة حاتمشى
كويس باذن الله.
وجذب يده من تحت يدها ، وهو يقول :
- سيبينى وحياة أبوكى .. أنا مش فاضيلك دلوقت .. ولا فاضى
للكلام ده !
وسكتت سامية فى استسلام ، وهى لا تزال تنظر إليه بعينيهما

الفرحتين ، وقد لمع فيهما الحب .. إنها لم تعد تجاهد لتخفى حبها .
وهى تعتقد أنه لم يكذب على البوليس إلا من أجلها .. لأنه يحبها ..
ووصلت بهما السيارة إلى البيت .. ونزلا منها .. وقرر
عبد الحميد العداد ، ثم نظر إلى سامية كأنه يحملها مسؤولية هذه
المصيبة الجديدة .. ثم وضع يده فى جيبه ، ودفع ..
وابتعد السائق بسيارته وهو يقول :

- متشكرين ..

وقالت سامية وهى تنظر إلى عبد الحميد كأنها تهبه نفسها :

- مش حتطلع معايا ؟

قال فى اختصار :

- لا ..

قالت :

- انا مش حاقول لحد احنا كنا فين !

قال وهو لا ينظر إليها :

- أحسن ..

قالت كأنها تتوسل :

- وحاتيلى أمتى ؟

قال :

- ما أعرفش !

قالت :

- لازم تيجى .. علشان ما حدش ياخذ باله ؟

قال :

- أما أشوف .. سعيدة!

وأدار لها ظهره وسار متجها إلى شارع الجيزة ..

ولم يشعر أن هناك رجلا يتبعه ..

لم يشعر بأنه أصبح مراقبا من البوليس!!

يوم الاثنين

ونوال حائرة أمام مرآتها ، لا تكاد تنقضى من زينتها حتى تبدأ من جديد .. تضع ضميرتها فوق صدرها ثم تعود وتلقيها خلف ظهرها ، ثم تلفها فوق مؤخرة رأسها ، ثم تسدلها من جديد .. وتمسك بالقلم الأسود تزجج به حاجبها ، ثم تعود وتبلل أصبعها بريقها وتمسح ما خطته فوق حاجبها .. وتدس يديها في قفازها الأبيض ، ثم تسحب إحدى يديها من القفاز ، وتمسك بحقيبتها .. وتبتعد قليلا عن المرأة لترى نفسها على بعد ، ثم تقترب من المرأة مرة ثانية ، وتبدأ زينتها من جديد .. زينة بسيطة بريئة ليس فيها ألوان .. إلا ألوان عينيها السود وبشرتها التي تختلط سمرتها بحمرة دماها النشطة الشابة . وظلت في حيرتها حتى سمعت دقات الساعة في الراديو تعلن العاشرة والنصف فارتبكت وظننت أنها تأخرت .. تأخرت كثيرا عن موعد إبراهيم .. وألقت نظرة سريعة إلى المرأة ، ولوت شفيتها كأنها غير راضية عن جمالها .. وخطفت حقيبتها وأسهرت بالخروج ، وهي تصيح :

- أنا نازلة يا ماما ..

وقالت أمها من الغرفة المجاورة ، دون أن ترفع رأسها :
 - ما تتأخرين .. الساعة اتناشر تكونى هنا .. وسلمى على تفيده هانم ، وقولى لها ماتنساش الأمانة !
 ولم تنتظر نوال لتسمع بقية كلام أمها .. وأغلقت الباب وراءها وقفزت الدرجات قفزاً لتجد نفسها في الشارع .

وركبت الأوتوبيس ..

ولم تعد تفكر فى نفسها ولا فى زينتها .. أصبح كل ما تفكر فيه هو إبراهيم .. هل ستراه مرتديا بدلة ضابط .. أم سيأتى إليها بالقميص والبنطلون كما رآته أول مرة ؟! هل سيأتى فى سيارة ، أم سائرا على قدميه ؟! هل سيأتى مبتسما كما كانت تراه أحيانا ، أم جادا مفكرا كما كانت تراه غالبا ؟!

وكانت تفرح وتحزن تبعا للحال الذى تتصور إبراهيم فيه .. وعندما تفرح ترتسم ابتسامة فوق شفتيها دون أن تدري بها ، وعندما تحزن يتقطب جبينها دون أن تدري .. كانت ملامحها تنفرد وتتقلص تبعا لإحساسها ، كأنها تحدث إنسانا آخر فى داخلها .. وكان إحساسها يستبد بها حتى يكاد يصبح همسا .. وهمسها يحد حتى يكاد يصبح كلاما واضحا تنطق به ملامحها .

ونزلت من الأوتوبيس ..

واشتد وجيب قلبها ..

إنها تقترب ..

تقترب من إبراهيم ..

وسارت نحو ميدان عبد المنعم فى خطوات مرتبكة ، ورأسها منكس ، ووجنتاها مصهورتان بالخفر .. وجفناها يضطربان فوق عينيها .. وهى لا تنظر إلى أحد ، ولا إلى شئ كأن الناس والجدران وأسفلت الشارع ، كأن كل شئ يعلم إنها ذاهبة لملاقاة إبراهيم .. لملاقاة رجل !

ووقفت فى الميدان تحت ظل شجرة .. ورأسها لا يزال منكسا ، وعيناها تنظران من تحت جفنيها إلى بوز حذائها ، كأنها عروس فى انتظار أملها ليرفع عن وجهها النقاب .. نقاب الحياء والخفر . واشتد وجيب قلبها عندما سمعت صوت سيارة تقترب منها .. ولم ترفع رأسها .. إنما انتابتها رعشة سرت فى أعصابها كلها .. وحاولت أن تشد قوامها ، وأن تعتدل فى وقفاتها ، ثم تعمدت أن تدبر رأسها الناحية الأخرى حتى لا يرى إبراهيم لهفتها ، وقفزت ابتسامة صغيرة فوق شفتيها كأنها تنفس بها عن حياتها واضطرابها .

وأصبح صوت السيارة فوق أذنها تماما .. وانتظرت أن تسمع صوت وقوفها .. ثم صوت بابها يفتح .. ثم صوت إبراهيم يقول لها « صباح الخير » .. ولكن السيارة لم تقف .
مرت بها دون أن تخفف سرعتها ..
ورفعت رأسها فى دهشة وتبعَت السيارة بعينين ملهوفتين كأنها تتبع أملا ضاع منها .. ثم عادت ونكست رأسها فى حسرة .
وعادت تنتظر ..
وبدأت تنقل قدميها فى وقفها ، كأنها فرس مشدودة إلى عربة أتعبها طول الوقوف والانتظار .
ثم تسالت بعينيها إلى الساعة الفضية الصغيرة المربوطة إلى معصمها .. نظرت إليها خفية كأنها تخشى أن يضبطها أحد وهى تنظر إلى الساعة ..
إن الساعة الحادية عشرة ، وعشر دقائق ..
ما الذى أخره ؟!
وبدأت تتلفت حولها فى حذر .. إنها ترى هناك رجلا مرتديا جلبابا .. وفى الناحية الأخرى أما تسحب طفلها .. ولكنها لا ترى إبراهيم ..
وتنهدت ..
وسارت بضع خطوات ، ووقفت تحت ظل الشجرة التالية ، وأخذت تتفقت من جديد ..
ما الذى أخره ؟!
ربما اتبع طريقا طويلا حتى يضل البوليس !
وارتجفت عندما تذكرت البوليس .. كان قد غاب عنها منذ أن استيقظت فى الصباح .. إن إبراهيم إنسان هارب ، وأن البوليس يبحث عنه .. نسيت هذه الحقيقة فى لهفتها إلى لقاءه ..
هل يكون البوليس قد قبض عليه ؟!
لا .. مستحيل .. لا يستطيع أحد أن يقبض على إبراهيم !

وسمعت صوت سيارة أخرى تقترب منها .. وفى هذه المرة استدارت بجسدها كله ناحية السيارة ، ونظرت إلى داخلها بكل عينيها .. ثم ردت عيني خائبتين .. لم تر إبراهيم داخل السيارة .. ونظرت إلى ساعتها مرة أخرى .. إنها الحادية عشرة والثلاث ..

وبدأت تحس بالضيق .. وتحركت من وقفتها ، وبدأت تسير حول الميدان الواسع فى خطوات بطيئة ضيقة ، كأنها تزفر خطواتها من صدرها .. وتتلفت فى كل شارع جانبي تمر به من الشوارع التى تصب فى الميدان كأنها تنتظر أن تجد إبراهيم مختبئاً فيه أو أتيا منه .. ثم تعود وتتلفت خلفها بين كل خطوة وأخرى كأنها تخشى أن يفاجئها إبراهيم من الخلف .

وأتمت دورة الميدان ، وعادت إلى حيث كانت واقفة تحت ظل الشجرة .. عادت متعبة يائسة وقد تهدل كل شيء فيها .. تهدل ذراعها إلى جانبها فلم تعد تمسك حقيبتها برشاقة كما كانت تتعمد عندما جاءت ، إنما أصبحت تمسكها فى إهمال كأنها تكاد تقع منها.. وتهدلت نظراتها فلم يعد فيها هذا النشاط والبريق .. وتهدلت شفاتها فلم تعد بينهما هذه الابتسامة الضيقة الخجول ، إنما أصبحت تبدو كأنها « مبوزة » .. وتهدل قوامها فلم تعد تشده وتسيطر على حركاته ، إنما انحنى ظهرها وانتهت ركبتهما كأنها تكاد تنهار على الأرض .

ونظرت إلى ساعتها مرة أخرى ..

إنها الثانية عشرة إلا ربعا ..

إنه لن يأتى ..

وأحست بصوت يرتفع من صدرها يؤكد لها إنه لن يأتى .. ويردد فى إلحاح « لن يأتى .. لن يأتى .. لن يأتى » كأن هذا الصوت يتعمد أغاظتها .. وتحطيم آمالها ، وإظلام حياتها .. ثم أحست برغبة فى البكاء .. كل شيء فيها أصبح يتجمع للبكاء .. أعصابها بدأت تعصر نفسها لنزف الدموع .. وعيناها بدأتا تلتهبان ..

ورفعت رأسها كأنها تقاوم دموعها .
وتلفتت حولها كأنها تستغيث من اليأس ..
وفى تلفتها التقت بوجه أسمر ينظر إليها نظرات ساخرة وبين
شفتيه ابتسامة جارحة ..
إنه رجل يقف مستندا على جدار سيارة .. لعله سائق .. لعله
يراقبها هكذا منذ فترة طويلة .. ولعله استنتج إنها جاءت لملاقة
رجل .. وأن الرجل تخلص منها ولم يأت ..
وانقلب ياسها إلى غضب .. ثم إلى ثورة ..
أحست أن كرامتها أهينت .. إنها أصبحت سخرية بين الناس فى
الشارع .

كيف يدفعها إبراهيم إلى هذا الموقف ؟
كيف يرضى أن يتركها للناس يسخرون منها هكذا !!
وتحركت .. وقد قررت أن تعود إلى بيتها ..
وسارت فى خطى سريعة نحو محطة الأوتوبيس .. ولكنها
ما لبثت أن خفت سرعتها ، والتفتت إلى الوراء كأنها ترشف
بعينها آخر قطرة من الأمل .. ولم تر إلا الوجه الأسمر ينظر إليها
النظرة الساخرة ، وبين شفتيه الابتسامة الجارحة .. فعدلت رأسها ،
وعادت تخطو خطوات سريعة نحو محطة الأوتوبيس .
وركبت الأوتوبيس وثورتها تكاد تقتلع قلبها ، وقد جمعت كل
إرادتها فوق عينيها حتى تحبس بها دموعها ..
إنه لن تعود مرة ثانية ..

لن تعرض نفسها لمثل ما تعرضت له اليوم .
ستقاوم نفسها ، وتقاوم حبها ، وتقاوم إبراهيم ..
وكانت لا تكاد تتصور أنها وصلت إلى قمة المقاومة ، حتى يبدو
لها وجه إبراهيم جادا ، مضطربا ، وهو يهرب بعينه منها حتى
لا تكشف اضطرابه ومشاعره .. فتحس بالحنين إليه .. حنين فيه
أشفاق بقدر ما فيه إعجاب .. كأنه حنين أم لابنها الذى ذهب إلى
ميدان القتال .. وتبدأ فى تلمس الأعداء له .. ربما حال تهربه من
البوليس دون حضوره .. ولكنه لاشك حاول أن يحضر للاقائها ..
ربما .. ربما ..

وأطلت من عينيها نظرة فزعة ، وهى تتصور أنه ربما استمر فى الهرب حتى ترك مصر كلها .. ابتعد عنها .. لن تراه أبدا .. ولكن .. لا .. إنه لن يتركها .. لن يخرج من مصر .. إن مكانه بجانبها ..

وتنساق فى خيالها .. وترتفع إصابعها لتحضن العلبة الذهبية الصغيرة المعلقة فوق قلبها والتى تضم المصحف والكلمة التى كتبها إبراهيم بخط يده .. ثم لا تلبث أن تفيق من استسلامها وتتذكر الوجه الأسمر الذى ينظر إليها ساخرا ، فتعود وتقرر المقاومة .. مقاومة نفسها وحبيها ..

وظلت فى هذه الحيرة بين المقاومة ، والاستسلام .. حتى وصلت البيت .. ومر بقية اليوم ، ويوم الثلاثاء .. وحيرتها تشتد .. حتى انقلبت عذابا .. عذابا يبيكها وهى تحاول أن تقاوم عواطفها ، ويبكيها وهى تستسلم لهذه العواطف .

وهى فى حيرتها مبتعدة عن كل من فى البيت .. لا تطيق أن تحدث أختها سامية .. ولا تطيق أن تناقش أمها .. ولا تطيق أن تجلس فى غرفة القعاد خلال الاجتماع العائلى الذى يعقب طعام الافطار .. ولا تطيق أن ترى أخاها محبى .. إنه يزيد من عذابها وحيرتها كلما رآته .. يزيد من عذابها لأنها تخفى عنه ما بينها وبين إبراهيم فلا تستطيع أن تسأله عنه ، ولأنه لا يعلم بعذابها فيحاول أن يخفف منه .. ولا تطيق أن ترى عبد الحميد الذى لا يزال يتردد على البيت كل يوم ، واعمتها حيرتها عن الحال الجديد الذى يبدو فيه عبد الحميد .. لم تلحظ أنه يبدو صامتا أكثر مما تعود ، ولم تلحظ أنه لم يفتح أباه فى موضوع الزواج ، وإنه لا يتحدث عن إبراهيم إلا فى إشارات غريبة ، ولم تلحظ الهمسات الكثيرة التى تدور بينه وبين أختها سامية كأنهما يخفیان شيئا .. لم تلحظ كل شىء ..

وهى أيضا لا تطيق أن تجلس مع الضيوف الذين بدأوا يترددون على البيت بكثرة كأن أباه يعتمد أن يدعو كل العائلة

والأصدقاء ليشهدوا أن ليس فى بيته رجل غريب .. ولا تطيق أن ترى سنيه الخادمة وقد عادت إلى خدمة البيت ، فلا تكاد تراها حتى تصرخ فى وجهها كأنها تصب عذابها عليها .
كل ما كانت تفيق له وهى فى حيرتها هو أن تطلع على جريدة الأهرام ، وتسمع نشرة الأخبار فى الاذاعة ، علها تقرأ أو تسمع خبرا عن إبراهيم .

ووجدت نفسها صباح الأربعاء ، تفتح دولابها وتلبس ثوب الخروج ، وتقف أمام المرأة لتتزين ..
لم تفكر كثيرا .. إنما وجدت نفسها منساقة ، كأن هاتفها يدعورها إليه .. إلى إبراهيم !
ولم تتزين كثيرا كما تزينت أول مرة .. لم تحتر فى زينتها .. إنما وقفت أمام مرآتها كأنها تنظر فيها إلى إنسانة أخرى لا تعرفها ولا تقر تصرفاتها .

وقالت لأمها ، بعد أن بلغت الساعة العاشرة والنصف :
- أنا رايحة لوفاء يا ماما !

وقالت الأم فى حزم

- لا .. كفاية خروج !

وتنبهت نوال إلى أنها ستخوض معركة .. كأن اعتراض أمها على خروجها كان احتمالا بعيدا لم تفكر فيه ، وقالت فى تردد ، وهى تمنح أمها أجمل ابتساماتها :

- ده أنا لبست خلاص يا ماما ؟

قالت الأم دون أن تحدد :

- قلنا مافيش خروج !

وقالت نوال وهى تقترب من أمها كأنها تحاول أن تلمس قلبها :

- والنبى يا ماما .. الله يخليكى .. أنا مش حاتأخر .. ربع ساعة

بس .. أصلى عايضة اتعلم منها قصة فستان جديد !

ونظرت إليها أمها مليا ، ثم قالت كأنها تقاوم حنانها :

- يا بنتى هو كل يوم خروج .. حتى أبوكى يزعل ؟

وقالت نوال :

- ما أنا قاعدة فى البيت ماخرجتش بقالى يومين .. ويعنى أنا رايحه فين ؟

وقالت الام وهى تدير رأسها حتى لا يبدو ضعفها :
- تعرفى تتأخرى عن نص ساعة .. بقطع رقبتك ؟
وقالت نوال فرحة لانتصارها :
- حاضر :

وخرجت نحو الباب ..

وما كادت تصل إلى الشارع حتى زابلتها فرحتها .. وسارت مستسلمة كأنها منقادة إلى مأساة .

وعندما نزلت من الأوتوبيس ، لم تتعمد أن تخفى عينيها عن الناس .. بل كانت فى قررة نفسها تسخر من الناس الذين يعتقدون أنها فى طريقها لملاقاة رجل .. لا .. لن تلاقيه .. إنه لن يأتى .. استريحوا أيها الناس .. فلن تلتقى بإبراهيم ..

ووقفت تحت ظل الشجرة نفسها فى ميدان عبد المنعم .. وهى تحس بياس كبير .. كأنها تؤدى مهمة وثقة من فشلها .. ونظرت سريعا إلى ساعتها .. كأنها تريد أن تهرب من الفشل وكانت الساعة الحادية عشرة ودقيقتين ..

وقررت بينها وبين نفسها أن تنتظر حتى الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق .

ثم مدت الأجل - بينها وبين نفسها أيضا - حتى الحادية عشرة وعشر دقائق .

ولكنها ماكادت تنزل ذراعها الذى يحمل الساعة ، حتى بوغت بسيارة تقف أمامها فجأة بعد أن زحفت عجلائها على الأرض وأطلقت صوتا حادا ، كأن الأرض نفسها هى التى توقفت عن الدوران .

ونظرت داخل السيارة بعينين مبهورتين ..

لم يكن إبراهيم ..

ولكنه كان صديقه فتحى المليجى ..

وكان يبتسم يحييها ، وقالت فى عجلة قبل أن تلتقط ابتسامته :

- فين إبراهيم ؟
ثم كأنها ندمت على تعجلها فاستطردت فى صوت خفيض
خجل :

- ازيك يا أستاذ فتحى ؟
وقال فتحى وابتسامته لا تزال بين شفقيه :
- الله يسلمك .. إبراهيم ماقدرش ييجى .. الظروف الـ ..
وقاطعته فى لهفة :

- إزيه ؟
قال وقد اتسعت ابتسامته :
- كويس الحمد لله .. ببسلم عليكى وبيقول ..
وقاطعته مرة ثانية :

- هوه فين .. قاعد فين ؟
قال وهو ينظر إليها فى حنان كأنه يشفق عليها من سذاجتها :
- فى أمان .. وبيقول لك إنه حايعاول ييجى الدور الجاى .
والدور الجاى ماتستنيش هنا .. عارفه ميدان « فنى » اللى جنبنا ،
تستنى هناك عند الناصية اللى فيها مستشفى عانوس ..
وقالت فى استسلام عجيب :

- حاضر ..
واستطرد فتحى :

- وقولى لعبد الحميد ياخذ باله ، أحسن البوليس مراقبه .
وقولى له ما يتكلمش كتير فى القهوة !
وقالت نوال فى دهشة :

- عبد الحميد !! ماله عبد الحميد !!
وقال فتحى ويداه فوق عجلة القيادة :
- ما اعرفش .. جات لنا معلومات أن البوليس بيراقبه .. حاطط
له واحد ماشى وراه !
وفغرت نوال فاهها ، كأنها لا تستطيع أن تبتلع دهشتها ،
وقبل أن تهتم بالكلام ، وقال فتحى :

- أنا آسف .. لازم أمشى دلوقت .. اطمنى !!

ثم انطلق بسيارته قبل أن تفيق من دهشتها ، وقبل أن تحييه ..
وظلت واقفة مكانها جامدة واجمة ، كأنها تمثال جميل من
الحجر الأسمر ..

ثم بدأ وجومها يذوب .. وأحست بفرحة خفيفة تنساب إلى
قلبها.. إن إبراهيم بخير .. وهو يذكرها .. وهو حريص على لقائها..
وأحست كأن كل حيرتها وعذابها قد تبخر .. وأن النور قد
أشرق من جديد .. وأن حياتها قد عادت نضرة نشطة مثيرة ..
ومدت أصابعها واحتضنت بها العلبة الذهبية ، كأنها تصافح
إبراهيم تهنئه بسلامة العودة .. العودة إليها !
وتذكرت ما قاله فتحي عن عبد الحميد ..

لماذا يراقب البوليس عبد الحميد ؟
لماذا عبد الحميد .. لماذا لا يكون أخوها محيي ؟
وعادت إلى بيتها فى حركات نشطة مسرعة لتؤدى المهمة التى
كلفها بها إبراهيم .. لتقول لعبد الحميد أن يحترس من البوليس
الذى يراقبه ..
كيف تقول له ؟!

ويمانا تجيب إذا سألتها ، كيف عرفت أن البوليس يراقبه ؟!
إنها قطعاً لن تقول له إنها تذهب كل يوم اثنين وأربعاء لتلقى
إبراهيم .. ولن تقول له إن إبراهيم أرسل لها فتحي المليجي ليطلب
منها أن تحذر ابن عمها من البوليس ...
ودخلت بيتها وذاؤها كله محصور بالبحث عن الوسيلة التى
تنبئ بها عبد الحميد ، حتى بدت كالتائهة .. تتحرك كالتائهة ..
وتتأمل كالتائهة .. وتتكلم كالتائهة ..
وجاء عبد الحميد فى الساعة الثالثة بعد الظهر .. كعادته أن
يأتى عندما يكون الأب نائماً ..

وما كادت تراه يدخل البيت ، حتى أسرع إلى الشرفة ، وأطلت
منها تبحث عن رجل البوليس الذى قال لها فتحي إنه يتبعه .
وأدارت عينيها فى الرجال القلائل الذين تراه فى الطريق .. عم
عثمان بواب البيت المقابل .. والأسطى حنفى الكواء .. ومحمود بائع

السجائر والحلوى .. و .. هناك رجل يقف بعيدا عن البيت مستندا إلى عامود النور مرتديا ثيابا مدنية ، ويقرأ في جريدة .. رجل غريب لم تره من قبل فى هذا الشارع .. غريب فى مظهره ، وغريب فى وقفته ، وغريب فى نظراته التى يطلقها بين الحين والحين ناحية البيت ..

وغادرت الشرفة ، ومرت بعبد الحميد وهو جالس مع سامية فى حجرة القعاد دون أن تقول له شيئا .. وانتظرت إلى أن خرج عبد الحميد ، وأسرعت مرة ثانية إلى الشرفة وأطلت منها .. وراقبت عبد الحميد وهو يبتعد عن البيت .. وراقبت الرجل الآخر .. لقد طوى الجريدة بيديه ، ثم سار خلف عبد الحميد محتفظا بمسافة كبيرة تبعد عنه .. وانحرف عبد الحميد إلى اليمين عندما وصل إلى آخر الشارع ، فانحرف الرجل الآخر خلفه . وتركت نوال الشرفة ، وقلبها يضطرب خوفا ، كأنها رأت عبد الحميد يذبحه البوليس .. ولم تتكلم ..

وعانت كثيرا حتى تمنع نفسها من الكلام .. كانت تريد أن تقول لسامية كل شيء .. أن تطلعها على سرها الخطير .. ولكنها خافت أن تفشى سامية سرها لعبد الحميد .. إن سامية كتومة ، ولكنها تحب عبد الحميد ، ولم تعد تخفى حبها فى الأيام الأخيرة ، وقد تفزع للنبأ فينهار لسانها أمام حبها .. ولذلك فضلت نوال أن تحمل سرها وحدها ، وتعانى ضغطه على صدرها ، وعلى أعصابها ..

وجاء عبد الحميد فى اليوم التالى .. وأطلت نوال من الشرفة فرأت نفس الرجل .. يقف نفس الوقفة ، مستندا إلى عامود النور ، مرتديا نفس البدلة ، والجريدة فى يده ..

وتركت الشرفة ، ووقفت أمام عبد الحميد ، قائلة وهى تتروى فى كلماتها حتى لا يسقط منها سرها :

– اسمع يا عبد الحميد .. أنا ملاحظة حاجة غريبة قوى !
ورفع عبد الحميد رأسه المهمو ، الذى لم يبد همه إلا فى الأيام الأخيرة ، وقال بصوت خافت ، لم يخفت إلا أخيرا :

- خير انشا الله ..
 وقالت نوال :
 - أنا ملاحظة إنك كل ماتيجي هنا ، فيه راجل بيجي وراك
 ويفضل مستنى فى الشارع لغاية ما تخرج بيتدى يمشى وراك ..
 أنت تعرفه الراجل ده ؟
 واتسعت عينا عبد الحميد ، وقال فى دهشة يختلط بها الفزع :
 - راجل .. راجل إيه ؟
 وقالت نوال وهى لا تزال تختار ألفاظها :
 - أنا عارفه .. متها لى أنه زى ما يكون عسكرى داورية بس
 لابس بدلة أفندى !
 وقالت سامية فجأة كأنها تنفى تهمة تحرص على نفيها :
 - عسكرى .. واحنا مالنا ومال العساكر .. احنا ما نعرفش
 عساكر !
 وقال عبد الحميد وهو يكاد يرتجف :
 - فين هو ده .. هو واقف دلوقت تحت ؟
 قالت نوال :
 - أيوه .. تعال حتى شوفه !
 وقام عبد الحميد ، ووقف فى الشرفة مبتعدا عن حاجزها ،
 وأشار نوال إلى الرجل الغريب الواقف مستندا إلى عامود النور ..
 ودخل عبد الحميد بسرعة إلى الحجرة وهو يقول لنوال :
 - وبقي لك أدايه وانتى بتشوفى الرجل ده ؟
 قالت وهى تنظر إليه فى إشفاق :
 - من مدة أربع أيام !!
 وسكت عبد الحميد ، وأخذ يروح ويجيء فى الغرفة وهو يفرك
 إحدى يديه بالأخرى فى عنف ، وسامية تنظر إليه مبتهلة كأنها
 تستجديه كلمة يطمئنها بها ..
 وقالت نوال وهى لا تزال تنظر إليه فى إشفاق :
 - تفتكر إنه بوليس ؟
 وقال عبد الحميد فى حدة :

- ماعرفش ..
ثم خرج من الحجرة مسرعا وسامية خلفه تصيح :
- عبد الحميد .. رايع فين ؟!
ورد عليها عبد الحميد وهو متجه نحو باب الشقة :
- رايع أشوف الرجل ده ماشى ورايا ليه !
وخرج وصفق الباب وراءه ..
وشهقت سامية كأن قلبها قد اختنق بين ضلعتي الباب !



نظر عبد الحميد إلى الرجل الذى أشارت عليه نوال ، ثم سار
متجها إلى شارع الجيزة .. وتلفت خلفه فإذا بالرجل يتبعه عن بعد..
ووقف عند محطة الترام ، فإذا بالرجل يلحق به ويقف على
الجانب الآخر من المحطة ؟
وركب الترام نمرة « ١٥ » ، ونظر خلفه فإذا بالرجل يركب
خلفه فى نفس العربة ..
ونزل من الترام فى ميدان العتبة الخضراء ، ورأى الرجل ينزل
خلفه ويتبعه .
وركب الترام نمرة « ٨ » المتجه إلى شبرا ، وركب معه الرجل ..
ونزل عند شارع شيكولانى ، فنزل الرجل خلفه ..
وسار إلى بيته والرجل يتبعه ..
ودخل بيته ، وأطل من النافذة ، من خلال ألواح « الشيشى »
فإذا بالرجل واقف قبالة البيت مستندا إلى جدار ، وقد فرد جريدته
أمام وجهه ..
وترك النافذة ، وانهار على مقعد ، وأسقط رأسه بين يديه ..
وأحس بمرارة حادة تقطر من قلبه ، ويكاد يذوق طعمها بلسانه ..
إنه يحس بهذه المرارة منذ ذهب إلى المحافظة وقابل الاميرالاي
همام بك .. مرارة الفشل .. مرارة الإهانة المضاعفة التى لحقت
بذكائه ، عندما خدعه إبراهيم وترك البيت دون أن يعلم ، ثم عندما
تسرع وقابل همام بك واكتشف أنه لا يستطيع أن يقول له شيئا ،
واضطر أن يكذب عليه ..

وكان يحاول أن يتغلب على هذه المرارة .. أن يبتلعها ويهضمها
كما استطاع أن يهضم كثيرا من الأخطاء التي ارتكبها فى حياته ..
كان يحاول أن يقنع نفسه أنه ليس إنسانا فاشلا ، ولكنه إنسان
ذو ضمير .. وأن ضميره هو الذى غلبه !

وكان فى حاجة إلى سامية أكثر من حاجته إليها فى أى وقت
مضى .. إنها تمثل اقتناعه بأنه لم يفشل .. وهى الوحيدة التى تمدّه
بالثقة فى نفسه ، وتشعره بغروره .. وهى لم تعد تتدلل عليه ، ولا
تصدّه ، ولا تتهمه بسوء الخلق ، بل منذ لحقت به فى « المحافظة »
وهى تنظر إليه كإنسان كبير ، وتعتقد أنه كذب على همام بك من
أجلها .. من أجل حبها .. أنقذ البيت كله إكراما لخاطرها .. ومنذ
ذلك اليوم وهى تتودد إليه ، وتعطيه من اهتمامها وحنانها أكثر مما
أعطته طول حياتها .. وتدفعه إلى الإصرار على الزواج بها .. تدفعه
بكلمات ملفوفة فى طيات حياتها .. ولكنه رغم ذلك لم يعد يستطيع
أن يحتفظ بإصراره ، ولم يعد يشعر بالقوة والذكاء اللذين يصير
بهما على مطالبه .. كان يشعر بالضعف ، ومن خلال ضعفه بدأ
يعترف لنفسه بنقائصه .. بدأ يحس بالندم على حياته كلها .. الندم
على عربيته .. والندم لأنه لم يتم تعليمه وينل شهادته .. ومن
خلال ضعفه أيضا أصبح حبه لسامية أكثر رقة ، وبدأ يشفق عليها
من نفسه ، ومن مصيرها معه .. لم يعد فى حبه هذا التحدى ،
وهذا العنف ، وهذا الذكاء .. وكلما اشتد إحساسه بضعفه ، اشتد
إحساسه بحاجته إلى سامية .. فيذهب إليها مستسلما ، مستكينا ،
صابرا .. لا يحاول أن يقحم نفسه على قلبها ، ولا يحاول أن
يفاتح عمه فى موضوع الزواج .. عمه الذى تجاهل هذا الزواج
منذ خرج إبراهيم من البيت ، وكأنه لم يعط به وعدا ..

وكان يعتقد أن فشله سينتهى عند هذا الحد .. لن يكون له
عواقب أخرى .. فقط سينتظر فترة ما ، إلى أن تمتص الأيام
ما يحس به من مرارة ، وإلى أن يتقرر مصيره مع سامية .
ولم يكن يعتقد أن البوايس سيتعقبه ، ويراقبه .. لم يكن يعتقد
أن همام قد اكتشف كذبه ، فقد كان يبدو أمامه مصدقا ، مهذبا ،

كانهما أصدقاء .. هذا الثعلب .. هذا المجرم .. هذا السفاح ..
وشعر أن له عدوا ..
عدو قاس ظالم ..
همام ..
البوليس ..
كل رجال البوليس ..

ورفع رأسه من بين يديه ، وقام واقفا وأخذ يطوف فى أنحاء
الشقة الصغيرة البسيطة الكالحة الأثاث التى يقطنها وحده .. وهو
يفكر .. كيف يهرب من همام .. كيف يهرب من البوليس .. إنه هو
الآن الذى يهرب من البوليس لا إبراهيم .. وخبط مقعدا صادقه فى
طريقه ببوز حذائه .. ثم أسند رأسه على الحائط وأخذ يخبط عليه
بقبضتيه ، كأنه إنسان وجد نفسه فى السجن ، وجدران السجن
تنطبق على جسده حتى تكاد تحطم ضلوعه ..

ودخل الخادم الذى عاش معه فى عريدته منذ استقل بالسكن
بعيدا عن أهله .. خادم من أولاد البلد ، كل شىء فيه نشط وتحس
أنه يستطيع أن يفعل كل شىء .. يكنس ، ويطبخ ، ويغسل ، ويرتق
الجوارب ، ويعد جلسات الحشيش ، ويتفاهم مع الصنف الرخيص
من النساء ، وفيه نعومة وتثن ، كأنه نصف رجل .. وفيه صفاقة
كأن ليس فى الحياة كلها ما يستوجب الحياء .. وفيه ذكاء مريب ..
وفيه أيضا إخلاص عاطفى ، وشهامة لا تركز على أخلاق .. نوع
من الخدم تجده دائما فى بيوت الطلبة وصغار الموظفين العزاب ..
ونظر الخادم فى جزع إلى سيده . وهو يضرب الحائط بيده ،
وقال فى لهفة نسائية وبلهجة المتميمة :

- خير يا سى عبد الحميد .. كفى الله الشر .. حصل إيه
يا سيدى !

ورفع عبد الحميد رأسه وصرخ فيه :

- ابعد عنى .. غور من وشى ..

وقال الخادم فى توسل :

- إيه بس يا سيدى .. إيه اللى جرى !

وصرخ عبد الحميد مرة ثانية وهو يتقدم نحوه كأنه يدفعه من أمامه :

- يا أقولك غور من وشى .. غور ..
وطأطأ الخادم رأسه دون أن يتحرك من مكانه ، ثم رفعها وقال:

- مش حاتفطر يا سى عبد الحميد .. المدفع قرب يضرب .. احنا ماطبخناش النهارده .. حضرتك نزلت من غير ماتدينى فلوس !
ورفع عبد الحميد كفه وهو بها على صدغ الخادم .. وفى نفسه إحساس يدفعه بأن يضرب أى شىء .. الحائط ، الخادم ، نفسه ..
أى شىء .. وصرخ :

- مش حاتسم النهارده .. مافيش سم النهارده .. فاهم .. انزاح من قدامى .. انزاح باقول لك ، قبل ماشرحك !
وتلقى الخادم الصفعة ، وانسحب من الغرفة ، ذليلا كالكلب
وقرر عبد الحميد ألا يخرج من البيت ..
و ظل حائرا ..

ودوى مدفع الإفطار .. وصرخ فى خادمه يأمره بإحضار قطعة من الجبن ورغيف عيش ..

وألقى بالطعام فى جوفه دون أن يحس بطعمه ..
ثم لم يستطع أن يبقى فى بيته .. وقرر أن يخرج .. بأى ثمن ومهما حدث .. إنه سيختنق .. إن لم يتحد البوليس .. وهمام بك !
وبخل الحمام .. وفتح الدش فوق رأسه كأنه يستغيث بالماء من النار التى تندلع فى صدره .. وارتدى ثيابه ، ثم نزل .. وسار فى الشارع متجها إلى شارع شبرا .. ونظر خلفه ليجد نفس الرجل يتبعه ..

وسار فى شارع شبرا طويلا فوق الرصيف .. ثم نزل فوق الرصيف فجأة ، وجرى خلف عربة ترام وتعلق فيها ..
ونظر خلفه ..

كان رجل البوليس ، واقفا فوق الرصيف ينظر إليه ، ويبتسم ..
وأحس أنه ضلل البوليس ، هرب من همام بك ..

ولكن لماذا كان رجل البوليس يبتسم ؟
وهز كتفيه بلا مبالاة .. واكتفى بأن اتهم رجل البوليس
بالبلادة!
واتجه إلى المقعد الذي تعود أن يجلس فيه .. ولم يعد ينظر
وراءه خلال سيره .
وصافح أحد زملائه في المقهى ، وجلس معه ، وطلب صندوق
الطاولة .
وأخذ يلعب الطاولة ، وفكره كله مشغول بالبوليس ..
ورفع رأسه فجأة ..
وشهق ..
إن رجل البوليس واقف هناك .. قريبا جدا من المقهى .. وهو
ينظر إليه ، وبين شفطيه لبسامة البلاء ..
إذن ، لقد عرف البوليس كل الأماكن التي يتردد عليها ..
أصبح محاصرا ..
وابتلع شهقته ، واعتذر لصديقه عن الاستمرار في اللعب .. ثم
قام منكس الرأس واتجه إلى بيته ..
ولم ينظر وراءه ..
فقد كان ظل رجل البوليس يسبقه .. يرى خيالا أسود ينطلق
من أفكاره المشوشة ، ويفرش أمامه الطريق .

ولم ينم عبدالحميد..
أخذ يتقلب فوق أفكاره السود .. والظلام يملأه..
ظلام فى قلبه، وظلام فى رأسه، وظلام فى عروقه..
وينتابه الفزع من هذا الظلام، وتجحظ عيناه كأنه
المخنوق، ثم يغمض عينيه ليهرب من الظلام، فيجد الظلام تحت
جفنيه!

وكانت كل فكرة تخطر له، تغزوه فى جنبه كالشوكة، ويكاد
يصرخ منها.. يصرخ غيظا، وحقدا وخوفا..
فكر أن يذهب مرة ثانية إلى همام بك، ويروى له القصة كاملة،
ويطلب منه أن يعفيه من هذه المراقبة وهذا الحصار المفروضين
عليه..

ولكنه لا يستطيع.. لم يعد ضميره وحده الذى يمنعه من أن
يبلغ البوليس عن ابراهيم وعن عمه وعن أولاد عمه.. أنه الحقد
أيضا.. الحقد على همام.. إنه يشعر بكراهية عجيبة له.. كأنه اختزن
طاقتة الثورية كلها طول عمره ليصحبها اليوم حقدا على همام، وعلى
البوليس..

لقد أصبح همام يمثل أمامه شاهد فشله، وغيبائه.. وفكر أن يقتل
هذا الشاهد.. أن يقتل همام.. حتى لا يعود أحد يشهد على أنه
إنسان فاشل، جشع، ضعيف..

ولكنه اضعف من أن يقتل همام..
وفكر أن يهرب من القاهرة كلها.. أن يختفى فى مكان ما بعيدا
عن عين همام.. ولكن لماذا يهرب؟ ولماذا يراقبه البوليس؟

أن ما يغيظه ويخنقه أنه لا يجد شيئاً يقنع به نفسه أنه يستحق مراقبة البوليس.. لا يستطيع أن يقنع نفسه بأنه بطل وطنى يطارده البوليس.. إنه ليس بطلاً.. وليس وطنياً.. بالعكس.. لقد كان أقرب إلى البوليس، منه إلى الأبطال الوطنيين! وأحس بالندم لأنه لا يستطيع أن يحس باحساس البطل.. لا يستطيع أن يجد شيئاً يؤمن به ويتحمل فى سبيله مراقبة البوليس!

وقام فى الصباح مقرح الجفنين، مشتت الذهن، خائر الأعصاب.. وأطل من النافذة بعينين مضطربتين، يبحث عن الرجل الذى يراقبه، فلم يجده.. لم يجد الرجل الذى كان يراه بالأمس.. ماذا حدث؟! أين ذهب؟! هل أعفاه من اهتمامه؟ هل تأكد أنه برئ وأنه لا يستحق المراقبة؟

ولم يفرح.. ولم يطمئن.. أن قلبه لا يزال منقبضاً، ولا يزال الظلام يملأه.

وأغتمس ولبس ثيابه، وهو ساهم، حتى نسى أن يحيى خادمه بالسباب كما تعود أن يحييه كل صباح..

وخرج من البيت فى طريقه إلى الشركة التى يعمل بها.. وبحركة تلقائية التفت خلفه، فلم ير انساناً معيناً يتبعه.. وسار بضع خطوات والتفت خلفه مرة ثانية، فخليل إليه أن هناك من يتبعه.. انسان آخر غير الذى كان يتبعه بالأمس.. والتفت مرة ثالثة.. إنه انسان يرتدى جلباباً وفوقه معطف، وعلى رأسه طربوش طويل كطرايش رجال البوليس.. ووقف على محطة الترام، فوقف الرجل على الناحية الأخرى من رصيف المحطة..

وتأكد أن هذا الرجل يتبعه.. إن همام بك استبدل عينه بعين أخرى..

وبدأت نوبة من الاضطراب الشديد تسرى فى اعصابه.. أخذ دمه يرتعش داخل عروقه.. ثم يبرد.. كأنه تجمد.. وكأنه يرى الموت..

وركب الترام ثم قفز منه اثناء سيره..

وقفز الرجل الآخر خلفه..

ولم يكن لعبد الحميد خبرة الشبان الثائرين الذين يوضعون تحت مراقبة البوليس.. لم يكن يعلم أن دليل الاتهام لدى البوليس هو محاولة الهرب من رقابته، وأن المتهم الذى يتظاهر بعدم شعوره بمراقبة البوليس، تعلن براءته.. لا لشئ إلا لأنه لا يشعر بأنه متهم وبالتالي لا يشعر بأنه مراقب.. فهو برئ!

لم يكن عبد الحميد يعلم ذلك، فأخذ يتهرب من الرجل الذى يتبعه.. يقفز من ترام إلى ترام.. ويركب سيارة أجرة، ثم يتركها.. وينزل مبنى الشركة ثم يخرج منها.. ويتجه إلى الجيزة ثم يعود يتجه إلى مصر الجديدة.. فإذا غاب الرجل الآخر عن عينه، خيل إليه أن هناك غيره.. إن أى رجل فى الطريق يتبعه.. كل الرجال يتبعونه.. كلهم من رجال البوليس سلطهم عليه همام بك.. وأصبح كالمجنون..

يجرى فى الطريق.. ولا يستريح إلا حيث لا يكون.. وكل شئ فيه يلهث فى فزع، كان النار وراءه وأمامه ومن حوله..

وجاء المساء وهو منهك.. أغبر الوجه.. وخصلات من شعره تتطاير فوق رأسه كأنها أكثر فزعا منه.. وثيابه تهدلت فوق جسده.. طار رباط عنقه فى ناحية، واتسخت ياقة قميصه ببقع من عرقه، وانكشفت سترته.. وأحس بالتعب.. تعب شديد.. أحس أن قواه كلها قد تخلت عنه.. لم يعد يستطيع أن يجر ساقيه.. ولم يعد يستطيع أن يقف.. ولم يعد يستطيع أن يفتح عينيه.. أنفاسه بدأت تتهدج فى صدره، لأنه أيضا لا يستطيع أن يتنفس.. ولم يكن قد ذهب إلى بيته طول يومه، خاف أن يذهب إليه فيجد همام بك فى انتظاره.. ولم يكن قد أكل شيئا إلا «سندوتش» بالفول التهمة وهو واقف، وعينه تدوران حوله تبحثان عن رجال البوليس الذين يتبعونه..

وأراد أن يذهب إلى سامية.. ليستريح! أحس انه فى حاجة لأن يضع رأسه فوق كتفها، ويبكى..

إنها الوحيدة التي تفهمه.. وتحبه.. كل الدنيا تكرهه وتسئ
فهمه، ما عدا سامية.. وهو يجد في فهمها وحبها، راحته وثقته
بنفسه ورجولته.. إنها الناحية الوحيدة من حياته التي ظلت نظيفة
طاهرة هادئة، لم يلوثها بذكائه!
وقرر أن يذهب إلى بيت عمه..

وركب الترام حتى وصل إلى ميدان الجلاء، ثم نزل منه وسار
على قدميه.. وهو دائما يشعر بأن هناك من يتبعه.. ودائما يتلفت
خلفه.. والنظرة المذعورة المضطربة لا تفارق عينيه.. وسار في
شارع الجيزة طويلا، ثم جرى خلف سيارة اتوبيس وتعلق بها..
ووصل إلى بيت عمه.. ونظر خلفه، وأعتقد أن لا أحد يتبعه..
ودخل البيت..

وهمست سامية في أذنه وهي تنظر في اشفاق إلى حالة المضطرب:
- مالك؟

قال وهو يحاول أن يبتسم:
- ما فيش..

قالت وهي لا تصدقه:
- حصل حاجة؟!

قال وهو يرفع إليها عينيه كأنه يستغيث بها:
- لا .. ما فيش حاجة!

عرفت حكاية الراحل اللي بيمشى وراك؟

قال وهو يدير عينيه عنها حتى لا يفضحه اضطرابه:

- يعنى حا يعمل ايه اللي يمشى ورايا.. يتفضلوا يمشوا ورايا..
أما نشوف حيحصل ايه!!

ونظرت إليه سامية وهي لا تصدقه ثم نكست رأسها كأنها
تكبت ألما.. وعاد عبدالحميد يرفع إليها عينيه كأنه يستجديها ألا
تزيد من متاعبه.. ويستجديها أن تدعه يضع رأسه على كتفها،
ويبكي.. ثم هز رأسه في حسره، كأنه يطرد حاجته إلى البكاء..
ودخل إلى حجرة القعداء حيث تعودت أن تجتمع العائلة عقب
الإفطار..

ونظرت إليه الأم فى دهشة، وقالت:
- مالك يا عبدالحميد يا ابنى.. مالك معفر كده؟
وقال عبدالحميد، وهو ينحنى يقبل يدها، ويحاول أن يشد من صدره المظلم ابتسامة:
- اصلى ما رجتش البيت النهار ده.. قعدت طول النهار فى الشغل!!

وقالت الأم:
- وقطرت؟
قال وهو يستدير ليصافح عمه:
- أبوه .. قطرت فى الشارع!!
ومد الأب يده إليه دون أن يرفع وجهه عن الجريدة التى يقرأ فيها، فالتقطها عبدالحميد وانحنى يقبلها.. دون أن يتكلم.. وقام محبى من المقعد الاسيوطى العريض الذى يجلس عليه، وقال وهو يخرج من الغرفة:
- أزيك يا عبده؟

ثم استطرد وهو يدير ظهره إليه:
- أما اروح اذاكر لى كلمتين!!
ونظرت إليه نوال بلهفة، وهى تحاول أن تقرأ أخباره على وجهه المضطرب، ثم سكنت، كأن ما قرأته شل لسانها..
وجلس عبدالحميد فى المقعد الاسيوطى العريض الذى تركه محبى..

وأحس بالراحة..
راحة كبيرة، كأن روحه المصهورة بالنار تنفث ابخرتها، لتعود باردة هادئة..
وشعر بالاطمئنان.. والأمان.. كأن هذه العائلة البسيطة الطيبة تستطيع أن تحميه من أخطائه..
وأحس أنه يريد أن ينام.. نوما طويلا عميقا، لا يزعجه فيه شبح همام بك..

ومال بظهره إلى الراء، وأغمض عينيه برهة كأنه سينام فعلا، ثم ما لبث أن فتحها على صوت جرس الباب الخارجى.. ولم يتحرك أحد من العائلة لسماع رنين الجرس.. ظل الأب مسقطا رأسه فى صفحات جريدته.. والام تغرد بين يديها ثوبا قديما ثم تطويه وهى تفكر فى طريقة تحيل به هذا الثوب إلى شئ آخر جديد.. وسامية تنظر إلى عبدالحميد وتتهدد.. ونوال تطلق خيالها وراء إبراهيم، ثم تنتبه لتقلب فى صفحات مجلة، ثم تعود وتجري وراء خيالها.. ثم تتعب من الجرى، فتمد يدها وتلتقط بعض حبات البندق من الطبق الموضوع بجانب أكواب الشاي الفارغة، وتبدأ فى تكسيروها بأسنانها..

وسمعوا صوت اقدام سنية الخادمة، وهى تتجه نحو الباب.. ثم سمعوا صوت الباب يفتح.. وسمعوا صوتا غليظا يتحدث، وإن لم يتبينوا كلامه.. ثم عادت واجتازت غرفة القعاد فى طريقها إلى غرفة محيى، ولكن الام أوقفتها صارخة دون أن ترفع رأسها عن الثوب القديم:

- مين يا بت؟!

وأطلت سنية برأسها الصغير عليهم قائلة:

- دول جماعة بيسألوا على سيدى محيى!

وأزاح الأب الجريدة من أمام وجهه وقال فى دهشة:

- جماعة أيه؟!

وقالت سنية:

- ما أعرفش يا سيدى.. ثلاثة رجاله كبار.. شكلهم كدة

ما أعرفش إزاي!!

وقفز عبدالحميد إلى مقدمة المقعد الذى يجلس عليه وقد فتح عينيه على سعتهما ورفعت الام رأسها عن الثوب القديم، وتبادلت العائلة نظرات حائرة مضطربة ثم اتجهت الانظار كلها إلى الأب..

وصمت الأب فترة وقد قطب ما بين حاجبيه كأنه يحاول أن يخترق الجدران بعينه.. من يا ترى بالباب.. ليس من عادة اصدقاء محيى أن يزوروه فى البيت.. وسنية الخادمة تصفهم بأنهم رجال

كبار .. وليس لمحبي أصدقاء كبار!!
وتحركت سنيه الخادمة لتكمل طريقها إلى غرفة محبي، ولكن
الآب أوقفها قائلاً فى صوت عميق يجذبه من بين أفكاره المضطربة:
- اسخلى أنتى المطبخ..

ثم استطردت مخاطباً نوال:
- قومى انتى يا نوال شوفى مين.. واستفهمى كويس!
وقامت نوال.. وما كادت تجتاز باب الغرفة، حتى فوجئت برجل
طويل يرتدى جبلاً وفوقه معطف أسود، وعلى رأسه طربوش،
يقف فى عرض الباب الذى يفصل بين الصالة الخارجية، والممر
الذى يؤدى إلى باقى غرف البيت.. وينظر إلى الداخل نظرات وقحة
جريئة..

وشهقت نوال..
وأرتدت خطوة..
ثم كتمت شهقتها، وتقدمت فى خطوات مهتزة، وقلبها ينتفض
يعنف قى صدرها، وتنتفض معه رموش عينيها..
وقالت وهى تحاول أن تسيطر على انتفاضة صوتها:
- حضرتك عايز مين؟

ولم يتكلم الرجل.. ظل واقفاً ينظر إليها من عل.. ثم رفع ذراعه
وأشار لها بأصبعه إلى رجل آخر يقف فى وسط الصالة مرتدياً
بذلة مدنية أنيقة ويضع يده فى جيب سترته كأنه يقبض على شئ..
وتقدمت نحو الرجل الآخر بعينين متسائلتين، فابتسم لها
ابتسامة لزجة مفتعلة، وقال فى لهجة حاول أن يجعلها مهذبة:

- الاستاذ محبى زاهر موجود؟
وقالت نوال وهى تضغط بكل أعصابها فى رعشتها:
- نقول له مين؟
ونظر إليها الرجل ملياً، كأنه يشفق عليها، ثم قال ويده لا تزال
فى جيب سترته:
- البوليس!!

وشهقت نوال شهقة حادة لم تستطع أن تحبسها، ورشعت يدها

ووضعتها فوق شفيتها، كأنها تكتم انفاسها، ثم قالت بصوت لاهث:

- بوليس.. بوليس.. ليه؟؟

وقال الرجل وابتسامته اللزجة تسبح فوق شفيتها:

- ما فيش حاجة.. بس أديله خبر!

وجرت نوال إلى الداخل كأن النار أمسكت بثيابها، ودخلت غرفه القعاد، وهي تصيح كأنها تنعى ميتا:

- البوليس!!

وهب الأب واقفا وهو يمسك بنظارته الذهبية بكتا يديه حتى لا تسقط فوق أنفه، وقال وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه:

- بتقولى أيه.. بوليس؟!

وخبطت الأم على صدرها وهي تصيح كأنها تعدد وراء نعش:

- يا مصيبتى.. بوليس.. يامصيبتى.. يا مصيبتى.. أدى آخرتها

يا زاهر.. قلت لك من الأول يا زاهر.. و..

ونهرها الأب فى صوت خافت:

- بس يا تحية.. أمسكى نفسك أعملى معروف، أحسن نروح

كلنا فى داهية.. ما فيش حاجة حاتحصل.. احنا خايفين ليه؟؟

وشد قامته وساوى فتحة جلبابه حول عنقه، ومد يده يصلح من وضع الطاوية فوق رأسه، كأنه يحاول أن يعطى مثلا بشجاعته لباقي أفراد العائلة..

وظل عبدالحميد جالسا.. وأنكمش فى مقعده، وقال بصوت خافت كأنه يحدث نفسه:

- دول عايزينى أنا.. أنا عارف.. عايزينى أنا!!

وقالت نوال فى حسرة وقد سمعته :

- لا.. دول ببسالوا على محبى!!

وأخذت سامية تدبر عينيها بين أفراد العائلة، وتلتقط كلماتهم، ثم اسقطت رأسها فوق صدرها، وأخذت تنشج بالبكاء، وقالت فى كلام ممزقه:

- أنا قلبى كان حاسس بكده.. كنت عارفة أن كل ده حيحصل لنا!!

ونهرها الأب وهو يهمس فى صوت خافت محتد:
- بس بلاش عياط.. ما تودناش فى داهية.. أعملو نفسكم
ما تعرفوش حاجة!!
ثم وضع قدميه فى الشبشب، وقال لنوال:
- روى أندهى لأخوكى وخليه يحصلنى!!
ثم خرج من الغرفة، والتقى بالرجل الطويل الذى يقف على
عرض الباب بين الصالة والممر الدخلى.. فتوقف قليلا.. وشعر كأن
هذا الرجل قد صفعه.. كأنه أهين.. كأن شرفه وكرامته قد سلبا
منه.. كيف يسمح هذا الرجل لنفسه بأن ينظر إلى داخل البيت بهذه
الوقاحة.. بأى حق يعتدى على حرمة البيت!!
ودارى احساسه بالصفعة التى لطمت كرامته، وتقدم بضع
خطوات وهو يبحث بعينه عن الآخرين..
وأجتاز الرجل دون أن يحييه، كأنه يرد له الإهانة، ووجد نفسه
فى الصالة أمام الرجل الآخر الذى يرتدى البدلة المدنية الأنيقة،
والتفت فرأى رجلا ثالثا يقف بجوار باب الشقة يرتدى جلبابا بلديا..
وقال الرجل الأنيق، وابتسامته اللزجة لا تزال فوق شفثيه، ويده
لا تزال فى جيب سترته:
- حضرتك والد الاستاذ محبى زاهر؟
وقال الأب، وهو يحاول أن يبدو هادئا:
- أبوه.. فيه خدمة!!
وقال الرجل:
- أمال فبن محبى!!
ونطق اسم محبى بلا تكليف كأنه صديقه..
وقال الأب:
- بيذاكر.. جاى حالا!
وجاء محبى.. ممتقع الوجه، يسير فى خطوات مترددة مرتعشة،
ونظراته حائرة خلف نظارته كأنها حبيسة فى قفص من زجاج،
ووقف ملتصقا بوالده كأنه يحتذى به.. ونظر إلى الرجل دون أن
يتكلم..

وقال الرجل الأنيق، وهو يحاول أن يكون انيقا فى كلماته:
- أزيك يا محيى؟
وقال محيى وهو يبدو كالأبله:
- الله يسلمك!
وقال الرجل ملتفتا إلى الأب، فى لهجة أكثر جدية:
- تسمحوا لنا نفتح البيت؟
وتنهذ الأب كأن هما ثقيلانزاح من فوق صدره.. إنه واثق انهم
لن يجدوا أحدا فى بيته.. وقال متعجلا:
- اتفضلوا..
ثم اكتشف تعجله، فاستطرد قائلا:
- ليه؟
وقال الرجل وهو يبتسم:
- مجرد اجراء.. روتين!!
وقال الأب ، كأنه يدافع عن بيته:
- حضرتك تبقى..
وقاطعه الرجل فى زهو:
- انا اليوزباشى محمود الدباغ، من القلم السياسى..
وأرتعش محيى رعشة خفيفة ، ونكس الأب رأسه .. فقد كان
اسم محمود الدباغ ، اسما خطيرا مخيفا يقترن دائما باسم همام
بك، ويتردد دائما فى كل حركة وطنية كعدو للطلبة وعدو للناس.
وقال الأب وهو لا يزال منكس الرأس :
- تسمحوا تبتدواودة الضيوف لغاية ما أدى خبر للستات ؟
وقال الضابط فى أدب سمج :
- اتفضل يا أفندم !!
واتجه الضابط إلى غرفة الضيوف التى أشار إليها الأب، وفتح
بابها، ونظر فيها بلا مبالاة دون أن يدخلها.. بينما كان محيى قد
أسترد بعض شجاعته وأخذ ينظر إليه كأنه يرى أسطورة مجسمة.
هذا هو محمود الدباغ.. الرجل الذى يطالب زملاؤه الطلبة برأسه
فى كل مظاهرة.. إنه أقصر مما كان يعتقد.. وأعرض قليلا مما كان

يرسمه فى خياله.. وهو يبتسم، ولم يكن يعتقد أنه يبتسم وهو يتحدث فى هدوء، وقد كان يعتقد أنه لا يتكلم إلا سبابا وصفعا.
وأحس برغبة خفية فى أن يتحدى هذا الضابط.. محمود الدباغ..
أنه مطمئن إلى أن هذا الدباغ لن يجد شيئا ولا أحدا فى البيت. لن يجد إبراهيم حمدى.. ورغم ذلك فالشعور بالاطمئنان لا يكفيه.. إنما هناك شعور آخر يدفعه إلى التحدى.. كأنه يريد أن يثبت لنفسه أنه لا يخاف.. كأنه يحاول أن يمثل قصة يرويها لزملائه يوما ما.
كيف يتحداه؟

وأستغرق فى حديث بينه وبين نفسه : «لماذا لا يسأله عن أمر التفتيش.. إن البوليس لا يستطيع أن يقتحم بيتا ويفتشه إلا بأمر النيابة.. فهل استصدر محمود الدباغ أمرا من النيابة.. إن من حقه أن يطلع على هذا الأمر قبل أن يسمح له بالتفتيش.. ومن حقه أن يمنع من التفتيش إذا لم يكن معه هذا الأمر.. فليسأله عنه، وليطالبه بأن يبرزه له.. مكتوبا، مختوما بختم النيابة»..
وأحس محبى بالزهو - بينه وبين نفسه - وهو يكتشف هذا الاستشكال القانونى. وتصور نفسه استاذا كبيرا من أساتذة القانون.. يحتذى بالقانون ولا يستطيع أحد أن يخدعه فيه.
ورفع عينيه إلى اليوزباشى محمود الدباغ، فواجهته الابتسامة اللزجة، تطل من تحت نظرة ساحرة مستهترة كأنه يستهين به، ويحتقره!!

وأرتعشت عينا محبى، ورفع أصبعه يضغط به على قنطرة نظارته، ولم يتكلم.. شئ يمنعه من الكلام.. كأنه يخاف إن تكلم أن يغضب اليوزباشى الدباغ، فيصفعه، أو يطلق عليه الرصاص.. يجب أن يتكلم.. يتحرر من الخوف.. ويتكلم!!
وكان لا يزال يحاول الكلام، عندما عاد الأب، وقال لضابط البوليس :
- تفضلوا..

وتقدم الرجال الثلاثة إلى الداخل.. ومحبى خلفهم، وهو لا يزال يمنى نفسه بالكلام، ويحاول أن يتحين فرصة يتكلم فيها.

ودخل اليوزباشى الدباغ حجرة الأب وهو يسأل :
- دى أودة سعادتك؟

وأجاب الأب فى استسلام، وقد اكتسى وجهه المتنع حمرة
حقيقية، كأن دمائه ثارت لدخول رجل غريب إلى غرفته.. الغرفة
التي ينام فيها هو وزوجته:
- أيوه ..

وأجال الدباغ عينيه فى انحاء الغرفة فى استهتار ثم خرج منها
سريعا دون أن يعلق بشئ..
ومر الجميع بالمطبخ - وهو على الناحية المقابلة من باقى الغرف
- فأشار الدباغ إلى أحد الرجلين، فدخل ليفتشه وحده.. وأستمر هو
فى طريقه، ووصل إلى غرفة القعاد ووقف على بابها ينظر إلى الأم
وبنتيها وإلى عبدالحميد نظرات وقحة، وهو يقول:
- لا مؤاخذه..

وأشاحت عنه الأم برأسها. ونظرت إليه سامية نظرة واحدة ثم
خفضت عينيها، وهى تبذل جهدا كبيرا فى حبس دموعها.. وكانت
نوال واقفة مستندة إلى باب الشرفة، فأدارت رأسها ناحية السماء،
وهى تحاول أن تحتفظ بعينيها ناحية الرجال.. ووقف عبدالحميد،
ورفع يدا مترددة بتحية مرتجفة صامتة، وهو يبدو شاحبا كأن
اضطرابه قد امتص روحه..

وأتسعت الابتسامة للزجة، وقال اليوزباشى الدباغ فى سخرية:
- أزيك يا سى عبدالحميد؟!

والتفت الأب فى حدة ناحية الضابط كأنه يسأله كيف عرف
أسم عبدالحميد؟!
ولم يجبه الضابط على نظراته المتسائلة إنما ظل محتفظا
بابتسامته للزجة كأنه يتلذذ بهذه الدهشة التى أصابت الأب ثم
التفت إلى الرجل الآخر الذى يصحبه وقال له هامسا :
- شوفه !!

وخطى الرجل داخل الغرفة، ومد كلتا يديه إلى عبدالحميد،
فابتعد عنه عبدالحميد، وقال فى فزع:

ـ آيه .. عايز ايه ؟

وقال الدباغ وهو لا يزال واقفا عند الباب:

ـ سيبه يفتشك يا سى عبدالحميد.. دى حاجات بسيطة!!

وتحسس الرجل ثياب عبدالحميد من تحت إبطيه حتى ركبتيه والعائلة تنتظر إليه فى فزع مشوب بالدهشة، ولما أطمأن إلى أن عبدالحميد لا يحمل سلاحا تركه وعاد يقف خلف ضابطه، بينما سقط عبدالحميد على المقعد كأنه لم يعد يستطيع الوقوف.

وانتقل الجمع إلى غرفة البننتين، ووقف الضابط على بابها دون أن يدخلها أيضا، وسأل:

ـ ودى أودة مين؟!

وأجاب الأب مستسلما :

ـ أودة البنات!!

وتحرك الجميع، ومحى لا يزال يسير فى الخلف، يشجع نفسه على إثارة الاستشكال القانونى الذى خطر له.. ولم يعد يمنى نفسه بمنع التفتيش، بل كان كل ما يتمناه أن يتباهى أمام اليوزباشى الدباغ بمعلوماته القانونية، ويتحداه بها.. وكان فى نفس الوقت يتعجب من البساطة واللامبالاة التى يجرى بها تفتيش البيت.. لقد كان يتصور عندما يقرأ عن بيت هاجمه البوليس ليفتشه، أن كل شئ فى البيت قد قلب رأسا على عقب . لم يكن يتصور أن التفتيش هو مجرد هذه النظرات التى يطلقها الدباغ من بعيد.

ووقف اليوزباشى الدباغ، أمام غرفة محبى قائلًا:

ـ أظن دى تبقى أودة محبى؟!

وأجاب الوالد، وهو يزفر:

ـ أيوة..

وقال الدباغ:

ـ طيب نقعد هنا شوية!!

وقبل أن يدخل إلى الغرفة، لحق به معاونه الذى أمره بتفتيش المطبخ والحمام ونظر إلى قائده نظرة ذات معنى، كأنه يقول له أن التفتيش لم يسفر عن شئ.

ودخل الدباغ إلى الغرفة..

وترك الرجلين اللذين يصحبانه يعبثان فيها فى اهمال، وجلس هو إلى مكتب محيى يفتش فيه بنفسه..

ولم يكن الدباغ ينتظر أن يجد شيئاً.. ولم يكن يبحث عن شخص ابراهيم حمدى.. فقد كانت تحرياته خلال اليومين السابقين قد دلته على أن ليس فى هذا البيت رجل غريب.. إنما كان يفتش عن أى شئ يفسر الدوافع التى دفعت عبدالحميد إلى تقديم بلاغ كاذب إلى همام بك عن ابراهيم حمدى.. وهو بلاغ اثار ريبة همام.. اثارها إلى حد كبير.. إلى حد لم يقره عليه معاونه محمود الدباغ.. ورغم ذلك فقد راقب عبدالحميد، ثم بدأ يرتاب فيه حين بدأ عبدالحميد يحاول الهروب من المراقبة.. وانتهى من مراقبته بأن هاجم بيته فى شبرا - اثناء غيبته عنه - ثم جاء إلى هذا البيت.. وقرر أن يفتشه أيضاً، دون أن يكون على ثقة بأنه سيجد شيئاً.. إنما مجرد اجراء لا ضرر منه.. قد ينفع، ولا يضر..

وأخذ يفتح ادراج المكتب واحداً بعد واحد، ويفتح الكتب والكراسات بأصابع خبير فى فنون التفتيش.. قد يعثر على منشور مما يحتفظ به الطلبة فى ادراجهم.. قد يعثر على مذكرات.. قد يعثر على أى شئ يدل على وجود صلة بين محيى واحدى الجمعيات السياسية..

وتقدم منه محيى متردداً، واستجمع شجاعته، ثم انطلق مرة واحدة قائلاً:

- حضرتك معاك أمر من النيابة بالتفتيش؟

وقال الدباغ، وقد انتهى من تفتيش الادراج، وبدأ يعبث فى الأوراق الموضوعة فوق الكتب:

- ياسيدى ما تدقش!

وقال محيى وقد بدأ يتعود الكلام:

- إنما القانون بيحتم أن ..

وقاطعه الدباغ قائلاً فى سخرية :

- هوه فيه قانون؟

وقال محبى وقد تشجع:

- أبوه فيه قانون..

وقال الدباغ وهو ينظر فى الأوراق التى يعبث بها:

- عندكم بس.. فى الكلية.. فى كراسة المحاضرات.. إنما البلد ما

فيهاش قانون.. على كل حال أطمئن.. ما فيش حلجة!!

وأحس محبى أنه لا يستطيع أن يقول أكثر مما قال، فسكت وهو مغتاظ.

ومرت فترة قصيرة والدباغ يعبث فى الأوراق الموضوعة فوق المكتب..

وفجأة، التفت فى حدة إلى محبى، وهو ممسك بورقة فى يده، وقال فى صوت قوى كطلقة مدفع الإفطار:

- انت تعرف جميل عزت منين؟

وأرتبك محبى، وقد فوجئ بلهجة الضابط، والنظرة الخطيرة التى تطل من عينيه، وقال:

- جميل عزت مين.. ما اعرفوش!!

ونظر إليه الدباغ مليا.. نظرة فاحصة، قاسية، كأنه يحاول أن يشج رأسه بعينيه ليرى ما فيها، ثم أشاح عنه، وأخذ يقرأ الورقة التى فى يده الثانية.. وقرأ فى همس:

« عزيزى الملازم أول جميل عزت..

«بعدالتحية.. كان يجب أن أكتب إليك لأبرر ما فعلته و...»..

وأستدار اليوزباشى الدباغ ناحية المكتب، وفتح كراسة من كراسات محبى وأخذ يقارن بين خطه ، والخط المكتوب به فى الورقة.. ثم التفت إلى محبى وفى إحدى يديه الكراسة، وفى اليد الأخرى الورقة التى عثر عليها، وقال وهو يقرب الكراسة من وجه محبى:

- مش خطك ده؟!

وأجاب محبى وهو يرفع أصبعه ويضغط على قنطرة نظارته:

- أبوه ..

وأزاح الدباغ الكراسة من أمام وجهه وقرب إليه الورقة التى يحملها فى يده الأخرى وقال :

- وده يبقى خط مين؟!
وامتقع وجه محبى، وقال وهو يرتعد:
- ما أعرفش.. ما أعرفش.. مش خطى!!
وقال الدباغ وهو يركز عينيه فوق وجهه:
- عارف أنه مش خطك.. إنما خط مين؟!
وقال محبى وهو يبتعد عنه كأنه يهيم بالفرار؟
- ما أعرفش.. ما شفتش الخط ده قبل كده!
واقترب الأب منهما وفى عينيه دهشة مرتجفة، وقال:
- ايه الحكاية؟!
ونظر إليه الدباغ نظرة اتهام:
- لسة ما نعرفش ايه الحكاية.. إنما حانعرف!
وعاد ينظر إلى محبى، نظرة مليئة بالاحتقان، وقال وهو يهز
رأسه فى تعجب:
- عجيبة.. مين كان يصدق!!?
ثم وضع الورقة التى عثر عليها فى جيب سترته، والتفت إلى
معاونيه قائلاً فى لهجة أمر:
- فتش كويس يا أومباشى!!
وفى لحظة واحدة انفض الرجال على اثاث الغرفة، واخذوا
يقلبانه رأساً على عقب.. فتحا الدولاب.. وكل الادراج.. ورفعوا
السجادة عن الأرض.. وأزاحوا السرير من مكانه.. ونقروا بأيديهما
على الجدران لعل فيها مكاناً أجوف سرياً. ثم أخرج أحدهما مطواة
جيب وشق مرتبة السرير ومد يده وبعثر ما فيها من قطن مندوف..
ثم شق بالمطواة كسوة المقاعد ثم بدأ الرجال يدبان على الأرض
باقدامهما ليختبرا صلابتها..
وكل ذلك يجرى بسرعة عجيبة، وبقسوة، وبلا رحمة.. بلا
حساب لأى شئ!
والأب واقف مشدود وقد اذهلته المفاجأة..
ومحبى واقف يرتعش، ويتمتم. تمتامت مهمة، كأنه يرى حلماً
مخيفاً يحاول أن يفيق منه..

والدباغ يشرف على عملية التفتيش ببقطة خبيثة كأن فى وجهه
الف عين..
وجاء بقية أفراد العائلة على صوت الضجيج الذى تثيره عملية
التفتيش.. وما كادت الأم تلمح الرجل يشق مرتبة السرير بمطواه
حتى هجمت عليه بكل ثقلها وهى تصرخ:
- يا خرابى.. بيتى.. عفشى.. أبعد يا راجل يا ابن الكلب.
وترنح الرجل تحت ثقلها، ثم ازاحها عنه بذراعه فى قسوة..
وظل قابضا على كتفها بكفه، فهجم عليه الأب واختطف زوجته إلى
صدره، وهو يصيح فى صوت مرتعش..
- نزل أيدك يا قليل الأدب..
ونظر إليه الرجل فى تحد ثم عاد يشق مرتبة السرير بمطواه..
وابتعدت الأم عن صدر زوجها واخذت تلطم خديها لطمات
متتالية، وهى واقفة فى وسط الغرفة ترتعش، وتدق الأرض بقدميها
كطفلة عنيدة، وهى لا تزال تصيح:
- يا خرابى.. بيتى .. يا خراب بيتى.. يا اخوانى..
وتقدمت منها نوال واحتضنتها بين ذراعيها، وقالت وهى تحاول
أن تسحبها خارج الغرفة:
- بس يا ماما.. بس يا حبيبتى.. كله يتعوض.. ربنا معانا
واسندت سامية رأسها إلى الجدار فوق ذراعها، واجهشت
بالبكاء.. بكاء حاد، ونشيجا مذعورا..
وكفت الأم عن الصراخ، واجهشت هى الأخرى بالبكاء، وهى
تشنج نشيجا ممزقا تقطعه من لحمها..
ولم تستطع نوال أن تقاوم أكثر من ذلك، فالقت برأسها فوق
صدر أمها وشاركتها دموعها، وهى لا تزال تردد:
- بس يا ماما.. بس يا حبيبتى!
كأنها تحاول أن تهدئ نفسها لا أمها.
وعبدالحميد واقف ممتقع الوجه.. حائر.. وعيناه جاحظتان..
واليوزباشى الدباغ يشرف على التفتيش فى بقطة صامتة.. كأن
كل هذا الصراخ لا يصل إلى أذنيه.. وكل هذه الدموع لا تبلل قلبه..

كانه يستمع إلى الحان تعود سماعها وهو يؤدي مهمته.. وكأنه لا يستطيع أن يؤدي مهمته إلا وسط الحان العذاب.. لم ينهر احدا.. ولم يطالب بالهدوء.. ظلت ابتسامته اللزجة لاصقة بشفتيه.. وربما أحس بنقص كبير لو لم يفلح في إثارة هذا البكاء وكل هذا الصراخ، وكل هذا العذاب..

ومد يده إلى الدولاب المفتوح، والتقط بأصابع الخير، بنطلونا معلقا وحده على مشجب - لاحظ بسرعة أن مقاسه أطول من قامة محيي - وتقدم به إلى محيي وسأله :

- البنطلون ده بتاعك؟

ونظر محيي إلى البنطلون في ذعر وقال مترددا:

- أيوه .. لا.. أيوه .. أصل..

وقاطعه الدباغ قائلا:

أيوه ولا لا..

وقال محيي في ضعف:

- لا..

وقال الدباغ:

- أمان بتاع مين؟

- وقال محيي كأنه يصرخ:

- ما أعرفش.. ما أعرفش!

ونظر إليه الدباغ وقد اتسعت ابتسامته اللزجة:

- ده بنطلون رمادي، ما تفتكرش كده واحد صاحبك. واحد مهم

قوى.. كان لايس بنطلون رمادي!

وقال محيي في ذعر:

- لا.. ما افتكرش.. أنا ما ليش أصحاب!

وقال الدباغ وهو ينظر إليه ساخرا:

- كده.. بآة مالکش أصحاب.. والله كويس!

وطوى البنطلون في حرص واحتفظ به تحت إبطه.. نظر إلى الرجلين، وسحبهما بعينييه خارج الغرفة.. ودخل بهما إلى غرفة البنيتين، ثم أشار لهما بعينييه، فبدأت عملية تفتيش كالعلمية الأولى..

وانقلب كل شئ فى الغرفة، كأن محراثا يمر فيها ويشق كل ما عليها.. ورفع أحد الرجلين «سوتيان» من دولاب سامية وأخذ ينظر إليه فى وقاحة مستهترة، فهجم عليه عبدالحميد، كأن ريحا عاصفة هبت فى صدره ودفعه إليه، واختطف «السوتيان» من يده والقى به فى الدولاب وقال وهو يتحدى الرجل بعينه:

– خليك مؤدب!

وقال الدباغ يرد عليه:

– ماتزعلش نفسك كده يا سى عبدالحميد.. أمسك نفسك!

وركزت نوال عينيها على قميص ابراهيم الذى تحتفظ به فى دولابها.. وقلبها واجف.. وكلما اقتربت منه يد، اشتد وجيب قلبها، وأغمضت عينيها، وأخذت تهمس فى صدرها « يارب .. يا رب.. يا رب » ..

ولم تمتد يد إلى القميص.. ولم يجد الدباغ شيئا يهمه فى هذه الغرفة، فانتقل إلى غرفة أخرى.. وسرت عملية التفتيش العنيف فى البيت كله.. والدموع، وأصوات النشيج، والوجوه الممتقعة، تصاحبها..

ومال الدباغ على اذن محبى، وقد كادت عملية التفتيش تنتهى، وقال هامسا كأنه يتودد إليه:

– روح البس هدومك، علشان تيجى معانا..

ورفع محبى عينيه المذعورتين خلف نظارته، وقال فى صوت مرتجف:

– آجى معاك فين؟

وقال الدباغ من خلال ابتسامته اللزجة:

– حناخد منك كلمتين.. اطمئن.. مجرد روتين، وانت راجل قانون وفاهم!

ونكس محبى عينيه..

ولم يشعر بالخوف..

كأنه خاف ما فيه الكفاية، حتى لم يعد فيه شئ يحتمل مزيدا من الخوف..

شعر باستسلام تام، كأنه أصبح جثة هامة يحملها الدباغ فوق
ذراعيه..

ونظر إلى والده، وقبل أن يتلقى جواب نظرتة، انسحب من بين
الجميع إلى غرفته.. وأخذ يرتدى ثيابه، وهو ساهم، لا يستطيع أن
يفكر فى شىء، ولا يستطيع أن يتصور ما يمكن أن يحدث له، إنما
امتلاً رأسه بأفكار مشوشة لا يستطيع أن يفهمها، وصور مهزوزة
لا يستطيع أن يتبينها..

وأكمل ارتداء ثيابه، وهو لا يدري ماذا ارتدى..
وعاد ينضم إلى الجميع..

ونظر إليه والده فى دهشة مذعورة، وقال:
- لبست هدومك ليه؟!

ولم يجبه، إنما أشار بعينيهِ إلى الدباغ، فالتفت الأب إلى الضابط
وقال كأنه بدأ يبرز أظافره ويكشر عن أنيابه:

- انتم واخدين محبى معاكم ليه؟

وقال الدباغ فى هدوء:

- كلمتين. حانعمل محضرا!

وقال الأب وهو يهم بالتحرك إلى الداخل:

- طيب استنى لما آجى معاكم!

وقال الدباغ فى صوت حازم:

- لا.. خليك انت.. الحكاية ما تستهلش!

ورفع الأب صوته:

- ما تستهلش إزاي.. تاخذوا ابنى البوليس، وتقوللى حكاية
ما تستاهلش!

وقال الدباغ فى لهجة أكثر حزما:

- خليك.. ما تبهدلش نفسك!

وقبض أحد الرجلين على ذراع محبى، وبدأ يجره نحو الباب..

ولاحظت الأم ما يجرى حولها، فاندفعت بجسدها المكتنز تحتضن
ابنها وهى تصرخ:

١ - ابني.. حياخذوا ابني.. مش ممكن.. الحقونى.. الحقونى
يا ناس.. حياخذوا ابني مني!
وقال محبى، وهو بيتعد عن صدر امه:
- ماتخافيش يا ماما.. انا راجع تانى!
ولم يابه الدباغ بصراخ الأم ، ونظر إلى عبدالحميد قائلاً:
- اتفضل.. معانا يا سى عبدالحميد.
وقا عبدالحميد وقد انقلب كمدته إلى تحد:
- ليه.. انا مش ساكن هنا؟!
وقال الدباغ:
- ما انا عارف.. كنت عندك من قيمة شوية!
وقال عبدالحميد فى دهشة:
- عندي.. عندي فين؟!
قال الدباغ مبتسماً:
- فى شبرا.. زرتك زى الزيارة دى كدة.. بس للاسف ما كنتش
موجود.. الزيارة الجاية حابقى آخذ منك ميعاد!
ونظر إلى معاونه، فتقدم، وقبض على ذراع عبدالحميد، وأخذ
يجره نحو الباب..
ونزع عبدالحميد ذراعه من الرجل، وهو يقول فى حقد:
- سيبنى.. ما تحطش ايدك على.. انا جاي لوحدي!
وصرخت سامية:
- عبدالحميد..
ثم كتمت صرختها كأنها تخاف أن يفتضح حبها، أكثر مما
تخاف على عبدالحميد نفسه..
ونظر إليها عبدالحميد صامتاً، ثم حوّل عينيه عنها فى يأس..
وتقدم الدباغ، وخرج من باب الشفقة وهو يقول دون أن يسمعه
أحد:
- لا مؤاخذه.. السلام عليكم!
وتبعه محبى ثم أحد الرجلين، ثم عبدالحميد، ثم الرجل الآخر..

وتقدم الأب فى لهفة إلى الرجل الذى يسير خلف عبدالحميد،
وقال فى توسل وهو يكاد يبكى:
- أعمل معروف يا ابنى.. قول لى رايعين فين!
ونظر إليه الرجل فى اشفاق وأجابه هامسا كأنه يخاف أن
يسمعه ضابطه :
- المحافظة..

وخرجوا..
وأطلقت الأم صرخة حادة كأنها لفظت قلبها، ثم سقطت على
الأرض وهى تنتفض وتقلب كأن النار اشتعلت فيها.
وهرع الأب إلى غرفته ليرتدى ثيابه..
وأرتفع نشيج سامية، ثم اسقطت نفسها بجانب أمها وأخذت
تربت عليها دون أن تنطق حرفا، كأن لسانها سجن وراء قضبان
من دموعها..
وانهمرت الدموع على خدى نوال ثم مالت على أمها كأنها تطفى
نارها بدموعها وأخذت تردد:
- مت تعميلش كده يا ماما.. يا حبيبتي ياماما..
ثم سكنت فجأة.. وانبتق فى ذهنها اسم ابراهيم..
ابراهيم.. انه وحده الذى يستطيع أن ينقذ لхаها..
كيف.. إنها لا تدري.. ولكنه يستطيع.. يستطيع كل شئ.. إنه
بطل.. إنه يعرف هذه الأشياء.. إنه أقوى من البوليس.. وأقوى من
هذا الضابط المجرم..

ولكن أين ابراهيم؟!
كيف تستطيع أن تجده؟!
أين هو؟
وأرخت عينيها، كأنها لا تجد ابراهيم إلا عندما تنظر إلى قلبها.



وركب محبى وعبد الحميد فى المقاعد الخلفية من
سيارة البوليس « البوكس » وركب معهما الجنديان .
وركب اليوزياشى محمود الدباغ بجانب السائق ..
□ وكان محبى يرتعش .. كل شىء فيه يرتعش ..
قلبه ، وركبتاه وعيناه ، وشفثاه ، ولكنه لم يكن يحس برعشته ..
كأن هذه الرعشة صاحبتة طول عمره ، حتى أصبحت من طبيعته ،
وحتى أصبح لا يحس بها .
وكانت أفكاره ترتعش أيضا ، وقد ركز كل إرادته ليسيطر
عليها، محاولا أن يتبين مصيره .
إن البوليس سيسأله عن إبراهيم حمدى ..
وقد يتهمه بلخفائه فى بيته ..

وفى يد الدباغ دليل قاطع على أن إبراهيم كان فى البيت .. فى
يده ينطلون إبراهيم الذى تركه وراءه فى الدولا ب .. وفى يده هذه
الورقة المكتوبة بخط إبراهيم .. وهو يذكر أن إبراهيم طلب منه
ورقة وقلمما فى ثانى يوم وصوله إلى البيت .. وجلس يكتب ..
ولكنه لم يعرف ماذا كان يكتب .. لم يقل له إبراهيم شيئا ..
ولم يذكر له شيئا عن هذا الاسم الذى واجهه به الدباغ .. اسم
الملازم أول جميل عزت .. من يكون جميل عزت هذا .. وكيف يترك
إبراهيم وراءه ورقة مكتوبة بخط يده .. كيف اختفت هذه الورقة
عن كل من فى البيت حتى وقعت فى يد الدباغ ؟
وماذا يقول للبوليس ؟
هل يعترف ؟

إنه لا يدري أين ذهب إبراهيم .. ولن يؤدي اعترافه إلى القبض عليه !

ولكنه يستطيع أن يبلغ البوليس عن فتحى المليجى .. صديق إبراهيم الذى أعد له بدلة الضابط ، وأعد له السيارة التى هرب فيها.. وعن طريق فتحى المليجى يستطيع البوليس أن يعثر على إبراهيم ، ويقبض عليه .. ولكن لماذا يعترف ؟

لماذا يضع نفسه فى خدمة البوليس ؟ وكيف يستطيع أن يواجه زملاءه الطلبة بعد ذلك .. كيف يستطيع أن يواجه نفسه ؟!

وأحس بقشعريرة تسرى فى بدنه ، كأنه يتقزز من نفسه لمجرد فكرة طرأت على ذهنه بأن يعترف للبوليس ؟! ولكنهم سيسجنونه ..

ولن يدخل الامتحان . لأن يكون أول دفعته ، ولن يعين معيدا فى الجامعة ؟! سيضيع مستقبله .. هل ينقذ مستقبله ، لو اعترف ؟! من أدراه ؟

ربما كان اعترافه سببا أقوى فى استمرار سجنه ؟! إنه حائر .. مرتبك .. لا يستطيع أن يصمم على شيء .. وحيرته تمزق فى نفسه ، أكثر مما يمزق فيها الخوف .

ربما كان الأجدى عليه أن يترك نفسه لله ، يفعل به ما يشاء !! وأحس ببعض الراحة عندما تذكر الله والتجأ إليه ، كأنهلقى بهومه كلها على كتف قوى .. ولكن مالبثت هذه الراحة أن تبخرت، عندما أمعن فى مناقشة الله .. لماذا يتركه الله لهذا المصير .. ماذنبه إذا كان إنسانا شهما أجار إنسانا هاربا .. لقد حرص طول عمره على أن يبتعد عن السياسة حتى يتجنب مصير المشتغلين بها من زملائه الطلبة .. فلماذا يلقي الله فى وجهه بإبراهيم ، ثم يعرضه للسجن ، ويعرض مستقبله للدمار .. وهل كان الله يعفيه من هذا

المصير لو أنه رد إبراهيم خائبا ، ورفض أن يؤويه فى بيته .. هل يعاقب الله الوطنيين ؟! وهل هذا الضابط الدباغ رسول من الله لمعاقبة الوطنيين وتشريدهم ؟ إذن لماذا يترك الله رجال البوليس أحرارا يسلطون العذاب على الناس ؟! ولماذا لا ينقذه الله الآن .. حالا .. قبل أن يبدأ البوليس فى سؤاله ؟!

وخاف من أفكاره .. واشتدت قشعريرته .. وأحس بنفسه يستغفر ربه ، ويتلو فى سره آية الكرسي ، كأنه يخشى أن يتخلى عنه أمله الوحيد .. الله !

ثم اتجهت أفكاره إلى عبد الحميد ..
هل يعترف عبد الحميد ؟
ورفع عينيه الحائرتين إليه .

وأحس بالاطمئنان .. أحس أنه ليس وحده .. وأحس - لأول مرة - أنه قريب جدا من عبد الحميد ، وإنه يحبه .. لم يحس به كابن عم كما يحس به الآن ... وخيل إليه أن عبد الحميد إنسان قوى يستطيع أن يحميه .. إن عبد الحميد لن يعترف .. وهو ذكى وجريء .. ويعرف كيف يتصرف مع البوليس .
وتبدد بعض الخوف الذى يشعر به .. وقال فى صوت ضعيف متوسل :

- عبد الحميد !

وكان عبد الحميد جالسا فى السيارة ورأسه منكس ، وهو يقضم فى أصابعه بأسنانه ، كأنه يمزق نفسه .. وسمع نداء محيى، فرفع رأسه ، ونظر إليه نظرة قوية وقال فورا كأنه يعرف ما يعانيه :

- ما تخافش ..

وقال أحد الجنديين بصوت أمر :

- ممنوع يا أفندى !

ورد عبد الحميد فى تحد :

- إيه هوه اللى ممنوع ؟!

وقال الجندى باستهتار :

- الكلام ..
 وعاد عبد الحميد يتحدى :
 - لا .. مش ممنوع !!
 ونظر إليه الجندي فى تعجب ثم قال :
 - بلاش لماضه أحسن لك ..
 وقال عبد الحميد وهو يشد وسطه :
 - أتكلم بأدب ..
 وقال الجندي وهو يزفر كأنه يرفض أن يدخل معركة :
 - حاضر .. حقك على يا سيدنا الأفندى .. بس اعمل معروف
 اسكت .. الأوامر اللى عندنا إنه ممنوع الكلام ..
 وظل عبد الحميد ينظر إلى الجندي فى تحد . فأدار الجندي
 رأسه عنه كأنه يبتعد عن شر ..
 ثم عاد عبد الحميد ونكس رأسه وأخذ يقضم أظافره ..
 كأن تعبته ، وخوفه ، قد انقلب إلى نوع من التحدى الصارخ بعد
 أن وجد نفسه فى أيدى البوليس .. وكان يحس فى قرارة نفسه أنه
 هو الذى تسبب فى كل هذا ، عندما تسرع وذهب لمقابلة همام بك ..
 وكان يحاول أن يتخلص من إحساسه هذا .. أن يغطيه .. فاندفع
 فى تصميمه على تحدى البوليس .. لعل تحديه يكفر عن خطيئته .
 ورفع عبد الحميد عينيه ، ونظر من خلال الباب الخلفى للسيارة
 فوجد أنهم يسرعون فى شارع الملكة نازلى ، فى اتجاه ميدان
 المحطة .. طريق آخر غير الطريق الذى يؤدى إلى المحافظة .
 قال كأنه يسأل نفسه :
 - أينا رايعين فين ؟!
 وأجاب الجندي الآخر :
 - دلوقت تعرف !!
 وقال محبى :
 - بيقولوا حياخدونا المحافظة .
 وقال عبد الحميد وهو يحاول أن يتبين الطريق :
 - دى مش سكة المحافظة ..

وظلت السيارة مسرعة فى اتجاه ميدان محطة مصر ، ثم انحرفت إلى اليسار فى شارع ضيق قبل أن تصل إلى الميدان ، ووقفت أمام سور من الحديد لبناء معتم .. ورفع عبد الحميد عينيه ثم قال وقد امتقع وجهه :
- دول واخدينا سجن الأجانب .. ونظر محيى من خلال باب السيارة وعيناه يا رزتان تكادان تحطمان زجاج نظارته :
- السجن .. مش يسألونا الأول !
ولم يجبه عبد الحميد .. وقفز الرجلان من السيارة .. وأشارا إلى عبد الحميد ومحيى بالنزول ..

وتقدم اليوزباشى الدباغ الجميع ، واجتاز السور الحديدى ، ثم وقف أمام باب ضخم من الخشب المصفح ، ومد ذراعه وضغط على جرس كهربائى مثبت فى الحائط ، ففتحت كرة صغيرة فى الباب أطل منها وجه غليظ جامد ينتشر فوقه شارب مشعث كأنه مجموعة من الحشرات حطت فوق شفتين ملوشتين .. وما كاد الوجه الغليظ يرى اليوزباشى الدباغ ، حتى أغلق الكوة بسرعة ، وشد مزلاج الباب الحديدى ، فارتفع صوت حاد كأن الحديد يصرخ .. ثم فتح باب صغير فى الباب الكبير ، ووقف الحارس منتصباً كالتمثال رافعاً ذراعه بالتحية العسكرية .. واجتاز اليوزباشى الدباغ الباب الصغير وخلفه صيده الثمين ومعاوناه ، وقفل الباب خلفه بسرعة وارتفع صوت صراخ الحديد عندما تحرك المزلاج مرة ثانية .. والتفت محيى وعبد الحميد خلفهما بحركة تلقائية .. وفى عيونهما نظرات فزعة كأنهما يودعان الدنيا ..

واتجه الدباغ إلى غرفة على اليمين بعد الباب مباشرة .. غرفة فيها مكتب يجلس خلفه كونستابل « وبضعة مقاعد وأريكة » استامبوللى « وخزينة ملتصقة بالحائط ، ومجموعة من الكلبشات والبنادق .

ووقف الكونستابل رافعا ذراعه بالتحية العسكرية .. ورد الدباغ تحيه بطرف أصبعه . ثم أشار إلى محيي وعبد الحميد بأن يجلسا متباعدين وقال لمعاونيه بلهجة أمرية :

- خليهم بعيد عن بعض !

ثم ترك الغرفة ، واتجه إلى غرفة أخرى فى الناحية المقابلة علقت على بابها لوحة كتب عليها : « المأمور » .. ودخلها وهو يتحرك بسرعة .. غرفة أكثر هدوءا ونظاما وفخامة من الغرفة الأولى .. وكان يجلس وراء المكتب العريض الذى يتوسطها ضابط شاب ، قفز واقفا بمجرد أن رأى الدباغ .. وقال الدباغ ، وهو يتجه ليجلس مكان الضابط الذى بدأ يخرج من وراء المكتب :

- البية المأمور هنا ؟

وقال الضابط كأنه يهم بالدفاع عن المأمور :

- لا يا أفندم .. راح البيت من مدة خمس دقائق بس .. نندهله يا أفندم ؟
وقال الدباغ ساخرا وهو يضع البنطلون الذى يحمله فوق المكتب :

- لا يا سيدى .. خليه مستريح .. كفاية احنا صاحبين !

ثم جلس على المقعد خلف المكتب ، وامسك بسماعة التليفون ، وأدار رقما ، ثم قال وقد تغيرت لهجته ، وأصبحت لهجة مهذبة رقيقة :

- أيوه يا أفندم .. أظن احنا محتاجين لسعادتك هنا .. رأى سعادتك كان فى محله .. عمر نظرتك ما تخيب ..

وقال بعد أن سمع رد الطرف الآخر :

- لا .. إنما لقيت إثباتات مهمة جدا .. حنوصل بإذن الله !

وأعاد سماعة التليفون مكانها ..

ثم مال بظهره على المقعد ، وأخرج من جيبه الورقة التى عثر عليها بين أوراق محيي وأخذ يعيد قراءتها ، وهو يدلك جبهته بيده كأنه يحاول أن يفتح طاقة جديدة فى ذهنه .. ثم رفع رأسه ، وقال

للضابط الذى كان لا يزال واقفا منتصباً أمامه :
- أطلب لنا قهوة .. يظهر حانقعد الليلة للصبح !
ونادى الضابط على أحد الجنود وأمره أن يحضر قندحاً من
القهوة ..

وقبل أن تأتى القهوة ، ارتفع صوت صراخ الحديد .. وفتح باب
السجن .. ودخل إلى الغرفة همام بك .. وهو يخطو فى خطوات
سريعة نشطة .. ورفع الضابط الشاب يده بالتحية .. وقفز
اليوزباشى الدباغ واقفاً ، وانسحب من وراء المكتب ، ليترك مكانه
للقادم الجديد ..

ولم يرد همام بك التحية ، وقال على عجل :
- خير .. لقيت إيه ؟!!
وقبل أن يتكلم الدباغ ، التفت همام بك إلى الضابط الشاب
ونظر إليه نظرة ذات معنى ، فتحرك الضابط ، وهو يقول :
- عن اذنك يا أفندم !
ثم خرج من الغرفة !

وجلس همام خلف المكتب ، وبدأ الدباغ يروى له تفاصيل
مهاجمة بيت عبد الحميد وبيت محيى .. ثم عرض عليه الورقة
والبنطلون اللذين عثر عليهما .. وقال همام :
- وما تكلموش ؟

وقال الدباغ وهو يبتسم ابتسامة لزجة :
- لا .. إنما حيتكموا .. باين عليهم ناس طيبين !!
وقال همام وهو يرد ابتسامة الدباغ بابتسامة أبرد منها :
- طيب خد انت محيى .. وابعت لى عبد الحميد .. ده صاحبى !
وقهقه همام .. كأنه يتثاءب !

وخرج الدباغ إلى الغرفة المقابلة ، واستدعى عبد الحميد ومحيى
فقاما إليه وخلفهما الجنديان ، وقال لعبد الحميد :
- خش أنت هنا .. همام بك مستنيك .. عايزك فى كلمتين ، وأنتم
طبعاً أصحاب ..
ثم التفت إلى محيى قائلاً :

- تعال أنت معايا يا محبى !
وسار الدباغ متجها إلى داخل السجن ومحبى خلفه يسير
مبهور الانفاس ، قلبه يدق دقات تضج فى أذنيه ضجيجا يغطى
على صوت وقع خطاه ..
ووقفا أمام حاجز من قضبان حديدية رفيعة ، يصل من الأرض
حتى السقف المرتفع ، ويفصل بين القسم الخارجى من السجن ،
والقسم الداخلى ..
وفتح باب من بين القضبان الحديد ..
ووجد محبى نفسه يسير فى ممر يدور حول فناء صغير ،
وعلى جانب الممر أبواب كثيرة من الحديد ، كلها مغلقة ..
وفتح أول باب من هذه الأبواب ..
ودخل الدباغ ، وخلفه محبى ، والجندي الذى يصحبهما ..
ووجد محبى نفسه فى حجرة ضيقة .. ضيقة جدا .. أرضها من
الأسفلت .. وجدرانها نصفها الأسفل مطلى باللون الأسود ،
ونصفها الأعلى مطلى بالجير الأبيض .. ولها نافذة واحدة ..
مرتفعة جدا ، مثبت فيها أسياخ من الحديد .. وبها مكتب صغير،
وثلاثة مقاعد ..
وعرف محبى أنه .. فى زنزانة !
وكان القلم السياسى منذ هرب إبراهيم حمدي ، قد اتخذ من
سجن الأجانب مكانا للتحقيق فى حادث هربه .. يجمع فيه كل
الشبان المشتبه فيهم ، ويحقق معهم .. ويواجههم بعضهم ببعض ..
وكان التحقيق يجرى فى غرفة المأمور ، وعندما احتاج الأمر إلى
التحقيق مع أكثر من شاب فى وقت واحد ، خصصوا إحدى
زنزانات السجن ، كغرفة أخرى للتحقيق .
وجلس الدباغ وراء المكتب الصغير ، وأشار لمحبى ليجلس على
مقعد مواجهه ، وشد الجندي الذى يصحبهما مقعدا وجلس مستندا
على أحد جوانب المكتب .
وأخرج الدباغ بضعة أوراق بيضاء وضعها أمام الجندي ، ثم
قال لمحبى فى لهجة حاول أن تكون رقيقة :

- احنا نتكلم بصراحة بأه يا محبى .. وأنا عايزك تكون مطمئن..
ساعدنى وأنا ساعدك !
وانطلق محبى كأنه يقول كلاما أعده من قبل :
- أنا ما أتكلمش إلا قدام النيابة !
وابتسم الدباغ ابتسامته اللزجة وقال :
- النيابة ما لهاش لازمة .. اعتبر اننا حانتكم كلام خاص ..
حتى بلاش كتابة محضر ..
ثم التفت إلى الجندى قائلاً :
- بلاش تكتب يا امباشى ..
وعاد بعينه قائلاً وهو ينظر إليه نظرات نافذة :
- قوللى بأه .. انت تعرف جميل عزت مين ؟!
وقال محبى صادقاً :
- جميل عزت مين .. ما اعرفوش دى أول مرة اسمع بالاسم ده!
وركز الدباغ عينيه على وجه محبى ، وقال :
- خلىنا أصحاب آمال .. ده اسمه مكتوب فى ورقة لاقيتها على
مكتبك !
وقال محبى فى إصرار :
- ما اعرفوش ..
وقال الدباغ كأنه يصدقه :
- تحب تعرفه .. جميل عزت ياسيدى يبقى الضابط اللى هرب
منه إبراهيم حمدي !
واتسعت عينا محبى كأنه فوجئ ، ثم قال كأنه يردد كلمة
لا يحس لها معنى :
- ما اعرفوش .. ما اعرفوش ..
وقال الدباغ وهو لا يزال مركزاً عينيه عليه :
- طيب تعرف إبراهيم حمدي ؟
وصرخ محبى فوراً :
- ما اعرفوش .. عمرى ماشفته !
وقال الدباغ وقد اتسعت ابتسامته اللزجة :

- ومالك بتزعق كده ليه ؟
ثم استطرد وهو يلوح بالورقة المكتوبة بخط إبراهيم أمام عينيه:
- والورقة دى تبقى إيه ؟
وقال محبى وقد بدأت قطرات من العرق تنتفض فوق جبينه :
- ماشفتهاش .. ما اعرفش حاجة عنها !
وقال الدباغ كأنه تعود على الصبر الطويل :
- امال إزاي لاقيتها على مكتبك !
وقال محبى وهو يتنفس بصعوبة :
- ما كانتش على مكتبى .. يمكن أنت اللى حطتها بايدك !
ولأول مرة يفقد الدباغ أعصابه ، وصرخ فى وجه محبى :
- أنت حاتعمل زيهم .. ما هى أصل المودة بين الطلبة اليومين
دول ان كل حاجة نلاقيها عندهم ، نبقى احنا اللى جاييينها معانا ..
قديمة يا سى محبى .. شوف لك حكاية تانية .. ده أنا كنت فاكرك
ولد طيب .. اتاريك منهم !
ولم يرد محبى .. إنما اشتدت رعشته ..
وكتّم الدباغ ثورته ، ثم قال بصوت أكثر هدوءا :
- وطبعا البنطلون أنا اللى جاييه من بيتنا برضه .. مش كده ..
تعرف البنطلون ده يبقى بنطلون مين .. يبقى بنطلون إبراهيم
حمدى .. إبراهيم لما هرب كان لابس بنطلون رمادى ، والمقاس
مقاسه !
ولم يرد محبى .. ظل يرتعش !
واشعل الدباغ سيجارة ، وشد منها نفسا عميقا ، وقذف الدخان
فى الهواء كأنه يقذف ثورته فى وجه محبى ، ثم قال وقد سيطر
على أعصابه :
- اسمع يا محبى .. احنا مش عايزين منك حاجة .. قوللى
إبراهيم حمدى يبقى فين ، ولا راح فين .. واقسم لك بشرفى إنك
تنام فى بيتكم الليلة دى !
وقال محبى وقد احتقن لون وجهه من كثرة ما لحتبس فى
عروقه من دم :

- ما اعرفش .. ما اعرفش حاجة !
قال الدباغ وهو يتنهد كأنه بدأ يفقد صبره :
- أنت صعبان على يامحيى .. اتكلم أحسن .. أنت مالكش دعوة
بالحاجات دى .. لغاية دلوقت مالكش دوسيه عندنا .. والمعلومات
اللى عندي إنك عمرك ما اشتغلت بالسياسة .. ماتخليش شوية
العيال دول يضحكوا عليك ، ويودوك فى داهية .. ارحم أبوك
وأأمك .. واسمع كلامى !!

واهتز محيى عندما تذكر أباه وأمه ، كأن قطرات من الندى
وقعت على عود الحطب الجاف .. ووجد نفسه يتساءل : هل يريد
أبوه أن يعترف .. هل لو كان أبوه بجانبه الآن يأمره بالاعتراف ؟
وتحركت شفقتاه ، وردد وهو ساهم كأنه يتلقى أمرا من بعيد ..
أمرا من أبيه :

- ما اعرفش .. ما اعرفش .. ما عنديش حاجة أقولها !
وسمع وقع أقدام فى الممر الخارجى ، ثم برز همام بك فى باب
الزناينة ، وأشار إلى الدباغ ، فقام إليه ، وأخذ الاثنان يتهامسان
طويلا ، ثم اختلف همام بك ، وعاد الدباغ يجلس وراء المكتب
الصغير ، وقال وهو يبتسم ابتسامته التى تسيل فوق شفثيه كبقعة
الزيت :

- خلاص ياسيدى .. أهو عبد الحميد اعترف !
وقفز رأس محيى من فوق عنقه ، وقال والمفاجأة تمزق كلماته :
- اعترف .. اعترف .. قال إيه ؟
وقال الدباغ وهو يتلذذ بوقع المفاجأة على محيى :
- اعترف بكل حاجة .. وزمانه دلوقت راجع بيتهم !
والقى محيى برأسه فوق صدره ..
هل صحيح اعترف عبد الحميد ؟
أم إن هذا الرجل يخدعه ؟
وإذا كان قد اعترف ، فلماذا يصر البوليس على أن يعترف هو
الآخر .. لماذا لا يكتفى باعتراف عبد الحميد ؟
واستطرد الدباغ كأنه يشجع محيى :

- ياللا اتكلم انت راخر علشان تروح معاه . ساكت ليه ..
مستنى إيه ؟

وقال محبى فى ضعف :

- أنا ماعنديش حاجة اعترف بيها !

قالها وفى نفسه نازع يراوده على الاعتراف .. ونازع أقوى
يمسك لسانه عن الاعتراف .. كأنه يقاوم فى نفسه جريمة يخاف
كما يخاف المؤمن من النار .. ولم يكن يفكر فى إبراهيم .. ولا فى
موقفه الوطنى .. لم يكن ما يمنعه من الاعتراف هو خوفه على
إبراهيم ، ولا تشبثه بموقف وطنى .. ولكن كان ما يمنعه هو
إحساسه بأن الاعتراف جريمة لا يستطيع أن يقدم عليها .. جريمة
لا تقرها مبادئه الخلقية ، ولا ضميره النظيف .. كان كالتائب الذى
يأبى أن يقفز من فوق سور المدرسة ، لا حرصا على الدراسة ،
ولكن لأن أباه وضع فى نفسه أن الهرب من المدرسة عيب !
وبدا الدباغ يفقد أعصابه مرة ثانية وقال فى حدة :

- يعنى أنت حاتكون أحسن من ابن عمك .. ما تتكلم .. قوللى
إبراهيم حمدي راح فين ؟!

وفجأة ارتفع ضجيج كبير منبعث من القسم الخارجى للسجن ،
وتبين محبى وسط هذا الضجيج صوت عبد الحميد وهو يصرخ
صراخا حادا : « آى .. يا أولاد الكلب .. ماتضربونيش .. الحقونى ..
يا مجرمين يا أولاد الكلب .. آى .. » ..

وابتسم محبى ..

ابتسامته انبعثت رغما عنه ..

إنهم يضربون عبد الحميد ..

إنه لم يعترف ..

ورفع محبى رأسه وواجه الدباغ بابتسامته .. واشتدت حدة
الدباغ وقال للجندى الجالس بجانبه :

- قوم اقفل الباب ده يا أومباشى !

وقام الاومباشى ، وقبل أن يصل إلى الباب ، استوقفه الدباغ
قائلا كأنه غير رايه :

- استنى ..
ثم قام من وراء المكتب الصغير ، وخرج من الغرفة بعد أن
همس فى أذن الاومباشى :
- جرب معاه !!
وأغلق الاومباشى الباب وراء الدباغ ثم عاد إلى محبى ووقف
قبالته ، وقال وهو يبتسم من بين أسنانه :
- أنت ما تعرفش تشوف من غير النظارة دى ؟
ورفع إليه محبى رأسه وهو جالس على مقعده ، كأنه لا يفهم
معنى السؤال . واستطرد الاومباشى قائلاً :
- ورنى كده ؟
ومد يده يحاول أن يخلع النظارة من فوق عينى محبى ..
فتراجع محبى برأسه إلى الخلف .. وقد بدأ يرتجف ، واستطرد
الاومباشى ويداه ممدودتان إلى وجه محبى :
- ورنى كده امال ؟
ولم ينزع محبى نظارته .. فنزعها الرجل فى حركة سريعة
خفيفة ، ثم قال وهو يصر على أسنانه كأنه يحاول أن يثير نفسه :
- أنا أصلى ما تعجبنيش الطريقة بتاعة الضباط بتوعنا دول ..
أنتم أصلكم ماتجوش بالذوق .. ما تتكلموش إلا بالعافية .. أنت
حاتتكلم ولا لا ؟
ونظر إليه محبى وشفاته ترتعشان ، وفى عينيه نظرة توسل ،
كأنه يصد بها شراً لا يدره ..
وصرخ فيه الرجل :
- ما تتكلم باقولك ؟
ثم رفع كفه الثقيل الجاف وهوى به على صدغ محبى .. وارتفع
صوت الصفعة كأن أما مكومة تصرخ !!
وفغر محبى فاه .. وبدأ مذهولاً ..
ورفع يدا مرتعشة تهتز أصابعها كأوراق الشجر الجافة ،
ووضعها مكان الصفعة .. وهو لا يزال مذهولاً .
ولم يكن يحس بال ألم فى مكان الصفعة ولكنه أحس بلسعات

كلسع النار تسرى فى بدنه كله ، ثم تتجمع اللسعات فى مكان
ما من صدره .. واحس بشيء فى صدره ينزف .. كرامته ..
أدميته .. كبرياؤه ..
وضاق صدره ..
ضاق حتى بدأ يحس بالاختناق ..
ثم اغرورقت عيناه بالدموع ..
وبدا يبكى ..
وقال الاومباشى وهو يرفع يده الثانية :
- الله .. احنا حانعيط .. ماتخليك راجل .. طب خد !
وهوى بكفه على الصدغ الثانى .. كأنه يهوى فوقه بمطرقة من
حديد !
وانحرفت الصفعة فوق صدغ محبى ، فشقت شفته السفلى
وانبثق منها الدم .
وعالجه الرجل بصفعة ثالثة أشد ، فمال المقعد الذى يجلس عليه
محبى ، ووقع به على الأرض .
وهو يبكى ..
يبكى فى استسلام دون أن يتأوه ..
وركله الاومباشى بقدمه وهو ملقى على الأرض ، وصرخ فيه :
- مالك خرع كده .. ما تقف على حيالك زى الرجالة .. رجالة إيه
دول ياخويا ..
ثم جنبه من قميصه وأوقفه على قدميه ، ورفع محبى ذراعيه
فوق وجهه يحمى بهما نفسه من الصفع ، وهو لا يزال يبكى ..
وقد أصبح بكأؤه نشيجا .
وصرخ الاومباشى :
- ما تتكلم .. انطق .. ده ماله عامل زى البرغوت كده .. أنت
ما بتاكلش فى بيتكم ؟
ثم لكمه فى جنبه بقبضة يده لكمة قوية ، فصرخ محبى صرخة
حادة :
- آه ..

ثم سقط صدره فوق ساقيه .. ومال فى وقفته حتى سقط على الأرض .. وبدأ ممتقع الوجه .. كأنه نزف دماءه كلها .. كأنه مات !! وفى هذه اللحظة دخل اليوزباشى الدباغ مندفعاً ، وهو يصرخ فى وجه الاومباشى صراخاً مسرحياً :
- إيه ده يا أومباشى .. مين اداك أوامر بالضرب .. أنتم إيه .. متوحشين .. بهائم .. والله لاخرب بيتك !!
وانحنى الدباغ فوق محبى .. وأحاطه بذراعه ، وعاوناه على الوقوف ، ثم جلسه على المقعد ، وهو يقول للاومباشى :
- روح هات قطة بمركزكروم قوام .. الله يخيبك .. بشرفى لاسلك السجن !

وخرج الجندى من الغرفة ..
واستدار الدباغ لمحبى قائلاً :
- أنا أسف يا محبى .. جايين لنا بهائم ييشغلوا معانا .. كان فاكرك زى الباقين .. إنما برضه الحق عليك لو كنت اتكلمت ماكانش حصل ده كله !

ورفع محبى وجهه الأصفر المذهول وأخذ يردد من بين دموعه :
- ما اعرفش .. ما اعرفش .. ما اعرفش ..
ثم ارتفع صوته حتى أصبح صراخاً كأنه جن ، وعاد يردد :
- ما اعرفش .. ما اعرفش .. ما اعرفش ! ودخل الاومباشى يحمل قطة ملوثة بسائل أحمر ، أخذها منه الدباغ وبدأ يمر بها على الشفة المشقوقة التى تنزف دماً ، وهو يقول :
- بلاش كلمة ما اعرفش دى .. خلىنا ننتهى على خير .. انت مش قد ما اعرفش !

ونزع محبى وجهه من بين يدى الدباغ ، وصرخ صرخة طويلة حادة كأنه يطلق روحه فى صدر عدوه :
- ما .. عر .. فشى !
ثم وضع رأسه بين يديه وأجهش بالبكاء ..
ونظر إليه الدباغ فى احتقار ، وقال :
- ده انت باين عليك تعبنا قوى .. قوم استريح لك شوية !

ولم يتحرك محبى من مقعده ، ولم يرفع رأسه .. فجذب الدباغ من تحت إبطه وحاول أن يوقفه ، ولكن محبى لم يستطع الوقوف . كان منهارا ، ولا يزال يبكى ، وكل شيء يسيل منه مع دموعه حتى لم يعد فيه شيء صلبا .
وقال الدباغ :

- تعال يا اومباشى أسند معايا ..

ووقف الاومباشى على الجانب الثانى من محبى ، ووضع يده تحت إبطه .. ثم تعاون مع الدباغ ، فى رفعه ، وأخذوا يشداناه وقدماه تزعفان على الأرض ، كأنهما يجران جثة قتيل .. وخرجا من الغرفة .. واستقبلهما عند الباب أحد السجانين ، قصاح فيه الدباغ :

- افتح نمرة تمانية ..

وسارا فى الممر الطويل الذى يحاذى الأبواب المغلقة ، وهما يجران محبى .

ولم يكن محبى يرى شيئا ما أمامه .. كان غارقا فى ظلام دامس .. وكان منهارا ، متخاذلا ، يحس كأن معدته تنقلب .. ولكنه كان واعيا .. كان عقله هو كل ما بقى فيه صاحبا ..

وسمع صوتا ينبعث من وراء أحد الأبواب المغلقة :

- شد حيلك .. خليك جامد !

وسمع صوتا ينبعث من وراء باب مغلق ثان :

- أنت مين يا أخينا .. قول اسمك !؟

وسمع صوت ثالث يصيح :

- سيبوه يا مجرمين .. يانندال .. يا جبنا ..

وسمع من وراء الباب الرابع أنينا .. خيل إليه أنه أنين عبد الحميد !!

وسمع من وراء الباب الخامس صوتا ثائرا غليظا يهتف بأبيات من الشعر :

« حطموه الأعلام ؛ هل تحطيمها يمنع الأيدى أن تنقش صخرا؟ »

« قطعوا الأيدى ، هل تقطيعها .. يمنع الاعين أن تنظر شزرا ! »

وأحس بكل هذه الأصوات ، كأنها أصوات أصدقاء يرحبون به بينهم .. كأنه داخل إلى الجنة والملائكة ينشدون له ويزفونه إلى عرشه .. ومست هذه الأصوات أعصابه فشدها ، وأحس كأن الروح ترتد إلى صدره .. وكان طيفا حانيا يمسح على شفته المجروحة ، ويربت على مكان الصفعات فوق وجنتيه .. ويجفف دموعه .. أحس أنه مع كثيرين .. ينظرون إليه فى إعجاب . ويهتفون له .. ويشدون أزره ..

ويدأ يحاول التملص من الأيدي التى تمسك به ..
وشد ظهره .. وثبت قدميه على الأرض .. وسار معتمدا على نفسه.
ووقفوا به أمام باب مغلق ..
وفتح السجان الباب ..

وفجأة ارتفع ضجيج صاخب اهتزت له جنبات السجن ..
طرقات عنيفة فوق الأبواب الحديدية المغلقة .. كأنهم يطرقونها بأيد من حديد .

كانت هذه هى تحية الشبان المسجونين لزميل جديد لا يعرفونه.. يطرقون أبواب الزنازين بالأطباق والملاعق والأكواب المصنوعة من الصاج .

وأسرع الدباغ ودفع محيى داخل الزنزانة .. ثم هرول خارج السجن يفر مرتعدا من هذا الضجيج المخيف . .
وأدار السجان مفتاحه فى القفل ..

ومد محيى ذراعيه يتحسس فى الظلام .. وتقدم بضع خطوات..
فاصطدم بسرير صغير ، ألقى نفسه عليه وهو لا يرى شيئا .. ثم تحسس وجهه وهمس :
- نضارتى !!

وقام وتحسس الأرض بخطاه ، حتى وصل إلى الباب المغلق ،
وأخذ يطرقه بكلتا يديه ، وهو يصرخ :
- نضارتى .. نضارتى !!

وضاع صراخه وسط الضجيج الذى كان لا يزال ينبعث من وراء الأبواب الأخرى ..

ثم سكت الضجيج شيئاً فشيئاً ..
ومحيى لا يزال ملتصقاً بالباب ، وبدأ يعيد الطرق ويصرخ
بأعلى صوته :
- نضارتي .. نضارتي ؟!
ولم يجبه أحد ..
وساد الصمت ..
صمت ثقيل رهيب ..
فعاد يتحسس الأرض بأقدامه ، وألقى بنفسه على السرير
الصغير الجاف .
وبدأ يحس بالألم ..
آلام لم يحس بها من قبل ..
أحس كأن سكيناً يشق شفته الجريحة .. وكأن نارا تلهب خديه
المصفوعين .. وكأن شيئاً يتلوى ويتقلص فى جنبه مكان اللكمة
التي أصابته ..
وتأوه ..
وشعر أنه لا يستطيع الحراك .. كأن جسده شد فوق السرير
بسلاسل ثقيلة من الحديد ..
وهو يريد أن ينام .. ليستريح !
أغمض عينيه ..
وما كاد يغمضهما حتى سمع صوت المفتاح يدور فى قفل
الباب، فرفع رأسه متحفزاً .. ولكن الباب لم يفتح .. وظل رافعا
رأسه مدة طويلة ..
ولكن الباب لم يفتح ..
وأعاد رأسه مكانه ..
وأغمض عينيه .. إنه متعب .. إنه قطعة من التعب .. ويريد أن
ينام ..
وفجأة .. سمع صوت المفتاح يدور فى القفل من جديد .. ورفع
رأسه فى إعياء .. بلا تحفز .. وانتظر أن يفتح الباب .. ولكن الباب
لم يفتح .. انتظر مدة طويلة ، ولم يفتح الباب ..

وسقطت رأسه فوق السرير إعياء .
وشعر بالخوف .. وكان أضعف من أن يقاوم خوفه فيبدأ
يرتجش ، كأنه أصيب فجأة بالحمى ..
وحاول أن يغمض عينيه .. إنه يتعذب .. يكاد يموت من العذاب ..
وفجأة أضاء النور داخل الزنزانة .. وارتجفت جفناه فوق
عينيه، كأنهما جناحا عصفورة مذعورة .
وأدار بصره حوله .. ورأى زنزانتة لأول مرة .. قاتمة ،
موحشة، ورأى سريره .. وجردلين أحدهما مليء بالماء والآخر
فارغ.. والباب لا يزال مقفلا ..
وانتظر أن يفتح الباب .. ولكن الباب لم يفتح ..
وفجأة انطفأ النور، كما أضاء فجأة ..
إنهم يعذبونه ..
إنهم لا يريدونه أن ينام ..
إنهم يتلفون أعصابهم ..
وأحس بنفسه يتجمع للبكاء .. ولكنه لم يبك .. لم تعد فيه قوة
تكفى لقذف الدموع من عينيه .
ولا يدرى كم مضى عليه من الوقت .. ولكن الدنيا لا تزال
ظلاما ..
إلى أن بوغت بالباب يفتح ، والنور يضئ داخل الزنزانة ..
ورأى من بين رموشه المرتعشة اليوزباشى الدباغ واقفا أمامه وفوق
شفتيه ابتسامته اللزجة .. وسمعه يقول فى لهجة مفتعلة الرقة :
- أنت لسه صاحى يا محبى .. حبيت اطمئن عليك قبل ما أروح ..
مش عايز حاجة ؟!
ونظر إليه محبى فى ضعف كأنه يتوسل إليه أن يرحمه ، وقال
فى صوت متهدج خفيض ، وهو لا يزال راقدا :
- نضارتنى !!
وقال الدباغ وهو يدعى الحنان :
- بس كده .. ؟
ثم التفت إلى خارج الزنزانة وصاح :

- روح يا عسكرى هات النضارة من فوق المكتب إلى محيى فى
أودة التحقيق !

ثم عاد ينظر إلى محيى قائلا :

- تحب أسيب لك الباب مفتوح ؟

وقال محيى فى ضعف :

- متشكر ..

وقال الدباغ :

- وتحب أسيب لك النور مولع .. يمكن تكون بتخاف من

الضلمة؟!

وردد محيى :

- متشكرا !

وجلس الدباغ على حافة السرير بجانب الجسد المعضب ، وقال :

- تعرف .. أنا مش هالين على أروح وأسيبك هنا .. نفسى إنك

ترجع البيت الليلة دى .. دلوقت ..

ولم يرد محيى ..

وعاد الدباغ يقول :

- أنا كل اللى عايز اعرقه .. إبراهيم حمدى راح فىن بعد ما كتب

الورقة دى وقلع البنطلون اللى لقيته عندك .. مش عايزك تقوللى

اكتر من كده .. مش عايز اعرف كان بينك وبينه إيه ، ولا قابلته

فىن .. بس قوللى راح فىن ؟

وقال محيى كأنه يتأوه :

- أنا تعبان .. اعمل معروف سيبنى ..

وقال الدباغ :

- ما أنا عايز أريحك .. بس اتكلم .. كلمة واحدة ؟!

وقال محيى وهو يدير رأسه فوق الوسادة القذرة :

- ما أعرفش .. ما أعرفش حاجة !

وصرخ الدباغ :

- ما تقولش ما أعرفش .. مش عايز اسمع منك الكلمة دى

تانى .. فاهم !

ثم سكت قليلا ، واستطرد بعد أن ضبط أعصابه :
- خلينا أصحاب يا محيي .. طيب أنا حاقولك حكاية .. أنت
عارف مين دلنا عليك .. عبد الحميد ابن عمك ؟
ورفع محيي رأسه فى فزع من فوق الوسادة ، ثم عاد وألقى به
مكانه ، كأنه تذكر أن الدباغ لا يمكن أن يكون إلا كائنا ..
واستطرد الدباغ قائلا :

- مش مصدقنى .. طيب بص .. مش دى نوتة عبد الحميد ..
بص مكتوب فيها إيه .. نمرة تليفون همام بك رئيس البوليس
السياسى ، ونمرة تليفون النائب العام كمان ... مش تعرف خط عبد
الحميد .. بص كده ؟!

وقرب الدباغ المفكرة الصغيرة التى كان يحملها عبد الحميد فى
جيبه ، والتى عثر عليها عندما فتشت ثيابه بعد دخوله السجن ..
قربها من أنف محيي ، فرأى فيها نمرة تليفون همام والنائب العام
مكتوبة بخط عبد الحميد .. فقفر فاه .. ورفع عينيه إلى وجه الدباغ
كأنه يحاول أن يكذبه .. ثم سكت !!
واستطرد الدباغ قائلا :

- حضرتة يا سيدى ضرب تليفون لهام بك وراح قابله ، علشان
يبلغ عن إبراهيم ويقبض المكافأة .. خمسة آلاف جنيه .. مش أنت
أحق بيهم فى ذمتك .. ثم إذا كان ابن عمك ناوى يوديك فى داهية ،
ما تنفد بجلدك ، وتتكلم ، قبل ما يلبسك المصيبة كلها ؟!
وشعر محيي بقلبه ينقبض .. كل شىء فيه ينقبض إلا ذهنه ..
هل صحيح أن عبد الحميد هو الذى أبلغ البوليس ؟
وماذا أبلغهم ؟

ولماذا لم يقبضوا عليه منذ أبلغهم .
ولماذا يضربون عبد الحميد .. كما يضربونه ؟
ولكن هذه نوتة عبد الحميد .. وهذا الخط خطه ، وهذه نمرة
همام بك !

وأحس بحيرة تمزق عقله ..
أحس أنه يريد أن يكون وحيدا ..

يريد أن ينام ..
وقال فى صوت أشد ضعفا :
- أنا ما عرفش حاجة .. أرجوك ارحمنى .. أنا تعبان .. عايز
أنام.
وأدار رأسه فوق الوسادة !
وقال الدباغ منتفضا من فوق حافة السرير ، ومد يده وقبض
على محبى من قميصه ثم رفعه من فوق الفراش ، وجذبه إلى
الأرض وهو يصرخ :
- أنت باين عليك غبى .. حمار .. مابتفهمش .. الحمير اللى زيك
لهم طريقة نعاملهم بيها .
ثم تركه وصرخ مناديا الجنود الذين يقفون عند الباب ، قائلا :
- خش يا عسكرى أنت وهوه .. شيلو السرير ده بره ..
ماتخلوش حاجة فى الزنزانة .. وادلقوا له جر دلين ميه !!
ودخل جنديان وحملا السرير خارج الزنزانة ، وحملا
الجردين .. لم يعد شىء فى الزنزانة إلا أرضها السوداء .. ثم عادا
بصفيحة مملوءة بالماء وسكباها على الأرض الأسفلت .. وخرجا
وعادا بصفيحة أخرى .. وسكباها .. وصفيحة ثالثة .. حتى
أصبحت أرض الزنزانة كمستنقع صغير رطب .
وقال الدباغ وهو واقف عند باب الزنزانة :
- أما أشوف حتتكلم ولا لا .. أقفل الباب يا عسكرى !
وقفل باب الزنزانة ..
وعاد الظلام يغمرها ..
ومحبى واقف مستند على الجدار ، وقدماه فى الماء ..
إنه لا يحس بالماء ..
ولكنه يحس بالتعب ..
ويريد أن ينام ..
وأغمض عينيه ..
ووقع فوق الأرض .. فى المستنقع الرطب .. مغشيا عليه !! ..

كانت الساعة الخامسة والنصف صباحا عندما بدأت الحركة من جديد فى سجن الأجانب.. وكانت التعليمات المشددة التى وضعها القلم السياسى لتطبيق فى السجن طوال فترة التحقيق فى

□ حدث هرب إبراهيم حمدي، تقضى بالألا يجتمع المسجونون تحت التحقيق، بعضهم ببعض، وألا يرى أحدهم الآخر.. وأن يظل كل منهم حبسًا داخل الزنزانة طوال الليل والنهار.. حبسًا انفراديًا.. إلى أن يجن أو ينهار فيعترف ويدلى بمعلومات تؤدي إلى القبض على إبراهيم حمدي..

وكانت هذه التعليمات المشددة تقضى بأن تفتح كل زنزانة فى الصباح لمدة عشر دقائق، ليخرج منها السجن ويذهب إلى دورة المياه، يصحبه عسكري.. على ألا تفتح زنزانتان فى وقت واحد، وألا تفتح الزنزانة الثانية إلا بعد أن تغلق الزنزانة الأولى على سجينها..

وبدأت الأبواب المصفحة تفتح، ويخرج المساجين إلى دورة المياه، الواحد بعد أن يعود الآخر..

وبدا المساجين يلتقطون أخبار الأمس من أقوافه العساكر. والأخبار تتناقل داخل السجون أسرع من تناقلها خارج السجن. وتتسرب إلى الزنازين من تحت الأبواب المغلقة، ومن بين الثقوب الضيقة.. كل الأخبار.. سواء كانت خبرا عن زوجة مأمور السجن أو خبرا عن اعتراف متهم.. إنه عالم صغير لا يخفى فيه شيء! وكان الخبر الذى التقطه المساجين هذا الصباح، خبرا مثيرا..

مذهلاً.. لقد قبض البوليس على شاب.. لا أحد يعرف اسمه.. وجاء به اليوزباشى الدباغ إلى السجن.. ثم عذبه ليعترف.. ومات أثناء تعذيبه.. وجثته لا تزال ملقاة فى الزنزانة رقم «٨»..

وصاح صوت قوى من خلف باب الزنزانة رقم «١٦»، ولم يكن صاحبها قد جاء دوره ليفتح بابه ويخرج إلى دورة المياه:

- يا نمرة تسعة.. يا نمرة تسعة.. سمعت اللى حصل؟

وأجاب صوت من خلف باب الزنزانة نمرة «٩»:

- خير على الصبح؟!

وعادت الزنزانة رقم «١٦» تتكلم بصوت عال:

- دول موتوا واحد فى نمرة ثمانية.. مش سامع حاجة فى الزنزانة اللى جنبك؟!

وبعد برهة ارتفع صوت الزنزانة رقم «٩»:

- لا.. مش سامع حاجة.. زى ما يكون فيها قتيل!!

وصرخت الزنزانة رقم «١٦»:

- عملوها ولاد الكلب.. الدور علينا.. مش حنخرج من هنا إلا على التربة.. ما تعرفش من اللى جابوه ليلة امبارح؟

وقالت الزنزانة رقم «٩»:

- لا.. استنى لما اسأل نمرة حداثر..

وارتفع صوت البلشسجان وهو واقف فى الفناء الصغير الذى يتوسط الزنازين:

- بس يا مسجون أنت وهوه.. يا فتاح يا عليم..

ولم تأبه به الزنزانة رقم «٩» واستطردت تصرخ:

- يا نمرة حداثر.. يا نمرة حداثر.. ما تعرفش مين اللى جابوه فى نمرة ثمانية؟

وارتفع صوت من وراء باب الزنزانة نمرة «١١».. صوت قوى غليظ:

- لا.. ما اعرفوش.. يقولوا قتلوه!!

وقالت الزنزانة نمرة «٩»:

- سمعتم امبارح فى الليل بيفتحوا عليه..

وفجأة ارتفع صوت مرتعش مدعور من خلف باب الزنزانة رقم «١٢»، وصرخ :
- قتلوه.. قتلوا محبى؟!
ثم ارتفع صوت ضربات عنيفة فوق نفس الباب، والصوت المرتعش يصرخ:
- افتحوا يا مجرمين.. افتح يا عسكرى.. انا لازم اشرب من دمكم.. حاوديكم فى داهية..
وقاطعة صوت حاد من الزنزانة رقم «١٦»:
- محبى مين يا اخينا.. اسمه الكامل اية؟
وصرخ الصوت المرتعش من خلف باب الزنزانة:
- محبى ابن عمى.. قتلوه.. قتله الدباغ.. قتلوه.. قتلوه..
ثم ارتفع صوت نشيج حاد من خلف الباب المصفح..
وصرخ صوت الزنزانة رقم «١١» :
- الموت للقتلة..
ورددت باقى الزنازين:
- الموت للقتلة..
وعادت زنزانة اخرى تهتف:
- نموت وتحيا مصر..
وردت باقى الزنازين:
- نموت وتحيا مصر..
وهتفت زنزانة ثالثة:
- إلى الجحيم يا همام.. نريد رأس الدباغ..
ورددت الزنازين:
- إلى الجحيم يا همام.. نريد رأس الدباغ..
وهتفت زنزانة رابعة:
- يسقط المجرمون..
ورددت الزنازين:
- يسقط المجرمون..
وارتفعت دقات عنيفة صاخبة فوق أحد الأبواب المصفحة..

وكانت هذه اشارة متفق عليها، فأمسك كل سجين بالجرادل الموضوع داخل الزنزانة.. وأخذ يطرق به باب المصفح طرقات منتظمة عنيفة كأنه يحاول تحطيمه.. وترددت هذه الطرقات فى جنبات السجن.. فهزته هزات قوية، وعلا ضجيج صاحب مخيف، كأن السماء تزمجر غامضة..

ودخل الضابط النوبتجى فى فناء السجن مهرولا، وهو لا يزال يضم اطراف سترته، وصرخ فى وجه الباشسجان:

- ايه اللى حصل يا شاويش.. فيه ايه؟!

وأقترب منه الباشسجان، وقال فى صوت هامس:

- بيقولوا فيه واحد مات فى نمرة تمانية..

وارتسم الاهتمام فى عيني الضابط.. ثم قال:

- اقفل الزنازين كلها.. ما حدش يروح الدورة.. وأخر توزيع الاكل لغاية ما أقولك..

ثم خطا داخل السجن، والتفت إلى الباشسجان كأنه يقاوم خوفا بدأ يتسرب قلبه، وقال:

- تعالى معايا..

ثم اتجه نحو الزنزانة رقم «٨»..

وكان المتهمون قد أعتلى كل منهم حافة سريره داخل زنزانته، وأخذ ينظر من خلال الفتحة الرفيعة الضيقة جدا التى تفصل بين ضلفة الباب والحائط المثبت فيه.. وراوا الضابط متجها إلى الزنزانة رقم «٨»، فكفوا عن الضجيج ولصق كل منهم عينيه بالفتحة الضيقة يحاول أن يتتبع الضابط، وقد بدأ التطلع يغلب غضبه.. وفتح الضابط الزنزانة ..

ورأى محبى ..

رأه جثة مكومة على الأرض السوداء.. وسط مستنقع الماء الذى صنعه له البيوزباشى الدباغ..

وانحنى الضابط فوق الجثة فى فزع.. وتسمع دقات القلب.. إن القلب لا يزال يدق..

إنه لم يموت..

وأمسك الضابط بيده الجثة.. انها باردة.. قطعة من الثلج..
والنبض ضعيف.. ضعيف جدا..
وقام الضابط وهول خارج الزنزانة.. وأغلق بابها على الجثة
التي تلفظ الروح.. واتجه فى خطوات سريعة نحو مكتبه فى البناء
الخارجى للسجن.
وصرخت احدى الزنازين :
- قتلوه.. قتلوه..

وبدأت الطرقات العنيفة فوق الابواب المصفحة تتوالى من جديد..
ونظر أحد جنود السجن إلى زميله.. وبصق على الأرض.. دون
أن يتكلم !
ووصل الضابط إلى مكتبه، ووضع طربوشه فوق رأسه، ثم
أمسك بسماعة التليفون فى لهفة، وأدار رقما ثم قال فى صوت
مرتبك :

- سعادة اللواء همام بك موجود؟
ثم استطرد :
- ارجوك تصحيه.. هنا سجن الاجانب..
وقال بعد أن سمع صوت همام بك :
- أيوه يا أفندم.. المتهم فى نمرة تمانية اللى وصل امبارح..
حالة.. خطرة جدا.. ييموت.. لسة.. ما ماتش..
وأخذ يستمع إلى تعليمات همام بك وهو يردد:
- حاضر.. حاضر يا أفندم.. حاضر.. أيوه أفندم!
وألقي سماعة التليفون، وعاد مسرعا إلى داخل السجن، ثم فتح
الزنزانة رقم «٨» ، وصرخ فى الباشسجان الذى كان يقف بجانبه:
- هات سرير قوام يا شاويش.. وهات اتنين عساكر ينشفوا الميه
دى..

وفى دقائق، حمل جنود السجن سريرا إلى داخل الزنزانة، ثم
حملوا محيى ووضعوه فوق السرير.. وبدأ اثنان من الجنود
يجففان المياه الراكدة على الأرض بمناشف من الخيش.. نفس
الجندين اللذين سكبا المياه على الأرض فى الليل.. وانحنى الضابط

مرة ثانية يتسمع دقات قلب محيى.. انه لا يزال يدق.. لم يمت بعد..
وأمسك بيده.. انها باردة.. قطعة من الثلج.. والنفض ضعيف..
ضعيف جدا.. وقرب من أنفه قطعة معبأة بمحلول النشادر.. فلم
يتحرك محيى.. وقرب منه قطعة القطن مرة ثانية حتى كاد ينسها
فى فتحة أنفه، فاهتز رأس محيى هزة خفيفة، ثم عاد وتصلب..
وخاف الضابط أن يقرب قطعة القطن مرة ثالثة من انف محيى،
فقام من جانبه وهو حائر مرتبك..

ووقف أحد جنود السجن ملتصقا بباب الزنزانة رقم «٩»، وقال
فى صوت يكاد يكفى ليخترق الباب المصفح وسط هذا الضجيج :

- ما متش.. لسه فيه الروح!

وصرخت الزنزانة لتبلغ باقى الزنازين:

- ما متش.. له ما متش!!

وسكت الضجيج.. وكفت الطرقات فوق الأبواب، لاحتراما للزميل
المعذب المريض..

ومرت ريع ساعة..

وفتح باب السجن الخارجى.. الباب الكبير.. ودخل اليوزباشى
الدباغ مهرولا، واتجه إلى غرفة المأمور التى كان يجلس فيها
الضابط، وقال وهو يرفع اصبعه بتحية باردة:

- إزاي الحال.. جرى له أيه!!

وقال الضابط وهو ينتصب واقفا:

- قلبه بيدق.. إنما مغمى عليه!

وهز الدباغ رأسه، ثم رفع عينيه إلى الضابط، فرآه مضطربا
ممتقع الوجه، فقال وهو يبتسم:

- ماتخافش.. مش حايموت!!

وجلس على مقعد مريح، وهو يقول:

- البية المأمور لسه ما جاش؟!

وقال الضابط:

- زمانه جاى يا افندم!

وقال الدباغ ساخرا:

- على مهله.. كفاية احنا شايلين الهم كله!
وفتح الباب الكبير مرة ثانية، ودخل همام بك.. وصافح الدباغ،
وحيا الضابط بطرف أصبعه.. ثم انسحب الضابط إلى الغرفة
الأخرى.. غرفة المعاون.. وقال الدباغ :
- تبقى مصيبة.. لو مات قبل ما يتكلم!!
وقال همام بك فى صوت مفتعل الرقة.. كأنه يتهمك:
- والله الجماعة دول بيصعبوا على.. أنا عارف ما بيتكلموش
ليه!!

وفتح الباب الكبير.. ودخل طبيب السجن.. ساخطا مقبرما تخينا..
ويجب أن يقول لك أحد أنه طبيب، حتى لا تعامله على أنه جزار
وقام همام بك واليوزباشى الدباغ يرحبان به.. ثم خرج الدباغ
لينادى الضابط.. فجاء وصحب الطبيب إلى داخل السجن، وهمام
بك يقول من ورائهما:
- أنا آسف يا دكتور من أزعاجك.. إنما نعمل أية فى الروتين
والاجراءات!

ودخل الطبيب إلى فناء السجن، واستقبلته عيون لا يراها تطل
عليه من خلال الفتحات الضيقة التى تفصل بين أبواب الزنازين
والحائط المثبتة فيه.. وسار إلى الزنزانة رقم «٨» ودخلها.. ووقف
فوق جسد محبى دون أن يلمسه.. وقف ينظر إليه من بعيد ورأى
الوجه الأصفر صفرة الموت.. والجثة الضعيفة المكومة.. والشفة
المشقوقة من اثر الضرب.. والخدين المتورمين من اثر الصفع..
ورأى المياه التى تبلل الأرض.. وسمع الأنفاس الضعيفة التى تنطلق
فى مشقة كأنها تلفظ آخر ما فيها.. ثم خرج مسرعا كأنه يهرب من
رائحة كريهة.. وعاد إلى غرفة المأمور حيث كان ينتظره همام
والدباغ.. وقال وهو يفرد أمامه ورقة ويخط فيها تقريره:

- التهاب حاد فى المصران الأعور.. اظن من الأفضل ينتقل
للمستشفى.. علشان تخلوا نفسكم من المسؤولية!
وقال الدباغ:

- ضرورى يعنى يا دكتور، يروح المستشفى؟

وقال الطبيب وهو يفتح فمه عن أسنان صفراء:
- على كل حال أظمن.. أنا حاكب أنه مصران أعور.. وحابشره
بنفسى هناك!

وابتسم همام قائلاً:
- فيك الخير يا دكتور.. والله دول ما يستهلوا المعاملة الطبية دى.
وبعد فترة وقفت سيارة من سيارات الأسعاف، أمام باب
السجن، وعاد الضابط إلى الزنزانة رقم «٨» يصحبه جنديان حملاً
جسد محيى بين أيديهما، وخرجاً به إلى القسم الخارجى من
السجن حيث وضعاه فوق «نقالة» حملها رجلان آخران ووضعاهما
داخل السيارة..
وتحركت السيارة..

وسارت فى محاذاة سور السجن، وقبل أن تصل إلى شارع
الملكة نازلى، مرت برجل عجوز متعب، يحمل فى يده حقيبة
صغيرة، تبدو ثقيلة عليه، ويسير فى خطوات بطيئة مرتجفة نحو
الباب الكبير.. رجل لم يعلم أن هذه السيارة التى مرت به، تحمل
جسداً بين الحياة والموت..
جسد ابنه..

كان الأب قد ارتدى ثيابه على عجل بعد أن تم القبض على ابنه وعلى ابن أخيه، وترك زوجته ملقاه على الأرض تعاني نوبة عصبية تهز بدنهما كله، ويجوارها ابتهاها.. وخرج يشق الليل بخطواط فزعة متجها إلى دار المحافظة، بعد أن قال له الجندي الذي اشترك في القبض على ابنه أنهم متجهون إليها..

ووجد بناء المحافظة غارقا في الليل، يبدو كشبح يتوسط ميدان باب الخلق، وليس فيه سوى بصيص ضئيل من النور ينبعث من حجرتين كأنهما عينا شيطان لا ينام..

ودخل واجف القلب.. مهتديا ببصيص النور.. بعيني الشيطان الذي يسكن الدار.. واستطاع أن يقابل أحد الضباط وعلم منه أن ابنه ليس في المحافظة.. ولم يستطع أن يعلم منه أكثر من ذلك.. لم يستطع أن يعلم أين اخذوا ابنه..

وخرج من مكتب الضابط، ولم يعد إلى بيته.. انما جلس على مقعد خشبي في ممر طويل مظلم داخل بناء المحافظة بجانب أحد الجنود.. منتظرا ابنه.. لعلهم يأتون به إلى هنا.. ولكنهم لم يأتوا به..

أين اخذوه.. أين ذهبوا به..

ولاول مرة يرى القاهرة في مخيلته بلدا كبيرا غامضا مخيفا.. إن القاهرة ليست هذه الشوارع التي يعرفها.. وليست هذه الابنية والدور التي تحمل أرقاما وأسماء.. انها شئ أكبر من ذلك وأخطر.. إن فيها سراديب لا يعرفها، وأماكن خفية لم يسمع بها أحد.. سراديب تحت الأرض، وأماكن خلف أسوار عالية..

وبدا يتخيل تحت كل شارع يعرفه سردابا يخفون فيه ابنه..
لعل تحت بناء المحافظة سردابا رطباً مظلماً القوا فيه بابنه
وتركوه بين الثعابين والعقارب..
لعل ابنه وراء هذا السور العالى الذى يطل على فناء المحافظة،
وتعلوه اسلاك شائكة، وابراج يقف فيها جنود مسلحون..
وكان خلال هذه التخيلات يتنازع الخوف واللوعة حتى يكاد
يبكى، ثم يطغى عليه احساس عنيف بالسخط فيحس كأن يديه
تمتدان رغماً عنه لتقبضا على عنق اليوزباشى الدباغ وتخنقه.. ثم
لا يكتفى بخنق الدباغ، وتمتد يده لتخنقا وزير الداخلية.. ثم رئيس
الوزراء.. ثم الملك نفسه.. يخنقهم بلا رحمة، ويضغط على أعناقهم،
وهو يصرخ: «أين ابنى.. أعيدوه إلى.. أين محيى»!!
ويبقى من هذه التخيلات ليجد نفسه صغيراً تافهاً.. وهو لم يكن
ابداً صغيراً إلى هذا الحد.. ولا تافهاً إلى هذا الحد.. كان دائماً يحس
بشخصيته كاملة.. شخصية محددة واضحة، قضى حياته كلها
يرسم فيها.. شخصيته فى بيته، وسط عائلته.. وشخصيته فى عمله
بين زملائه.. ولكنه الآن يحس بأن ليس له شخصية.. ليس له
كيان.. وبأنه لم تكن له هذه الشخصية وهذا الكيان ابداً.. لم تكن له
شخصية فى بيته ولا فى عمله.. إنما كانت مجرد مظهر من مظاهر
الشخصية، لا شخصية حقيقة ثابتة يستطيع أن يطمئن إليها.. ليس
لأحد من أهل هذا البلد شخصية.. ليس لأحد حقوق أو واجبات..
إنما الناس فى مصر مجرد بهائم، تعلق فى سواق.. وتحدد لها
الدوائر التى تدور فيها.. وتلهب ظهورها بالسياط..
ليس لأحد فى هذا البلد شخصية ما دام البوليس يستطيع أن
يختطف أولاد الناس، ويخفيهم فى سراديب تحت الأرض، وخلف
أسوار عالية.. دون أن يكون من حق الناس أن يعرفوا أين اختفى
أولادهم..
وأزداد احساساً بالتفاهة، والضعف.. وانكمش على نفسه،
وانكمشت قسمات وجهه، فبدأ كالفأر المذعور.. واشفق الجندي
الجالس بجانبه على حاله.. فقال وهو ينظر إليه فى رثاء:
- يا سيدنا الافندى ما فيش فايده من القعدة دى.. روح بيتكم

أحسن.. انت مش بيان عليك وش بهدلة!
وقال زاهر افندى كأنه يتشبث بجلسته:
- بس عايز اعرف ابنى خدوه فين.. ما أقدرش اروح قبل
ما اعرف هوه فين.. واديني قاعد، انشا الله للصبح.
وقال جندى البوليس وهو يتنهد:
- ويعنى حاتعمل آيه لما تعرف.. مافيش فايده.. قوم روح أحسن
لك.. وقول يارب..
وقال الأب اللتاع:
- بس عايز اطمئن.. اطمئن راح فين!!
ونظر إليه الجندى مليا، ثم قال فى لهجة العليم بيواطن الامور:
- هوه متهم فى اية؟
قال زاهر افندى بسرعة:
- ما اعرفش.. دول لسه قابضين عليه دلوقت، من مدة ساعة
واحدة!
وعاد العسكري يقول فى لهجة الفيلسوف:
- ما هو دايم كده .. الوالدين يشيلو الهم من غير ذنب.. من
غير ما يعرفوا حاجة.. انما انت متأكد ان البوليس السياسى هوه
اللى قبض عليه.. ما يمكن مسكوه فى مخدرات ولا فى سرقة..
مين عارف!
- لا.. مش ممكن.. اللى قبض عليه ضابط اسمه اليوزباشى
محمود الدباغ..
ورفع الجندى حاجبيه كأنه يرفعهما رهبة امام الاسم الخطير،
وقال:
- بنفسه!!
وتلفت الجندى حوله، ثم همس فى اذن زاهر افندى:
- تلاقى ابنك دلوقت فى سجن الاجانب.. هناك جنب المحطة..
حضرة اليوزباشى بيعمل كل شغله هناك.. وبيأخذ المتهمين بتوعه
طوالى على السجن من بره بره..
وغاص قلب الأب فى صدره، وانطلق كأنه يتأوه:
- سجن !! قبل ما يحققوا معاها!!

وهمس الجندى:
- بس وطى صوتك. ما هو التحقيق برضه هناك!
وقال الأب كأنه تائه:
- انت متأكد؟
وقال الجندى متباهيا بنفسه:
- إلا متأكد.. ما هو لحننا يا سيدنا الافندى اللى نعرفه كل
حاجة.. احنا الأساس!
وقام الأب وهو يهمهم بكلمات لا معنى لها.. وزحف فى الظلام
إلى أن وضع نفسه فى سيارة أجرة.. وذهب إلى سجن الأجانب..
ونزل من السيارة، وما كاد يقترب من سور السجن حتى صرخ
فى وجهه أحد الحراس وهو يرفع بندقيته من فوق كتفه:
- عندك..
وكانت الصرخة كافية لتقذف به بعيدا عن السور.. ووقف ينظر
إلى السجن من بعيد.. وهو يتصور ابنه فى كل مكان منه، ويكاد
يطل عليه من كل حجرة فيه..
وعدل عن محاولة طرق باب السجن..
ووضع نفسه فى سيارة الأجرة مرة ثانية، وعاد إلى بيته.. كان
يائسا.. مهتما.. يعذبه احساسه بصغر شأنه، وفشله فى العثور
على ابنه..
وكان يأسه يصور له انه هو الذى جنى على ابنه والقى به بين
انياب البوليس.. هو الذى سمح لابراهيم حمدي بأن يختبئ فى
البيت.. هو الذى جر على ابنه كل هذه المصائب..
لماذا لا يقبض عليه البوليس بدلا من ابنه؟!
لماذا لا يقدم نفسه للبوليس ويعترف بأنه هو الذى سمح
لابراهيم حمدي بالاختباء عنده؟!
ما أغبى البوليس.. انهم يعتقدون ان الشبان وحدهم هم الذين
يتهورون فى وطنيتهم.. انهم لا يتصورون أن رجلا عجوزا مثله
يستطيع أن يشارك ابنه فى تهوره..
وواجهه كأب يلزمه بأن يفقدى ابنه!
يجب أن يحمى ابنه من الضياع!

إن ابنه هو المستقبل الذى يعيش له.. أما هو فهو الماضى.. وهو
يستطيع أن يضحى بالماضى، ولا يستطيع أن يتنازل عن المستقبل!
ولكن هل يقبل البوليس هذا الفداء؟
هل يطلقون سراح محبى، لو تقدم معترفا على نفسه؟
يجب أن يفكر..
وأن يفكر طويلا..

وسار داخل بيته بين قطع الأثاث المتناثرة المحطمة من اثر عملية
التفتيش التى أجراها البوليس.. ثم وقف على باب غرفته، وشد
ظهره، وحاول أن يريح قسما من وجهه من تعابير العذاب، وأن يجمع
أرائقه حتى يبدو هادئا.. ثم دخل على اطراف أصابعه!
وكانت زوجته راقدة فى الفراش، وعيناها مفتوحتان معلقتان
فى السقف وخيوط من الدمع تجمدت فوق وجنتيها.. وقد عصبت
رأسها بمنديل شلته حول جبينها شدا قاسيا كأنها تحمى رأسها
من الانفجار.. وكانت سامية جالسة على طرف السرير تدلك فى
قدمى أمها.. ونوال واقفة عند الطرف الآخر تدلك فى يديها
وذراعيها.. والثلاثة فى صمت ثقيل حزين.. وقد فاجحت فى الغرفة
رائحة عطر عنيف تغلب عليه رائحة «السبرتو» كأنها فى غرفة
مستشفى..

ورفعت البنتان رأسيهما إلى أبيهما وفى عينيهما نظرات
متسائلة ملتاعة..

وأحست الأم بأنفاس زوجها، فاهتز جسدها الثقيل هزة عنيفة،
وتأوه السرير فى صرير حاد، وقامت جالسة وسط الفراش وهى
تنظر إلى زوجها نظرات مبهورة، ولما لم تسمعه يتكلم صرخت:

- هو فين.. ما جاش معاك ليه.. عملوا فيه ايه؟!

وشد الأب ابتسامة باهتة علقها على شفتيه، وقال فى حنان:

- يا ستى اطمنى.. كل حاجة ماشية كويس..

وقالت وهى لا تزال تصرخ:

- شفته.. شفته بعينك؟

وقال الأب وهو يرخى عينيه حتى لا تفضح كذبه:

- شفته، وقعدت معاه.. واطمنت عليه؟!

وعادت الأم تصرخ:
 - ما جبتوش معاك ليه.. ما تكذبش على يا زاهر.
 قبلى بيقوللى إنك بتكذب على!!
 وقال وهو يحاول ألا يتلعثم:
 - حاكذب عليكى ليه يا تحيه.. صدقيني وأطمنى.. دلوقت هوه
 قاعد فى أودة الطلاب مستنيين النيابة علشان ياخدوا منه كلمتين..
 وقالت الأم وهى تنظر فى وجه زوجها:
 - وسبته لوحده يا زاهر.. يهون عليك تسبب ابنك لوحده. ابنى..
 يا حبيبى يا ابنى.. يا ترى عاملين فيك ايه دلوقت!!
 وبدأت تجهش فى البكاء..
 وانحنت البنتان تربتان على ظهرها.. وقالت نوال:
 - بس يا ماما.. ربحى نفسك من العياط بأه.. كفاية!
 وشدتها سامية تحاول أن ترقدها على ظهرها، وهى تقول:
 - ارقدى يا ماما.. كفاية اللى عملتيه فى نفسك.. أهو بابا بيقول
 أن محبى بخير!
 وقال الأب وهو يدير وجهه:
 - وبعدين بأة يا تحية.. ما تعملش زى العيال.. انت طول عمرك
 عاقلة وبتستحملى.. انا محتاج لك اليومين دول، بدل ما تعيطى
 خلينا نفكر سوا فى حالنا.. وصدقيني.. محبى كويس.. كل اللى
 حصل أن وكيل النيابة ضرب تليفون وقال انه مش حيقدر يجى إلا
 الصبح.. واضطر محبى انه يستناه.. وأطمنى، ما حدش عارف
 حاجة، ولا حيقدرنا يعرفوا حاجة..
 وأستمرت الأم فى البكاء والنشيج..
 واستطرد الأب يقول:
 - انا حاروح انام فى أودة محبى.. ومن بدري حاكون عنده!
 وخرج من الغرفة.. وما كاد يتعدى الباب، حتى تخلت عنه
 ارادته، وعادت قسمات العذاب إلى وجهه..
 وقالت الأم من بين دموعها:
 - قوموا يا بنات شوفوا أبوكم.. قوموا معاه.. انا خلاص بقيت
 كويسة.. خدى له الجلابية معاكى يا نوال.. وانتى يا سامية، شوفى

إذا كان عايز يتسحر حطى له السحور..
ونظرت البنتان إلى أمهما فى تردد، ثم كأنهما قدرتا أن أمهما
لن تستريح إلا إذا اطمأنت على راحة الأب، فقامتا من جانبيها،
وحملت نوال جلياب والدها وخرجت مع اختها إلى الغرفة الأخرى..
غرفة محبى!
وكان الأب قد ألقى بنفسه فوق مقعد بين قطع الأثاث المبعثرة..
وجلس صامتا يدير عينيه حوله كأنه يبحث عن محبى فى كل
ما يراه.. وبين رموشه حبات من الدمع عجزت أرائده عن حملها،
فتركها تسقط على وجنتيه..
وقالت نوال فى لوعة وهى ترى دموع أبيها:
- جرى أيه يا بابا.. أنت حاتعمل زى ماما؟
وقال الأب كأنه يرجوها:
- وطنى صنوتك.. أحسن مامتك تسمعك!
ومدت سامية يديها إلى سترته قاطلة:
- قوم أخلع يا بابا، واستريح شوية!
وقال الأب هامسا وهو يزيح يد سامية عن كتفه، وقد ارتسمت
على وجهه علامات الجد:
- اسمعوا.. انا حاقولكم على حاجة مش عايز أمكم تعرفوها..
محبى فى السجن..
وشهقت كل من البنتين..
وظلت شهقتهما معلقة بين شفاهما برهة..
وقالت سامية كأنها تعرض صدرها لطعنة أخرى:
- وعبدالحميد؟
قال الأب وهو ينكس رأسه:
- معاه..
وقالت نوال:
- وعرفوا حاجة؟
وقال الأب وهو لا يزال منكس الرأس:
- ما اعرفش.. ما قدرتش اشوفه.. إنما عرفت أنهم لخدوه
السجن.. سجن الأجانِب!

وخيم على الثلاثة صمت حزين.. كل منهم يرى السجن فى
مخيلته ويرى محبى خلف قضبانه..

ثم قالت سامية:

- أنا اعرف أن ابن خالة خديجة صاحبتي يبقى ظابط فى
البوليس.. ما نكله.. يمكن يقدر يعملنا حاجة؟!

ولم يجبها أحد.. ظل الأب صامتا غارقا فى حيرته.. وظلت نوال
سادرة فى تفكيرها.. انها تفكر فى ابراهيم.. يجب أن تجده.. إنه
وحده الذى يستطيع أن ينقذ أخاه.. إنه كيف يعرف ينقذه.. يعرف
كل شئ!

وقال الأب وهو يتنهد:

- خدوا بيجامة محبى وغيار جوانى وفوطه وصابونة..
وحطوهم فى شنطة صغيرة.. يمكن أقدر أوصلهم له بكره الصبح..
وبدأت البنات تتحركان..

والبيت كله غارق فى الصمت والخوف.. كأنهم يرتقبون الموت..

● ● ●

وخرج الأب من الساعة السادسة صباحا حاملا الحقيبة
الصغيرة التى تضم ملابس محبى، ومر فى طريقه على بائع
فاكهة واشترى ثلاث أقصات من الموز.. ثم ركب الترام إلى شارع
الملكة نازلى، ونزل قبل ميدان المحطة، وسار نحو سور السجن،
ومرت به سيارة الإسعاف وهو لا يدري أنها تحمل جسدا معذبا..
فقد النطق من كثرة ما تحمله من عذاب.. جسد ابنه!

ووقف أمام الباب الكبير حائرا، ثم مد ذراعا هزيلا وضغط على
الجرس المثبت فى الحائط..

وفتحت طاقة صغيرة فى الباب وأطل عليه وجه غليظ جامد
ينتثر فوق شاريه مشعث كأنه مجموعة من الحشرات حطت فوقه
شفتان ملوثتان.. وقال فى غلظة:

- نعم.. أنت مين؟!

وقال الأب فى تخاذل:

- صباح الخير.. أنا والد محبى الدين مصطفى زاهر.. وجايب له
شوية هدوم!

وقرب الجندي وجهه من الطاقة، ونظر إلى الحقيبة التي يحملها زاهر، وإلى اللقافة التي تضم صوابع الموز.. ثم مط شفتيه، كأن ما رآه لا يكفي لأن يفتح الباب، ثم قال في حدة:
- خليك عندك..

ثم أغلق الطاقة في وجهه..
وظل زاهر أفندي واقف.. وطال وقوفه.. فوضع الحقيبة الصغيرة على الأرض وجلس عليها.. وانتظر .. انتظر طويلاً..
نصف ساعة.. ساعة.. ثم فتح الباب الصغير، وقال له الجندي:
- اتفضل!!

وهب زاهر أفندي واقف، وجمع الحقيبة ولفافة الموز بين يديه في أرتباك.. ثم دخل، وعلى وجهه فرحة كأنه سيلتقي بابنه بمجرد أن يتعدى الباب.
وقاده الجندي إلى غرفة المأمور..

ودخلها وهو يدير عينيه بحثاً عن محبى..
ولكنه لم يجده.. وجد ثلاثة ضباط بينهم اليوزباشى الدباغ..
ونظر إلى الدباغ في توصل، كأنه يستجديه ابنه.. وأقترب منه الدباغ ماذا يده وهو يصيح في ترحيب، وابتسامته للزجة تسيل على شفتيه:

- أهلاً.. صباح الخير.. أزيك يا زاهر أفندي!
واصطدمت يده بالحقيبة الصغيرة ولفافة الموز، فقال من خلال
ابتسامته:

- كل ده علشان محبى.. طيب اتفضل استريح!
وأخذه إلى ركن من الحجرة وأجلسه على مقعد كبير من الجلد، وجلس بجانبه على مقعد من الخيزران.. والضابطان الآخران لا يلتفتان إليهما..
وقال الدباغ:

- يا سيدى أطمئن.. محبى بخير!!
وقال الأب في لهفة، وهو يقفز إلى مقدمة مقعده:
- أقدر أشوقه!
وقال الدباغ:

- حلمك على .. أصل الحقيقة أن محيى مزعلنى.. يظهر أن فيه شوية عيال ضاحكين عليه مفهمينه أنه ما يتكلمش.. وأنا عاوزة يتكلم علشان يرجع البيت، ويلتفت لدروسة.. وعاد الأب إلى مؤخرة المقعد وقد بدا عليه اليأس وقال فى حزن:

- يتكلم يقول ايه يا سعادة البية ؟
وقال الدباغ:

- يقول كل حاجة يعرفها عن ابراهيم حمدى.. احنا لاقينا فى اودته حاجات تخص ابراهيم حمدى، وكل اللي عايزين نعرفه ابراهيم راح فين.. إلا قوللى.. انت ما لاحظتش على محيى حاجة فى اليومين اللي فاتوا.. بيتأخر برة.. يجتمع بصحابه كتير.. حاجة زى كده.

وقال الأب وهو يتنهد:

- أبدا يا سعادة البية.. محيى مش بتاع حاجات زى دى.. ده عمره ما كان له دعوة بالسياسة، ولا يعرف ابراهيم حمدى ولا غيره..

وقال الدباغ كأنه يأسف:

- ما هو ده اللي محيرنى.. الحقيقة أننا عمرنا ما سمعنا عن محيى، ولا كان له دوسية عندنا.. إنما مين عارف.. يمكن كان أشطرننا..

وقال الأب:

- أبدا يا سعادة البية.. هو ما لوش دعوة بالسياسة أبدا.. ده انا اللي مربيه!

وقال الدباغ بعد فترة صمت:

- اسمع.. انا حاخليك تقابله علشان تقنعه بأنه يتكلم.. وحط فى بالك أن التهمة الموجهة له خطيرة.. عقوبتها ثلاث سنين سجن على الأقل.. ولو اتكلم ياخذ مكافأة خمسة آلاف جنيه..
وقال الأب فى لهفة:

- حاقبله دلوقت؟!
وتذكر الدباغ آثار التعذيب التى قد تكون يادية على محيى،
فقال:
- لا.. دلوقت مش ممكن.. لازم نجيب اذن من الحاكم
العسكرى.. وانا حاسعى لك فى الاذن ده.. ابقى فوت على فى
المحافظة بعد بكره..
وقال الاب:
- بس اشوفه.. اطمئن عليه!!
وقال الدباغ وابتسامته لا تزال بين شفتيه:
- اطمئن.. ده فى عهدتى.. ما تخافش.. فوق على بعد بكره..
وقال الاب يائسا:
- أقدر أسيب له الحاجات دى؟!
وفكر الدباغ قليلا، ثم عدل عن أن يقول للاب إن ابنه ذهبوا به
إلى المستشفى، وقال:
- أمال.. انا حاوصلهم بنفسى!
وقال الاب فى ضعف:
- متشكر!
وقام وصافح الدباغ بيد مرتعشة، وخرج من الباب الكبير وسار
كأنه يكاد يقع على وجهه فى كل خطوة.. وركب الترام إلى
الوزارة..
ووقف يوقع على الساعة التى يوقع عليها الموظفون عند
وصولهم وانصرافهم.
ورفع عينيه فوجدها الساعة العاشرة والنصف..
لقد تأخر نصف ساعة..
لأول مرة فى حياته..
وأحس أن حياته كلها قد اختفت!!

كأنت نوال وهى تفكر فى ابراهيم، لا تدرى بالضبط ماذا يمكن أن يفعله لانقاذ اخيها محبى من السجن.. ربما استطاع أن يساعده على الهرب..
 وربما استطاع أن يزوده بدليل يثبت به براءته.. أنها لا تدرى.. ولكنها تحس احساسا عميقا بأن ابراهيم يستطيع تحمل مسئولية محبى، وأن ينقذه..

وهى تحمله هذه المسئولية بلا حقد، وبلا لوم.. انما تحملها له كبطل.. وزعيم.. وكأخ.. وكرجل يخفق قلبها بحبه..
 وقد فكرت أن تبحث عنه بدل أن تنتظر مواعده. فكرت أن تذهب إلى صديقه فتحى المليجى، وتبلغه نبأ القبض على محبى وعلى عبد الحميد، وتطلب إليه أن يأخذها إلى رجلها.. ولكنها خافت أن تذهب.. خافت أن يفسد ذهابها خطة من خطط ابراهيم.. ربما كان البوليس يراقب فتحى المليجى.. ربما كان البوليس يراقبها هى شخصيا.. انها حائرة.. لا تدرى شيئا.. لا تدرى كيف يفكر هؤلاء الشبان ولا كيف تصل إليهم.. ولكنها تحاول بينها وبين نفسها أن تفكر بعقليتهم على قدر ما فهمت من عقلية ابراهيم..
 وفضلت الانتظار إلى الغد..

كان الغد هو يوم الاثنين..

ولم تقف طويلا امام المرأة.. لم تحس هذه المرة انها ذاهبة إلى موعد غرام.. كانت لهفتها على أخيها وابن عمها، قد استحوذت على تفكيرها كله، وعلى عواطفها كلها.. حتى لم يبق منها لابراهيم، إلا دوره فى انقاذهما من السجن..

ولم تتعب نفسها كثيرا فى استئذان أمها.. كانت الأم قد هدتها لوعتها على ابنها فلم تعد تستطيع أن تغادر فراشها إلا لبضع خطوات تخطوها مستندة على ذراع احدى ابنتيها.. وقد تركت البيت للبتين يقومان بالاشراف عليه، وبين عينيها نظرة ضعيفة تتبعهما بها، كأنها تشفق عليهما من هذا العبء الثقيل الذى لا يستطيع أن يقوم به أحد إلا هى..

وسارت فى خطوات جريئة سريعة نحو محطة الأوتوبيس، وهى تتلفت خلفها بين كل بضع خطوات لتتأكد أن البوليس لا يراقبها كما كان يراقب عبدالحميد..

ولم تكن تفكر خلال الطريق إلا فيما يمكن أن يفعله ابراهيم من أجل اخيها.. قد يصمم على أن يقتل الضابط الذى اعتقله.. لا.. لن تتركه يقتل مرة ثانية.. انها تخاف عليه.. ورغم ذلك فهى فى اعماقها تتمنى لو قتل هذا الضابط.. لو قتل كل الضباط.. وكل رجال البوليس، إذا كان هذا هو الطريق لانقاذ اخيها.. ولكن على شرط ألا يتولى ابراهيم قتلهم.. انها تريده سالما.. تريده هو واخاها..

وكانت متأكده أن ابراهيم سيأتى للقائها..

شئ فى صدرها يكذب كل شك يساورها فى حضوره..

إنه لا يستطيع أن يتخلى عنها اليوم.

لا يستطيع أن يترك محبى فى السجن.. ولا يأتى ليطمئنها على ما سيفعله من أجله..

ونزلت من الأوتوبيس، وسارت إلى ميدان «فنى»، وهى لا تحس بالخرج من عيون الناس التى تتبعها.. لم يعد شئ يهمها إلا أن تلتقى بابراهيم لتنقذ اخاها.. إنها ليست ذاهبة إلى موعد غرام أيها الناس، إنها ذاهبة لانقاذ أخيها..

وروقت فى ميدان «فنى» بجوار مستشفى عانوس، وهى تتلفت حولها، وفى عينيها نظرات قوية، جريئة.. ومضت الدقائق.. مضت ربع ساعة..

وبدا الشك يراودها.. وخفتت نظراتها القوية الجريئة..
ومضت الدقائق..
مضت نصف ساعة..
وبدا الشك يقترب من اليقين.. وبدأ الأمل يقترب من اليأس..
وبدأت ثورة عارمة تتجمع في صدرها..
ومضت الدقائق..
ثلاثة ارباع الساعة..
انه لن يأتي.. هرب من المسؤولية.. ماذا يهمه لو قبض على
أخيها، وسجن، أو شنق.. ماذا يهمه لو قبض عليهم جميعا،
ولو احترق البيت بمن فيه.. كل ما يهمه أن يهرب.. أن ينقذ
نفسه..
وانفجرت الثورة في صدرها..
لماذا تحبه.. هذا الأثافي؟
وماذا تحب فيه؟
ريما كانت تحب فيه وهما.. وهما صوره لها بطلا.. ولكن اين
البطل؟ إنه هرب.. إنه ترك أخاها وابن عمها في السجن وهرب..
لم تكن تتصور أن الأبصال يهربون.. يضحون بالناس في سبيل
سلامتهم!
لماذا لا تذهب للبوليس وتنقذ أخاها بنفسها.. لماذا لا تقول
للبوليس كل شيء.. ستدلمهم على فتحى المليجي.. وفتحى يستطيع أن
يدلمهم على ابراهيم، إن ابراهيم أحق بالسجن من أخيها ومن ابن
عمها.. انه بطل.. والسجون أقيمت من أجل الأبطال.. أما أخوها وابن
عمها فليس أبطال!!
وأحست بغصة تقبض قلقها..
لا.. إنها لا تحب وهما.. إنها تحب رجلا عاش في بيتها.. تحب
حقيقة عاشت في عينيها، وفي رأسها، وفي قلبها..
وأحست بثورتها تلين وهي تستعيد صورته.. عينية الواسعتين
 وأنفه الكبير، وشفتيه الرقيقتين، وذقنه القوي.. وحديث الهادئ
الخبول.. وسماء النبل والشهامة والرجولة تكسو وجهه..

وأحست بعواطفها تتمزق.. كأن إبراهيم يشدها من ناحية
وأخاها يشدها من الناحية الأخرى.. إنها حائرة.. حائرة بين حبيبيها
وأخيها.. لا تستطيع أن تضحي بأحدهما.. ولا تكاد تجمعهما في
قلبيها حتى يشدهما عن بعضهما لهفتها على أخيها السجين،
ولهفتها على حبيبيها الهارب..
وأحست باليأس.. كأن باب الأمل الوحيد قد أغلق في وجهها..
الباب الذي كان يقف فيه إبراهيم ويمد منه يده لانقاذ أخيها..
ودفعها اليأس إلى الاحساس بالاستسلام.. الاستسلام للقدر.. لله
ووجدت نفسها تتنهد من أعماقها وهي تسير عائدة إلى بيتها،
وتردد:

- يا رب.. يا سيدة زينب.. يا سيدنا الحسين!!
ووصلت إلى البيت لتتضم إلى العائلة الحزينة.. حزنا مستسلما،
صامتا إلا من أصوات النشيج الخافت كلما خلت الأم أو إحدى
البنات بنفسها..
وقضى الأب يومه يحاول أن يعثر على «واسطة تتوسط في
انقاذ ابنه.. ذهب إلى رئيسه في عمله.. ووعده رئيسه خيرا.. وذهب
إلى صديق له من موظفي وزارة الداخلية.. ووعده خيرا.. وذهب
إلى نسيب يمت بصلة قرابة بعيدة لثائب في البرلمان.. ووعده
خيرا.. واستمع إلى زملائه، وكل منهم يدلي بنصيحة، ويوصيه
بطريق..

وقال له محمد افندى العنتيل زميله في المكتب:
- بصراحة.. معاك قرشين.. إذا كان معاك اد خمسين جنييه،
استغنى عنهم، وحطهم في أيدى عبدالله بيه عبدالله.. ده عضو مجلس
نواب وكلمته تفتح كل باب حتى باب السجن.
وأحصى الأب في ذهنه كل ما يملكه، وقرر أن يضحي
بالخمسين جنيها في سبيل ابنه.. ولكن ما لبث أن يئس عندما أكد
له زميل آخر، إن عبدالله بيه عبدالله، لن يفعل له شيئا إلا أن يتنازل
ويقبل الخمسين جنيها ليضعها في جيبه..
وعاد آخر النهار لتقابله مشكلة أخرى..

كيف يكذب على زوجته كذبة اخرى، ليخدعها فى مصير ابنه،
وقال لها قبل أن يركز تفكيره:
- يا ستى التحقيق اتأخر، حيضطروا يبيتوه الليلة دى كمان!
وقالت الأم وهى تتأوه:
- انت بتكذب على يا زاهر.. ما تكذبش على يا اخويا..
قوللى الحقيقة.. عملوا فى ابنى ايه. سجنوه.. شنقوه..
وقال وهو يدير وجهه عنها:
- هوه السجن بالساهل.. ده لسه تحقيق طويل!
قالت وهى تحرك رأسها فى عصبية فوق الوسادة:
- بالساهل يا اخويا.. كل حاجة عندهم بالساهل.. دول
مجرمين.. يارب يشحططهم على ولادهم، زى ما شحططونى على
ابنى.. رينا ينزل عليهم مصيبة تاخذ أجلهم، زى ما بيصيبوا ولاد
الناس..
وتركها الأب، وهرب إلى غرفة القعاده، حتى لا ترى يأسه على
وجهه..
وازدحم البيت بعد الإفطار..
جاء الجيران الذين سمعوا الخبر.. جاءوا وعلى وجوههم
دهشة.. لم يكن أحد منهم يعتقد أن محبى له دخل فى السياسة..
وبعضهم لا يتصور أنه قبض عليه فى قضية سياسية.. من يدري..
ماذا يستطيع هذا الشاب الضعيف الخجول أن يفعله.. ربما اشترك
هو وابن عمه فى جريمة سرقة.. ربما ضبطا فى حادث حشيش..
إن ابن عمه حشاش وبايظ، ولم يتم تعليمه..
وكلهم تغلبهم الرغبة فى الاستطلاع وسماع القصة، على رثائهم
للعائلة وعطفهم عليها..
والأم فى فراشها، تستقبل جاراتها والبنات بجانبها يرويان لهن
قصة القبض على اخيهما، ويعيدان روايتها فى كلمات مبتورة
وصوت جزين..
وكلما سألت إحدى الجارات عن سر القبض، أجابت إحدى
البنتين:

- ما نعرفش.. ما حدش عارف حاجة لغاية دلوقت!
وتستطرد الأخت الأخرى:
- دول الأيام دى بيقبضوا على الناس عميانى.. اللى يلاقوه فى
وشهم يقبضوا عليه!
وتمصص الجارات شفاهن حسرة.. وتتنهد الأم قائلة:
- افرجها يا رب!!

والأب فى غرفة «الضيوف» يستقبل جيرانه برأس منكسة،
ويروى هو الآخر القصة المرة بعد المرة، وفى كل مرة يضع لها
تفاصيل جديدة، ويحذف منها تفاصيل سبق أن قالها..
وجاء أخوه.. والد عبد الحميد.. انه اضعف منه، وأقل حزما..
وحياته كانت دائما مهزوزة، مائعة، وو من هذا الصنف من الرجال
الذى يستسلم لزوجته، إذا لم يجد انسانا آخر يستسلم له.. وقد
كان أشد حيرة من أخيه منذ سمع بخبر القبض على ابنه.. ولم
يستطع أن يفعل شيئا، لم يستطع حتى أن يذهب إلى المحافظة
ويسأل هناك.. إنما خرج من البيت مرضاة لزوجته، وجلس فى
المقهى.. ثم جاء إلى أخيه ليستمتع منه إلى بعض تفاصيل يعود بها
إلى بيته ويرويها لزوجته، كأنها تفاصيل وقف عليها بنفسه..
وقال الأخ لأخيه بعد أن استمع إلى القصة تروى على مسامع
الجيران المرة بعد المرة:

- طيب قولنا إن عبد الحميد ابنى ولد شقى.. مين عارف كان
بيعمل إيه.. إنما محيى.. ده طول عمره عاقل ومقتصر فى حاله..
ذنبيه إيه كمان؟!
وقال الأب:

- مالوش ذنب.. ولا عبد الحميد له ذنب.. قسمتنا كده؟
وقال صديقه السيد عبد الفتاح:
- قسمتنا ده إيه.. بأة دى عيشة ترضى رينا.. ده ظلم.. دى
حكومة سفاحين..

وقال خليل افندى أبو العز:
- الحقيقة حالة البلد بقت ما تنطقش.. وما حدش عارف آخرتها

ايه .. ما فيش طريقة تودى الناس دول فى داهية؟!

ورد السيد عبدالفتاح:

- قبل ما يودونا فى داهية!

وقال عباس افندى مرتضى:

- والله الواحد ابتدا يعذر الشبان بتوع السياسة.. لو كنت لسه فى شبابى كنت عملت زيهم واكثر شوية..

واستمع الأب إلى تعليقات جيرانه واصدقائه فى دهشة صامتة.. انها المرة الاولى التى تتردد فيها مثل هذه الأقوال فى بيته، والمرة الاول الى يسمعا تتردد من اصدقائه.. ولكنه يحس أن هذه الأقوال كانت حبيسة فى صدره منذ زمن طويل.. كان دائما يردها فى نفسه ولا ينطقها..

وأحس برغبة جامحة فى ان يشارك اصدقائه تعليقاتهم.. أن يثور.. وأن يسب ويشتم فى الحكومة، وفى الملك، وفى الانجليز. ولكنه كبى رغبته بكل ارادته.. كان خوفه على ابنه يحول دون ثورته، وكان يعتقد أن من الأفضل له أن يوافق الحكومة - حتى فى حديثه مع اصدقائه، وحتى بينه وبين نفسه - لعلها ترحم ابنه.. وبدأ الجيران ينصرفون.. وانصرف معهم اخوه، ومال على اذنه وهو يضافحه قائلا:

- تفكر حيحصل ايه؟

وقال زاهر افندى وهو يطأطئ رأسه:

- والله ما انا عارف يا خويا.. أنا مسلم أمرى الله..

● ● ●

ونامت العائلة مفتحة العينين..

وخرج زاهر افندى فى الصباح الباكر يعاود محاولة الاتصال بابنه، وقد قرر أن يذهب إلى رئيسه، ويستأذنه فى غياب يوم حتى يستطيع أن يذهب لمقابلة اليوزباشى الدباغ ليسهل له مقابلة ابنه، كما وعده..

وبقيت الأم وبناتها فى البيت.. يتحركون كأنهم يتأوهون من الألم..

ودق جرس الباب فى الساعة الحادية عشرة.. وفتحت سامية، ثم تراجعت عن الباب وهى تضع يدها فوق صدرها، وقالت فى حدة يشوبها الذعر :

- عايز ايه؟!

وظلت تنظر إلى الطارق بعينين واسعتين، كأنها تخشى أن يمد يده إلى عنقها ويخنقها..

ولم يكن الطارق سوى جندي من جنود البوليس فى ثيابه الرسمية.. وكان يبتسمهم فى تواضع، ويغض نظره فى أدب.. وقال فى صوت هامس:

- أنا جاي من طرف سى عبدالحميد أفندى!

وقالت سامية وهى لا تزال تنظر إليه بعينين واسعتين:

- عبدالحميد!! عبدالحميد مين؟!

وقال الجندي:

- مش ده منزل مصطفى أفندى زاهر؟

وقالت سامية، وقد بدأت تحاول أن تفهم:

- أيوه..

وقال الجندي وهو يهمس:

- أنا جاي من سجن الأجانب.. وسى عبدالحميد مسلمنى رسالة

أوصلها لكم!

ثم أخرج من جيبه ورقة مطوية، ومد بها يده إلى سامية..

وتناولتها سامية بيد مرتعشة.. ونظرت إلى الجندي صامتة.. ثم

فردت الورقة أمام وجهها ونظرت فيها..

إنه خط عبدالحميد..

إنها تعرف خط يده من بين آلاف الخطوط.. تعرفه طول حياتها:

وقرأت:

«عمى العزيز..

بعد تقبيل أيديكم الكريمة، أبلغكم أننا بخير، ولم يحدث شئ

يمكن أن يزعكم، ويسئ إلى موقفنا.. وقد نقلوا محيى إلى

المستشفى هذا الصباح، وقد علمت انه بصحة جيدة، ولكن أصابه

بعض التعب من اثر الرطوبة.. والمستشفى خير له، على كل حال من السجن.. فلا تتزعجوا.. أرجوك يا عمى ان تثق بنا، وكل ما نحتاج إليه هو الصبر.. صبركم وصبرنا.. أرجو أن تطمئن والدئ والدئ.. وأن تطمئننى على أخباركم عن طريق حامله.. تحياتى إلى الجميع».

والخطاب بلا توقيع..

ورفعت سامية رأسها وقالت فى لهفة:

- محبى فى المستشفى ليه.. حصل له ايه؟!

وتلفت الجندى حوله ليشعرها بأنه لا يزال واقفا على الباب،

وقال:

- ما حصلش حاجة.. بس كان تعبان شوية!

وقالت سامية وهى تكاد تصرخ:

- تعبان.. تعبان من ايه؟

وعاد الجندى يتلفت حوله، ولاحظت سامية تلفته، فافسحت له

الباب قائلة:

- اتفضل!

ثم اغلقت الباب وراءه، وهى تقول:

- أعمل معروف طمنى!

وقال الجندى، وهو ينظر إلى المقعد لتدعوه إلى الجلوس:

- اطمئننى يا ست هانم.. ما حدش بيروح المستشفى إلا بواسطة..

وقالت سامية وهى تشير إلى المقعد:

- اتفضل!

وتركته واتجهت إلى داخل البيت، ونادت لختها هامسة، خفية

عن أمها، وأنزوت بها فى ركن من الممر الذى يصل بين الحجرات،

وأطلعته على رسالة عبد الحميد، ونقلت لها حديث الجندى.. ثم

خرجتا إليه سويا، وقالت نوال وفى عينيها لهفة:

- ما تعرفش من فضلك، نقلوه أى مستشفى؟!

وقال الجندى، وهو جالس:

- والله مش متأكد إنما اللي اعرفه إن كلهم بيروحوا القصر

العينى!

وارتفع صوت الأم من الداخل:
- مين يا بنات؟!
وتبادلت البنتان النظرات، ثم دخلت إليها نوال قاطلة:
- ده واحد جاى من عند محبى وعبدالحميد بيظمننا عليهم!
وقفزت الأم جالسة فوق سريرها، ثم نزلت من فوق السرير فى
خفية، كان شبابها رد إليها، وقالت:
- جاى من عندهم.. لازم اشوفه!
وقالت نوال فى ارتباك:
- بس ساوى شعرك يا ماما.. ما يصحش.. و..
وقالت الأم مقاطعة:
- ناولينى منديل رأسى.. والشال بتاعى..
وناولتها نوال منديل الرأس والشال ثم تركتها مسرعة،
وخرجت إلى الجندى وقالت له هامسة:
- أعمل معروف ما تقولش لها حاجة.. قول لهم أنهم بيحققوا
معاهم بس.. ما تجيش لها سيرة السجن ولا المستشفى.. أصلها
عيانة شوية واحنا مخبيين عليها..
ودخلت الأم وهى تسير فى خطوات سريعة كأنها تركت وراءها
آلامها، وجسمها المكتنز، وتوقفت قليلا عندما رأت الجندى بزيه
الرسمى، ثم قالت :
- أنت شفتهم يا ابنى.. شفتهم بنفسك؟!
وقال الجندى وهو يقوم واقفا:
- أيوه.. كويسين ومستريحين وصحتهم عال..
وقالت الأم:
- وحيرجوا امتى.. قول لى يا ابنى طمنى؟!
وقال الجندى:
- تهون ياست هانم!
وقالت الأم فزعة:
- تهون.. ودى تهون ليدا.. ما تقول.. ما تخبش.. حترجعهم
أمتى؟!
■ ٣٣٦ ■ فى بيتنا رجل ■

وأرتبك الجندى ونظر إلى البننتين، كأنه يستغيث بهما، ثم قال:
- كلها يوم ولا اثنين، ويخلص التحقيق..
وقالت الأم كأنها تعتبر هذا الجندى هو المسئول الأول أمامها:
- والنبي يا ابنى دول مظلومين.. صدقنى.. دول مظلومين..
واللى بيجى على المظلومين رينا ما يرحموش.. خافو من رينا
يا ابنى..

ثم جلست كأنها سقطت فوق المقعد.
وأحس الجندى بحرج، ومط شفتيه كأنه يشفق على هذه العائلة
الساخرة، ثم ردد وهو يبحث عن أى كلام يقوله:
- اطمئنى يا ست.. الفرج قريب باذن الله.. على كل حال
لو حبيتوا توصلوا لهم أى حاجة، أنا فى الخدمة.
وقالت الأم وكأنها لا تسمعه:

- وبتحققوا معاهم فى اية باه .. ايه اللى عملوه؟!
وعاد الجندى ينظر إلى البننتين، ثم قال:
- على كل حال.. اطمئنى يا ست..
وقالت الأم:

- ويا ترى بيناموا ازاي..

وقال الجندى:

- على سراير.. زى حضرة الضابط تمام!
وعادت الأم تقول وهى تمصمص شفتيها وترفع عينيها إلى
السماء:

- ويا ترى بياكلوا ايه؟

وقال الجندى:

- الفطار.. لحمه.. ورز.. وخضار.. والله حضرة الضابط بيسيب
الأكل اللى جاى من بيتهم.. وياكل من أكل السجن!
وخبطت الأم على صدرها، وصاحت:
- سجن.. هم خلاص دخلوا السجن.
وبوغت الجندى، ثم قال بلهجة العليم:
- لا يا ست هانم، دول أسمهم.. تحت التحقيق!

ثم قام واقفا، كأنه يريد أن يفر من هذا الحرج، وقال:
- تحبوا أوصل لهم حاجة؟

وقالت الأم:

- أيوه والنبي يا ابني نفسى أبعت له شوية من حاجات رمضان،
أصل محبى طول عمره بيحب البندق واللوز.. ولازم كمان أبعت له
شوية هدوم، زمانة مش طايق الهدوم اللى عليه يا حبة عيني..
وكمان شوية فاكهة يغذى بيهم نفسه.. وكتبه.. ما هو لازم يذاكر..
الامتحان فاضل عليه يدوبك كام يوم..
والتقت الجندى إلى البنتين وقال لهما، كأنه يئس من التفاهم
مع الأم:

- الحاجات دى مش ممكن تسخل إلا بإنن.. إنما إذا كان فيه
حاجات صغيرة ممكن الواحد يدخلها له..
قالت سامية:

- زى اية؟

وقال الجندى وقد عاد يتعجب لهذه العائلة الساذجة:

- فلوس مثلا.. ما هم برضه هناك محتاجين لفلوس!

وقالت نوال وهى تضع ذراعها فى ذراع أمها:

- تعالى يا ماما.. عايزاكى فى كلمة جوه!

وقامت الأم وهى تتأوه، وقد عادت إليها كل آلامها، واتجهت مع
ابنتها إلى غرفتها. ثم صعدت إلى سريرها وارتمت عليه يائسة
كأنها عادت من رحلة خاطبة، وأشارت إلى ابنتها، وقد فهمت ما قاله
الجندى، وقالت:

- افتحى الدرج اللى عندك ده، تلاقى منديل معقود على جنيه..
خدى الجنيه واديه للجدة ده يوصله لمحيى.. يمكن يكون صحيح
محتاج له..

وفتحت نوال الدرج، وفكت عقدة المنديل، ثم حملت الورقة ذات
الجنية وعادت بها إلى الجندى قائلة وهى تناولها له فى ارتباك:
- إذا كان محتاج حاجة ثانية، ابقى فوت علينا.. يكون بابا جه!!
ونظر الجندى إلى الورقة المالية وقال:

- ده باه أدبه لسى عبدالحميد؟

وقالت نوال:

- أيوه..

وعاد الجندي ينظر إلى الورقة المالية دون أن يتحرك فى وقفته،
وقال:

- والله الواحد بيجازف بمستقبله علشان خاطره.. أى عمله زى
دى يمكن تودينى فى داهية، ولا انسجن فيها..
وقالت سامية:

- فيك الخير..

وعاد الجندي يقول وهو ينظر إلى نوال ثم يعود وينظر إلى
الورقة المالية:

- إنما الحقيقة دول رجالة يستأهلوا..

ولم يتحرك من وقفته، ولم بيد عليه نية الانصراف!
وبرقت عينا نوال كأنها فهمت شيئاً.. ثم التفتت إلى أختها،
قائلة:

- سامية.. اسمعى ؟

ثم اخذتها من ذراعها ودخلت إلى البيت وهى تقول للجندي:

- دقيقة واحدة من فضلك!

ثم همست فى اذن سامية، وقد اصبحتا على باب غرفتهما:

- هاتى الخمسة وعشرين قرش اللى معاكى، على الخمسة
وعشرين قرش اللى معايا.. ونديهم له..

وقالت سامية:

- يمكن يرفضهم.. ويزعل!

وقالت نوال:

- مش باين.. كل الناس بتعمل كده.. وأصلنا محتاجين له!

وهزت سامية رأسها كأنها غير مقتنعة.. ثم اخرجت كل من
الأختين حقيبتها وتناولت ما فيها من نقود، ثم جمعت نوال المبلغ
فى يدها، وعادت به إلى الجندي، ووضعتة فى يده وقلبيها يدق
بعنف كأنها ترتكب جريمة!

ولم ينظر الجندى إلى المبلغ، إنما تحسسه بيده كأنه أعمى يعد نقوده، ثم قال:

- ودول علشان مين بأه؟

وقالت نوال وهى تتلعثم:

- دول علشانك.. علشان المواصلات!

وقال الجندى وهو لا يزال قابضاً على النقود فى يده:

- مفيش لازمة.. لا والله.. ماتجيش!

واتسعت عيناً سامية كأنها تصدقه.

وتردد بين شفقتى نوال كلمات لا معنى لها..

ووضع الجندى النقود فى جيبه، قائلاً:

- متشكرين!

ثم تحرك نحو الباب، ونوال تقول له:

- أباه طمنا دايمًا.. كل يوم..

وقال الجندى:

- حاضر.. خليتكم بعافية!

وخرج..

ودخلت نوال إلى المطبخ، وهى تسير مقبلة الجبين كأنها تخنق

أفكارها.

وفتحت سامية خطاب عبد الحميد، وأخذت تعيد قراءته كأنها

تلتقى به بين السطور.. ثم غطت عينيها بالخطاب.. ويكت.. كأنها

تبكى على صدره!

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة: بعد الظهر عندما عاد الأب.. عاد

أكثر يأسًا.. وأشد ضعفًا.. وأصغر شأنًا.. لقد ذهب إلى مكتب

اليوزباشى الدباغ فى المحافظة، فلم يجده.. وانتظر على بابه ثلاث

ساعات جالسا بين الساعة، إلى أن جاء الدباغ.. وعندما جاء أبقاه

على الباب ثلاث ساعات أخرى، ثم رفض أن يقابله.. رفض حتى أن

يطمئن على ابنه.. وعاد إلى بيته وهو يسحب قدميه ويسير فى

ظلام لا يرى خلاله شيئًا.. ولا يرى فى داخل نفسه إلا الحقد..

والثورة المكبوتة فى عنف.

وأستقبله ابنتاه وأطلعتاه على نبأ الجندي الذي جاء.. وقرأ خطاب عبدالحميد.. وشعر ببصيص ضئيل من النور يتسلل إلى صدره.. إنه على الأقل يعرف أين ابنه الآن.. ويحس كأنه سمع صرخة حادة.. صرخة محيى وهو راقد فى المستشفى يناديه ويستغيث به..

وأستدار فى عجل.. وخرج من البيت قبل أن يطمئن على زوجته.. واستقل سيارة من سيارات الأجرة، وأمر السائق أن يتجه به إلى مستشفى القصر العينى.. بسرعة.. بسرعة وحياة أبوك يا أسطى..

ولكنه لم يستطع أن يرى ابنه..
لقد تخبط بين جنبات المستشفى ساعات طويلة، وكل ما استطاع أن يراه غرفة يقف على بابها جنديان مسلحان.. عرف أن فيها ابنه.. وكل ما استطاع أن يقف عليه كلمة قالها له طبيب شاب.. طمأنه بها على صحة ابنه.. إنه مصاب بضعف.. ضعف شديد.. هذا كل ما فى الأمر..

وعاد إلى البيت فى الساعة السادسة مساء.. يحمل همه..
عاد ليستقبل - هو وعائلته - ليلا طويلا..



صباح الاربعاء..

وأستعدت نوال لتذهب إلى موعدها.. الموعد الذى لم تلتق فيه ابدا بابراهيم.. وهى لا تدري لماذا تذهب.. ولماذا لا تياس.. ولكنها كانت يائسة فعلا.. لم يكن فى قلبها قطرة من الامل.. كانت تحس كأنها ذاهبة لزيارة قبر.. قبر أمالها.. قبر نذرت نفسها لزيارته صباح كل يوم اثنين، وصباح كل يوم اربعاء..

وخرجت من البيت وهى غارقة فى الحداد.. حداد قلبها..
ووقفت فى ميدان «فنى» دون أن تتلفت حولها.. ووقفت منكسة الرأس كأنها تتلو الفاتحة لتستنزل رحمة الله على أمها الشهيد..
ووقفت بجانبها سيارة..

ورفعت رأسها فى بطاء، ورأت فى السيارة فتحى المليجى،

فاندفعت إليه فى لهفة، وقالت دون أن تحييه:
- عرفت أيه الذى حصل؟!
ونظر إليها فتحى فى حنو، كأنه يربت على قلبها بعينيه، وقال
بصوت هادئ:
- عرفت.. عرفنا كل حاجة.. وإبراهيم باعتنى مخصوص علشان
أطمئنك.. بيقولك تأكدى أن مش حيصلهم حاجة!
وقالت نوال فى صوت ضعيف وهى تنكس رأسها حتى لا يرى
فتحى عينيه:
- وازاى إبراهيم!
وقال فتحى وبين شفثيه ابتسامة حلوة كأنه يحيى بها حبا
عظيما..
- كويس.. بخير..
وسادت فترة صمت.. ثم عادت نوال تقول:
- إنما حايطلعوا من السجن ازاي؟
وقال فتحى:
- السجن مش مهم.. المهم أنهم ما يعترفوش.. ولخاية دلوقت
ما حدش منهم اعترف.. ما كانش ممكن حد يصدق أن محبى
وعبد الحميد يستحملوا ده كله.. دول استحملوا كتير.. دول أبطل..
وقالت نوال مذعورة:
- استحملوا إيه؟
وترجع فتحى قائلا وقد استنتج أنها لا تدري ما تحمله أخوها
وابن عمها من عذاب:
- المهم أن إبراهيم بيطمئك.. بس المسألة عايزة وقت!
وقالت نوال وهى لا تفهم:
- مسألة إيه؟
قال:
- مسألة الإفراج عنهم..
قالت:
- عايزة وقت كتير؟!

قال:

- لا.. مش كثير.. بس المهم ما يعترفوش!

قالت ساخرة:

- كل اللي يهمكم انهم ما يعترفوش.. مش كده؟!

قال فى هدوء:

- لو اعترفوا حيروحو المحكمة ويتحكم عليهم، أقله بتلات سنين.. ولو ما اعترفوش حيفضلوا معتقلين شهر ولا شهرين، ويخرجوا..

ونكست رأسها كأنها خجلت من نفسها..

وقال فتحى :

- انا مضطر اسبيك دلوقت.. شدى حيلك.. وخذى بالك أوعى

حد يتكلم!

قالت كأنها لم تعد تستطيع أن تقاوم:

- ما اقدرش اشوف ابراهيم!

قال وبين شفثيه ابتسامته الطيبة:

- ده كان حيودى نفسه فى داهية مرتين علشان ييجى يشوفك..

وانتى عارفة ظروفه.. إنما ضرورى حاتشوفيه.. بإذن الله!

ونكست نوال رأسها، وقد التمع وجهها، وكست وجنتيها حسرة

خفيفة.. كأنها تواجه حبها لأول مرة.. إنه لم ينسها.. حاول أن

يراه.. خاطر بنفسك فى سبيلها.. إنه يحبها..

وتركها فتحى المليجى هاتمة.. وانطلق بسيارته..

● ● ●

قاد فتحى سيارته حتى وصل إلى ميدان جامع الأزهر.. ثم

أوقف السيارة بين مجموعة من سيارات التجار التي تعودت أن

تقف هناك فى انتظار أصحابها.. وسار على قدميه، ثم انحرف إلى

اليمين محاذيا الجامع الأزهر.. وأستمر فى سيره حتى وصل إلى

شارع «الباطنية».

ووقف أمام بيت مكون من ثلاثة أدوار.. يبدو أكثر متانة من

البيوت التي حوله.. وأطلق صغيرا خاصا عدة مرات.

وفتحت نافذة فى الدور الاول، وأطل عليه شاب يرتدى جلبابا،
وقال بمجرد أن رآه:

- أهلا.. أزيك يا فتحى.. جيت كراسة المحاضرات؟

وقال فتحى، وهو ثابت لا يتلفت حوله:

- طبعاً.. عايزين نذاكر شوية.. مش فاضى دلوقت!!

وتردد الشاب برهة، ثم قال:

- فاضى.. اتفضل!

ودخل فتحى من باب البيت.. وحيا امرأة لا يعرفها جالسة فى
الحوش الضيق الذى يستقبل الداخل، ثم ارتقى السلالم الحجرية
القليلة، حتى وصل إلى الدور الاول، فانفتح الباب، وبرز له الشاب
الذى أطل عليه.. عريض قصير تبدو رقبته الغليظة وفوقها رأسه
الكبير كسنديانة حداد..

وتبادلا نظرات صامتة..

ثم تقدم الشاب بضع خطوات وأغلق الباب الذى خرج منه.. ثم
أخذ يصعد السلم الحجرى فى خطوات بطيئة هادئة ومن خلفه
فتحى..

ووصل إلى الدور الثالث..

وأخرج الشاب مفتاحاً من جيب جلبابه وفتح الباب.. ودخل ومن
خلفه فتحى صامتين..

كانت شقة مظلمة.. كل نوافذها الخشبية مغلقة.. ليس فيها من
ضوء إلا ما يتسلل من بين خشب النافذة المغلقة..

واتجهوا إلى إحدى الغرف..

وفتح الشاب الباب، وترك فتحى يمر قبله..

وأنبعث صوت من جانب الغرفة.. صوت متعب كأن صاحبه
يتنهد:

- شفتها؟!

وقال فتحى باسماء:

- طب استنى يا ابراهيم لما اقول لك السلام عليكم..

وأعتدل ابراهيم فى جلسته على الأريكة.. إنه يبدو نحيلاً هزيلًا..

وجهه ممتقع.. وعينه تيرقان ببريق لامع عصبى، كأن روحه كلها
تجمعت فى عينيه.. وقد أطلق شاريه.. فبدأ اكبر من سنه.. وذقنه
غير حليق.. فبدأ كالمريض..
وقال ابراهيم فى عصبية:
- وعليكم السلام.. قالت لك ايه!
وقال فتحى وهو يجلس بجانبه:
- كانت خايفة على اخوها.. إنما قدرت اطمئنها.. وطبعاً عايزة
تشوفك!
وسكت ابراهيم..
سكت فترة طويلة.. وفتحى ينظر إليه مبتسماً كأنه تعود منه
هذا الحال..
ثم نكس ابراهيم رأسه، وقال:
- أنا بافكر اسلم نفسى.. ما فيش طريقة انقذ بيها محبى إلا انى
أسلم نفسى!
وقال فتحى وهو لا يزال هادئاً:
- ما تبقاش مجنون!
وقال ابراهيم وهو يسند جبينه فوق رأسه:
- يظهر انى لازم اتجن!!

كانت الخطة التى وضعها إبراهيم مع أصدقائه قبل أن يهرب من السجن تقضى بأن يدبروا له وسيلة يستطيع أن يخرج بها من مصر كلها .. وكانت الوسيلة التى اتفقوا عليها هى أن يتصلوا بصديق لهم فى الاسكندرية ، ابن أحد مقاولى شحن السفن ، ليساعد إبراهيم على التسلل إلى إحدى السفن الراسية فى الميناء ، والاختباء فيها ، حتى يصل إلى مرسيليا .. وهناك يبدأ فى وضع خطة جديدة ..

وخرج إبراهيم من بيت محيى مرتديا بدلة الضابط .. ساعة الإفطار .. ولم يلمحه بواب البيت فقد كان مشغولا فى تناول إفطاره .. وسار فى خطوات سريعة نحو شارع النيل .. والطريق خال من الناس .. وارتبكت خطواته قليلا عندما لمح عسكري داورية، جالسا على حافة « السور » المقام على ضفة النهر وهو يتناول طعام الافطار .. رغيف عيش ، وقطعة جبن ، وحزمة فجل .. واستطاع إبراهيم أن يسيطر على خطواته بسرعة ، واستمر فى سيره .. ولمحه عسكري الداورية ، فوقف منتصباً يؤدى التحية العسكرية لحضرة الضابط .. وسقطت حزمة الفجل على الأرض .. ولم ينتبه إبراهيم إلى تحية العسكري إلا بعد أن تعدها ، فرفع يده يرد له التحية دون أن يلتفت إليه بوجهه .

ورأى من بعيد السيارة التى تنتظره .. إنها سيارة فتحى المليجى .. إنه يعرفها .. وكثيرا ما استعملها فى عمليات الاغتيال التى كان يقوم بها .. وأسرع الخطى .. وحاذى بطرف عينه فرأى

صديقه فتحي وبجانبه محمود عرفه .. صديق آخر من طلبة كلية التجارة .. وانحرف فجأة ناحية السيارة وفتح بابها الخلفى وألقى بنفسه فيها .

وكان محرك السيارة دائرا .. فانطلقت مرة واحدة .. دون أن يلتفت فتحي أو محمود إلى إبراهيم .. ودون أن يتفوه أحدهم بكلمة.. وظل إبراهيم جالسا منحنيا إلى الإمام حتى يبعد وجهه عن نافذه السيارة .

وتعدت السيارة ميدان الجيزة فى دقائق ، وانطلقت كالصاروخ فى شارع الهرم .. ثم انحرفت فى حدة إلى طريق الاسكندرية .. وقال فتحي كأنه يتم حديثا لم ينقطع :

- احنا لازم نكون فى اسكندرية الساعة حداشر إلا ربع .. عبدالعزيز مستتينا فى التريانون الساعة حداشر تمام .. وقال إبراهيم فى صوت هادىء :

- الساعة كام دلوقت ؟

ورد محمود عرفه دون أن يلتفت إلى إبراهيم :

- سبعة إلا ربع ..

وقال إبراهيم :

- حانلق بالراحة .. هدى شوية يا فتحي أحسن يوقفونا عند نقطة الحدود !

وهذا فتحي من سرعة السيارة قليلا ، دون مناقشة .. ثم بدأ الثلاثة يتحدثون عن تفاصيل الخطة التى وضعوها .. وعن زملائهم الذين فى السجن ، والذين فى المعتقل ، والذين لم يقبض عليهم بعد.. وعن أخبار السياسة .. وأخبار همام بك واليوزباشى الدباغ .. ولم يتكلم إبراهيم عن البيت الذى كان مختبئا فيه ، ولم يسأله أحد عنه .. وكان إبراهيم فى حديثه لا يبدو متحمسا كعائته ، ولا يبدو واعيا .. لم يكن يوجه هذه الأسئلة الحاسمة الدقيقة التى تمس صلب كل موضوع وتكشف عنه .. كان يبدو كأنه يأس .. حزين .. كأن روحه تنسحب منه رويدا رويدا ، كلما تقدمت به السيارة نحو الاسكندرية .. ولم يكن بينه وبين نفسه يفكر فى تفاصيل خطة

الهرب ، ولم يكن يحس بأصدقائه الذين يتحدث عنهم ، ولا بأخبار السياسة التى يستمع إليها .. إنما يملؤه الإحساس .بأنه على وشك أن يترك مصر كلها .. إحساس رهيب مخيف يتجاوب فى صدره كالهواء البارد الثقيل .. ماذا يفعل بعيدا عن مصر .. ما قيمته هناك ، فى فرنسا .. سيكون إنسانا حيا .. يأكل ويشرب ويسير على قدميه . ولكن ما قيمته .. ما قيمة هذه الحياة التى يحيها فى بلد ليس وطنه .. لن يكون له هناك هدف ، ولا مستقبل ، ولا شيء يحبه .. لن يرى هذه الأرض التى ولد عليها ووقف فوقها طول عمره .. ولن يرى أباه وأمه ولن يرى أصدقاءه .. ولن يشترك فى جهادهم .. ونوال .. نوال .. الخفقة التى خفق بها قلبه .. الأمل الجديد الهادئ الذى تفتح فى حياته لن يراها أبدا .. لن يعود إلا بعد عشرين عاما حين تسقط جريمته بمضى المدة القانونية .. عشرون عاما يقضيها إنسانا مشلول لا فائدة منه ، بلا حب ، وبلا وطن ، وبلا هدف .. وليس له إلا ذكريات تعيش فى صدره ، وبينها وبينه البحر الأبيض المتوسط .

وابتسم كأنه يتحسر .. لقد كان فى صباه يتمنى أن يذهب إلى فرنسا .. كان يحلم بأن يطوف الدنيا كلها .. بل كانت أحلامه تصل أحيانا إلى حد الهجرة من مصر .. ولكنه الآن وقد بدأت أحلام الصبا تتحقق ، يستطيع أن يرى بشاعتها .. وقسوتها .. ويحس بها كالكابوس لا كالأحلام .

ونظر من خلال النافذة إلى الرمال التى تحيط بالطريق .. ما أجملها ، كأنها تنبض بالحنان .. وتمنى لو ملأ عينيه منها حتى لو أصبحت آخر شيء يراه .. حتى لو أصيب بالعمى .. ورأى فى كل بقعة من هذه الرمال قبرا له .. وأحس بالحنين إلى قبره .. إنه يريد أن يدفن هنا .. فى أى مكان من مصر !

وهدأت السيارة من سرعتها أكثر عندما اقتربت من نقطة الحدود عند الكيلو (١٠) .. وأشار لها الجنود لتقف .. ولكنها لم تقف وسارت بينهم فى ببطء ، ولح الجنود بدلة الضابط التى يرتديها إبراهيم ، فرفعوا أيديهم بالتحية العسكرية ، وتركوا

السيارة تمر بينهم بعد أن سجلوا رقمها فى دفاترهم .. ورد إبراهيم تحيتهم وهو منحني إلى الإمام حتى لا يروا وجهه . وعادت السيارة تنطلق بسرعة بعد أن اجتازت نقطة الحدود وعاد إبراهيم إلى أفكاره الحزينة التي تملأ صدره كالهواء البارد الثقيل .. مصر .. نوال .. أهدافه .. أبوه وأمه .. وكلما انقاد لى أفكاره أحس بضعفه .. وكلما أحس بضعفه كره نفسه .. إنه يكره نفسه هاريا .. يكره هذا التسلل والاختباء الذي لا هدف له إلا إنقاذ حياته .. ويكره هذه الرعشة التي تصيب قلبه كلما صادفته عقبة فى الطريق .. إنه يريد أن يكون له هدف أكبر من مجرد إنقاذ حياته . يريد أن يكون دائما مهاجما .. يطلق الرصاص على أعدائه ، وأعداء وطنه .. ويدبر خطط الهجوم لزملائه هكذا كان دائما .. وهكذا أحب نفسه .. تمنى أن تفشل خطة هربه إلا يترك مصر أبدا.. وحاول أن ينزع هذه الأمنية من نفسه .. ولكنه لم يستطع ..إنها تدوى فى صدره ، كصوت طبل ضخم يأتى إليه من بعيد .. وأحس أنه أصبح منساقا إلى الهرب خارج مصر ، أكثر منه مقتنعا به .. ووصلت السيارة إلى الاسكندرية .. ودارت فى شوارعها ، ثم وقفت فى شارع سعد زغلول قبل التقائه بميدان محطة الرمل .. ونزل منها محمود عرفه .. شاب طويل رفيع فى عنيه سداجة تخفى وراءها خطورة أفكاره .. وسار على قدميه إلى مقهى التريانون .. وحى شابا جالسا على إحدى الموائد .. وجلس بجانبه، وتهامسا لفترة قصيرة ، ثم قام وعاد إلى السيارة ، وجلس فى مكانه بجانب فتحي المليجي ، وهو يقول :

- سيدى بشر .. بعد ثلث ساعة !

وتحركت السيارة .. واتجهت إلى شارع الكورنيش ، وهى تسير على مهل كأنها تحمل جماعة يشمون الهواء .. وأطل محمود عرفه من نافذة السيارة وراء فتاة تسير فى الطريق وأطلق صفييرا حادا .. وقال فتحي المليجي بسرعة :

- أيوه بصيص يا أخويا .. علشان ننفذ من الدباغ ، ويمسكنا
بوليس الآداب !

وقال محمود عرفه وهو يقهقه :
- دى حركة للتعمية !!

والتفت الاثنان إلى إبراهيم ليشاركهم ضحكهم .. ولكنه كان
ولجما ..حزيننا .. هائما وراء أفكاره .. فكفوا عن ضحكهم احتراماً
لصمته ، وتبادلا نظرات تساؤل .. فكل منهما يعرف أن ليست هذه
هى عادة إبراهيم عندما يقوم بتنفيذ خططه !!
ووصلت السيارة إلى سيدى بشر ..

واتجهت إلى طريق معسكر الإنجليز .. وعلى جانب الطريق
الهادئ المظلم لمحوا سيارة واقفة .. فاطفاً فتحى المليجى
مصابيح سيارته ثم أضاءهما .. ثلاث مرات .. وردت السيارة
الأخرى .. فأضاءت مصباحيها واطفأتها ثلاث مرات ..

وقاد فتحى السيارة فى هدوء ، وأوقفها فى محاذاة السيارة
الأخرى .. ومضت برهة صمت كان خلالها كل من فى السيارة
يضع يده على مسدسه .. إلى أن تحقق محمود عرفة من شخصية
قائد السيارة الأخرى .. فنزل وصافحه :
- أهلا عبد العزيز .. اتلخرنا عليك !

وقال عبد العزيز :

- يدوبك .. اتفضلوا !

وبدا محمود يقدم عبد العزيز إلى كل من فتحى وإبراهيم .. إنه
مجاهد من الإسكندرية لم يكن إبراهيم يعرفه من قبل ..
وسار الجميع فى الرمال التى يشقها الطريق ، إلى أن وصلوا
إلى « كابين » خشبى ، أقيم بعيداً عن الكبائن الأخرى ، وأوقد
مصباحاً غازياً صغيراً .

وجلس الأربعة يتحدثون عن تفاصيل الخطة ..

لقد اتفق عبد العزيز مع أحد بحارة سفينة يونانية ستبحر غداً
إلى بيروت ومنها إلى مرسيليا .. وسيتنكر إبراهيم فى زى أحد
عمال نقل الفحم .. وقد أعد له عبد العزيز بطاقة شخصية مزورة

تتيح له دخول الميناء .. وسينتظره عند رصيف الفحم ليسلمه إلى
بحار الباخرة .

وتركهم عبد العزيز ..

وذهب فتحى ليملا خزان السيارة بالبنزين .. ثم عاد .. ولم ينم
ثلاثتهم .. وفى الساعة الخامسة صباحا .. جاء إليهم عبد العزيز ..
يحمل بعض الثياب الرثة ، وقطعة فحم .. وارتدى إبراهيم الثياب
على اللحم .. ينظرون قذراً سود لا يصل إلى قدميه ومشدود إلى
وسطه بحبل .. وقميص ممزق متسخ .. ثم بدأ عبد العزيز يطفى
وجه إبراهيم ويديه وصدره وقدميه ، بلون الفحم .. ثم نظر إليه
من بعيد ، كأنه فنان يتأمل صورة انتهى من رسمها .. وقال
بلهجته الاسكندرانية :

- أيوه .. و .. ه .. يارتنا نشغل الشغلة دى على طول .. كنا
نكسبو دهب ؟!

وسبقهم عبد العزيز بسيارته ..

· وركب إبراهيم فى سيارة فتحى ومحمود ، ورقد فى أرضها
حتى لا تثير رؤيته دهشة أحد ..

كان حافى القدمين .. ليس على لحمه سوى هذه الخرق البالية ..
وليس فى جيب بنطلونه الكالچ الممزق ، سوى البطاقة الشخصية
المزورة ، وخمسون جنيها زوده بها فتحى بالإضافة إلى الخمسة
جنيهاً التى أعطاهما له زاهر أفندى .. ومصحف صغير يضم بين
صفحاته ورقة صغيرة مكتوب عليها «محمد رسول الله» بخط نوال .
وقال إبراهيم وقد اقتربوا من منطقة الميناء ، وهو لا يزال راقداً
على أرض السيارة .

- فتحى .. فاكّر البنّت اللى بعتها لك البيت ؟

وقال فتحى دون أن يلتفت إليه :

واستطرد إبراهيم فى صوت حزين كأنه ينتهد :

- تروح ميدان عبد المنعم يوم الاثنين الساعة حداشر .. تلاقىها
واقفة هناك .. طمنها على .. ماتقولش لها أنا رحت فىن .. بس
طمنها !

وقال فتحى وهو ينظر أمامه ، وقد ارتفع حاجباه دهشة :

.. حاضر ..

وقال إبراهيم كأنه يكاد يبكى :

.. ما تنساش !

ورد فتحى وقد ازدادت دهشته :

.. حاضر !

وقال إبراهيم :

.. ما تتصلش بالبيت عندنا ، إلا بعد ما تهدأ الحكاية !

وكرر فتحى قائلاً :

.. حاضر ..

ثم استطرد فتحى :

.. احنا حانفضل جنب باب نمره (٦) لغاية المركب ماتقوم !

وقال إبراهيم كأن الزعامة لا تستطيع أن تتخلى عنه :

.. اعملوا نوباتشية ، ما تفضلوش مع بعض ، وما تستنوش فى

العربية .. دوروا على قهوة تقعدوا فيها !

ووقفت السيارة بجانب سور البناء ، بعيدا عن الباب نمره (٦) ..

وقال محمود عرفه بعد أن تلفت حواليه :

.. أمان ..

قالها فى صوت حازم خافت ، كأنه يصدر حكما بالإعدام .

واعتدل إبراهيم ، وفتح باب السيارة ونزل منها بسرعة ، وسار

فوق قدميه الحافيتين .. دون أن يلتفت خلفه .. وفتحى ومحمود

يتبعانه بنظراتهما .. وقلب كل منهما فى حلقه .. وفى عيني كل

منهما دموع لا تنهمر ..

واجتاز إبراهيم باب الميناء دون أن يعترضه أحد من الجنود ..

كأن ثيابه الرثة والبقع السوداء التى تغطى وجهه وصدره ، تكفى

كجواز للمرور .. وسار داخل الميناء وقد استعاد ذهنه ، والتمعت

عيناها بكل ذكائه .. ولكن قلبه لا يزال يرتعش فى صدره .. قلب

الهارب .

وتلفت حوله ، ورأى عبد العزيز واقفا بعيدا .. وتبادلا إشارة خفية .. ثم سار عبدالعزیز يتبعه إبراهيم عن بعد .. سارا طويلا .. حتى وصلا إلى رصيف الفحم ، ودخل عبدالعزیز فى « كشك » صغير ، اتخذ والده مكتبا له لإدارة أعماله الخاصة بتموين السفن.. ثم خرج عبد العزيز من الكشك ، وصرخ فى وجه إبراهيم الذى كان قد اقترب منه :

- جرى إيه يا وله .. نجيبو لك بسكليت تركبها .. ما تتلحج وتروح تشيلك مقطف .

واحنى إبراهيم رأسه ، واتجه إلى مجموعة من « المقاطف » ملقاة على الرصيف ، وحمل واحدا منها ..

واتجه عبد العزيز إلى سلم الباخرة الراسية ، وأخذ يتحدث مع أحد البحارة ..

ثم صعد البحار سلم الباخرة ، وتبعه إبراهيم .. ونزل البحار إلى قاع الباخرة .. وإبراهيم خلفه .. وفى مكان رطب مظلم كأنه قفص من الحديد ، بجانب مخزن الفحم فى الباخرة ، قريبا من عنبر الآلات ، استدار البحار إلى إبراهيم وقال له بانجليزية ركيكة :

- ستبقى هنا إلى أن نصل .. وسأحضر لك بعض الطعام .
وهز إبراهيم رأسه صامتا .. وألقى « المقطف » الذى يحمله على الأرض وجلس فوقه مستندا إلى الحائط الحديدى ..

وخرج البحار .. ثم عاد بعد قليل يحمل أرغفة من الخبز « الافرنجى » وبعض علب الطعام المحفوظ . وناولها لإبراهيم ، وهو يبلغه موعد قيام الباخرة ويلقى إليه بتعليماته .. وقطع حديثه صوت أقدام تقترب .. ثم ظهر بحار آخر ، وماكاد يرى إبراهيم جالسا على الأرض ، حتى بدأ نقاشا طويلا مع زميله باللغة اليونانية . نقاشا لم يفهم منه إبراهيم شيئا .. إنما ظل صامتا ، وفى عينيه اضطراب وجزع ..

والتفت البحار الأول إلى إبراهيم قائلا :

- إن هذا الرجل يريد مبلغا من المال ..

ودون أن يتكلم ، وضع إبراهيم يده فى جيبه ، اخرج ورقة من ذات الخمسة جنيهات ، ناولها للبحار ..
ونظر البحار الثانى إلى الخمسة جنيهات فى امتعاض ، ثم نسها فى جيبه وخرج ..
وقال البحار الأول ، وهو يخرج خلف زميله :
.. هل تعرف أن الباخرة ستعود من بيروت إلى الاسكندرية ، قبل أن تبحر إلى مرسيليا .
وبهت إبراهيم ، وقال فى فزع :
- كيف ؟!!
وقال البحار باللغة الانجليزية :
- هذا ما سمعته الآن من زميلى !
وخرج البحار ..

وجلس إبراهيم هائما ، وهو يحس بكل عضلاته تنقلص .. إنه لا يستطيع أن يبقى فى هذا القفص الحديدي ثلاثة أسابيع إلى أن تصل الباخرة إلى بيروت .. ثم تعود إلى الاسكندرية ، ثم تبحر إلى مرسيليا .. وقد يكتشفون أمره خلال هذه المدة ، أو قد يعود البحار الثانى إلى التهديد بطلب نقود .. ثم قد يسلمونه للبوليس فى الاسكندرية عندما تعود إليها الباخرة .
إنه لا يستطيع أن يبقى ..
يجب أن يغادر هذه الباخرة حالا ..
وأحس بالراحة وهو يتخذ هذا القرار .. أحس كأنه أفرج عنه ..
إنه سيعود إلى مصر .. إلى وطنه ..
وحمل المقطف الذى يجلس عليه ، وتسلل من الطريق الذى أتى منه ..

ونزل إلى الميناء .. وبحث بعينه عن عبدالعزيز . . واقترب منه ..
وماكاد عبد العزيز يراه حتى صرخ صرخة مكتومة وقال :
- جرى إيه ؟!
قال إبراهيم هامسا :
- المركب راجعه اسكندرية تانى .. لازم اخرج من هنا حالا .

اسبقنى وادى خبر لفتحي ومحمود ..
وخرج إبراهيم من منطقة الميناء ..
وركب فى سيارة فتحى .. تقرر أن يبحث عبد العزيز عن باخرة
أخرى متجهة إلى مرسيليا رأسا .. ولكن إبراهيم رفض أن يبقى فى
الاسكندرية .. إنهم هنا لا يعرفون أحدا ، وليس لديهم صديق
يبلغهم تحركات البوليس .. وأصر على أن يعود إلى القاهرة .. إنه
هناك يستطيع أن يختبئ !
وارتدى إبراهيم بدلة الضابط مرة ثانية .. وعادت به السيارة
إلى القاهرة .. كأنها تعود به إلى بيته ..
وتقرر أن يقيم مع محمود عرفه فى حجرة يسكنها فوق سطوح
إحدى العمارات بشارع البورصة القديمة المتفرع من شارع قصر
النيل ..
وكان المفروض أن يبقى إبراهيم فى هذه الغرفة ، إلى أن يبلغه
عبد العزيز خبر اتفاهه مع باخرة أخرى يهرب عليها .. ولكنه كان
فى قرارة نفسه ينوى ألا يترك مصر .. كان قد اقتنع أنه
لا يستطيع أن يعيش هناك .. فى فرنسا .. أو فى مكان غير مصر ..
لا يستطيع أن يعيش مشلولا بلا هدف وبلا حب ، وبلا وطن ..
ولكنه لا يستطيع أن يبقى فى القاهرة بلا عمل .. مجرد هارب ..
وفى نفسه طاقة من الحقد الثورى يريد أن ينفذ عنها .. يريد أن
ينتقم من الذين حرموه حريته .. وحرموه حبه ..
وكان يفكر فى حبه كثيرا . كان كلما اندمج فى تفكيره الوطنى
تشغله طيف نوال فيهم فى حلم جميل .. بيت هادئ .. وعائلة
بسيطة .. ونوال بجانبه .
وقد حاول أن يرى نوال .. قرر مرة ومرتين أن يخرج من
مخبئه ويذهب إليها فى موعدا ، ليرى شعاعا من حلمه .. ولكنه
كان يعدل فى اللحظة الأخيرة .. كان يخاف عليها من حلم لن
يتحقق أبدا .. وكان يتمنى لها اليأس .. اليأس منه ، ومن حبه ..
ويتمنى أن يحمل عنها العذاب كله .. ألا يجرح هذا القلب البكر
الكريم .. وأن يمزق قلبه قربانا لها.

وبقى فى الحجرة أياما . وقد أطلق شاريه ، وترك ذقنه غير حليق .. وقد اقضه الحرمان والقلق والتوتر ، فبدا نحىلا ، اصفر الوجه ، كأنه مريض .. وكان يرتدى دائما جلبابا ، ويضع فى جيبه دائما النقود التى يملكها ، والمصحف الذى يضم الورقة الصغيرة التى كتبتها نوال بخط يدها .. وحذاؤه معه دائما بجانبه .. قالها رب يجب أن يكون دائما على استعداد للمفاجآت .

ولم يكن قد قرر بعد أن يعمل شيئا .. وكان يكتفى بأن يجلس مع زميله محمود عرقه ويضعان سويا خططا وطنية لا يشترك فى تنفيذها .. قنبلة تلقى على المعهد البريطانى . اغتيال جنود إنجليز فى منطقة القنال .. ولم تكن كل هذه الخطط تنفذ .. كان ينقصها اليد التى تستطيع التنفيذ .. يده هو .

إلى أن كان يوم ..

وكان جالسا فى الحجرة مع محمود عرقه ذات صباح .. عندما اقتحم عليهما الباب « كونسيتابل » من قوة البوليس السياسى ، يصحبه اثنان من البوليس السرى .

وفهم إبراهيم توا أن البوليس جاء فى طلب محمود عرقه ، لا فى طلبه ..

ووقف بعيدا عن صديقه . ونظر إليه الكونسيتابل نظرة عابرة دون اهتمام .. ودون أن يخطر بباله أن هذا الشاب الآخر ، هو إبراهيم حمدي .. وقال :

- مين فيكم محمود عرقه ؟!

وأجاب محمود فى تحد :

- عايز إيه ؟!!

وازاحه الكونسيتابل من طريقه ، ودخل يفتش مكتبه ، بينما بقى الجنديان واقفين يسدان الباب ..

وبسرعة .. وبحركة مباغتة .. مرق إبراهيم من بين الجنديين ، وأخذ يعدو فى قناء السطوح ، ثم أخذ ينزل السلم قفزا .. وصرخ الكونسيتابل :

- حصله يا عسكرى أنت وهو ..

ومد يده وقبض على محمود عرفه حتى لا يهرب هو الآخر ..
وكان إبراهيم يضع شيشيا في قدميه طارت إحدى فردتيه وهو
يجرى ، فتخلص من الفردة الأخرى .. وظل يقفز فوق السلالم
حافى القدمين .. والجنديان وراءه .. ووصل إلى الشارع .. وظل
يجرى .. وسمع الجنديين يصيحان من ورائه : « حرامى ..
حرامى » .. ووقف الناس فى الطريق .. وهم بائع جرائد بأن
يعترض طريق إبراهيم ، فصاح بأعلى صوته : « أنا مش حرامى ..
دول بوليس سياسى » .. فتنحى بائع الجرائد بسرعة ..
وخرج كواء من باب دكانه .. رجل عريض ضخمة .. واعترض
طريق أحد الجنديين .. وتصدى له .. ثم أمسكه من يده فى قوة ،
وقال فى هدوء :

- إيه الحكاية يا سيدنا لفتدى ؟!

وقال الجندى وهو يلهث :

- يا جدع سيبنى .. أوعى من سكتى !

وقال الكواء وهو يضع يده فى شق جليابه ، كأنه يستعد
لحديث طويل :

- بس مش تقول لنا إيه الحكاية .. علشان نساعدك ؟!

وقال الجندى فى حدة :

- حرامى .. مش سامعنى بأقول حرامى ..

وقال الكواء وهو لا يزال قابضا على يد العسكى :

- عجيبه .. وسرق إيه بأه الحرامى ؟

وقال الجندى :

- يا جدع سيبنى .. أحسن أوديك فى داهية !

وقال الكواء :

- هو حضرتك مخبر .. طيب ما تقول كده من الصبح : اتفضل!

وانطلق الجندى يجرى وقد غاب إبراهيم عن عينيه ..

وعاد الكواء إلى دكانه وهو يتشم ابتسامة خبيثة ..

وأسرع بائع الجرائد يجرى .. وسبق الجندى الآخر ، وألقى

نفسه فى طريقه مدعيا أن ما يحمله من الصحف سقط منه ..

ووقع الجندى فوقه .. ثم قام وهو يسب ويلعن ، وتلفت حوله فلم يري إبراهيم ..
وكان إبراهيم قد مرق من شارع قصر النيل .. واتجه إلى ميدان الأزهار .. وهو لا يزال يجرى .. ولم يعد يسمع وقع الأقدام التي تجرى خلفه .. ولكنه ظل يجرى .. وأخذ يصيح :
- اسمع يا جدع .. يا لخينا استنا !

وكان يصيح ليقتنع الناس أنه يجرى ليلحق بشخص آخر . ثم كف عن الجرى .. وأخذ يسير بخطا واسعة ، ثم دخل إلى مخبز ، واشترى عشرة أرغفة من الخبز حملها بين يديه بحيث تخفى نصف وجهه .. وبدأ وهو يسير حافى القدمين ، يرتدى جلبابا ، ويحمل أرغفة العيش ، كأنه خادم عائد من السوق .
وسار في اتجاه ميدان العتبة الخضراء .. وهو يفكر .. يفكر بسرعة .. أين يذهب .. أين يختبئ .. وانحرف في شارع الأزهر .. ووقف عند بائع فاكهة ، واشترى برتقالا واقتن موزا ، وترك البائع مشغولا بوضع ما اشتراه في « كيس » كبير من الورق .. واتصل بصديقه فتحى المليجى بالتليفون .. ولكنه لم يجده . فحمل « كيس » الفاكهة ، وسار في شارع الأزهر حتى أخره .. واتجه إلى شارع « الباطنية » .. لقد تذكر صديقه عبد الله السحرتي .. طالب معه في كلية الحقوق ، من الوطنيين المتحمسين .. ولكنه لم يشترك في جمعية سرية .. وكان بعيدا عن مراقبة البوليس .. هل يجد عبد الله في بيته ؟!

ووجده في البيت ..

ولم يتردد عبد الله في معاونته على الاختباء . وكان يسكن في بيت يمتلكه أبوه ، مكون من ثلاثة أدوار .. والدور الثالث يقيم فيه طالبان من الأزهر ، وقد سافرا إلى بلتھما ، وتركا مفتاح الشقة مع عبد الله.

وصعد إبراهيم إلى الدور الثالث ..

وأقام في شقة الطالبين المسافرين .. يقضى فيه ونهاره في مكان واحد منها دون أن يبدي أى حركة حتى لا يشعر أحد من

السكان بأن هناك من يحتل الشقة .
وظلت النوافذ مغلقة ليل نهار .. وعبد الله يتسلل إليه فى أوقات
متفاوتة ليزوده بالطعام والشراب .
ومرت أيام ..
ولم يعد يستطيع أن يهدأ ..
إن أعصابه التى كان يستمد قوته من قوتها .. أعصابه الهادئة
الباردة .. بدأت تخونه .. بدأت تهتز .. إنه يحس أحيانا أنه سيجن ..
يحس أنه يريد أن يصرخ .. أن يحطم .. أن يدمر .. أن يقتل !
يقتل من ؟
همام بك واليوزباشى الدباغ ، اللذان يتبعانه ويسلطانه عليه
رجالهما ؟
لا ..
إنهما يمثلان طبقة الخدم .. خدم لسياسة مرسومة ، يرسمها
الاستعمار !
يقتل الانجليز كما كان يفعل قبل أن يقبض عليه ؟
لم لا ؟
يجب ألا يرتاح الانجليز فى مصر .. يجب أن يقلقوا دائما على
حياتهم ماداموا فى مصر !
وقرر أن يعمل ..
أن يعمل بنفسه ..
واستطاع أن يتصل بفتحى المليجى .. وبدأ الثلاثة يعقدون
اجتماعات سرية فى الشقة الخالية .. إبراهيم ، وفتحى ، وعبد الله ..
ولكن فتحى كان يعارض بشدة فى أن يقوم إبراهيم بتنفيذ إحدى
الخطط بنفسه .. إنه إنسان هارب .. وتصرفات الإنسان الهارب
تختلف عن تصرفات الإنسان المهاجم .. ولو قام إبراهيم بالعمل
فسيحتمل إلى خطتين فى وقت واحد .. خطة لتغطية هربه ، وخطة
لتنفيذ عملية الاغتيال .. وقد تعرقل إحدى الخطتين الأخرى .
وكان إبراهيم مقتنعا بمنطق فتحى !
ولكنه يريد أن يعمل ..

إنه لا يستطيع أن يعيش مختبئاً كالفاًر طول عمره !!
وطال تردد الثلاثة فى القيام بعمل ما ..
إلى أن بلغهم خبر القبض على محبى وعبد الحميد ، وتعذيبهما ..
وبلغهم أنهما تحملا السجن والعذاب ولم يعترفا .
وفقد إبراهيم أعصابه ..
جن غضباً ..

لقد رأى كثيراً من زملائه يعتقلون ويعذبون .. ولكنهم كانوا
جميعاً من الطلبة المشتغلين بالسياسة .. كانوا كلهم يعدون أنفسهم
للقبض والتعذيب . ولكن محبى .. أنه لم يكن مشغولاً بالسياسة ..
إنه واحد من الناس البسطاء السلبيين الذين يحتلون مقاعد
المتفرجين .. إنه الشعب .. الشعب كله .. وقد وقف الشعب بجانبه ..
تحمل الشعب العذاب من أجله ، دون أن يتخلى عنه ..
وازداد إحساساً بالشعب ، وهو يفكر فى محبى .
يجب أن يرد الثمن للشعب .. يجب أن يثبت لمحبى .. ونوال
وزاهر أفندى .. والست تحية .. إنه يستحق ثقتهم .. يستحق
العذاب الذى تحملوه من أجله .

وتخلص من إحساسه بأنه إنسان هارب ..
ورفض أن يستمع إلى اعتراضات فتحى المليجى ، وهدد أن
يعمل وحده إن رفض فتحى أن يعمل معه .
ولم يرفض فتحى .
وفى نفس الليلة تمت عملية أحد الجنود الانجليز قرب معسكر
العباسية .

ولم يعد إبراهيم من العملية راضياً ، لم يهدأ ، ولم يحس أنه
قام بعمل كبير .

وكان يعلم أن الحكومة ستمنع نشر الخبر فى الصحف ، حتى
لا ينعكس على الناس ويؤلبسهم على الانجليز . ويعلم أن البوليس
سيدعى فى تقاريره الرسمية أن القتل حصل بقصد السرقة ، رغم
أنه - أى البوليس - يعلم أنها عملية اغتيال سياسى ، وربما علم أن
إبراهيم هو الذى قام بها ، فقد تمت بنفس الأسلوب ونفس الخطة
التي كان إبراهيم يتبعها فى الاغتيالات السابقة .

واقتنع إبراهيم كما اقتنع من قبل - أن عملية الاغتيال الفردى
لجنود الانجليز ، لا طائل من ورائها ، وأخذ يجهد نفسه فى
التفكير .

يجب أن يقوم بعمل كبير ..
عمل أكبر من اغتيال جندى انجليزى ، وأكبر أيضا من اغتيال
وزير من عملاء الانجليز .
ومن خلال تفكيره بدأ وعيه يتطور .

إن الانجليز فى احتلالهم لمصر لا يعتمدون على جنودهم ،
ولا على واحد أو اثنين أو عشرة من عملائهم ؛ إنما يعتمدون على
نظام كامل ، نظام للحكم ، نظام يبدأ بالملك ، ويرتكز على طبقة
الاقطاعيين التى تحتكر مقاعد الوزراء ومقاعد البرلمان .
يجب قلب هذا النظام إذا أردنا تخليص مصر من الإنجليز ، ومن
العملاء ، ومن الظلم ، ومن الفقر ، ومن همام والديباغ .. إذا أردنا
إنقاذ محبى ، وزاهر أفندى ، والست تحية ، وبقيّة الناس الطيبين
اليسطاء ، وإذا أراد أن يحقق لنفسه حلمه البعيد ، البيت الهادئ
الذى يضمه هو ونوال !

وتعجب من نفسه عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير ، كأنه
اكتشف حقيقة بسيطة غابت عنه العمر كله .
ولكن كيف ؟

كيف يقلب نظام الحكم ؟
واتسعت عيناه .. وانطلق منزهما بريق لامع .. كأنه يحاول بهما
أن يخرق سحب الغيب .. وأحس بذكائه يشغل فى رأسه حتى
يكاد يحرقها ..

لو استطاع أن يجمع حوله مائتى شاب مسلح .. مائتين فقط من
الشباب الفدائي .. لاستطاع بهم أن يستولى على الحكم .. سيحتل
بهم أولا محطة الاذاعة .. ثم يحاصر رئيس الوزراء فى بيته ..
ويقبض على رؤساء البوليس السياسى .. و .. وحتى لو فشل فى
الاستيلاء على الحكم ، فستكون ثورة مسلحة تهز مصر وتوقظ
شعبها .

كيف يجمع مائتى شاب مسلح !؟

سيطبق نظام الخلايا .. سيجمع خمسة يثق بهم .. وكل واحد من الخمسة يجمع خمسة يثق بهم .. وهكذا إلى أن يتم جمع المائتين !

وأخذ يستعرض وجوه المائتين الذين سيجمعهم .. ورأى من بينهم كثيراً من زملائه طلبة الجامعة .. ورأى وجه عبد العزيز المجاهد السكندري .. ورأى وجه سائق التاكسي الذي رفض أن يأخذ منه النقود عندما قرر أن يقوم بأول عملية اغتيال .. ورأى وجه الطبيب الذي تستر على هربه من مستشفى قصر العيني .. ورأى كل الوجوه التي مرت في حياته .. وكأنها اصطفت أمامه في طابور عسكري ينتظر أمره ، ليقلبوا نظام الحكم ..

كيف يسلمهم ؟

إنه في حاجة إلى أموال كثيرة ليشتري بها السلاح .. أموال يتبرع بها أصدقاؤه الأغنياء .. ولن يقول لهم خطته وفقط سيجعلهم يتبرعون .. ولم يضع وقتاً ..

وبدأ في صباح اليوم التالي يسوق الخطة إلى فتحى وعبد الله بطريقته الخاصة .. يدفعهم إليها دفعا ، حتى ينطلقوا بها قبله .. ومرت أيام أخرى ..

وبدأ فتحى المليجى يجمع الخمسة الذين يكونون الخلية الأولى . وإبراهيم مختبئ في الشقة لا يغادرها .. ولكنه لم يعد يشعر بالضيق .. إنه مشغول دائماً بالتفكير في خطته ، ويشغل حماساً لها .

ولكن مجهودات فتحى المليجى في تكوين الخلايا تسير ببطء .. بل تتعثر ولا تكاد تسير ..

وإبراهيم يتمادى في التفكير ، وكلما تمادى في تفكيره داخله الشك في خطته .. ومن خلال الشك اكتشف حقيقة أخرى غابت عن تفكيره ..

إنه لا يمكن جمع مائتى شاب فدائى مسلح مخلص ، إلا إذا كانت وراءهم قاعدة شعبية عريضة متحركة .. قاعدة ثائرة ، تغلى بالثورة ..

إن مائتى شاب لا يستطيعون أن يقوموا بثورة .. ولكنهم يستطيعون أن يقوموا بدور فى الثورة .
إن مائتى ثائر مسلح ، لا ينبتون فى أرض باردة جامدة ، ولكنهم ينبتون فى أرض ثائرة ملتهبة ..
يجب أن تنثور الأرض أولا ..
يجب أن يلتهب الشعب .. أن يعم السخط ، أن يحس العامل ، والتاجر ، والموظف ، والطالب .. بروح الثورة .. أن تتحرك الهيئات كلها .. والجمعيات كلها .. ومن خلال هذه الحركة .. يتجمع مائتا شاب مسلح لقلب نظام الحكم !
إذن ..

عليه أن يبدأ أولا بإشاعة روح الثورة .. بتحريك الهيئات .. بإثارة قضايا وطنية .. إلغاء المعاهدة .. الجلاء .. الفساد .. الظلم .. نفوذ غير المسئولين .. عملاء الاستعمار .. كل هذه القضايا يجب أن تثار مرة واحدة .. أن تصبح حديث الشعب وغذاء العقول .. ولكنه لا يستطيع أن يفعل كل ذلك وحده ..
وبدأ خلال الأيام التالية يتتبع أخبار الهيئات والجمعيات الثورية، وكان يعلم أن هناك أكثر من جمعية ثورية سرية .. جمعيات داخل الجيش .. وجمعيات فى أوساط الشعب .. فبدأ يرسل فتحي وعبد الله لمحاولة الاتصال بهذه الجمعيات .. والعمل على توحيدها وإشراكها فى عمل واحد ..
وبدأ يؤمن بأهمية المشنورات السرية .. وأهمية الصحافة المتطرفة .. وأهمية الأزمات السياسية .. كل ذلك وهو جالس فى الشقة المظلمة .. وقد بدأ إحساسه بأنه إنسان هارب يعاوده أشد مما كان .. وبدأ يضيق بنفسه .. وبحياته ..
ما دوره فى كل ذلك ..

إنه لا يستطيع أن ينتقل بين الجمعيات السرية ، ولا يستطيع أن يشترك فى المظاهرات .. ولا يستطيع أن يكتب المنشورات ويوزعها.. ولا يستطيع أن يتصل بالطلبة والناس ليثيرهم ويثير سخطهم ..

كيف يستطيع أن يقوم بدور تنفيذي .. يخدم به وطنه ؟
ومن خلال ضيقه ، قرر أنه إنسان منته .. إنسان لا أمل له ،
فهو لا يستطيع أن يعيش هاربا ، ولا يستطيع ألا يكون هاربا ..
فهو منته .. إن الطريق الوحيد أمامه إذا أراد ألا يسلم نفسه
للمشنقة ، هو أن ينتحر .. ولكنه لن ينتحر كما ينتحر الضعفاء بل
سيقوم بعملية وطنية انتحارية .. عملية يضرب بها مثلا لمن يأتي
بعده .. للشباب كلهم .

لم يعد يعنيه أن يعيش ..
كل ما يعنيه هو أن تقوم ثورة ..
فليكن الطلقة الأولى فى الثورة .. التى تعقبها كل الطلقات ..
ليكن الطلقة التى توقظ الناس .. وتفتح أعينهم .. وتثير حماسهم ..
وليعرفوا إلى أى حد يمكن أن يضحي فرد فى سبيل وطنه ..
لا ..

لن يقوم بعملية انتحارية واحدة .. عدة عمليات .. إما أن تلحقه
الثورة .. أو يموت لتحيا الثورة ..
هذا هو دوره .. دوره أن يكون ضحية يبكي الناس فوقها ،
شهيدا يتخذ الناس من دمه علما للثورة ..
وكان هذا هو آخر ما قرره بينه وبين نفسه ، عندما عاد فتحى
المليجى إليه بعد أن قابل نوال ..
وعندما قال إبراهيم لفتحى إنه يفكر فى تسليم نفسه للبوليس ،
كان يمهّد للعملية الانتحارية التى يوشك أن يشرك فيها زميله ..

● ● ●

وقال فتحى كأنه يعاتبه :
- حكاية تسليم نفسك دى ، لازم تشيلها من دماغك .. احنا
ما عملناش ده كله علشان تيجى فى الآخر تسلم نفسك !
وقال إبراهيم وهو يخفى عينيه عن زميله حتى لا يفتضح
ما فى رأسه :
- يعنى حافضل مستخبي زى الفار كده طول عمرى ؟
وقال عبد الله :

- باه أنت مستخبي .. آمال لو ما كنتش مستخبي كنت عملت
إيه .. الراجل الانجليزى لسه ما بردش دمه ؟
وقال إبراهيم :
- طيب وبعدين .. ضربنا واحد انجليزى .. ضربنا عشرة انجليز
إيه اللى حا يحصل ؟!
وقال فتحى :
- والله اللى يستحق الضرب أكثر من الانجليز .. هم همام
وشلته .. هم دول اللى حاكمين البلد !
ورد إبراهيم دون أن يرفع رأسه :
- لو خلصنا على همام ، حيطلع اللى السعن منه .. سيبك ..
المسدسات ما بقتش نافعة !
وقال عبد الله فى غباء :
- آمال حتضربوهم بشومة ؟!
وسأل فتحى :
- آمال إيه اللى ينفع ؟
- أنا عارف .. الواحد لازم يعمل عمل كبير عمل يفرقع !
وقال فتحى وقد تعود على أسلوب إبراهيم حتى فهمه :
- قنابل مثلا .. ديناميت ؟!
وقال إبراهيم وقد رفع عينيه إلى فتحى كأنه يهنته على ذكائه :
- وحانجيب القنابل والديناميت منين ؟
وقال فتحى وقد اكتسب وجهه بعلامات الخطورة :
- بسيطة .. بس حانستعملها فى إيه ؟
وقال إبراهيم :
- بس اتشطر وهاتهم الأول ..
وقام فتحى وقال وقد تعود ألا يلح على إبراهيم فى حديث :
- لما حاجبيهم حايقى اتصل بيك !
وخرج فتحى .. ومعه عبد الله .
وتركا إبراهيم فى الظلام ..



ومضى يومان ..
وكان إبراهيم خلال هذين اليومين ، هادئا .. لم
يعد شيء يثيره .. ولم يعد شيء يحيره .. ولم يعد
يحس بإحساس الهارب .. لقد عرف مصيره .. انتهى □
من تحديد دوره فى المعركة الطويلة العنيفة التى خاضها .. ودوره
الذى اختاره لنفسه هو أن يكون الطلقة الأولى فى الثورة ، وأن
يظل يعمل حتى تلحقه الثورة .. وأن يموت وتحيا الثورة .. ثورة
مصر كلها .. وثورة الشعب كله ..
وكان كل ما يبدو عليه من آثار الأيام العنيفة التى مرت به ، هو
هذا الشارب الذى أطلقه فبدا أكبر من سنه .. وذقنه التى تركها بلا
حلاقة فوق وجهه الممتقع ، فبدا كأنه مريض ..
وكان يفكر تفكيراً هادئاً فى خطة الثورة .. وفى اختيار المكان
الذى يبدأ منه العمل .. ولم يكن خلال تفكيره يحس بإحساس
المنتحر .. لم يكن يائساً .. ولا سائطاً .. كان كأنه مقبل على
اختراع جديد يحاول تجربته .. اختراع لإشعال الثورة فى مصر ..
وكان يدرس اختراعه بعقلية العالم المدقق ، الوثائق من النجاح ..
يحدوه الأمل .. والبشر .. ويرى النور ينبثق من بعيد .. من أعماق
روحه ، ومن أعماق تفكيره .
وكانت صور من حياته تنكس فى خياله ، فينظر إليها فى حنان،
وبين شفثيه ابتسامة راضية .
صورة بيته الذى نشأ فيه بحى المنيرة .. وصورة أمه .. كم
أحبها ، وكم أحبته .. وسامل نفسه : هل أغضبها .. هل سبب لها

عذابا .. لا .. إنها تفهمه .. لقد عودته دائما أن تفهمه .. وقد ورث عنها كل أخلاقها .. هذا العناد ، وهذا الهدوء الذى يغلف به ثورته .. كل ذلك ورثه عنها .. وربما لو كانت رجلا لكانت زعيما .. لآتت نفس الأعمال البطولية التى يقوم بها .. إنها فى قرارة نفسها تفخر به .. مهما حاولت أن تخفى هذا الفخر ، ومهما حاولت أن تحذره من اندفاعه ، فقد كان يرى فى عينيها دائما نظرة الزهو به ، والاعتزاز ببطولته .. ويوم قبض عليه ودخل السجن ، رأى فوق وجنتيها آثار دموع ، ولكنه رأى خلف آثار الدموع ظل ابتسامة .. ابتسامتها القوية المتكبرة التى تضمن بها دائما ، ولا تكشف عنها إلا بما يكفى ليضىء وجهها النور .. نور السماحة الطيبة .

وأبوه .. وابتسم ابتسامة كبيرة ، وهو يرى فى خياله صورة أبيه .. إنه رجل يؤمن بالنظام .. والنظام الذى يطبقه فى وظيفته الحكومية ، وهو نفس النظام الذى يطبقه فى البيت .. ولم يكن يغضب لتصرفات ابنه إلا لأنها خروج على النظام .. ولم يكن يعتقد أن هناك سببا للقبض على ابنه إلا لأنه خروج على النظام .. ورغم ذلك فقد كان يزهو دائما بابنه .. لم يكن مقتنعا بتصرفاته ، ولكنه كان يزهو بها .. شىء أقوى منه ، وأقوى من منطقته كان يدفعه إلى الزهو .. وكان إبراهيم يحس بهذا الزهو حتى فى أعنف المناقشات التى دارت بينهما .

واتسعت ابتسامة إبراهيم .. لقد كان أبوه يريد أن ينال ليسانس الحقوق .. وكان يتصوره قاضيا .. وكان أحيانا يتصوره وزيرا .. إنه لن يكون قاضيا ولا وزيرا .. ولكنه سيكون أكثر من ذلك .. إن القضاة والوزراء يموتون كما يموت عامة الناس .. ثم ينساه الناس .. وينسون آباءهم .. ولكنه سيموت شهيدا .. ولن ينساه الناس .. سيمنح آباءه ذكرى لا تنسى .. وهذا هو كل ما يستطيع أن يعوض به آباءه .. ذكرى يزهو بها أمام الناس .

وتوالت الصور فى خياله .. صور زملائه فى المدرسة الثانوية .. وصور زملائه فى الجامعة .. كم أحبهم .. وكم أحبوه .. إنه يستطيع الآن أن يرى هذا الحب .. يكاد يلمسه بيده .. أن هذا الحب

هو الذى زوده بالقوة التى اقتحم بها كل يوم من أيام حياته .. لقد كان يحس بينهم أنه أقوى من البوليس ، ومن الحكومة ، ومن الانجليز .. أقوى بهم من نفسه .. من الخوف ومن الطمع ، ومن الضعف .. ورأى أصدقاءه فى مخيلته واحدا واحدا .. رأى حتى الوجوه التى خيل إليه أنه نسيها .. وكان يذكر مع كل منهم واقعة ، أو نادرة .. فيضحك بينه وبين نفسه لواحد منهم ، ويبتسم للآخر ، ويعاقب الثالث .. وتعابير وجهه تنفرج وتنكمش كأن وجهه شاشة سينمائية ترسم عليها عواطفه .

واستعرض كل مغامراته الوطنية .. كل المظاهرات التى اشترك فيها .. وكل العمليات التى قام بها .. وأيامه فى السجن .. والتحقيق الذى أجرى معه .. ومر أمامه وجه همام بك ، ووجه اليوزباشى الدباغ ، ووجوه وكلاء النيابة .. ثم أيامه فى مستشفى القصر العينى .. واليوم الذى هرب فيه .. وأحس بعواطفه كلها تتجمع وهو يقترب بخياله من بيت محبى .. ورآه بوجهه المستدير.. ونظارته .. وقامته القصيرة .. وزاهر أفندى .. والست تحية .. وسامية .. وعبد الحميد .. وابتعد بخياله عن نوال .. إنه يخافها .. إنه يستطيع أن يعرض كل الناس باستشهاده فى سبيل الثورة ، إنه يحس وهو مقدم على خطته الجديدة ، أنه يدفع الثمن للناس كلهم .. إنه يضحى بحياته من أجل الناس كلهم .. ماعدا نوال .. إنه يريد أن يعيش من أجلها .. إن موته ليس تضحية من أجلها ، إنه تضحية بها .. وهو لا يريد أن يتشبث بالحياة ، إنه محتاج الآن لكل جرأته ، وكل استهتاره ، وكل زهده ، حتى ينفذ الخطة التى قررها .

وكلما حاول أن يبتعد بتفكيره عن نوال ، لحقت نوال بخياله ، إلى أن استسلم لها .. ورآها بعين خياله ، وهى تفتح له الباب .. رأى عينيها المرحتين النشيطتين :: ورأى وجنتيها العاليتين .. ورأى بشرتها السمراء المشربة بالحمرة ، كأنها فتاة من الهنود الحمر .. ورآها وهى تفسح له الطريق كل صباح ليدخل الحمام .. ثم وهى تقدم له إفطاره .. وأحس بعينيها تلقيان بعينيها ، وأحس بخفقة قلبه

التي تعودها كلما واجهته بابتسامتها .. وأمعن في استسلامه ..
دون أن يراوده حلمه الذي يعاوده .. حلم البيت الصغير الذي
يضمه هو ونوال .. لقد اختفى هذا الحلم من قلبه .. لم يعد في قلبه
أحلام ، إنما امتلأ بالحقيقة .. حقيقة تعوضه عن أحلامه .. حقيقة
أقوى من حلمه .. حقيقة الحب .. إنه يحب وهذا يكفيه .. وهو سعيد
بحبه .. بلا حاجة إلى الأمل ، ولا إلى الأحلام .
هل يمكن أن يصل الحب إلى هذا الحد .. الحد الذي يصبح فيه
أقوى من الأمل .. لا يدري .. ولكنه - في هذه الساعة - لا يتعذب
بحبه ، ولا يحس بحاجة إلى المزيد .
وانتبه من عواطفه ، وهو جالس في الشقة المظلمة المغلقة النوافذ
الخشبية ، على صوت المفتاح يدور في قفل الباب .
ودخل فتحي الميجي ، ومن ورائه عبد الله .
وقال فتحي ، وصوته يكاد يزغرد :
- هات يا عم .. عبد العزيز جه من الاسكندرية امبارح ، واتصل
ببيه ، وقال لي إنه اتفق مع مركب حاتقوم على مرسليليا بعد بكره ..
طوالى .. ولازم نكون في اسكندرية بكره الساعة حداشر بالليل .
وابتسم إبراهيم دون أن يترك ابتسامته تصل إلى شفتيه .. إنه
لن يسافر .. لن يترك مصر .. هذا قرار نهائى .. ولكنه لم يبلغ
فتحي قراره .. وقال في صوت حاول أن يضمه بعض الحماس :
- عال .. كويس .. نقوم من هنا بكره الساعة سابعة . جبت
الحاجات ؟
وقال فتحي :
- حاجات إيه بأه .. ما بلاش شغل اليومين دول ، لغاية
ما تسافر بالسلامة !
واحتد إبراهيم على غير عادته وقال :
- أنت وعدت إنك تجيب قنابل وديناميت .. وأنا كنت معتمد على
وعدك .. ولسه قدامنا وقت كبير نقدر نشغل فيه !
وقال فتحي ، وهو دهش لاحتداد إبراهيم .
- أنا جييتهم .. ثلاث قنابل يدوية .. وشوية صوابع جلجنايت ..
إنما أنا شايف ان ..

وقاطعه إبراهيم فى عجلة :
 - حاططهم فين ؟
 وقال فتحى فى استسلام :
 - فى العربية !!
 وقال إبراهيم :
 - يا خبر ، حاططهم ازاي فى العربية .. دول يمكن ينفجروا
 وانت ماشى .. هاتهم هنا حالا ..
 وقال فتحى وهو ينظر إلى إبراهيم مدققا كأنه لا يصدق أن هذا
 هو إبراهيم. الإنسان الهادئ ، الذى لا يأمر ، إنما يسوق خططه
 فى لباقة :
 - يعنى انزل أجيبهم وأجى .. افضل طالع نازل قدام الناس ..
 وقال إبراهيم فى حزم :
 - أيوه ..
 وعاد فتحى يقول فى تردد :
 - طيب مش نتفق الأول حانعمل بيهم إيه ؟
 وقال إبراهيم فى حدة :
 - لما اشوفهم الأول بين أيديه ، ابقى اقول لك ..
 وسكت فتحى ، وتنبه إبراهيم إلى أنه فقد أعصابه ، فعاد يقول
 فى صوت معتذر :
 - أرجوك يا فتحى تستحملنى النهارده كمان .. أنا عارف إنى
 باتعبك .. إنما كلها كام ساعة ، وأسيب مصركلها ، بإذن الله ..
 ورق قلب فتحى ، وقال وهو ينظر إلى إبراهيم فى تقدير
 وإيمان:
 - مش قصدى يا إبراهيم .. بس أناكنت عايز اليومين دول
 يفوتوا على خير . ويكره زى ما أنت عارف الوقفه .. وحقنا نبطل
 شغل زى بقية الناس !
 وابتسم فتحى كأنه يرشو إبراهيم بابتسامته ..
 وقال إبراهيم ، وهو يرد ابتسامة صديقه :

- كل سنة وأنت طيب ..
ثم سكت ، ليقنعه بأنه لا يزال مصمما على رأيه ..
وقال عبد الله :
- أوصل أنا أجيب الحاجات من العربية .. أهو اسمى داخل
وخارج من بيتنا ..
ونظر فتحى إلى إبراهيم يسأله رأيه ..
وقال إبراهيم :
- فكره صح !
وقال فتحى ، وهو يخرج مفاتيح سيارته من جيبه ، ويناولها
لعبد الله :
- العربية مركونة فى ميدان الأزهر .. تلاقى فى الدواسة اللى
ورا جرابندية فيها الحاجات .. وما تنساش تقفل العربية ، أحسن
فيها مسدس !
وقال عبد الله وهو يتناول المفاتيح :
- حاضر ..
ثم خرج على أطراف أصابعه ..
وبقى إبراهيم وفتحى لا يتحادثان فترة ، كان كلا منهما يخشى
أن تكلم أن يعود إلى الاحتداد ..
إلى أن قال إبراهيم بلا مقدمات :
- أنا حادخل معسكر العباسية الليلة !
وفوجيء فتحى .. واتسعت عيناه .. وقال وهو يلتقط أنفاسه من
الهواء :
- يا خبر .. ندخل معسكر انجليزى ازاي .. ده بعد خطوتين
نكون رحنا فى داهية !
وقال إبراهيم دون أن يرفع عينيه :
- ده أسهل حاجة .. ولا حد حايجس ..
وقال فتحى وهو يبتلع ريقه بصعوبة :
- وحاندخل نعمل إيه ؟
قال إبراهيم فى هدوء :

- أنا حاسخ لوحدى !!
وارتفع صوت فتحى كأنه لم يعد يطيق ، وقال :
- تدخل معسكر بحاله لوحدك ؟ ده أنتحار !
وقال إبراهيم :
- بالعكس .. لما يكون واحد بس يبقى أسهل .. اتنين يلخموا
بعض ، وينكشفوا !
وسكت فتحى برهة ، ثم عاد يقول :
- ما بلاش ياإبراهيم .. كفاية نضرب واحد .. ولا اتنين .. زى كل
مرة .. اللي حاتعمله فى المعسكر . نقدر نعمله بره المعسكر ..
وقال إبراهيم فى صوت عميق كأنه يلقي وصيته :
- كل اللي بتعمله مش حايطلع الانجليز من البلد .. مافيش
حاجة حاتطلع الانجليز إلا أن البلد كلها تتور .. تتحرك .. وعلشان
تتحرك لازم نعمل حاجة تصحيحها . لازم نعمل حاجة تفرقع .. لازم
تكون المقدمة للثورة .. وده اللي حاعمله .. يوم ماخاض المعسكر ،
البلد كلها حاتدخل كل معسكرات الانجليز ورايا .. وبكره تشوف !
وسكت فتحى برهة ، ثم عاد يقول :
- أنت متأكد ؟
وقال فتحى :
- طيب ما تسيب غيرك يعمل الحكاية دى .. أنت عملت اللي عليك
واكتر ومن يوم ماضريت عبد الرحيم شكرى ، وأهى البلد هايجه !
وقال إبراهيم :
- مش كفاية .. لازم اعمل حاجة كمان .. ولازم كل يوم يحصل
حاجة !
ثم سكت قليلا ، واستطرد :
- أنا عارف معسكر العباسية كويس .. زمان قبل ما يتقبض
على قدرت أجيب خارطة للمعسكر كله ، ودرستها حقه حقه ..
ولسه فاكرها لغاية دلوقت !
وهز فتحى رأسه ، وسكت .. كأنه يعلم أنه لا يستطيع أن يثنى
إبراهيم عن قرار اتخذه ..

وارتفع صوت المفتاح يدور فى القفل ..
ودخل عبد الله وفى يده حقيبة من القماش السميكة الأصفر ،
كالتى يعلقها الجنود فوق ظهورهم .. ووجهه ممتقع ، ويداه
ترتعثان كأنه يحمل الموت بينهما .
ووضع الحقيبة بحرص على مائدة صغيرة ، وما كاد يتركها
من يده ، حتى تنهد فى ارتياح . وقال وهو يمسح بذراعه قطرات
العرق المعلقة فوق جبينه :

- مش هى دى ؟

وقال فتحى دون أن يتحرك من جلسته :

- أيوه ..

وهب إبراهيم واقفا ، وقفز نحو المائدة فى خطوة واحدة ، وأخذ
يفتح الحقيبة ، بأصابع مثلهفة ، وقد زم شفتيه وارتمت فى
عينيه أمارات الاهتمام العميق ، كأنه عالم أمام أنبوية اختبار .
وأخرج من الحقيبة أصابع الجلجنايت .. قطع طرية ذات لون
أسمر ، كأنها قطع من اللبن ..

وقال عبد الله وعيناه متسعتان فى سذاجة :

- هو ده اللى بيقلوا عليه جلجنايت .. ده مش باين عليه

حاجة .. زى ما يكون ملين ..

وقال فتحى ضاحكا فى مرارة :

تحب تدوق !!

وبدأ إبراهيم يخرج القنابل اليدوية ويضعها فوق المائدة .. وعاد

عبد الله يقول فى سذاجة :

- ودى بيستعملوها إزاي ؟!

والتفت إليه إبراهيم وفى يده إحدى القنابل ، وقال كأنه يلقي

عليه درسا :

- زى ما بتشوف فى السينما تمام . تشد الدراع ده ، وتنزع

المفتاح ده بأسنانك .. وترمى !!

وقال عبد الله :

– يا حفيظ يا رب ؟
واتجه إبراهيم إلى الفراش الذى يحتل جانبا من الحجرة ..
ونزع الملاعة التى تغطيه ، ثم مزق منها جزءا صغيرا ، وأخذ يمزق
هذا الجزء إلى عدة شرائط طويلة .

وقال عبد الله ، كأنه يحاول أن يوقف إبراهيم :
– يا اخينا مش كده .. دى مش حاجتنا ..
وقال إبراهيم وهو يبتسم ابتسامة ضيقة :
– ما هو لازم أصحاب الشقة يشتغلوا معنا !!
واستمر يصنع الشرائط الطويلة .. ثم بدأ يأخذ كل خمسة
أصابع من أصابع الجلجنايت ، ويربطها إلى بعضها بشريط ..
وثبت بينها فتيلة قصيرة ، قابلا للاشتعال ..
وقال فتحى :

– ما تطول الفتيل شوية .. أحسن ينفجر فى أيدك قبل ما ترميه!
وقال إبراهيم فى حزم :
– مافيش وقت .. لازم الانفجار يحصل بسرعة !
واستمر فى عمله .. وبدأ يلقي بتعليماته وأصابعه مشغولة بين
قطع الجلجنايت .. دون أن ينظر إلى فتحى أو إلى عبد الله ..
إنه سيدخل المعسكر من ناحية دار السينما المخصصة للجنود
الانجليز والتى تقع على ناصية شارع مدرسة البوليس ، وشارع
السرايات .

ويتولى عبد الله مهمة تسمية جندى البوليس ، إن وجد ..
وفتحى يساعده على القفز من على سور دار السينما ..
وبعد ذلك ، يعود فتحى بالسيارة إلى بيته ، ويظل منتظرا
هناك ..

وقال فتحى محتجا :
– مش استناك لغاية ما تخرج ..
وقال إبراهيم ، والجلجنايت بين يديه :
– لا .. انا حاخرج من ناحية الجبل .. والعربية لازم ترجع ،
لأنها لو اتمسكت ، ولأ اتعرفت نمرتها .. حانتقفش كلنا ..

وسكت فتحى ، وهو ينظر إلى إبراهيم فى تعجب ..
ثم أخذ الثلاثة يتداولون الخطة ويعدون أسلحتهم .. حتى كان
منتصف الليل ..



وخرج الثلاثة من البيت ..
عبد الله يحمل بين يديه الحقيبة القماش التى تضم الموت ..
وفتحى يحمل حقيبة مدرسية أشبه بحقائب المحامين .. وإبراهيم
يرتدى قميصا أزرق وينطلقا أخذهما من عبد الله .. ويحمل فى يده
كتابين من كتب القانون التى تدرس فى كلية الحقوق ، وليس به
من أثار التتكر إلا شاربته وذقنه غير الحليق .. وساروا فى حى
الباطنية ، كأنهم طلبة عائدون من استذكار دروسهم .. والمقاهى
على الجانبين مزينة بروادها ، وقد زينت بالمصابيح الكهربائية
احتفالا بوداع رمضان .. والشوارع مزينة بعربات الفاكهة ..
والحلوى .. والكبد والكلاوى .. والأطفال يصرخون فى مسرح ..
ومجذوب يصيح : يا رب .. وعسكري ينظر بعينين سارحتين إلى
رجل يشد أنفاسه من الجوزة .. وخادم المقهى يصيح : ثلاثه احضر
.. واتنين عجمى !

والثلاثة يحاولون تبادل حديث أثناء سيرهم ، فيأتى حديثا
مبتورا لا تتصل كلماته ..
ويحاولون الضحك ليظهروا فى هيئة طبيعية ، فتقع ضحكاتهم
تحت أقدامهم كقطع الطوب ..
وخرجوا إلى ميدان الأزهر ..
ووصلوا إلى السيارة ..

وتلفت فتحى حوله بحركة تلقائية ، وهو يفتح السيارة .. ثم
جلس فى مقعد القيادة ، وجلس عبد الله بجانبه ، وجلس إبراهيم فى
المقعد الخلفى .

وقال إبراهيم وقد قاربت السيارة ميدان العتبة الخضراء :

- اطلع بينا على الدقى ..

وتقلص وجه فتحى كأنه يكاد يبكى تأثرا ، واته بالسيارة إلى

حتى الدقى دون أن يسأل شيئاً .. وكأنه يعلم كل شىء .. وعندما وصل إلى الدقى اتجه إلى ميدان « فنى » .. وأوقف السيارة بجانب مستشفى عانوس ، دون أن يوقف الموتور .. وظل ساكناً لا يتكلم .. وعبد الله لا يدرى شيئاً .

وأطل إبراهيم من نافذة السيارة ، وفى عينيه نظرة حانية مبتسمة ، كأنه يرى فى الليل الذى أمامه .. نوال .

وقال فى صوت هامس وهو لا يزال ينظر فى الليل :

– هيه كانت لابسة فستان لونه إيه ؟

وقال فتحى دون أن يتلفت إليه :

– أبيض ..

وتنهذ إبراهيم ثم قست تعابير وجهه .. وسحب عينيه من الليل .. واعتدل داخل السيارة ، وقال فى صوت أجش :

– ياللا بينا يا فتحى ..

وانطلقت السيارة وإبراهيم صامت .. وعضلات وجهه متقلصة .. كأنه فى معركة مع نفسه .. إنه يقاوم ضعفاً يحس به .. ضعفاً يسرس فى عواطفه ، ويغلف أعصابه ، فيجعله يميل إلى الاسترخاء ويدفعه إلى الاستسلام .. إنه يريد أن يغمض عينيه ويحلم .. ويريد أن يبكى فى حلمه .. ويبتسم ويضع يده فى يد نوال .. ثم يضمها إلى صدره .. ويضغطها إليه بقوة حتى يحس بها بين خفقات قلبه .. ولكنه يقاوم هذا الضعف ويقاوم بقسوة .. لقد جاء إليها فى مكان لقائهما .. لأنه وعدها .. إنه ليس ضعيفاً .. ولكنه فقط أراد أن يبر بوعده .. أن يأتى للقائها .. وقد جاء متأخراً .. ولكنه جاء ..

وانتبه إلى السيارة ، وهى تمر أمام المعرض الزراعى ، وقال :

– الساعة كام ؟

وقال عبد الله بعد أن نظر فى الساعة :

– واحدة وربع ..

وقال إبراهيم :

– لسه بدرى ..

ثم استطرد بلا وعى وكان شخصاً آخر يتحدث فى نفسه :

- اطلع بينا على المنيرة .. نفسى أشوف بيتنا !!

وقال فتحى فى جزع :

- يمكن يكون البيت مراقب ..

وقال إبراهيم :

- احنا حانمر من قدامه بس .. يمكن تكون أودة أمى منوره !

وسكت فتحى ، وهو يحس بقلبه ينشق ثائرا . وقاد السيارة إلى
حى المنيرة .. ومر من أمام بيت إبراهيم بسرعة .. وأطل إبراهيم
غارق فى الظلام .. وحجرة والدته ليست مضاعة .. وهو لا يزال
يحس بالضعف .. الضعف الذى يسرى فى عواطفه .. ويغلف
أعصابه .. وعاد يقاوم ضعفه من جديد .. يقاومه يقسوة .

وقال كأنه يستعين بأى شىء على عواطفه :

- سوق على مهلك .. مش عايزين نوصل قبل الساعة اتنين ..

وخفف فتحى من سرعة السيارة ..

وعاد إبراهيم يقول :

- فىن المسدس ؟

ومد فتحى يده ، وفتح درج السيارة المثبت فى « التابلوه »
وأخرج مسدسا كبيرا « برايلوم » .

وانكمش عبد الله فى مقعده ، وقال :

- يا جده ابعد البتاع ده عن وشى !!

وضحك إبراهيم ، وقال وهو يمد ذراعه ويتناول المسدس من يد

فتحى :

- ده مسدس ما يضربش إلا فى وش الانجليز ..

ثم إنه أراد أن يستمر فى الضحك ليتغلب على ضعفه ويستعيد
طبيعته ، فاستطرد ، وهو يوجه المسدس إلى رأس عبد الله :

- استنى أما أشوف إذا كنت انجليزى ولا لا !!

وغطس عبد الله فى مقعده ، وصرخ وقد امتقع وجهه :

- وحياة أبوك ببلاش الهزار الثقيل ده ..

وقال إبراهيم وهو لا يزال يضحك :

- من بكره حاديك دروس فى ضرب النار ..

وقال عبد الله :

- لا .. أنا ماليش فى المسدسات .. طبعتى كده !

وقال فتحى :

- ده أنت لو رحت الهند تبقى زعيم زى غاندى .. اهو زيك كده

مايحبش المسدسات .. أصلك هندى !!

واستمر الثلاثة فى هذا الحديث .. وهم يلحون فيه .. ويشدون الضحكات من أفواههم شدا .. حتى يتغلبوا بها على وجيب قلوبهم الواجفة ، ويستشعروا الاستهتار والجرأة .

وكان إبراهيم يضحك ويتحدث ، وهو يعبث بالمسدس ، ويشد خزان الرصاص منه ، ويتأكد من كل قطعة فيه بأصابع خبيرة متمرسه .. تحتضن المسدس فى رقة وحنو كأنها أصابع عاشق تحتضن حبيب العمر .

ثم فتح زرارين من قميصه ، وأسقط المسدس فى عبه ، وتوقفت عضلات وجهه . وسرحت عيناه فى الظلام .. وبدأ يستعيد خطته .. ويستعيد فى مخيلته رسم المعسكر .. ويقدر جميع الاحتمالات التى يمكن أن يصادفها .. وهو يحس الآن بأنه فى حالته الطبيعية .. الحالة التى يكون فيها إعادة وهو مقبل على تنفيذ خطة من خططه .. وقلبه ملئ بشعور التحدى .. والجرأة .. والاستهتار .. وشعور أشبه بشعور « الشقاوة » .. شقاوة الشبان .. وذهنه واع ، تجمع فيه ذكاؤه كله .. ولكن هناك شئ آخر يحس به .. شئ لم يتعوده .. إنه متشائم .. وهذا التشاؤم يضايقه .. ويثير فى قلبه نوعا آخر من الخوف .. غير الخوف الطبيعى الذى كان يراوده دائما وهو يطلق الرصاص .. وأخذ يمنى نفسه بالتغلب على هذا التشاؤم، وعلى هذا الخوف الغريب .. سيتغلب عليه حتما ، عندما يبدأ فى العمل .. عندما يندمج فى المعركة .

وسارت السيارة فى شارع العباسية . حتى وصلت إلى ناصية « شارع مدرسة البوليس » .

وسأل إبراهيم ، وقد بدأت لهجته تحمل رنة حازمة خطيرة :

- الساعة كام ؟

وقال عبد الله وفي صوته رعشة :

- اثنين وعشرة !!

وقال إبراهيم :

- استنى هنا يا فتحى .. انزل انت يا عبد الله ، وامشى فى الشارع ده وإذا لقيت عسكرى واقف كلمه .. قول له أى حاجة .. أسأله عن بيت .. عن شارع .. عن أى حاجة .. ما تخلص ياخذ باله من العربية وهى دالخلة ..

ونظر عبد الله إليه فى مسكنة كأنه يرجوه أن يعفيه من هذه المهمة .. ثم فتح الباب ، وقبل أن ينزل من السيارة .. استطرد إبراهيم قائلاً :

- بعد ما تشوف العربية مشيت .. خد بعضك وامشى لغاية ميدان فاروق .. فتحى حيستناك هناك ..

وقال عبد الله فى ضعف :

.. حاضر ..

ونزل من السيارة ..

وقال إبراهيم لفتحى :

- لف لقه صغيره .. وارجع اسخل من الشارع ده !

واتجه فتحى فى شارع العباسية حتى آخر محطة الترام ، ثم عاد وسخل فى شارع مدرسة البوليس .. وقاد السيارة فى سرعة عادية حتى لا يلتفت الأنظار .. ومرا فى طريقهما على عبد الله وهو واقف يحادث عسكرى الداورية ..

ووقفت السيارة فى آخر الشارع ، بجوار جدار « سينما الانجليز » ونزل إبراهيم وقد علق الحقيبة القماش فى عنقه .. ونزل فتحى بعد أن ترك موتور السيارة دائراً ..

واقترب الاثنان من جدار السينما .. وشبك فتحى أصابع يديه فى بعضهما ، وجعل من كفيه سلمة ، وضع إبراهيم إحدى قدميه فوقها . وتعلق بإحدى يديه ، فى أعلى الجدار .. ويده الأخرى تضم الحقيقية إلى صدره حتى لا ترتطم بالجدار ..

ثم وضع إبراهيم قدمه الأخرى فوق كتف فتحى .. وفى قفزة

أحدة كان فوق السور ..
تم كل ذلك دون أن يتبادلا كلمة واحدة ..
وتدلى إبراهيم فوق الناحية الأخرى من الجدار . وقفز قفزة
خفيفة .. وأصبح داخل دار السينما .. داخل معسكر الانجليز ..
وسمع صوت سيارة فتحتى تبتعد ..
وأحس أنه أصبح وحيدا .. وحدة هائلة مخيفة .
واشتد وجيب قلبه .. حتى خشى أن يكون لقلبه صوت يسمع
خارج جسده ..
وتلفت حوله بعينين جاحظتين منتبهتين ..
إنه يعلم أن دار السينما تترك بلا حراسة ، وأن منخلها من
ناحية المعسكر ليس له باب ..
وسار فى خطوات متسعة خفيفة ، بين مقاعد السينما .. ثم خرج
إلى المعسكر ..
إن كل شيء هادئ . أقرب إلى الظلام .. ليس هناك إلا هذه
الاضواء الباهتة الصفراء التى تنير الشارع الرئيسى داخل المعسكر ..
وصوت أقدام الحراس الذين يقفون على باب المعسكر المطل على
شارع السرايات .. وهو يلمح هناك ضوء سيجارة مشتعلة ..
وسار يزحف فى الظلام .. إنه محتاج دائما إلى الظلام ..
ظلام .. يارب ، مزيدا من الظلام ..
سار فى محاذاة الشارع الرئيسى . متسترا فى جدران البيوت
والثكنات الصغيرة التى يتكون منها المعسكر .. إن فى نهاية هذا
الشارع ، موقفا كبيرا للدبابات وسيارات اللورى .. يريد أن يصل
إليه !
وسمع وقع أقدام ثقيلة فوق أسفلة الشارع .. فتوقف .. وضم
الحقيبة المعلقة فى رقبته إلى صدره .. أن الأقدام تقترب .. وسقط
على الأرض ونام على وجهه .. ومرت برهة خيل إليه أنها جيل ..
ومرت الأقدام من أمامه دون أن تنتبه إليه ..
وقام من رقدته .. واستمر يسير .. سار طويلا .. وقلبه واجف ..
وذكأؤه كله ينبض فى رأسه ، وعيناه جاحظتان منتبهتان .

ورأى حرسا يقفون أمام بيت من بيوت المعسكر ..
لا بد أنه بيت القائد ..

هل يلقي نخيرته فوق هذا البيت وينتهى ؟ .. إنه يريد أن ينتهى
بسرعة .. يريد أن يخرج من هذا الظلام .. الظلام .. يا رب ، مزيدا
من الظلام .
لا ..

يجب أن يتم خطته كما وضعها ..
ودار حول البيت الذى يقف حوله الحراس .. وهو يسير فى
خطوات متسعة ، خفيفة ، وقد أحنى ظهره ، وضم الحقيبة التى
تحمل الموت إلى صدره .. ثم عاد يحاذى الشارع الرئيسى .. وعاد
يسير محترسا .. يقظا .. لم يكن يفكر فى شىء خارج خطته .. كل
شىء اختفى من خياله .. نوال .. أمه .. أبوه .. أصدقائه .. نفسه ..
لم يعد له خيال .. إنه يعيش فى قلب الحقيقة ، بكل أعصابه ..
وقلبه واجف .. يدق دقات مثيرة يقشعر لها بدنه .. إن الحقيقة التى
يعيش فيها هائلة ..
وتوقف عن السير ..

والتمعت عيناه ببريق خطير ..
إنه يرى أمامه مخزن الدبابات والسيارات اللورى .. أرض
مكتشوفة تحيطها أسلاك شائكة ، وحرس يقف شاهرا السلاح فى
أماكن متفرقة .. وأضواء قليلة هنا وهناك ..
ورقد على بطنه .. ووضع حقيبة الموت تحت أبطه .. وشد نفسه
عميقا من صدره استجمع به كل إرادته .. ثم بدأ يزحف ..
ويزحف .. إلى أن وصل إلى الأسلاك الشائكة .. ورفع الحقيبة من
حول عنقه ووضعها عبر الأسلاك .. ثم ازداد التصاقا بالأرض ..
وزحف تحت الأسلاك .. وتعلقت شوكة حديدية بقميصه ومزقته ..
وأحس بصوت التمزيق كأنه صراخ حاد .. فتوقف .. ولكنه لم
يسمع حركة .. كل شىء هادئ .. وعاود الزحف .. إلى أن عبر
الأسلاك .

والتقط حقيبة الموت وعلقها فى كتفه .. وأخذ يتحرك على يديه

وقدميه بسرعة متسترا فى ظلال الدبابات وعربات اللورى .. إنه يريد أن يبدأ من منتصف المعسكر .. ورفع عينيه .. وركزهما فوق دبابة صغيرة .. وقال لنفسه : هذه !
ثم أسرع إليها ..

وفتح حقيبة الموت ، وأخرج حزمة من حزم الجلجنايت ، ووضعها تحت الدبابة .. ثم أخرج من جيبيه ولاعة . ومد يده تحت الدبابة وأشعل الفتيل .. ثم قام على قدميه .. وأخذ يجرى بكل سرعة .. متسترا دائما بظلال الدبابات والسيارات الواقفة .. ولم يكد يجرى خطوات ، حتى انطلق من ورائه صوت مفزع يمزق الهواء .. صوت رهيب .. ضخم .. مخيف .. وأحس بنفسه كأنه يكاد يطير فى الهواء .. وبذل مجهودا ليثبت قدميه على الأرض ..

وفجأة أضيئت الأنوار .. أنوار قوية كاشفة .. وارتقى على الأرض .. وزحف تحت سيارة من سيارات اللورى .. وأخرج حزمة أخرى من حزم الجلجنايت .. وأشعل الفتيل .. ثم زحف سريعا بعيدا عن السيارة .. وانطلق صوت آخر .. مزعج .. مدو .. مخيف .. يمزق الهواء .. وأحس أن جسده كله يتمزق .. وأحاطت به الأضواء ..

أضواء ساطعة تنبعث من مصابيح كاشفة ، تدرفى أنحاء المعسكر ، كأنها الكلاب المسعورة . وأضواء نيران تنبعث من خلفه .. أطفئوا هذه الأضواء .. أطفئوا النور يا كلاب .. دعونى أتم خطتى .. يا رب اطفئ هذه الأنوار ..

وسمع صوت طلقات الرصاص .. من كل ناحية ! وجرى .. لا يدرى إلى أين .. لم يعد يستطيع أن يحدد هدفه .. وأشعل حزمة أخرى من حزم الجلجنايت .. وألقاها بعيدا .. بكل

قوة ذراعه .. لا يدري أين وقعت .. وانطلق الصوت المفزع مرة
ثانية .. مدويا .. مخيفا .. وكشف عن أسنانه ، وهو يجز عليها ..
كأنه يبتسم ..

وجرى ..
والأضواء تتعقبه ..
والرصاص ينطلق من كل اتجاه ..
وأصوات أناس يصرخون .. وهرج كبير ..
وهو يجرى وينبطح أحيانا على وجهه .. ويزحف على بطنه ..
ويقفز على يديه وقدميه ..
لا تزال معه حزامه أخرى من الجلجنايت ..
وأشعل الفتيل .. وألقى الحزمة خلال نافذة بيت صغير من
الصاج ، وجده أمامه .. قد يكون مخزنا .. أو ثكنة .. لا يدري ..
ألقاها والسلام..

وجرى ..
وانطلق الصوت المفزع الرهيب ..
والأضواء ..والرصاص .. والهرج ..
ونام على بطنه ، وأخرج من حقيبته ثلاث قنابل يدوية .. وضع
قنبلة منها فى جيب بنطلونه .. وثانية فى الجيب الآخر .. والثالثة
احتفظ بها فى يده .. وألقى بالحقيبة الفارغة بعيدا ثم أخذ يزحف
على بطنه ..

ثم قام يجرى ليختبئ خلف دبابية ..
وأنفاسه تلهث ..
وسيل من العرق يغطي وجهه وقد استحال إلى إنسان من
التراب ، من طول ما زحف على الأرض ..
إنه يريد أن يخرج من هنا ..
لن يدعهم يقتلونه ..
سيقتلهم جميعا ..
أين سور الأسلاك الشائكة ؟!
وعاد يجرى . نحو السور الشائك .. والرصاص يلاحقه ..

والتصق بالأرض وزحف على بطنه تحت الأسلاك .. واشتبكت
الأشواك الحديدية بلحمه . وأحس بالألم حادة .. سكاكين تشق
ظهره.. ولكن لا يهم .. يجب أن يخرج من هنا ..
وشد لحم ظهره من بين أسنان الزشواك الحديدية .. وتأوه ..
تأوه كأنه يلفظ روحه .. واستمر يزحف .. حتى اجتاز السلك
الشائك .. وقام يجرى .. ولم يكد يجرى خطوات حتى أحس بجسم
صلب يرتطم فى كتفه ، وينغرز فى لحمه .. وأحس بسائل حار
يسيل منه .. لعلها رصاصة .. لا يهم .. وظل يجرى .. باحثاً عن
الظلام .. ولكن الظلام يتبدد .. والأضواء تغمر كل مكان كأنها سيل
ينهمر من السماء .. ورفع يده التى تحمل القنبلة اليدوية .. ولكنه
مالبث أن خفضها ، وهو يتأوه إنه لا يستطيع أن يرفع ذراعه كأنه
شل ..

ونقل القنبلة إلى يده اليسرى ، وشد مفتاحها بأسنانه ، وقذف
بها بكل ما فيه من قوة ، ولا يدرى أين وقعت .. ثم غير اتجاهه
بسرعة .. وأخذ يجرى فى اتجاه آخر .. ليضل متعقبيه الذين
يجرون خلفه .. أنهم سيتجهون إلى حيث وقعت القنبلة ، وهو
يجرى فى اتجاه آخر ..

وأخذ يجرى مستترا فى كل ما يجده فى طريقه .. وينبطح على
الأرض ريثما يلتقط أنفاسه .
وهو يحس بقواه تنزف منه .. يحس بصدرة يطبق فوق رئتيه ،
كأنهما سيكفان عن الحركة .

والأضواء تتعقبه .. والنيران .. وطلقات الرصاص .. سيارات
تتحرك بسرعة .. وصوت صفارات تنطلق وتكاد تمزق أذنيه ..
ونباح كلاب .. إنه يكره الكلاب . يارب .. لماذا خلقت الكلاب . ألا
يكفى الانجليز .. وآلام .. آلام حادة فى كتفه .. وفى ظهره .. وفى
ركبتيه ..

ورفع يده بالقنبلة الأخرى ، وشد مفتاحها بأسنانه ، واستدار
وألقاها .. بكل ما بقى فيه من قوة .. ثم غير اتجاهه مرة أخرى .
إنه لم يعد يدرى أين هو من المعسكر ..

لقد كانت خطته تقضى بأن يخرج عن طريق الجبل ، ويصل إلى
القاهر. من ناحية حى الدراسة .
ولكن أين الطريق المؤدى إلى الجبل ..
إنه لم يعد يدري .. لم يعد يعرف أين الشمال ، وأين اليمين ،
وأين الشرق ، وأين الغرب .. تاه داخل المعسكر ..
ولم تعد معه إلا قنبلة واحدة ..
والكلاب تنبح من ورائه ..
إنه يكره الكلاب .. ويخافها .. نعم إنه يخاف .. يخاف الموت ..
لا يريد أن يموت .. لن يموت ..
ورفع القنبلة وألقاها بيده اليسرى !
لعل رائحة الدخان المنبعث من القنبلة ، تضلل أنوف الكلاب ..
وغير اتجاهه ..
وأخرج المسدس الكبير من عبه ، وامسك به فى يده ..
ولكنه لم يعد يستطيع أن يجرى ..
يريد أن يقف ..

ولكنه لا يستطيع .. إنه يجرى بقوة الاندفاع .. ورأسه مدلاة
على صدره .. وجسده يترنح .. وقطرات من دمه تتعقبه !
ورفع عينيه المكدودتين ، ونظر بهما أمامه كأنه ينظر من خلال
غيوم كثيفة .. هذا هو سور المعسكر.. إنه يعرف هذه الناحية من
السور .. إنها الناحية التى تطل على ميدان العباسية .. والسور يلف
إلى أن يطل على حارة صغيرة متفرعة من شارع العباسية .. إنه
يعرف كل هذا جيدا .. ولو استطاع أن يجتاز السور من ناحية
الحارة . لسلم .. نجا من الموت ..

ولف من وراء أكشاش « النافى » التى تقع فى أسفل سور
المعسكر .. ورأى شبحا يسير أمامه ... فأطلق رصاصتين من
مسدسه .. ولا يدري ماذا جرى للشبح .. ووصل إلى السور المطل
على الحارة .. إنه عال .. ومصنوع من الصاج .. ولن يستطيع أن
يجتازه .. وفكر .. إن كل شئ فيه هامد إلا عقله ، ويحث حوله
بعينيه الغائمتين .. ثم التقط من على الأرض لوحا قصيرا من

الخشيب ، ورفع به بصعوبة وأسنده على السور .. وأعاد وضع
مسدسه فى عبه .. ثم وضع قدمه على لوح الخشب ، ورفع
جسده ، وتعلق بيديه فى أعلى السور .. آه .. إنه يتألم .. شيء آخر
يتمزق فى جسده .. إن حافة السور ذات أسنان .. وقد انغرزت
الأسنان الصلبة فى كلتا يديه .. ولكن لا يهم .. هذا آخر ما
يتحمله .. وبعد ذلك سيهدأ .. سيستريح ..

وشد جسده إلى أعلى .. وهو يتأوه .. إنه لا يتأوه فحسب .. إنه
يبكى .. إن يديه تتمزقان ..

ووصل إلى حافة السور .

ثم ألقي بنفسه إلى الناحية الأخرى ..

أصبح خارج المعسكر ..

وقام متعثراً ..

يجب أن يبتعد من هنا سريعاً ..

وبدا يجرى فى خطوات ثقيلة ، مترنحة كأنه مخمور ..

وسمع صوت صفارة حادة تنطلق من خلفه ..

ما هذا ؟

إنه البوليس المصرى ..

يا مغفلين . اابتعدوا عنى .. لقد فعلت كل هذا من أجلكم من أجل

مصر .. لقد أثرت الرعب فى قلوب أعدائكم .. سيرحلون عنكم ..

صدقونى .. سيرحلون عنكم .. ستثورون كلكم مثلى لتطردوهم ..

ولكنهم لا يبتعدون ..

والأقدام الثقيلة تقترب منه ..

وأخرج مسدسه من عبه .. سيقتلهم .. لا .. إنه لا يستطيع ..

لا يستطيع أن يقتل مصرياً لا ذنب له .. إنهم يودون ما يخيّل

إليهم أنه واجب .. وطول حياته لم يستطع أن يقتل واحداً منهم ..

وقد قبضوا عليه مرة لأنه رفض أن يقتل الجندي الذى يتعقبه .

ولكنه لم يعد يستطيع أن يجرى ..

يريد أن يستريح ..

يريد أن ينام ..

لعله لو قتل هذا الذى يتعقبه .. لاستطاع أن ينام ..
والتفت خلفه ، وهو لا يزال يجرى متعثرا .. ومسدسه فى يده ..
ورأى من خلال عينيه الغائمتين ضابط بوليس ..
يا أخى .. دعنى .. إننى تأثر لأجلك .. ولو بحثت فى قلبك ،
لوجدت ثورتى .. إنها ثورتك ..
ولكن هذا الضابط لن يفهم ..
وهو يريد أن يستريح .. يريد أن ينام ..
ووجه إليه مسدسه .. ليقتله .. ولكن أصبعه تجمد فوق الزناد ..
لم يستطع أن يضغط عليه .. شىء فى نفسه يرفض أن يقتل
مصريا لا ذنب له .. شىء أقوى منه .. وأقوى من سلامته ..
وأقوى من حياته ..
ولمح الضابط فوهة المسدس الموجهة إليه .. فأسرع وأطلق
مسدسه .. وسقط إبراهيم على الأرض ،
منكفئا على وجهه ..
وتحسس الأرض بيديه ..
وابتسم ..
إنه الآن يستطيع أن يستريح ..
واغمض عينيه ..
كأنه نام ..

الساعة السادسة صباحا.. واليوم يوم وقفة العيد! واستيقظت العائلة وكل فرد فيها مقبوض الصدر.. لقد مضت أيام طويلة وصدورهم مقبوضة، وانقبضت معها الشفاه، فلم تعد تبتسم.. وانقبضت العقول، فخبأ ذكاؤها.. وانقبضت النظرات بين جفونهم، فلم يعد فيها نشاط ولا مرح.

ونزلت نوال من فوق فراشها، وخرجت من غرفتها تبحث عن جريدة الأهرام تحت عقب الباب.. لقد أصبحت الجريدة تأتي إلى البيت كل صباح.. لم يعد أحد يستطيع أن ينتظر عودة الأب من عمله ليطلع على الأخبار، ولم يعد الأب نفسه يستطيع أن يخرج من البيت قبل أن يقرأ الجريدة ويطمئن! والتقت نوال في طريقها بأمها، وهي تسير متناقلة نحو الحمام، كأن خطواتها تأوهات من ألم.

وقالت في صوت حزين وهي تحاول أن تبتسم:
- صباح الخير يا ماما.. كل سنة وانتى طيبة!
ثم أمسكت يد أمها، وانحنى تقبلها ثم رفعت وجهها تحاول أن تقبل وجنتيها فأشاحت عنها أمها برأسها، وهي تقول:
- هوه فيه طيب يا بنتى طول ما اخوكى فى السجن!
وقالت نوال بصوتها الحزين:
- بكرة يرجع بالسلامة يا ماما.. وكل حاجة تروح لحالها.
وقالت الأم وهي تنقل قدميها نحو الحمام كأنها تسير فوق مسامير:

- والله يا بنتى متھياً لى انى حاموت قبل ما اشوفه تانى..
وقالت نوال:

- ما تقوليش كده يا ماما.. ربنا معانا.

ولم ترد الأم، إنما تنهدت كأنها تصعد بقلبيها إلى الله.
وخرجت نوال إلى «الصالاة»، وانحنى تلتقط الجريدة من تحت
عقب الباب، وفجأة ارتدت عنها قبل أن تلمسها، وقد اتسعت عيناها
وارتسم فيها الذعر.. واستندت إلى الحائط، وهى لا تزال تنظر إلى
الجريدة كأنها تنظر إلى أفعى تسعى تحت قدميها. ثم انطلق منها
صرخة، صرخة حادة هالعة، وحاولت أن تكتم صرختها، ووضعت
يدها فوق شفتيها، وهى لا تزال تنظر إلى الجريدة الملقاة على
الأرض بعينين ازدادت اتساعاً.. ثم لم تستطع، انطلقت منها صرخة
ثانية أحد من الأولى، ثم صرخة ثالثة، ثم توالى الصراخ، وأخذت
تشد ضفائرها بكلتا يديها.. وتدفق بدميها، كأنها جنت..

وجاءت أختها سامية مهرولة وهى فى قميص النوم.. وجاء
وراءها أبوها وهو يخب فى جلبابه، وقد سقطت طاقيته فوق رأسه
حتى لامست حاجبيه وسقطت نظارته فوق أرنبه أنفه حتى كادت
تقع على شفتيه، وقال فى لهفة مبهور الأنفاس:

- آيه .. فيه آيه .. حصل آيه ١٩!

ولاحت. ضنت سامية أختها نوال، وهى تقول:

- مالك يا نوال.. بتصرخى ليه ١٩!

وكفت نوال عن الصراخ.. وعيناها لا تزالان مذعورتين..
وجسدها كله يرتعش.. وأشارت لهما بأصابعها إلى الجريدة الملقاة
على الأرض.. إلى الأفعى التى تسعى تحت قدميها..
والتفتا إلى حيث أشارت.. وقرأ حروفاً كبيره حمراء كأنها أسنة
من نار:

«مصرع إبراهيم حمدي فى معركة مع البوليس»!!
ورفعت سامية رأسها.. ونظرت إلى أختها وشفاتها ترتعشان
كان كأن الكلمات أثقل منهما.. ثم ارتمت فى أحضانها.

وبكت الاختان..
وانحنى الأب والتقط الجريدة بيد مرتعشة، ثم ثبت نظارته فوق
عينيه وأخذ يقرأ:

« روع سكان حى العباسية، فى سعاة متأخرة من مساء أمس
بأصوات انفجارات شديدة صادرة من داخل المعسكر الأنجليزى،
وتبين أن بعض الشبان قد استطاعوا التسلل إلى داخل المعسكر،
ولم تعرف دوافعهم بعد.. وقد اتصل مأمور قسم الوايلى
بحكمدرية العاصمة، فأرسلت قوات من البوليس حاصرت المعسكر،
فى انتظار خروج المتسللين، ودارت معركة بين هؤلاء المتسللين
وبين البوليس، وتبادل الطرفان إطلاق النار، وسقط أحد الشبان
قتيلاً.. وقد تبين أن هذا الشاب هو إبراهيم حمدي المتهم بقتل
المغفور له عبدالرحيم باشا شكرى، والذي استطاع أن يهرب من
سجنه منذ عدة أسابيع.. هذا، وقد أصدرت وزارة الداخلية البيان
الرسمى التالى...»

وطوى الأب الجريدة كأنه يمزقها.. وتقلص وجهه كأنه يعانى
الما حاداً.. ثم انثبه إلى نفسه، وقال لأبنتيه فى صوت محشرج
مخضل بدموع تنزف فى صدره ولا تطل من عينيه:
- مش عايز حد يسمع صوتكم.. فاهمين.. مش عايز حد يسمع
صوتكم أنا بأقول لكم أهو!!
وجاءت الأم فى خطواتها المتأوهة، وانفاسها اللاهثة.. وقالت
وهى تنظر إلى الجميع نظرات متشائمة:
- جرى إيه عالصبح، كفى الله الشر.. ما هى أصل المصاييب
عرفت طريق البيت خلاص..
ولم يرد عليها أحد..

وعاد الأب إلى حجرته والجريدة فى يده، وهو يخب فى جلبابه
كأنه يحاول أن يشقه بساقيه.. ويردد فى سخط:
- لا حول الله يارب.. لا حول الله..
وأحاطت سامية أختها نوال بذراعها، وشدتها إلى غرفتها،
وكلتاهما تنشجان ودموعهما تفيض من عيونهما..

وقالت الام كأنها غضبت:
- مش تقولوا لى حصل أیه.. ولا مش حاسبينى واحدة فى البيت؟!

وارتفع نشیج نوال..
وردت علیها سامية من بین دموعها:
- بابا حایقول لحضرتك..
واستدارت الام، وقد نسيت بعض آلامها، وبدت فى لهفتها على معرفة الخبر، أكثر نشاطا، ولحقت بزوجها قائلة:
أیه یا زاهر.. حصل أیه.. یا خویا طمنى..
ونزع الأب نظارته من فوق عینیه، ثم رفع طرف جلبابه واخذ یمسح به زجاج النظارة وكأنه یمسح الدموع من فوق عینیه.. وقال فى تلثر:

- ابراهیم..
وقالت الام متطلعة:
- ماله..
وقال الأب وتأثره یمدق كلماته:
- ما...ت!!

وخبطت الام على صدرها وقالت فى ألم كأن شیئا تمزق فیها:
- کیدی یا ابنی.. مات ازای!
وقال الأب وهو یهم بالجلوس على الأريكة الاستامبولی:
- قتلوه.. البولیس قتله!

وارتفع حاجبا الام فوق عینیه، وقالت فى سذاجة:
- قتلوه.. وهم الناس بیقتتلوا كده بالساهل!
ولم یرد الأب..
وعادت الام تقول.. وقد اشتد فزعها:
- ومحیی.. عملوا أیه فى محیی؟
ورفع الأب وجهه إلیها كأنه یستنکر هذا التفكير.. وقال:
- محیی مسألته حاجة تانية.. مالوش دعوة بابراهم!
وقالت الام وقد بدأت تنهار:

- هوه مش فى السجن؟!

وقال الأب متبرما:

- أيوه..

قالت:

- ما هو الذى قتل ابراهيم، يقدر يقتل محبى كمان.. بكره
حايقتلوه.. حايقتلوا ابنى

ثم وقعت فوق الأريكة بجانب زوجها ، وانخرطت فى البكاء ..
وجسدها المكتنز يرتعش كأنه يمزق نفسه..

وقال الأب وهو يزفر كأنه لم يعد يحتمل مزيدا من الهم..
- يا ستى ابراهيم انقتل فى معركة مع البوليس.. كان هاجم
على معسكر انجليزى.. إنما محبى لا بيعمل معارك ولا بيهاجم
معسكرات..

وخفت دموع الأم.. وكف جسدها عن الارتعاش.. ثم سكنت
برهة وهى تفكر.. ثم قالت فى صوت متردد كأنها تخشى أن
تفصح عن أفكارها:

- هم مش ماسكين محبى علشان خاطر يلاقوا ابراهيم؟!

وقال الأب وهو ينظر إليها كأنه يبحث وراء عينيها:

- أيوه..

قالت كأنها تتخلص من أفكارها:

- أهم خلاص.. لقوا ابراهيم!

ونظر إليها الأب فى تعجب قائلًا:

- قصدك إيه؟

وقالت الأم وهى تدير عينيها عنه:

- يوه.. أنا عارفة بأه .. إنما مادام لقوا ابراهيم، حيفضلوا

ماسكين محبى ليه؟!

وقال الأب وهو يفتح صفحات الجريدة ويخفى وجهه فيها كأنه

يخجل من أفكار زوجته:

- والله يا ستى لو كان خروج محبى متوقف على موت ابراهيم،

كان بلاش يخرج احسن.. كان أهون يفضل طول عمره فى السجن.

وسكت الأب، وأحس بالعجب من نفسه.. أحس كأنه اكتشف انسانا جديدا فى داخله.. أحس أنه يؤمن فعلا بهذا الكلام الذى يقوله. إنه يرضى فعلا بأن يبقى ابنه فى السجن، لو كان بقاؤه ثمنا لحياة ابراهيم.. هذا عجيب، هل يعقل ان يضحي بابنه إلى هذا الحد؟! ولكنه يحس بأن تضحيته بابراهيم ليس أقل من تضحيته بابنه.. يحس أن ابراهيم ليس مجرد شاب وطنى آواه يوما فى بيته، يحس كأن له شيئا فى ابراهيم، كأنه اشترك فى صنعه، فى صنع بطولته، وفى صنع وطنيته، وفى صنع مغامراته، ويجس الآن انه فقد شيئا يملكه، يملكه مع غيره، على الشيوخ!!

وهو يريد أن يبكى، يريد أن يصرخ، أن يضرب، أن يثور لدم الشهيد الذى اشترك فى صنع بطولته.

يريد أن يقف بين الناس ويحدثهم عن ابراهيم.. يروى لهم قصته.. قصة وطنيته، وقصة البوليس الذى كان يطارده.. ويقول لهم أيها الناس لقد ضحى ابن لكم بروحه فى سبيلكم.. فى سبيل تحريركم.. ليطرد الانجليز.. ويطرد الفساد.. ويعيد اليكم كرامتكم وعزتكم..

ولكنه لن يفعل..

إنه لن يصرخ، ولن يضرب، ولن يثور.. غاية ما يستطيعه هو أن يبكى فى صمت، بعيدا عن الناس.. ورغم ذلك فإن شيئا يمنعه من البكاء.. إنه يحس كأنه أصبح أقوى من البكاء.

لماذا لا يثور؟

إنه ناثر فعلا..

ولكن دوره فى الثورة يختلف عن دور الآخرين.. وعندما يدعى للقيام بدوره قد يتردد قليلا، ولكنه لا يهرب.. ولا يخون الثورة، وقد دعى للثورة يوم طرقت ابراهيم بابه، فلبى.. وفتح بابه على مصراعيه..

وأحس بنفسه خلال هذا التفكير، كأنه واقف بين ناس كثيرين.. وأن حالته ليست حالة فردية، إنما هى حالة كل هؤلاء الناس.. حالة ملايين الناس يصنعون الثورات، ويصنعون الأبطال.. ويبحث عن

ابنه محيى بين هذه الملايين فرآه بخياله.. رآه خلف القضبان..
وابتسم له.. انه هو الأخرى يقوم بدوره فى صناعة الثورة
وصناعة الأبطال.. ولأول مرة يبتسم فى داخلية نفسه، وهو يرى
ابنه خلف القضبان..

ماذا تفعل الآن هذه الملايين؟

ماذا تفعل بعد موت إبراهيم؟

إنها لا تياس.. ولا تبكى.. ولا تستكين.. إنها تنشط لتصنع بطلا
آخر.. إن العيون تنقد.. والهمسات تعلو لتصبح صراخا.. والأحداث
تتروى بسرعة، وكل حدث يصنع بطلا.. أبطال كثيرون.. يتمون
رسالة الشهيد ويتقدمون صفوف الثورة..
هذا ما يجب أن يحدث..

وسيححدث..

سننتقم.. سنثور.. سننحرر من الظلم.. ويخرج محيى من
السجن..

وأحس بالدماء تتدفق فى عروقه بقوة وعنف، كأنه استعاد
شبابه.. استعاد شبابا غاضبا، ساخطا، يطالب بالثورة.. وتقلصت
تعايير وجهه، كأن فى صدره مظاهرة يطاردها البوليس!!
وأفاق من احساسه على صوت نشيج زوجته وقد بدأ يرتفع من
جديد، فلبعد الجريدة - التى لم يكن يقرأ فيها شيئا - عن وجهه،
وقال وهو ينظر إليها فى حنان:

- جرى أية يا تحية.. ما كنا سكتنا!

وقالت زوجته وهى تنشج:

- مش قادره يا زاهر.. كل ما أتصور إبراهيم مقتول، يتهاى لى
أن محيى مقتول جنبه!

وقال الأب وقد غاص قلبه فى صدره:

- يا شيخه بلاش الكلام ده.. فال الله ولا فالك.. قومى يا الله
شوفى حناخد ايه بكره لمحيى.. دى أول مرة حازوره فيها.. ولازم
كمان أخذ له معايا شوية كحك.. و..
وقاطعته الأم:

.. انا حالفة الكحك ما ينخلش البيت طول ما ابني مرمى الرمية
دى..

وقال الأب وهو يحاول أن يبتسم:
- يا ستى ما حدش عايز ياكل كحك.. إنما لازم أخد له شوية
يستبشر بيهم ويخفف بيهم عن نفسه..
وسكتت الأم.. وتركت دموعها تنهمر فوق وجنتيها..
وسكت الأب.. وحاول أن يعود إلى احساسه الثورى.. ولكنه
وجد قلبه لا يزال غائصا بين رثتيه.. ووجد لهفته على ابنه تعصف
به.. انه يريد سألما.. يريد أن يعود إلى جانبه.. وأن يحقق حلمه
فيه.. وأن يتم الثوب الذى كان ينسجه له.. ثوب المستقبل الذى
نسج كل خيط فيه بعرقه، وحرصه، وتقديره، وتزمته..
وهب واقفا كأنه يهرب من لهفته..

وخرج متجها إلى الحمام.. وتوقف قليلا عندما مر بباب غرفة
ابنتيه.. وتسمع إلى صوت نشيجهما.. وحاول أن يدخل إليهما ينهرهما..
أو.. ليخفف عنهما.. ولكنه عدل.. ودخل الحمام، وصفق الباب وراءه فى
عنف، كأنه يصفقه فى وجه أعداء كثيرين يلاحقونه فى بيته..
كانت نوال قد انكفأت على وجهها فوق فراشها.. تبكى.. كأنها
تقطر روحها فى دموع.. وضيغرتها ملتفتان حول عنقها كأنها
تحاول أن تخنق نفسها بهما.. وكان البكاء يعصف بها أحيانا
فيضيق صدرها، وتلقف أنفاسها من وراء، وتضرب بيديها
وقدميها فوق الفراش كأنها تفر من الموت.. وأختها بجانبها
تشاركها دموعها، وتحاول أن تخفف عنها، ثم لا تجد ما تخفف به
عنها إلا أن تشاركها مزيدا من الدموع..
وسكتت نوال عن البكاء فجأة..

واستدارت على ظهرها وأخذت تتطلع إلى السقف بعينين
مفتوحتين لا تريان شيئا.. وقد أمتقع وجهها حتى بدت بشرتها
السمراء فى لون الليمون الأخضر.. وظلت ساهمة طويلا.. وأختها
بجانبها عاجزة عن أن تجد شيئا تقوله، إنما ترقبها فى نظرات
حانية مشفقة..

وفجأة أيضا - وفي حركة آلية - اعتدلت نوال جالسة فوق
الفراش وقالت فى صوت خفيض كأنها تحدث نفسها:
- لازم أروح له..
وقالت سامية فى دهشة:
- تروحي لمين؟

قالت نوال وهى لا تزال ساهمة تنظر بعينين لا تريان شيئا:
- لابراهيم.. النهاردة الاثنين، وحايستتاني الساعة حداثر..
وقالت سامية فى لوعة على أختها:
- نوال.. فوقى لنفسك يا حبيبتى.. ما تعمليش فى نفسك كده!
ونظرت إليها نوال وبين شفقتها لبتسامة بلهاء كأنها مجنونة:
- أظن صدقتى كلام الجرايد.. بأه يقدر يقتل ابراهيم.. ده يقتل
الف.. تعرفى هو راح فين؟
ومدت سامية ذراعها وأحاطت خصر أختها، وقالت وقد ازداد
صوتها لوعة:
- فين؟!

وأتسعت عينا نوال، وانبثق منهما بريق غريب، وقالت:
- راح يطلع محبى من السجن.. هو قال لى كده.. أصلى كنت
مخبية عليكى يا عبيطة.. وكنت باقابلة من وراكى.. كل يوم اتنين،
وكل يوم اربع.. واخر مرة قال لى انه حيطلع محبى من السجن..
وكادت سامية تعود إلى البكاء شفقة على أختها.. ولكنها
تحاملت على نفسها وقررت أن تتخذ موقفا حازما فزمت شفقتها،
وأمسكت أختها من كتفها بكتبا يديها، وأخذت تهز برفق وهى
تقول:

- نوال.. بلاش كلام مجانين.. اللى حصل خلاص حصل..
انتبهى لنفسك وخليكى عاقلة..
وشدت نوال نفسها من بين يدي أختها وقالت فى حدة:
- سيبينى.. لازم أقوم البس.. أحسن اتأخر!
وقفزت من فوق الفراش، واتجهت إلى دولاها وفتحتة، وقامت
أختها، ووقفت خلفها، وقالت فى رفق:

- بلاش فضايح يا نوال، مش كفاية الهم اللى احنا فيه.. انتى عايزة بابا يجرا له حاجة..
وقالت نوال، وقد أشتدت حدتها:
- بابا مش حايقدر يمنعنى.. لو حد منعنى من الخروج، حارمى نفسى من الشباك..
وعادت سامية تقول:
- نوال.. ما تخلنيش أتجنن.. و..
وقاطعتها نوال وقد ارتفعت الابتسامة البلهاء مرة ثانية إلى شفيتها:

- انتى مش مصدقانى .. طب بصى..
وفتحت المصحف الذهبى الصغير المعلق فى رقبته، وأخرجت الورقة الصغيرة التى كتب عليها ابراهيم بخط يده شهادة «لا إله إلا الله»، وقالت، والضوء الغريب ينبثق من العينين الواسعتين:
- شوفى.. دى ورقة كتبته أنا وابراهيم قبل ما يسحب بيتنا زى الورقة اللى بيكتبها بابا مع ماما لما بيحجى يسافر.. مش كده؟!
ونظرت سامية إليها فى حيرة ولوعة..
وعادت نوال تطوى الورقة وتضعها داخل المصحف الذهبى الصغير.. وعادت دموعها تنهمر هادئة فوق وجنتيها، ثم جلست على الأرض مستندة إلى الدولاب.. وأسقطت رأسها بين يديها، وأخذت تبكى بكاء هادئ..
وكانت نوال تعلم أنها مدفوعة إلى هذا الكلام بقوى أقوى منها..
وكان جزء من عقلها يعى أن كلامها ما هو إلا نوبة عصبية تجتازها.. كانت تحس كأن فى داخلها فتاتين.. فتاة تعلم أن ابراهيم قد قتل.. مات.. وماتت معه احلامها.. وفتاة أخرى ترفض أن تصدق أنه مات.. وتؤكد أنه لا يزال حيا.. وفتاة أخرى ترفض أن تصدق أنه مات.. وتؤكد أنه لا يزال حيا.. وأنه ينتظرها فى موعده.. فى ميدان «فنى» بجوار مستشفى عانوس.. وكلا الفتاتين لا تستطيع أن تقاوم.. والثانية مجنونه!

ورطبت الدموع من الأعصاب الشائرة.. واستطاعت الفتاة
الحزينة المنهكة أن تتماسك، وقالت لأختها فى توسل:
- سامية.. أنا لازم اخرج.. أنا عارفة انه مات.. إنما ما عرفش
تربته فين علشان أزوره فيها.. ونفسى أروح أزوره فى الحقة اللى
كان مواعدنى فيها.
وأطمأنت سامية إلى هدوء أختها، وجلست بجانبها على الأرض،
والتصقت بها كأنها تحميها من نفسها، وقالت وهى تحاول أن
ترفع صوتها حتى تبدد سحب الحزن التى تتجمع فوق رأسيهما:
- إنما مش ممكن اسيبك تخرجى لوحده، وانتى فى الحالة دى.
وقالت نوال وهى تتنهد، دون أن تلتفت إليها:
- تعالى معايا..
وسكنت سامية قليلا، ثم عادت تقول:
- بس حانخرج إزاي.. حانقول ايه؟!
وقالت نوال وهى ساهمة:
- ما اعرفش.. أنا تعبانة يا سامية.. فكرى انتى!
وبدا على سامية كأنها تلقت مهمة خطيرة، وقالت وقد قطبت
ما بين حاجبيها:
- بس لو كان بابا يخرج!
ولم ترد نوال..
ظلت صامته طويلا.. وسامية لا تزال تفكر فى حجة تخرج بها
هى وأختها..
ثم قالت نوال كأنها تحدث نفسها:
- أنا متهىأ لى أنى مش حاقدر أعيش من غيره.. أنا ماكنتش
عائشة إلا علشان.. كنا بأعد الايام لغاية ما يرجع بالسلامة.. كان
قلبى بيقول لى انه مش ممكن يجرا له حاجة.. أنا رى قلبى كان
بيكذب على..
وقالت سامية وقد عاد قلبها يخفق لوعة على أختها:
- أحنأ حانرجع للكلام ده تانى.. يعنى حانعمل ايه فى قسمة
رينا.. قسمتك وقسمتى..

وقالت نوال كأنها تحلم:
- حاقدر أعيش بعد كده، وحاعيش لمين؟
وقالت سامية كأنها تحاول أن تلهي أختها:
- هس.. اسكتى.. متهيا لى أنى سامعة صوت دولاب بابا وهو
بيفتح.

وقامت سامية وخرجت من الغرفة متجهة إلى غرفة أبيها..
وكان الأب يلبس ثيابه فعلا، وكان خارجا ليشتري بعض الكعك،
وبعض الهدايا والثياب التى سيحملها لابنه غدا..
وانتظرت سامية إلى أن خرج، وأطمأنت إلى أنه أغلق الباب
وراءه ثم عادت مسرعة، وقالت لأختها، وقد ضاع حزنها فى لهفة
المغامرة:

- خلاص بابا نزل.. دلوقت نقول لماما ايه؟!
وسكتت قليلا، وهى تضع أصبعها فوق رأسها فى حركة مثيرة
للضحك ثم قالت:
- فكرة.. نقول لها اننا رايعين لوفاء علشان نسمع أخبار ابن
خالتها.. الضابط اللى وعدنا يطمنا على محبى وعبد الحميد..
واقترنت الأم بسهولة.. كان يكفى أن تعلم أن ابنتها خارجتان
بحثا عن أخبار محبى وعبد الحميد، لتسمح لهما بالخروج.
وركبنا الأوتوبيس..

وسامية تتلفت حولها فى وجل كأن الناس يعلمون سرها..
وكان العيون التى ترتفع إليها توجه إليها اتهاما..
ونوال ساهمة لا ترى شيئا.. لا ترى الناس ولا الشوارع. رأسها
كله مزدحم بخيال أبراهيم.. وعيناها لا تريان إلا أبراهيم. عندما
فتحت له الباب وهو مرتد القميص والبنطلون وفى عينيه قوة
مهذبة يشق بها طريقه إلى قلبها.. وتراه وهو فى جلباب والدها،
الذى كان ينام به.. وتراه وهو مرتد بدلة ضابط يوم خرج من
البيت.. وتراه وهو يعتلى السلم الخشبي ليختبئ فى السندرة..
تراه مبتسما.. لقد كانت ابتسامته دائما ضيقة خجولة.. لم تسمعه
أبدا يقهقه.. وترى عينيه وهو يحاول أن يخفيهما عنها، إلى أن

واجهها بهما وفيهما إعلان لحبه وحبها.. وترى أنفه الكبير.. رأس السهم الموجه إلى أعدائه.. وابتسمت في مرارة وهي تتذكر أنفه.. كم ليلة قضتها وهي تقيس بخيالها هذا الأنف وتبتسم له.. كيف استطاع إبراهيم أن يكون جميلا وهو بهذا الأنف الكبير.. وتمادت في خيالها حتى تجسد أمامها.. حتى أحست بإبراهيم بجانبها.. أحست بأنفاسه.. وسمعت صوت دقات قلبه.. وكادت تلمسه بيده.. وبدأت الفتاة الأخرى تستيقظ في صدرها.. الفتاة المجنونة التي لا تريد أن تصدق أن إبراهيم قد مات!!

ونزلت الأختان من الأوتوبيس..

وسامية تسير وهي تتلفت حولها، كأنها تقول برأسها «لا» «لا».. لتنفى الشبهات من عقول الناس.. وتتأخر عن أختها خطوات، ثم تسرع وتلحق بها.. ورأسها لا يزال يتلفت ويقول : «لا» «لا».. ونوال تسير وهي لا تزال ساهمة، غارقة في خيالها.. وكلما اقتربت من مكان اللقاء، أحست أنها مقبلة على بيت تعرفه جيدا.. بيت من نور.. بيتها هي وإبراهيم.. البيت الذي عاشت فيه بخيالها طويلا.. ورأت نفسها فيه وهي تودع إبراهيم كل صباح، وتستقبله عندما يعود من عمله.. لقد حددت موعد عودته بالضبط.. الساعة الثانية والنصف.. إن والدها يعود في الساعة الثانية، ولكن إبراهيم يعمل أكثر منه، ويتأخر عنه نصف ساعة.. وهي تقف معه ريثما يخلع ثيابه ويرتدى جلبابه.. إنه لا يرتدى «بيجاما» أبدا.. إنها تحبه مرتديا جلبابا.. وتصحبه إلى مائدة الطعام.. لقد أعدت كل شيء بيديها.. وهي تعرف كل ما يحبه.. المصقعة.. والمكرونة المقصوفة.. ولكنه يأكل وهو سرحان.. أنه ينسى أن يهنئها على مهارتها.. أنه مشغول دائما بشيء في رأسه.. حتى عندما يجلسان سويا في الشرفة ساعة العصر، ينسى أن ينهرها على قزقة اللب.. إنها تعلم أنه لا يجب منها أن تقزقز اللب.. ولكنها تفعل ذلك لتثيره لتلفت نظره.. ولكنه ينسى.. أنه سرحان دائما.. ودائما مشغول.. لقد أحببت رجلا مشغولا.. يحمل عبء البلد كله في رأسه.. وسارت كأنها تسبح في خيالها..

وفاقت على صوت أختها تسألها:
- احنا لسه حانمشى كثير؟!
ورفعت عينين غائمتين ، كأنها لا تفهم معنى لسؤالها.. ولم ترد
عليها!
وعادت سامية تسأل بعد عدة خطوات:
- احنا حانقابل حد هناك؟!
وعادت ترفع إلى أختها العينين الغائمتين، وأجابت كأنها تائهة:
- ابراهيم..
وسكتت سامية، وقد خافت أن تثير فى أختها نوبة عصبية
جديدة..
وأقتربا من ميدان «فنى»..
وأبطأت خطوات نوال، كأنها تصعد سلما.. سلم البيت الذى
عاشت فيه بخيالها..
ثم وقفت بجوار جدار المستشفى..
إنها تحس فعلا انها تزور ابراهيم..
تزوره فى قبره..
وانهمرت الدموع فوق وجنتيها، ولم تحاول أن تجففها..
وحاولت أن تقرأ «الفاتحة» ترحما على حبيبها.. ولكن الآيات اختلطت
فى ذهنها.. ووجدت نفسها تخط بين «الفاتحة» و«التحيات».. وكما
حاولت أن تبدأ من جديد، تبخرت الآيات من ذهنها..
إنها ليست واعية.. وليست غائبة.. وهى لا تكاد تحس يموت
ابراهيم حتى تحس بحياته.. ولا تكاد تتصوره فى قبره، حتى تراه
فى بيتها.. ولكنها تتألم. كل شئ فيها يتألم.. كأن كل ما فيها
يتمزق ويحترق.. انها تحس بالألم فى ذراعيها.. وفى رأسها.. وفى
صدرها.. وفى ساقها.. أعصابها.. أعصابها تؤلمها.. تتمزق..
تحترق..
وبدأت تقاوم الألم..
وأخرجت سامية منديلا من حقيبتها، ناولته لأختها فى صمت
لتجفف به دموعها..

وتناولت نوال المنديل، وهمت أن تضعه فوق عينيها، ولكنها عادت وابتعدته ونظرت إلى جندى بوليس يمر امامها، نظرات ارتسم فيها الرعب، كأنها ترى شيئا مخيفاً لم تره من قبل.. ثم ركزت عينيها فوق البندقية التى يحملها البوليس.. انها لم تر هذه البندقية من قبل..

كانت ترى شيئا يحمله كل رجال البوليس.. وكانت تعلم أن هذا الشئ يسمى بندقية. وكانت تتصور البندقية شيئا كلعب الاطفال.. مجرد شئ يحمله رجال البوليس لتكملة مظهرهم الرسمى .. كهذه الأزرار الصفراء التى تحلى صدورهم.. ولكنها لم تر البندقية كما تراها الآن.. لم تر هذه الفوهة السوداء، كغم الاقعى.. ولم تر هذا الزناد، كذيل العقرب.. أن «البندقية» ليست لعبة من لعب الاطفال، وليست شيئا لاستكمال المظهر الرسمى.. إنها اداة قتل..

هذه البندقية هى التى قتلت ابراهيم!! لماذا يحمل رجال البوليس بنادق؟! ليقتلوا بها الأبطال.. ليقتلوا بها الثورة.. ليقتلوا بها الحب.. وليحرموا بها الانجليز.. والخونة.. والباشوات.. والملك.. وأعداء ابراهيم!!

والتصقت بأختها وهى تشعر بالخوف.. خوف شديد.. من البندقية.. ثم أمسكت بذراع أختها بيد باردة.. قطعة من الثلج.. وسحبته، وسارت كأنها تتسلل بعيداً عن أعين رجل البوليس.. وسارت معها سامية دون مقاومة، ودون اعتراض أو سؤال. وقد اشتد بها اللوعة واللهفة على أختها..

واتجهتا إلى محطة الأوتوبيس، عائدتين إلى البيت.. والخوف لا يزال يستبد بنوال.. وهى تبحث فى كل خطوة تخطوها عن عسكرى بوليس يحمل بندقية وتعددهم: واحد.. اثنين .. ثلاثة.. عشرة.. انهم كثيرون.. والبنادق فى ايديهم كثيرة.. وكلها

مصوبة إلى صدر ابراهيم.. وإلى صدرها.. إلى صدور كل الأبطال..

وكان خوفها يخفى تحته ثورة.. إنها تتمنى من خلال خوفها أن تهجم على كل رجل بوليس، وتخطف منه بندقيته، حتى لا يقتل بها احدا.. حتى لا يقتل ابراهيم مرة ثانية.. وهى تتصور نفسها فعلا تخطف البنادق.. وتتصور انها عملية سهلة.. لا تكلفها شيئا.. فقط تخطف البندقية وتجرى بها..

وركبت الأوتوبيس.. وأطلقت من النافذة.. وأستمرت تعبد رجال البوليس وتعد البنادق التى يحملونها.. وتتصور نفسها تخطفها! وعندما وصلت إلى البيت، ألقت نفسها فوق الفراش.. وعادت تبكى..

وأختها تبكى لبكائها.. وتبكى ابراهيم.. وتبكى أخاها.. وتذكر عبد الحميد فيشتد بكائها..

وعاشت العائلة ليلة ثقيلة جامدة.. كالهواء الراكد! وأفرادها يخفون حزنهم فى صدورهم ويبالغون فى تكتمه.. فليس من حقهم أن يبدو حزنهم للناس.. ليس من حقهم أن يعرضوا دموعهم على أحد، أو يرتدوا السواد حدادا على ابراهيم، أو يترحموا عليه علانية.. إنهم لا يعرفونه. ابدا، ولم يروا وجهه. هكذا يبدون أمام الناس!

وفى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى.. خرج الأب يصلى صلاة العيد ثم عاد وأخذ يعد الأشياء التى سيجملها لابنه فى السجن، والتى أعدها قبل ذلك عدة مرات، واحتفظ بها تحت فراشه طول الليل..

وتحركات الأم فى فراشها.. وقالت دون أن تقرئ زوجها تحية الصباح:

- اسمع يا زاهر.. الدور الجاى يا تاخذنى معاك، يا أروح ازوره لوحدى.. أنا خلاص، ما بقاش فيه.. ما عدتش أستحمل. مش قادرة استنى أكثر من كده.. لازم اشوفه.. أعمل حسابك على كده.. إلا إذا كنت عايز تموتنى..

وقال الأب من خلال ابتسامة باهتة:
- الدور الجاي يكون فى البيت بإذن الله..
ومرخت الأم :..
- ما تقوليش كده.. انا ما بقتش اصدق الكلام ده.. ما تضحكش
على..

وقال الأب فى هدوء:
- يا ستى استبشرى.. النهارده عيد..
- مش عيد يا خويا.. أبدا مش عيد.. ده عيد على ولاد الكلب اللى
حابسين ابنى.. انشاالله يارب ينطسوا فى عنيهم، واخدهم وكسة،
يارب بحق صيامى اللى صمته تحرمهم من ولادهم زى
ما حرمونى من ابنى، وتشحط قلوبهم زى ما شحطوا قلبى..
يارب تاخدهم وتريح البلد منهم.. آه يا نارى.. بس لو كان فيه
حيل.. لو كنت راجل.. ما كنتش عارفة أعمل ايه فى المجرمين
دول..

وسكت الأب..
وعادت الأم تقول بعد فترة:
- ما تنساش توصيه ما يقلعش فائلته.. أصله يا حبة عينى
ما يطقش الفائلة فى الصيف..
وقال الأب وهو لا يزال مشغولا بأعداد الأشياء التى سيجملها
دون أن يكون فيها شى يعده:
- حاضر..

وعادت الأم تقول:
- وتجيب منه الهدوم الوسخة، علشان تتغسل هنا..
وقال الأب:
- حاضر!!
وقالت الأم:
- أوعى تكون نسيت حاجة.. خدت جوز الفراخ؟
وقال الأب فى استسلام:
- أيوه!

وقالت الأم:

- ما تفهمش لغاية ما سامية تحمر البطاطس..

وقال الأب:

- حاضر..

وظلت الأم تلقى تعليماتها، ووصاياها وتمنياتها.. حتى خرج الأب فى الساعة التاسعة، وقالت له نوال فى صوت باك، وهى تودعه:

- قول لهم انهم حيخرجوا قريب.. انا عارفة كده!

وقالت سامية:

- ما تنساش تقول لمحبي انى باعمل له بيجاما جديدة..

ثم استطردت فى صوت خافت:

- ولعيد الحميد كمان!!

ولم يسمع الأب كل هذا الكلام. إنما كان يهز رأسه ويقول «حاضره» دون أن يركز انتباهه إلى ما يسمعه.. وخرج مسرعا نحو السجن، وهو يحمل بين يديه الأشياء التى أعدها لابنه وعبد الحميد.. ولم يكن يشعر بالرهبة.. لم يعد يهرب السجن.. وفى خلال الأيام التى مرت به كان قد اكتشف كل الطرق الضيقة التى تؤدى إلى الاتصال بالمسجونين.. عرف طريق رشوة الجنود. وعرف طريق وسائط ضباط البوليس.. وعرف طريق تهريب النقود.. والرسائل الصغيرة والأطعمة.. بل إنه استطاع أن يرى ابنه لعدة دقائق عندما كان فى المستشفى.. ثم بعد أن نقل محبى من المستشفى وأعادوه إلى السجن، ظل على اتصال به بواسطة الرسائل الصغيرة التى يحملها منه وإليه جنود السجن.. ولكن كانت هذه هى المرة الأولى التى يحصل فيها على اذن يسمى بزيارة ابنه..

وكان متفائلا بهذا الأذن.. كان يعتبره تحولا فى موقف البوليس من ابنه.. ولكن هذا التفاؤل، لم يكن يطفى على احساسه بالحدث الهام الذى وقع باستشهاد ابراهيم.. إن هذا الحدث جعله يحس بتفاهة مصيبة ابنه.. وجعله يحس بأنه - هو وابنه - يعيشان ضمن

مجموع كبير.. ضمن الأغلبية التي تصنع الثورة، وتصنع الابطال..
وهو احساس يملأه بقوة جديدة.. كأنه الآن مع هذا المجموع
الكبير، يستطيع أن يتحدى البوليس ويتحدى الحكومة.. ويقتحم
السجن..

ووقف أمام الباب الكبير..
وضغط الجرس، المثبت فى الحائط.. ضغطة بقوة!!
وفتحت كوة الباب وأطل منها الوجه الغليظ ذو الشارب المشعث
كأنه مجموعة من الحشرات حطت فوق شفنتين ملوئتين.
وأبرز التصريح بالزيارة الذى يحمله.. فمد الحارس يده من
خلال الكوة وتناوله منه، ونظر فيه مليا كأنه يقرأه.. ثم أغلق
الكوة.. وغاب قليلا.. وعاد وفتح الباب الصغير ضمن الباب الكبير..
وبخل زاهر أفندى..

فوجيء المسجونون فى سجن الأجانف صباح أول
يوم العيد ، بأبواب الزنانزين تفتح كلها مرة واحدة..
وتغيرت الأوامر ، فسمح لهم بالاختلاط بعضهم
ببعض .. وقال لهم ضابط السجن ، أن الإدارة رأت
أن تخفف عنهم بمناسبة العيد .. ثم هددهم بأن أى محاولة لإثارة
الشغب داخل السجن ، ستؤدى إلى تطبيق الأوامر القديمة ، وإعادة
عزلهم ، وحبسهم حبسا انفراديا .

ثم ابتسم لهم الضابط وقال كأنه ينهى خطابا بليغا :
- وكل عام وأنتم بخير!!

ورد المسجونون بهممات غريبة ..

ثم ابتسم كل منهم بينه وبين نفسه ..

ليس بينهم واحد يؤمن بإنسانية « الإدارة » وليس بينهم واحد
يؤمن بأن البوليس السياسى يمكن أن يصدر أمرا بتخفيف قيود
السجن ، لمجرد الا .. ال بالعيد .. إن هذه الأوامر الجديدة تعنى
اتجاها جديدا .. وقد عودوا من طول ما تحملوه من عذاب السجن
أن يفسروا كل أمر ، تفسيراً يتعلق بمصيرهم .. حتى ابتسامه
الضابط ، أو تكمشة المأمور ، أو تودد العسكرى .. كل كلمة ، وكل
حركة .. كل ذلك له تفسير فى أذهانهم يتعلق بمصيرهم .

مامعنى أن يفتحوا أبواب الزنانزين .. ويسمحوا لهم بالاختلاط
بعضهم ببعض !!

معناه أن التحقيق فى قضية هرب إبراهيم حمدي ، قد انتهى ..
وحفظ !

لماذا حفظ التحقيق ؟

لأنهم وجدوا إبراهيم ..

وجدوه شهيدا !!

وخرج كل سجين من زنزانتة وهو يزحف بقدميه فى خطوات مترددة ، كأنه نسي كيف يمشى من طول ما قبع فى زنزانتة الضيقة .. ثم يتلفت حوله كأنه لا يصدق أنه منح عشرين مترا من الحرية ..

وأخذوا يتجمعون فى الفناء الصغير الذى يتوسط السجن ، وهم يتبادلون التحية والتهنئة بالعيد فى أصوات رزينة هادئة .. وقد ارتدوا جميعا الثياب التى ينامون بها .. بعضهم يرتدى « البيجاما » . وبعضهم يرتدى « جلبابا » ، وبعضهم اكتفى ببنطلون البيجاما والفانلة الداخلية .. وبعضهم ينتعل « شبشبيا » وبعضهم حافى القدمين .. وكانوا جميعا يكتُمون فى صدورهم ثورات عنيفة .. كانت أعصابهم تالفة من شدة ماتحملة من عذاب .. ووجوههم صفراء ممتلئة من طول ما عاشوا فى ظلام الزنازين .. وكانت ترتفع فى عيني كل منهم ، بين الحين والحين ، نظرات شذراء قاسية مليئة بالسخط يوجهها إلى جندى من جنود السجن ، أو إلى الضابط عندما يمر به .. كان كلا منهم يطلق من عينيه قبضتين قاسيتين تسعيان إلى عنق هذا الجندى أو هذا الضابط ليخنقا ، انتقاما للعذاب الذى يعانيه كل سجين ، وللكرامة المجروحة التى أهينت خلف الأبواب المغلقة .

ولكنهم جميعا .. وبلا اتفاق سابق .. أخفوا السخط خلف ضلوعهم ، وأخفوا النظرات الشذراء خلف جفونهم .. وحاول كل منهم أن يفرح بنصيبه الضئيل من الحرية . وأن يتمتع بعينه بالشمس التى أخفوها عنه طوال هذا الأسابيع .. وأن يملأ رثتيه بهواء أرحب من هواء زنزانتة .. وأن يحس بين زملائه بصيرة مصغرة للمجتمع الذى حرم منه ..

ووقف محبى أمام باب زنزانتة يرقب زملاءه ، ويضغط على

قنطرة نظارته بطرف أصبعه بين الحين والحين ..
إن شيئاً فيه تغير .. إن ملامح وجهه قد قويت ، ونظرات عينيه
قد اشتدت . لم يعد جفناه يضطربان كجناحي عصفور حبيس خلف
زجاج نظارته ، وهو يبدو هادئاً .. أهدأ من زملائه ، كأنه أكبر
منهم . وأعقل .. وليس في صدره ثورة ، وإنما صدره مفعم
بالاستسلام .. ومن خلال استسلامه يتعمق بتفكيره فيما جرى له ،
وفيما يحيط به .. كأنه يطل بذهنه على عالم غريب .. عالم اكتشفه
لأول مرة ..

وكان ينقل عينيه في وجوه زملائه وفوق شفثيه ظل ابتسامة ..
إنه لا يعرف أحدا منهم .. ولم ير وجوههم من قبل ، إلا في لمحات
خاطفة ، عندما كان يلتقي ببعضهم في طريقه إلى دورة المياه ..
ورغم ذلك فهو يشعر كأنه يعرفهم من زمان بعيد .. كأنه عاش
معهم العمر كله ، في بيت واحد .. عائلة واحدة يبدو كل فرد منها
أمام الآخر مرتدياً الجلباب أو البيجاما .. دون حرج !
وصاح به واحد من الزملاء :

- صباح الخير يا أستاذ محيي .. كل سنة وأنت طيب !؟

أجاب في صوت سليم ، لا يرتعش ولا يتردد :

.. وانت بالصحة ..

إنه يعرف هذا الصوت .. إنه الصوت الذي كان ينطلق من خلف
الزنزانة رقم « ١١ » ..

وعاد الصوت يدعوه :

- اتفضل ..

وخطا محيي خطوتين نحو الفناء ، وهو يتلفت حوله بحثاً عن
عبد الحميد .. ولمحه أتياً نحوه ، فاندفع إليه .. ووقف الاثنان
ينظران أحدهما إلى الآخر ملياً ، كأن كلا منهما يتعرف على الآخر
من جديد .. ثم شد كل منهما على يد الآخر ، وهما يبتسمان في
تكلف ثم لم يتمالكا نفسيهما فاندفع كل منهما في أحضان الآخر
يضمه إلى قلبه .

وقال عبد الحميد وهو يربت على ظهر ابن عمه :
- كل سنته وأنت طيب يا ابن عمي !
وثال محيي في حرارة :
- وأنت بالصحة يا عبد الحميد ..
وقال عبد الحميد وهو يبعد محيي من بين ذراعيه :
- باين فرجت !؟
وقال محيي :
- على الله ..
ولمعت نظرات الذكاء الحاد في عيني عبد الحميد ، ومال على
أذن محيي هامسا :
- اوعى تقول حاجة . المسألة لسه ما انتهت !
وابتسم محيي ابتسامة صغيرة كأنه يستخف بذكاء ابن عمه
وقال :
- ما تخافش ..

ثم سارا جنبا إلى جنب نحو زملائهما .. ومحيي لا يزال يشعر
بشعوره القديم الذي كان يشعر به كلما سار بجانب عبد الحميد ..
شعوره بأن له سندا قويا .. بأنه ليس وحده .. شعوره بأنه يستطيع
أن يكون هو وابن عمه على الغريب .. ورغم ذلك فقد قضى محيي
ليالى كثيرة يتعذب بعبد الحميد .. فى المستشفى وفى السجن ..
ليال قضاهها يسائل نفسه : هل صحيح أن عبد الحميد هو الذى
أبلغ البوليس ؟ هل صحيح ما قاله له اليوزباشى الدباغ ؟ وكان هذا
التساؤل يقرع رأسه كالمطارق الثقيلة . يحاول أن يتخلص منه فلا
يستطيع ، ويحاول أن يقنع نفسه ببراءة عبد الحميد فيتذكر المفكرة
الصغيرة التى عرضها عليه اليوزباشى الدباغ .. مفكرة عبد الحميد
التي سجل فيها بخط يده نمرة تليفون همام بك ، والنائب العام ..
وبعد أيام وليال كثيرة استطاع أن يخرس هذا التساؤل .. أن
يخفيه فى عقله الباطن .. إن عبد الحميد سجن مثله ، وتعذب مثله ،
ولم يعترف .. ألا يكفيه هذا .. حتى لو كان عبد الحميد قد حاول أن

يبلغ البوليس ، فيكفيه أنه عدل عن محاولته .
ولكن عقله الباطن لا يزال يلفظ نفسه. إليسيرلؤل إلى عقله الواعي
بين الحين والحين .. فيقلقه ، وتعود المطارق إلى رأسه ..
ورفع عينيه إلى وجه عبد الحميد كأنه يحاول أن يكتشف
الحقيقة .. ولكنه لم يكتشف شيئا ، كل ما اكتشفه أن عبد الحميد
يبدو مهموما .

ترى لماذا يبدو مهموما ؟

وانضمنا إلى زملائهما ..

ورحب بهما. زملاؤهما كيطلين .. تجملا العذاب .. ولم يعترفا ..
ثم انخرطوا جميعا فى حديث واحد ..
وكانوا يتحدثون عن إبراهيم ..

.. وكانت الأخبار كلها قد وصلتهم .. والخطابات الصغيرة المهربة
حملت إليهم كل التفاصيل التى لم تنشرها الصحف .. إنهم يعلمون
أن إبراهيم هاجم معسكر العباسية .. ويعلمون مدى الخسائر التى
أوقعها بالإنجليز .. ثلاثة قتلوا .. وخمسة عشر جرحوا .. وانفجرت
ديابتان ، وأربع سيارات لورى .. وقد طارد الإنجليز إبراهيم داخل
المعسكر .. طاردوه بالرصاص .. والكلاب المدربة .. وأصابوه
برصاصة فى كتفه .. ورغم ذلك استطاع أن يخرج حيا .. ثم سقط
شهيدا ، صريعا برصاصة ضابط بوليس مصرى . وهم يعلمون أن
الإنجليز ثائرون ، وأنهم قد يطلبون إسقاط الحكومة .. ويعلمون أن
البوليس قد سلم الجسد الطاهر .. جسد إبراهيم .. إلى أهله
وأجبرهم على أن يدفنه ليلا .. وبلا جنازة ، وبلا احتفال .. ثم
انطلق رجال البوليس كالكلاب المسعورة تفتش بيوت الطلبة
والعمال ، ويقبضون عليهم .. ويضعونهم فى معتقل أقيم فى
ضاحية الزيتون ، رهن التحقيق .. ولا تزال حملة الاعتقالات
مستمرة ..

وكان أكثر من واحد يشترك فى رواية قصة إبراهيم .. ولم تكن
فى نبرات أصواتهم رنة حزن يائس ، بل كان كل منهم يتكلم كأنه

يعيش فى القصة .. كأنه هو البطل .. وفى نبراته رنين أحلام ثائرة تدفعه لأن يبالغ فى سرد التفاصيل ، ويضيف عليها من خياله صورا جديدة من صور البطولة .

والذين لم يتكلموا كانوا يستمعون بعيون متسعة ، وأنفاس مبهورة ، كأنهم يشاهدون فيلما سينمائيا مثيرا .. ثم يتعدون بخيالهم ما يسمعون فيتصور كل منهم نفسه داخل معسكر الإنجليز يلقى بالقنابل وأصابع الجلجنايت .

وكان محبى يستمع كأنهم يتحدثون عنه .. إن القصة تبدأ به .. إن اشترك فيها فعلا .. لولاه لما استطاع إبراهيم أن يدخل معسكر الإنجليز ويثير فيه الرعب .. وكان وهو يستمع يحس ببطولة إبراهيم أكثر مما يحس باستشهاده .. كان يحس به فى خياله بطلا حيا أكثر مما يحس به شهيدا مقتولا .. وكان يحس بالثورة ، أكثر مما يحس بالحزن ، كأن إبراهيم لم يموت .. ولن يموت .. إنه يعيش دائما فى صدره ..

وقال واحد من الزملاء كأنه يحلم :

- الواحد نفسه يشغل شغلانه زى دى ..

وقال ثان وهو يضع يده فى فتحة جلبابه :

- الحكاية لازم تكبر يا جماعة .. البلد لازم تعمل حاجة !

وقال آخر وهو ينبش الأرض بأصابع قدمه :

- أنا بلغنى أن الجامعة حتضرب بعد أجازة العيد .. وحاخرجوا فى جنازة صامته ..

وقال ثالث ، وقد التمعت فى عينيه نظرات ثائرة :

- واحنا كمان لازم نعمل حاجة .. متهيا لى نقوم نكسر السجن وننزل ضرب فى العساكر ..

وقال رابع :

- حقنا نضرب عن الطعام النهارده !

وأطل آخر برأسه .. شاب اسمر .. عيناه واسعتان . وأنفه ضخمة كأن رأس سهم موجه إلى أعدائه .. وشفتاه رقيقتان فوق ذقن

عريض قوى .. وقال فى صوت هادىء بطىء كأنه لم يتعود الكلام الكثير :

- المهم نخرج من هنا .. علشان نعرف نشغل بره !
ووقعت هذه الكلمة فى أذن كل منهم كأنها إيجاء له بتغيير اتجاهه . واقتنعوا فعلا بأن مشكلتهم الأولى هى أن يخرجوا من هنا .. أن يخرجوا من السجن .. ليهبوا حريتهم مرة ثانية للثورة التى يؤمنون بها ..

ولكى يعجلوا بخروجهم من السجن يجب أن ينتهزوا فرصة التخفيف عنهم ويمالئوا البوليس .. ويحتفظوا بهدوئهم ويتنكروا فى ثوب المظلومين الضعفاء .

ونظر محبى إلى زميله ذى الأنف الكبير ، وأحس أنه يرى أمامه إبراهيم .. إنه يتكلم على طريقته .. ويصرح بأرائه فى نفس أسلوبه .. الأسلوب الذى لا يحمل لهجة الأمر ، ولا سلطة الزعامة .. أحس أنه أمام بطل جديد يتم رسالة بطل شهيد !!

وعاد الزملاء يتحدثون من جديد بعد أن نبذوا فكرة الثورة داخل السجن .. وكان كل منهم يروى ذكرياته الوطنية .. وذكريات المظاهرات التى اشترك فيها .. السجن التى دخلها .. وذكريات المرات التى حقق معه فيها .. وكانوا يروون هذه الذكريات وهم يضحكون .. كأنها نكات سمعوا بها .. وليست عذابا عاشوا فيه ..

ومحبي واقف صامت .. إنه أيضا يريد أن يروى ذكرياته .. يريد أن يقول لهم إن إبراهيم اختبأ فى بيته .. ثم يضحك عندما يقص عليهم كيف اختبأ إبراهيم مرة فى السندرة بين بلايص العسل وصفائح السمن .. ثم كيف ذهب لخته لتتفق على خطة هربه مع فتحى المليجى .. يريد أن يثبت لهم أنه هو الآخر مثلهم .. لا يقل عنهم بطولة .. ولكنه لا يتكلم .. إن حرصه يلجم لسانه .. إنه لن يتكلم أبدا .. لقد قرر أن يحبس ذكرياته فى صدره .. وإلى الأبد.. ورفع عينيه إلى عبد الحميد .. ربما كان هو الآخر يريد أن يتكلم ..

يريد أن يلقي بنصيبه فى سوق الذكريات .. ولكن عبد الحميد
كان ضامتا ، منكس العينين .. يبدو مهموما ..
وتعب أحد الزملاء من وقفته ، فدخل إلى زنزانته ، وشد
البطانية من فوق سريره ، وعاد بها وفرشها على الأرض وجلس
فوقها مستندا ظهره الى الحائط .. ولحق به زميل آخر ، جلس
بجانبه ثم انطلق يغنى بصوت حالم ولحن حزين .. أغنية حب ..
حب محروم :

أول ميعاد لى خلفتيه ..
تانى ميعاد برضه خلفتيه ..
تالت ميعاد شوفى رأيك فيه ..
راح تخلفيه ، ولا حتوفيه ..
يا حمام .. روح قوائم لحبيبي ..
يا حمام ده البعاد زود نحبيي ..
ورفع عبد الحميد عينيه ، وتلقى النغم الحزين بأذنيه .. وأحس
بقلبه يخفق .. ويطير .. يطير إلى سامية . حتى يصل إليها .
ودهش محبى وهو يلتقط كلمات الأغنية .. إنها أغنية لم يسمعها
من قبل .. كأنه دخل إلى عالم كل شىء فيه جديد عليه حتى
أغانيه ..

وتسلل بقية الزملاء نحو الصوت الحزين .. ثم جاء أحدهم
ببطانيته وفرشها بجانب البطانية الأولى .. ويطانية ثالثة .. ورابعة ..
وجلس كل المسجونين على الأرض .. وبدأوا يغنون معا .. ثم
مالبث أن انقلب اللحن الحزين إلى لحن راقص ، اختلطت فيه
أصوات غليظة ، وأصوات مبحوحة وأصوات رفيعة .. والأيدى كلها
تصفق صفقات منتظمة .. وقهقهات عالية .. ونكات تقاطع الأغنية ..
وواحد يرقص بكتفيه .. ثم قام زميل ووقف فى وسط الحلقة ،
وأشار إلى زملائه بالسكوت .. ثم قال فى لهجة مذيعة محطة
الاذاعة :

- هنا سجن الأجانب .. افحص .. سيداتى (ونظر إلى جنود

السجن المتفرجين بجانب الزنازين ، وضع الزملاء بالضحك ، ثم استطرد وهو يلتفت إلى زملائه (وسأنتي .. نبدأ برنامج العيد المبارك بأغنية ياللى زرعتموا البدنجان . ويلقيها الزميل على محمود.. وأحب أن أقول لكم أن الزميل ولو أنه من أعيان سجن الأجانب ، إلا أنه ليس أجنبيا .. كما أنه تواضعا منه يقبل أى سيجارة تقدم له على سبيل إبداء الإعجاب ..

وبدا الزميل يغنى أغنية فكهة ..

والضحكات تتعالى ..

وصرخ جندي من بعيد :

- بس يا أفندى أنت هو .. ممنوع الزيتة !!

ونظروا إليه بعيون ثائرة . وردوا على صراخه بصراخ أعلى :

- ايه عايز إيه ؟

وأدار الجندي رأسه ، كأنه يهرب من عيونهم .. وسكت ..

وصاح زميل منهم :

- ما تزعلش يا شاويش .. انشأ الله تترقى وتبقى مسجون !!

وضع الزملاء بالضحك .

ثم قام المذيع وأعلن عن مسابقة فى النكت ، وبدأ كل واحد منهم يروى نكتته .. وعقب كل نكتة ترتفع ضحكات صاخبة ، كأنها صراخ المظلومين .. وضحك محيى .. ضحك كما لم يضحك أبدا طول عمره .. إنه عالم غريب .. عالم يضحك فيه الناس من العذاب.. وضحك عبد الحميد .. وكانت ضحكاته ابتسامات خافتة تتسلل من بين همومه .. ثم اشتدت حتى أصبحت ضحكات أقوى من همومه .. وأحس أنه بين أصدقاء يحبهم .. وكأنه جالس معهم فى المقهى الذى تعودوا أن يجتمعوا فيه .. وبدأت شخصيته تتجمع لتبدو على طبيعتها .. وبدأ يستعد ليروى هو الآخر نكتة يساهم بها فى المسابقة .. إنه يحفظ نكتا كثيرة .. أكثر مما يعرفه كل أصدقائه مجتمعين .. سيثبت لهم خفة دمه ، وذكائه .. ولكنه تردد فى اختيار النكتة التى بدأ بروايتها .. وقرر ألا تكون نكتة خارجة .. سيروى

لهم نكتة بيضاء ، ثم يتدرج حتى يصل إلى النكت الخارجية .
وتنحني .. والتفت إليه زملاء وبين شفاههم ضحكات معلقة
تتهم بالانطلاق ..

ونظر إليه محبى فى إعجاب ، ثم أدار عينيه فى وجوه زملائه
كأنه يقول لهم : هذا ابن عمى ..
وقال عبد الحميد :

- مرة واحد مجنون شاف مجون تانى بيغسل قطة .. و..
وارتفع صوت من بين الزملاء :
- نو .. نو .. نو ..

وظهرت علامات الامتعاض على وجه عبد الحميد ، كأنه أيقن أن
هؤلاء الجماعة ليسوا من محترفى الاستماع للنكت ورواتها ،
ولكنهم من الهواة .. من طلبة المدارس لا من زبائن المقاهى .. ثم
أكمل النكتة وقد فقد بعض حماسه :

- المجنون قال لزميله : « ماتغسلش القطة أحسن تموت » رد
عليه زميله وقال له « مالكش دعوة » .. سابه المجنون ورجع بعد
شويه لقى زميله بيعيط والقطة ميتة بين أيديه ..

وارتفع صوت من بين المجموع :
- لا حول الله .. أما دى حكاية ..

وارتفع صوت آخر :

- أنا دى « فار » !

وقال صوت ثالث :

- أمك ..

فرد الجميع :

- اشمعنى ..

وقال الصوت :

- يتخربش !!

وتحامل عبد الحميد على نفسه ، وقال كأنه يحاول أن ينقذ
مركزه :

- لما الدبانة تخبط على باب بيتكم ، تطل الست والدتك وتقول :
ورد الجميع :

وقال عبد الحميد مقلدا مواء القطط باللهجة الانجليزية :
- نو .. نو .. نو ..

وضج الجميع بالضحك .. ورفع محبى رأسه ونظر إلى زملائه
متباهيا بابن عمه .. وارتفع صوت يقول لعبد الحميد :
- أيوه كده انفرد .. قول لنا بأه حكاية المرحومة !!
وعاد عبد الحميد يقول مبتسما :

- لما المجنون شاف القطعة ميتة قال لزميله : « أنا مش قلت لك
ما تغسلهاش أحسن تموت » ، رد عليه : « ما هي ما متتش من
الغسيل » ، سألته : « أمال ماتت من إيه » ، قال له : « وأنا
باعصرها » !!

وضج الجميع بالضحك ..

وزها عبد الحميد بنكتته ، ولكنهم مالبثوا أن صاحوا فيه :-
قديمه .. قديمه .. انت لسه فى سنة أولى روضه يا أستاذ !
وفجأة برز الباشسجان منتصبا بقامته الطويلة العريضة ،
وصاح فى صوت جهورى ، وهو واقف بعيدا عند مدخل الفناء
الصغير :

- محبى الدين مصطفى زاهر ..

وسكت الجميع مرة واحدة كأن سكيناً أشهرت فوق أعناقهم ..
والتفت محبى نحو الباشسجان وفى عينيه نظرات تتسائل فى
اضطراب ..

وعاد الباشسجان يصيح وهو لا يتحرك من وقفته :
- عندك زيارة ..

واستراح المسجونون ، وعلت شفاههم ابتسامات .. ولكنها كانت
ابتسامات حزينة .. تحمل حسرة وتشاؤما .. ان « الزيارة » قد بدأ
يسمح للأهالى بزيارة المعتقلين ، فمعنى هذا أن مدة الاعتقال
ستطول .. ستطول إلى شهور طويلة . إلى حد أن يضطر البوليس

إلى أن يتعب نفسه وينظم زيارات داخل السجن ..
ولم يكن محبى. يعلم هذا المعنى الذى يدور فى أذهان زملائه ..
ولكنه قام من مجلسه وهو متضايق ، يشعر بالخجل من زملائه ..
لقد كان يعلم أن والده يحاول أن يحصل على إذن بزيارته منذ
مدة .. وكان فى انتظار هذه الزيارة بين يوم وآخر ، ولكنه اليوم لا
يريدها ، إنها تميزه عن زملائه .. وهو لا يريد أن يميز عنهم
بشئ .. لا يريد أن يبدو بينهم كطفل صغير يدلله والده ، ويحاول
أن يخفف عنه بزيارته ..

وسار بخطوات بطيئة نحو القسم الخارجى من السجن ..
وزملاؤه يتعقبونه بنظرات لخطوط فيها الرثاء بالحسد .. وسار
عبد الحميد معه حتى الحاجز المقام من أسياخ الحديد ، الذى يفصل
القسم الخارجى والقسم الداخلى للسجن وهو يهمس فى أذنه :
- سلم على عمى .. وخليه يطمئن ماما وبابا على .. وخليهم
يبعتولى فلوس .. وحد يروح يقابل مدير الشركة .. ويفهمه الحكاية
قبل ما يرفدونى .. وخليه يسلم على عمتى ، وعلى نوال .. وعلى
سامية ..

وتركه عند الحاجز الحديدى ..
وخطا محبى خلف الحاجز ، وسار وبجانبه الباشسجان ، حتى
دخلوا مكتب معاون السجن .. ووجد والده جالسا هناك على أريكة ..
كأنه يراه جالسا فى غرفة « القعاد » على الأريكة الاستامبوللى ،
مرتديا جلبابه .

وقام الوالد واقفا عندما رأى ابنه ..
إنها المرة الأولى التى يقف فيها له .. وكأنه - بلا تعمد - قد
اعتبر أن ابنه قد أصبح رجلا .. بطلا .. يستحق الاحترام !
وانحنى محبى يقبل يد والده ..
ثم وقف كل منهما يشد على الآخر ، ويبحث عن نفسه فى
عينى الآخر ..
ولم يرتع محبى فى أحضان والده ، ولم يقبله فى وجنتيه .. بل

تعمد أن يحتفظ بمسافة تبعده عن والده ، حتى لا يحاول والده أن يأخذه فى أحضانة .. ولو حدث هذا لأحس محبى بمزيد من الخجل والحرص أمام الكونستابل الجالس خلف المكتب فى الحجرة ، وأمام الجنود الذين يدخلون ويخرجون .. كان أكثر ما يخشاه أن يبدو أمام هؤلاء ولدا صغيرا يدلله أبوه ، وليس رجلا يستحق السجن ! وربما قدر أبوه فيه هذا الشعور ، فلم يحاول أن يحتضنه أو يقبله .. وجلسا بجانب بعضهما على الأريكة ، والكونستابل ينصت إلى كل كلمة يقولانها . ولم يقولا شيئا ..

لقد اكتشفنا بعد برهة قصيرة أن ليس لدى أى منهما شىء هام يقوله للآخر .. إنما تبادلنا عشرات الأسئلة والجوبة ، كلها تدور حول موضوع واحد .. بداها محبى وهو يسأل فى لهفة يحاول أن يخفيها :

- إزاي ماما .. وإزاي صحتها .. وإزاي سامية ونوال ..
والأب يجيب ، ويعود يسأل بدوره عن صحة ابنه .. وعبد الحميد .. وكيف يعيشان .. وماذا يأكلان ..
ثم توقف بينهما السؤال والجواب برهة .. كأن كلا منهما قد شبع من الآخر .. وكان كلا منهما يريد أن يعود من حيث جاء ..
وقال الأب وهو يتعمد أن يرفع صوته ، حتى يسمعه العسكرى :
- يا ابنى إذا كان عندك حاجة قولها .. اليوزباشى الدباغ بك راجل عايز يخدمنا .. لازم تسمع كلامه ؟!
ونظر إلى ابنه نظرة ذات معنى ، كأنه يكشف له عن خطة خطيرة ترمى إلى تضليل البوليس ..
وقال محبى :

- وأنا لو كان عندي حاجة ما كنت قلتها من زمان .. إنما انت عارف يا بابا .. أنا عمري ما كان لى دعوه بحاجة !
وابتسم الأب ..
وابتسم الابن ..

إن الاثنين يشعران بتقارب بينهما لم يشعرا به من قبل .. إنهما يشعران كأنهما صديقان .. رجلان .. لم يعد الأب ينظر إلى الابن كطفل فى حاجة إلى حمايته ، إنما ينظر إليه كصديق .. كرجل بجانبه يحمل معه مسئولية العائلة ويتحمل عنها العذاب ..
وهمس محيى بسرعة :

- يظهر أنهم حفظوا التحقيق .. فتحوا الزنازين وسمحوا لنا نقعد مع بعض ..

واتسعت ابتسامة الأب .. ولكن ابتسامته اختفت سريعا عندما تذكر أن الفضل فى حفظ التحقيق يرجع إلى استشهاد إبراهيم .. ولكنه لم ينطق باسم إبراهيم ، ولم يتبادل ذكره مع ابنه ..
وانتهت الزيارة ..

وعاد محيى إلى داخل السجن يحمل الهدايا والثياب التى جاء بها والده .. ورأى زملاءه وقد انفضت حفلتهم الصغيرة .. وبعضهم لا يزال جالسا على الأرض فوق البطاطين المفروشة .. وبعضهم قام يتجول فى الفناء الصغير .. وبعضهم يغتسل ، أو يتناول طعام إقطاره ..

وأسرع محيى ووضع كل ما حمله له والده من مأكولات فى وسط زملائه الجالسين على الأرض .. كأنه يريد أن يتخلص من شيء يثير حوله اتهاماً ، وصاح زملاؤه مهللين ونادوا على المتفرجين :

- قربوا با جماعة .. الكحك وصل !!
وفى دقائق كان كل شيء قد اختفى من على الأرض ، وانتقل إلى الأيدي والأفواه ..

والجنود ينظرون بعيون جشعة .. وشفاه يسيل فوقها اللعاب . وكان محيى قد ترك زملاءه وسخل إلى زنزانته وأخذ بيدل ثيابه الداخلية ، وببجامته ، وعبد الحميد خلفه يسأله عن الأخبار ، وهو يجيبه فى عجلة .. ثم جمع ثيابه التى بدلها ، وبقية ثيابه التى لا يحتاج إليها .. وعاد بها إلى الحاجز الحديدى ، وناولها من وراء

القبضان لأحد الجنود ليسلمها لوالده حتى يحملها إلى البيت
لتغسل هناك .. تحقيقا لوصية والدته ..
وعندما عاد إلى زملائه لم يجد شيئا قد بقى له ليأكله ..
ووقف مبتسما ..
لم يغضب .. ولم يأسف .. بل أحس أنه تخلص من عبء كبير ..
وأنه استرد مكانته بين زملائه ..
وقال له واحد منهم ضاحكا ، وهو يناوله نصف كحكة :
- خذ .. ما تزعلش !!
وأخذ نصف الكحكة قائلا :
- كل سنة وأنت طيب ..
وأحس أنها أحلى قطعة كحك أكلها فى حياته ..
وفجأة ارتفع صوت صرخ من جانب السجن :
- أبعد عنى يا عسكرى .. مالكش دعوه بيه .. أنا بأقول لك
أهوه!

ورد العسكرى فى صوت أجش :
- يا أفندى ممنوع .. اسمع الكلام بالراحة !
وعاد الصوت يصرخ :
- أبعد يا عسكرى .. غور من وشى !!
وصاح العسكرى :
- ما تزعلش .. خليك فى أدبك !
وصرخ الصوت :
- أدبى يا قليل الأدب .. أبعد أيديك عنى ..
وتجمع المسجونون حول زميلهم .. وتجمع حولهم جنود
السجن .. وبدأت الأصوات تغضب .. ثم أصبحت الأصوات
صراخا .. وارتفع صوت الباشسجان من عند الباب :
بس يا مسجون أنت وهوه .. كل واحد يدخل ززانته .. كله
يدخل الزنازين .. شده يا عسكرى لخله الزنزانة ..
وتنبه المسجونون ..

أنهم سيعودون إلى الزنازين ..
ستقبل في وجوههم الأبواب ..
سيعودون إلى العذاب الذي عاشوا فيه أسابيع ..
الشمس .. الهواء .. المجتمع الصغير ..
وتوترت الأعصاب .. لن ندخل الزنازين .. سندافع عن حريتنا ..
سنتحدى هؤلاء المجرمين ..

ومد عسكري يده يحاول أن يجذب سجيناً إلى زنزانته ، فعاجله
السجين بكلمة في بطنه ، ولكمة أخرى في وجهه .. وصرخ
العسكري .. واشتبك كل المساجين مع كل العساكر .. ومحيى واقف
عند باب زنزانته يرتجف .. وعبد الحميد في وسط المعركة ، وقد
تمزقت ثيابه .. وهو أعنفهم ، وأشدهم ثورة .. وسجين سقط على
الأرض ، ومن فوقه جندي يضرب رأسه بكعب خذائه ، وسجين
لصق جندياً في الحائط ، وضربه برأسه فوق أنفه فأسال منها
الدم .. وسجين يجري هناك .. وجندي يجري في الناحية الأخرى ..
وبذل الضابط إلى فناء السجن ، وخلفه جنود .. جنود
كثيرون .. بعضهم يحمل البنادق .. وصاح الضابط :

- اقلع القايش يا عسكري أنت وهو اضرب .. اضرب على طول!
وخلع كل جندي الحزام الجلدي الذي يتمنطق به حول وسطه ..
وهجموا على المساجين .. وضربوا .. لا يهمهم أين تقع الضربة ..
وارتفع الصراخ .. أن الأحزمة الجلدية تشق الوجوه .. وتنبج
الظهور .. والدم .. دم كثير .. واستطاع سجين أن يخطف الحزام
الجلدي من يدي الجندي .. وبدأ يضرب به .. وعاجله جندي آخر
بضربة بمؤخرة بندقيته فوق عظمة كتفه .. فسقط على الأرض
يتلوى من الألم ..

إن المساجين يفرون إلى الزنازين .. ويفلقون أبوابها خلفهم
بأيديهم .. وهم يصرخون .. ويتأوهون .. وبعضهم سقط على
الأرض قبل أن يصل إلى الزنزانة ، فشده الجنود من شعر رأسه
وألقوا به في الزنزانة وأغلقوا الباب وراءه .. ومحيى في زنزانته

يرتجف .. وعبد الحميد لا يزال يقاوم .. إنه أعنفهم .. إنه يجرى
فى الفناء الصغير والجنود يجرون خلفه .. ثم يحاصرونه ..
ويضربونه .. إنهم كثيرون . كثيرون جدا .. لم يعد يراهم .. إن
دماءه تغطى عينيه .. لم يعد يستطيع أن يقف على قدميه .. سقط ..
وشده الجنود ، يجرجرونه على الأرض ، وألقوا به فى الزنزانة ..
وأغلقوا الباب ..

الأبواب المغلقة ، تأوهات من ألم
وصوت خافت يصيح :
- يا مجرمين .. يا ولاد الكلب ..

ونظر الضابط حوله ..
لقد أغلقت كل الأبواب ..
وعاد إلى مكتبه



ومرت الايام والأسابيع داخل السجن ..
وكل يوم يحمل كثيرا من الضحك ، وكثيرا من العذاب ..
والزنازين لا تكاد تفتح مكافأة للمساجين على هدوئهم ، حتى تعود
وتغلق عقابا لهم ..
وكل سجين يفتح عينيه كل صباح على أمل الافراج عنه ،
ويعلقهما كل مساء على ياس مرير ..
وعبد الحميد يعنى أزمة نفسية عنيفة ، يحاول أن يتخلص منها
بالضحك مع زملائه حيناً ، وبإثارة الشغب داخل السجن حيناً ،
ولكن الأزمة النفسية تترد دائما إلى صدره ..
وكان خلال هذه الأزمة يبحث عن أسباب فشله ..
لقد قضى فى زنزانته لياالى كثيرة مظلمة يحاول عبثا أن ينكر
أنه إنسان فاشل ..
ولكنه أخيرا اعترف ..
اعترف لنفسه بأنه إنسان فاشل ..

وبقى أن يبحث عن أسباب فشله ..

لماذا فشل ؟!

وخلال الأيام والليالي الطويلة التي قضاها وليس معه إلا نفسه يحدثها ويحاورها ، بدأت تتضح له خيوط النور .. النور الذي حرم نفسه منه طول حياته .

إنه فشل ، لأنه لم يكن له إيمان ..

لم يؤمن بشيء أبدا طول حياته ..

لم يؤمن بالدين ، ولم يؤمن بالتقاليد .. ولم يؤمن بمبادئ الأخلاق ، لم يؤمن بمذهب من المذاهب ، ولا بزعيم من الزعماء ، ولم يؤمن بالشهادات الدراسية ، ولم يؤمن بالمجتمع ، ولا بعائلته ، ولا بأبيه وعمه .. لم يؤمن أبدا إلا بنفسه .. وبذكائه .. ذكاء يدور فى فراغ ، لا تحده حدود من المبادئ ، ولا يرمى إلى هدف معين .. ذكاء يدور كالألة المنطلقة التى لا تنتج شيئا ، وليس بجانبها عامل يحكمها .. فتنتهى الآلة بأن تحطم نفسها .. تنفجر .. وتحطم أيضا ما حولها ..

لو كان يؤمن بشيء ، لكان سعيدا ، مهما صادف من عذاب فى سبيل إيمانه .. ولما شقى بهذا الإحساس بالفشل .. هذا الإحساس الذى يجعله يحتقر نفسه ..

إن عمه سعيد ، رغم إنه ليس غنيا ، وسر سعادته أنه يؤمن بمجموعة مبادئ حددها له الدين ، والمجتمع ورسم على ضوئها أسلوبا معيناً فى الحياة يستريح له ، ويجد شخصيته به .. وأبوه .. سعيد أيضا ..

وهؤلاء الشبان الذين يزاملونه فى السجن ، إنهم سعداء .. إنهم لا يحسون مثل بالفشل .. وهم يتحملون السجن والعذاب بروح مخالفة لروحه .. روح أقوى وأشد إصرارا .. لأن كلا منهم يعلم أنه يتعذب فى سبيل مبدأ ومن أجل هدف .. وهذا الإيمان فى حد ذاته يخفف من وقع العذاب عليهم ..

وإبراهيم .. إنه ليس فاشلا ، رغم أنه مات .. إنه بطل .. لماذا

اعتبر بطلا .. لأنه مات فى سبيل مبدأ ، فى سبيل هدف .. ولا بد أنه سعيد بموته .. حتى أنه ابتسم عندما وقع على الأرض صريعا..

ودون أن يشعر عبد الحميد ، بدأ يتجه بنفسه نحو الإيمان .. إنه يصلى داخل السجن بحرارة . وهو يتبع أسلوبه خلقيا جديدا فى معاملة زملائه .. وهو يشعر بحقد كبير على رجال البوليس .. لماذا .. لأنهم يعذبونه .. ويعذبون آلاف الشبان أمثاله .. لماذا يعذبونه ، لأنهم فى خدمة الانجليز .. والحكومات كلها فى خدمة الانجليز .. وبدأ يكره الانجليز يكرهم كالعمرى .. إنه يريد أن يخرجوا من مصر ..

وبدافع تلقائى ، بدأ عبد الحميد يفكر فى نيل شهادة التوجيهية.. إن الوقت لم يفت بعد .. سينال شهادة ، مادام المجتمع يتخذ الشهادات مقياسا للاحترام .. وبدأ يسأل عن العلوم التى تدرس لطلبة التوجيهية .. وبدأ يهرب الكتب إلى داخل السجن ، ويذكر فى الخفاء .. كأنه يخجل من أن يكتشف زملاؤه أنه آمن أخيرا بالشهادات .. ولكنه سينالها .. سينال الشهادة .. وسينال معها سامية .. ربما كان هذا هو الطريق الوحيد للوصول إلى سامية .. ومحيى فى زنانه يفكر تفكيرا آخر ..

إنه ليس نادما على عدم تقدمه إلى الامتحان ... وعلى ضياع عام دراسى من عمره .. لقد تعلم فى هذه الشهور أكثر مما تعلمه طول حياته ، وأكثر مما استطاعت كل كتب ومحاضرات كلية الحقوق أن تضعه فى رأسه .. وهو يريد أن يتعمق فيما تعلمه من هذه الشهور .. يريد أن يتعلم أكثر .. تعليما حرا لا تحده البرامج التى تضعها له الجامعة .. يريد أن يتعلم الحياة نفسها ..

وكان يتتبع الأخبار التى تتسرب إلى داخل السجن بشغف كبير.. لقد اضرب طلبة الجامعة ، وساروا فى مظاهرات ضخمة تنادى بسقوط الوزارة .. وسقوط المعاهدة .. والانتقام لإبراهيم حمدى .. واستشهد طالب . اثنان .. ثلاثة .. وألقيت قنابل على

المعهد البريطانى فى الاسكندرية .. وقتل جنديان انجليزيان .. وقتل
خائن مصرى آخر .. وتكون اتحاد العمال والطلبة ..
إن كل الأخبار تصل إلى داخل السجن بالتفصيل .. بل وصل
إليهم نشيد وضعه طالب صغير فى مدرسة ثانوية اسمه صلاح
جاهين ، يقول فيه :

أيام حتجى بعد ليام دى ..
والشمس من دم إبراهيم حمدي ..
أيام حتجى ويبقى عمر جديد ..
والشمس حمرا بدم كل شهيد ..
وردد محبى هذا النشيد ، فى سره ، وهو يسائل نفسه : لماذا ؟
إنه يكرر دائما كلمة : لماذا ؟

لماذا يقبل الطلبة على الاستشهاد .. لماذا يلقون أنفسهم فى
السجون .. لماذا يتحملون كل هذا العذاب .. لماذا يضعون هذه
الأنشيد . . لا يمكن أن يكونوا كلهم مجانين .. ولا يمكن أن يكونوا
كلهم « بايظين » .. لابد أن هناك سببا يدفعهم ... سبب أقوى من
حياتهم .. سبب لم يعلمه فى بيته ووالده يحاصر أفكاره
وتحركاته..

وماهى الوطنية .. وما هو الاستعمار ... وما هو الجلاء ..
وما هى الخيانة .. وما هو الشعب ؟ !!
أسئلة تحيره ، ويحس وهو يتعمق فيها كأنه يغوص فى بحر
لا قرار له ..

ووقع فى يده كتاب عبد الرحمن الرافعى عن التاريخ المصرى ..
وجده مع أحد زملائه .. وقراه بشغف كبير ووجد فيه بعض
الضوء، فقرأ كل الكتب التى أصدرها عبد الرحمن الرافعى ثم قرأ
عشرات الكتب .. كلها تتعلق بموضوع واحد .. كتب تاريخية ،
وكتب سياسية ، وكتب مذاهب .. وقرأ القرآن ، كما لم يقرأه من
قبل .. وقرأ بعده كتاب « رأس المال » لكارل ماركس ..
وبدأ يفهم ..

بدأ يضع معانى لهذه الكلمات الضخمة ، والشعارات المثيرة التي سمعها كثيرا .. بدأ يفهم لماذا استششهد إبراهيم ، ولماذا يثور زملاؤه..

وأحس بنفسه عنيفا ،متطرفا فى عنقه ..
لم يكن عنفا جسديا ، فهو يكره العنف الجسدى .. وطول مدة حياته فى السجن لم يشترك فى معركة واحدة أثارها زملاؤه ، ولم يعرض نفسه للاحتكاك بالجنود .. وعرف فى السجن بهدوئه .. وانزوائه .. واتزانه .. ولكن العنف كان فى رأسه .. لقد أصبح يحمل فيها آراء جديدة صائبة تصل إلى الهدف مباشرة ، وتثير أمة بأكملها .

وفى ذات صباح ..
صباح كان فيه أكثر ياسا من أى صباح آخر ، سمع صوت الباشسجان يصيح من طرف الفناء الصغير الذى يتوسط الزنازين:
- محيى الدين مصطفى زاهر ..
والتفت إليه صامتا .. فعاد السجان يصيح :
- هات هدومك ، وتعال .. افراج !
ويهت ..

لم يصدق أذنيه ..
ثم أحس بقلبه يخفق بشدة كعصفور فوجيء بباب قفصه مفتوحا .. سيخرج إلى الحرية .. إلى الحياة .. إلى بيته ..
وحاول أن يكتم فرحته وأن يخفيها عن زملائه ، حتى لا يجرحهم بها .. ووجد نفسه محرجا ، لا يستطيع أن يبدي أسفه لفارقة زملائه ، لأنه يريد الحرية .. ولا يستطيع أن يفرح بالحرية.. لأنه نالها وحده دون زملائه ..
ومرت فترة صمت بينه وبين زملائه . ثم انطلق الزملاء مهللين:
« مبروك يا عم » ، « اوعى تنسانا » ، « نشوفك قريب بإذن الله » ..
وكان فى تهليلهم رنة افتعال لا تخلو من حسد ..
وتقبل تهانى زملائه .. وقبلاتهم .. وجمع هدومه ، وصافح

زملاءه واحدا واحدا ، وشد على يد عبد الحميد قائلا :
- الدور عليك يا أو عبده !
وخرج منطلقا ، ووقف أمام الكونستابل ، يلى البيانات التى
يطلبها منه ..
وطلب منه الكونستابل أن يوقع على تعهد بعدم اشتغاله
بالسياسة ..
وابتسم محيى بتسامة خافتة .. إنه لم يعد يستطيع أن يتعهد
بعدم الاشتغال بالسياسة .. إن السياسة أصبحت فى رأسه وفى
قلبه .. أصبحت فى دمه .. ولكنها لا تسمى « سياسة » ، إنما
تسمى وطنية ..
ووقع بإمضائه على التعهد الذى قدم إليه ، وهو يعلم أنه يتعهد
كأنيا ..
وهم أن يتحرك ليخرج من السجن .. ففوجيء بباب السجن
يفتح ، ويدخل منه اليوزباشى الدباغ وخلفه اثنان من الجنود
يسوقون أمامهم طالبا شلبا ..
وانحرف الدباغ إلى غرفة المأمور دون أن يلمح محيى ..
وساق الجنود الطالب المقبوض عليه إلى غرفة الكونستابل ،
ورفع الكونستابل رأسه ، ثم عاد وخفضها وبدأ يسجل بيانات
جديدة ، ثم صاح فى الجنود :
- حطوه فى نمرة « ١٨ » اللى فضيت دلوقت !!
وهز محيى رأسه دون أن يشعر بأسف على مصير السجين
الجديد ..
إنه يعلم الآن الأسباب ..
ويعلم أن المعركة لن تهدأ ..
وخرج من السجن ..

الفصل بعد الأخير

ومرت السنون..

إن البيت واحد من ملايين البيوت.. يبدو من بعيد بيتا هادئا، طيبا، سانجا، يقف الزمن على بابه، فلا يتقدم ولا يتأخر.. بيت من ملايين البيوت التي تبدو من بعيد كأنها لا يمكن أن تكون مصانع للثورة، أو مصانع للأبطال..

والأب قد عادت حياته منتظمة رتيبة.. يحكمها «المنبه» الموضوع بجانب فراشه.. ولا يزال ينسج حياته ومستقبل أولاده بحرص ودأب وكثير من الحذر. كل ما تغير فيه أنه احتفظ بعادة قراءة الجريدة قبل أن يذهب إلى عمله.. وأنه أصبح يتذوق الحديث فى السياسة والتعليق على الأنباء ويطلق فى هذا الحديث، حتى تكونت له عادة البحث عن أصدقاء يستمعون له ويستمع لهم.. وكان يدعو هؤلاء الأصدقاء إلى بيته، ثم أصبح يذهب إلى بيوتهم، ثم تشجع وأصبح يتسلل فى بعض الأمسيات إلى المقاهى بحثا عن هؤلاء الأصدقاء.. ثم تكونت له عادة الجلوس فى مقهى خاص، تعود أن يستريح إلى حديث رواده، ويستريح إلى أن يتحدث إليهم..

وكان فى حديثه ينحاز دائما إلى أحد الجانبين.. لقد اختار موقفه.. أنه مع الناس وضد الحكومة.. ومع كل الناس، وضد كل حكومة.. لم يعد يكفيه أن يقف بقلبه موقف المتفرج.. لم يعد يكفيه أن يستعيز بذكرى ثورة ١٩، عن واقع الثورة التى يعيش فيها.. أن قلبه لا يتفرج الآن، إنما ينفع.. وانفعاله لا يتعدى مجرد الحديث، ولا يصل إلى أبعد من لسانه.. ولكنه ينفع.. ويأمل.. يأمل

أن تسقط هذه الحكومة. وتسقط الحكومة التي تليها.. ثم التي تليها.. كل الحكومات يجب أن تسقط.. وأمله لا يتعدى سقوط الحكومات.. ثم لا شيئاً بعد أن تسقط الحكومة إلا أن تسقط الحكومة التي تليها.. أو لا يدري ماذا يريد.. لا يدري أين تنتهي هذه الثورة التي تعمل في صدره..

وقد تغيرت النظرات في عينيه.. أصبحت نظرات تحمل معنى السخط والامتناع.. وأسبح كلما التقى بشاب أو طالب في الجامعة نظر إليه كامل كبير.. أمل في تحقيق الثورة.. كأنه يبحث وراء كل شاب عن بطل جديد أو عن مظاهرة..

وهذه النظرة الجديدة هي التي أصبح ينظر بها إلى ابنه.. انه اكتشف أن ابنه لم يعد طفلاً.. ولم يعد يمثل جيلاً أقل احتمالاً من الجيل الذي سبقه.. انه أصبح يمثل أملاً.. أصبح يمثل مسؤولية كاملة تشمل مصير البلد كلها.. وقد اثبت ابنه أنه رجل يستطيع أن يتحمل المسؤولية.. تحمل المسؤولية عن العائلة كلها عندما نخل السجن.. وهو وزملاؤه يستطيعون أن يتحملوا مسؤولية مصر كلها..

وكان أمله في ابنه يشوبه كثير من الخوف.. الخوف عليه.. ولكن هذا الخوف لم يعد يدفعه إلى محاصرة ابنه والتضييق عليه، إنما كان يدفعه إلى الرجاء.. رجاء ألا يتهور ابنه، وألا يندفع، وأن يسلم له..

موضوع واحد كان يمنع نفسه عن الحديث فيه.. موضوع ابراهيم.. أن حذره الطبيعي يذكره بأن الأمر العسكري الخاص بعقاب كل من يساعد ابراهيم على الهرب، لا يزال قائماً.. وهذا الحذر يجسم له خطورة الموقف الوطني الذي اتخذه من ابراهيم، وما يمكن أن يترتب عليه من اضطهاد الحكومة له.. قد يفصل من عمله، وقد يقبض عليه، أو قد يقبض على محبى من جديد.. إنه حذر.. متشدد في حذره.. وكلما جاء ذكر ابراهيم في حديث اصدقائه، سكت.. لا يقول شيئاً.. لا يحبى حتى بطولة ابراهيم بكلمة.. كأن الحديث عن بطولة ابراهيم هو حديث عن بطولة بيته..

بطولته، وبطولة ابنه، وبطولة ابنتيه..

ولم يكن حديث إبراهيم يأتى ذكره حتى فى البيت، إلا فى كلمات خاطفة، ثم يتعاون الجميع على بثر هذا الحديث كأنهم يخشون أن تكون للجدران آذان.. أو كأنهم يخشون أن يثيروا ذكرى عزيزة يحرصون عليها فى صدورهم ويضنون بها على السنتهم.. وربما اتصل هذا الحديث عندما يخلو الأب إلى زوجته فى غرفتهما.. ولكنه لا يتصل طويلا، فيسكت هذه الأثنان.. ويستلقى الأب على ظهره يتنهد فى ارتياح، كأنه يهنئ نفسه على قيامه بواجب كان يجب أن يقوم به.. وتتندى الزم كأنها تترحم على روح الشهيد..

والأم الطيبة.. عادت إلى حياتها بين حجرات البيت، وفى المطبخ.. لم تترك الحوادث فيها من أثر إلا أنها أصبحت أكثر لهفة على ابنها.. لقد اكتشفت حقيقة كانت تجهلها، وهى أن فى مصر سجوناء، وفى السجون تعذيب.. وأن ابنها لمكن أن يسفل السجن.. ويمكن أن يقتل كما قتل إبراهيم..

إن مصر ليست هى سكان العمارة.. وليست هى هؤلاء الجيران الطيبين.. وليست هى أولياء الله الصالحين الذين تعودت أن تزور اضرحتهم بين الحين والحين.. وليست هى عم عوض البقال والمعلم فتحيه الجزار.. وليست هى هذا الجندي البرئ الذى يقف عند ناصية الشارع.. إن فى مصر قوما آخرين.. قوم لم تكن تعرفهم.. قوم يقتحمون بيوت الناس، ويقبضون على الناس، ويسجنون الناس، ويعذبون الناس، ويقتلون الناس..

وهى تخاف على ابنها من هؤلاء القوم.. تودعه كل صباح وهى تقرأ حوله آيات من القرآن، وتستقبله بفرحة كأنه رد إليها من العالم الآخر.. فإذا تأخر بعض الوقت عن مواعده أستبدت بها اللوعة، وسرحت عينها من خلال نظرة فزعة، ترى بها الدنيا كلها ظلاما، وصراخا، ودماء.. وتكتم فزعها فى صدرها، وتترك ما فى يدها من مهام البيت، وتبحث عن ابنتيها لتجلس بينهما صامتة، كأنها تحتمى بهما من وساوسها.. إلى أن يعود محيى، فترتد إليها

الروح وتعود تطوف بين الحجرات وتستقر فى المطبخ..
وقد عاشت فى هذه اللهفة طول هذه السنين.. لم تستطع أن
تقاومها أو تخفف من حدتها.. حتى بدأت اللهفة تأكل من جسدها
المكتنز ومن وجهها المبتسم دائما، فأصببت بضغط الدم، ثم أصببت
بمرض السكر.. فزوى جسدها، وتهدل جلدها، وتعبت ابتسامتها..
لم تعد ابتسامة إقبال، بل أصبحت ابتسامة استسلام.. ولكنها ظلت
صابرة.. تطوف بحجرات البيت وتستقر فى المطبخ، وهى تكتم
آلامها ووساوسها حتى لا تزعج بها أحدا من أحبائها..
وسامية..

لقد تزوجت..

تزوجت عبدالحميد..

وقد نال عبدالحميد شهادة التوجيهية فى نفس العام الذى خرج
فيه من السجن.. ثم انتسب طالبا فى كلية التجارة.. وظل فى نفس
الوقت موظفا فى الشركة.. ولم ينقطع عن التردد على بيت عمه..
لقد أصبح يربطه بهذا البيت شئ أكبر من القرابة، ويكاد يساوى
حبه لسامية.. أصبح يربطه به سر مشترك وعذاب مشترك، وذكرى
مشتركة.. وأصبح محبى بالنسبة له أكثر من ابن عمه.. إنه
صديق.. إنه رجل بجانبيه.. إنه فكرة وطنية يتبادلها معه.. لم يعد
بينهما شك.. ولم تعد بينهما هذه الريبة التى كانت تثور فى صدر
محبى تجاه ابن عمه.. ولا هذا الاستخفاف الذى يملأ صدر
عبدالحميد تجاه محبى.. كلهما آمن بالآخر. ومناقشاتهما السياسية
لا تهدأ أبدا.. والأب فرح بهما هما الاثنين.. لقد أصبح عبدالحميد
قريبا إلى قلبه.. لم يعد ولدا «بايظ».. ولم يعد زواجه من سامية
أمرا بعيد الاحتمال.

ولكن عبدالحميد لا يفتح عمه فى زواجه من سامية، ولا يحاول
أن يذكره بوعده.. لقد قرر بينه وبين نفسه ألا يتقدم مرة ثانية
طالباً الزواج إلا بعد أن ينال بكالوريوس التجارة.. لقد آمن
بالشهادات.. لم تعد ثقته فى ذكائه تكفيه ليطمئن إلى أنه يصلح
زوجا سامية.. وكل ما كان يرجوه هو ألا يتقدم لها أحد قبله..

ولم يكن يدري ما يفعله لو تقدم إليها شخص آخر.. ربما ثار، وربما اختطفها، ربما حطم حياته.. ولكنه لم يكن يفكر كثيرا في هذا الاحتمال.. كان يحس في أعماقه أن سامية له، وأنه أصبح يستحق سامية..

وإذا كان قد سكت فترة عن موضوع الزواج، فإن حبه لم يسكت.. كان حيا ثارًا يتكلم في هذه النظرات التي تطوف بينه وبين سامية، وفي هذه الابتسامات التي يتبادلانها، وفي هذه المشاحنات الصغيرة التي لا تنتهي.. وكان الحب يصرخ في هذه الأوامر الصارمة التي يصدرها لابنة عمه.. لا ترتدي هذا الثوب.. لا تكشفى عن ذراعيك.. لا تلبسى الكعب العالي.. لا تضحكى هذه الضحكة العالية.. لا تمشى هذه المشية الخلية. أوامر لا تنتهى.. يفتعلها أحيانا افتعالا.. ويصدرها باسم حقوقه كابن عم.. ولكنه لا يصدر مثلها لنوال!

وسامية تتلقى هذه الأوامر فرحة بها.. وقد يمر يوم أو يومان لا يصدر إليها أمرا، ولا يثير مشاحنة، فتحس كأنه بعد عنها.. كأنه أقل حيا.. كأنه نسيها..

كانت قد عادت له بكل ما كان لها في طفولتها وصباها من سذاجة، وثقة.. تنظر إليه كأنه إنسان كبير جدا.. نكى جدا.. يفهم من الحياة ما لا تفهمه وما لا تعرفه، حتى أنها لتخاف الحياة أن تتخلى عنها.. وعادت بنفس الشعور الذى كان لها عندما كان زواجهما أمرا متعارفا عليه بين أفراد العائلة.. تطيعه.. وتنتظره.. وتخافه.. وتعيش على أمل الزفاف..

ولم يسكت حديث الزواج طويلا.. أصبح همسا بين الأختين، ثم أصبح همسا بين الأم والأب.. ولم يعد أحد يشك في أن سامية راغبة في الزواج من عبدالحميد، ولم يعد أحد يعترض على زواج عبدالحميد من سامية..

إلى أن قالت الأم يوما لعبدالحميد:

- يا ابنى انتو حتفضلوا مخطوبين كده فى السر.. ما خلاص بأه.. انا عايزة أفرح، وورى فرحتى للناس..

وقال عبدالحميد والفرحة تملأ صدره:
- انا كنت مستنى يا عمى لما أخذ الشهادة..
وقالت تقاطعه:
- وماله يا أخويا.. على بال الخطبة وكتب الكتاب تكون خدت
الشهادة باذن الله..
وأعلنت الخطبة للناس
ومر عام، وتم عقد القران..
وعبدالحميد يقبل على دروسه ليحقق الزفاف..
وهو فى خلال ذلك لم يهمل المبادئ الوطنية التى خرج بها من
السجن.. وكانت العقدة النفسية التى ترقد فى عقله الباطن تدفعه
إلى التطرف فى وطنيته.. وإلى الاشتراك فى أعمال العنف.. كان
يشترك فى المظاهرات.. ويطوف على دور الأحزاب يشترك فى
نشاطها حيناً إلى أن يكفر بهذا الحزب فيبحث عن حزب آخر.. وكان
إذا سمع بقنبلة ألقيت فى مكان ما، لحس بالكمد لأنه لم يشترك فى
القائها وإذا رأى منشورات توزع دار يبحث عن موزعها ليشترك
معه فى توزيعها.. كان يلقي بنفسه فى كل عمل وطنى يصادفه.. لم
يله حبه، ولا استعداد للزواج، عن المغامرة بكيانه وحياته فى
سبيل المبادئ التى آمن بها.. وفى سبيل التفكير عن خطيئته
الوطنية.. ولكن وظيفته فى الشركة كانت تبعده عن محيط الطلبة..
وعن محيط الفئات التى تنوى الأعمال الفدائية، وكان الملف الذى
يحتفظ له به البوليس السياسى يسجل عليه ضعفه السابق، فأعفاه
البوليس السياسى من مراقبته، وأبعدته عن يده..
وسامية بجانبيه تخاف عليه من حماسه.. وتخاف عليه من
السجن مرة أخرى، وتتصوره بطلاً وطنياً فتخاف عليه من مصير
ابراهيم.. ولكن خوفها لم يمنعه من اندفاعه.. بل كان يتلذذ بخوفها
ويزهو به، فيزداد اندفاعاً..
إلى أن نال الشهادة الجامعية..
وتزوجا..
وعاشا مع العائلة فى بيت واحد.. وبدأ عبدالحميد جهاداً جديداً

فى سبيل الحياة.. جهادا فى سبيل تكوين نفسه كرجل ناجح،
صالح، رب عائلة، يسير على مبادئ مرسومة يحدها احساس
وطنى صادق، ويدفعها ندم دفين على خطيئة سابقة..
ونوال..

لقد قضت عامين، وكل ما بقى لها من الحياة ذكرى قصيرة
لحب لا يموت.. ومصحف ذهبى تعلقه فى رقبتها يضم ورقة عليها
شهادة «لا إله إلا الله» مكتوبه بخط إبراهيم.. هى كل ما تركه لها
حبيبها قبل أن يرحل..

وفى خلال هذين العامين كانت التجربة العنيفة قد صهرتها..
لم تعد هذه الفتاة المرحلة الجريئة.. ولم تعد عيناها ترمضان بهذا
النشاط الضاحك.. ولم تعد تهتم كل هذا الاهتمام بثيابها.. ولم تعد
تترك ضفيريها مسدلة فوق كتفها، ولم تعد تطيل التحديق فى
الصور التى تنشرها المجلات لتقتبس منها ثوبا، أو عقصة شعر..
أصبحت فتاة كبيرة.. كبرت مع التجربة.. وأصبح طابعها طابعا
حزينا.. حزينة فى نظرات عينيها، وحزينة فى ابتسامتها، وحزينة
فى تصرفاتها.. ولكن حزنها كان يبدو كأنه تعقل.. كأنه تزمّت..
وأشاع حولها جوا من الاحترام، أبوها يحترمها ولم يعد ينهرها،
ولا يعيب عليها تصرفاتها.. فلم يعد فى تصرفاتها ما يعاب.. وأمها
ومحبي، وعبدالحميد، وصديقاتها والجيران.. الكل يحترمها..
وسامية وحدها هى التى تعلم سر هذا التبدل الذى ألم بها، وتسكت
عنه، وتحترمها كالآخرين، ولكنها - دون الآخرين تحترم حزنها،
وفجيعتها، وحبها، وذكرياتها القصيرة..

هذا الاحترام جعل العائلة كلها، تقدر لنوال رأيها فيما يعرض
من مشاكل.. لم تعد فى نظرة العائلة أصغر أفرادها، بل أصبحت
أعقلهم.. وأحست نوال بهذا الاحترام، وهذا التقدير لرأيها، فاتخذت
منه عوضا عن فجيعتها.. وأصبحت تفكر كثيرا قبل أن تقول رأيها
فى هذه المشاكل الصغيرة التى تعرض العائلة.. ثم تعلن رأيها فى
هدوء وروية، كأنها زعيمة.. كأن البطل يعيش فى صدرها وينطق
بلسانها.. كأن إبراهيم دائما معها!

إلى أن جاء يوم، كان عليها فيه أن تتخذ قرارا خطيرا..
لقد تقدم لها طبيب شاب، شقيق إحدى صديقاتها، يطلبها
للزواج..

كان عليها وحدها أن تقرر..
إن أباهما لن يجبرها على الزواج..
وهي لا تحب هذا الشاب..
إنها لا تزال تعيش في ذكرى حبها لابراهيم..
ولكنها يجب أن تتزوج..
إن الزواج مصير كل فتاة.. إنه الوظيفة التي تعد لها كل فتاة
والتي أعدها لها أبوها منذ ولدت..
ليس من حقها أن تعيش عاطلة بلا وظيفة!!
وكيف تعيش.. أين؟!

إن المجتمع يدفعها إلى الزواج.. لا إلى الحب.. والعائلة تنتظر
لها أن تتزوج، لا أن تحب!
وقررت أن تقبل هذا الزوج الطبيب!
قررت أن تقوم بوظيفتها.. أن تقوم بها على خير وجه. وأن
تكون زوجة صالحة!؟

وتزوجت.. قبل أختها سامية!
وقبل الزفاف، أخرجت قميص ابراهيم الذي كانت تحتفظ به في
دولابها.. وحملت بين يديها، ونظرت إليه طويلا، كأنه ترى بداخله
صدر البطل.. ثم سارت به إلى أخيها وفي عينيها دموع لا تنهمر..
وقالت في صوت خفيض:

- ده قميص المرحوم ابراهيم..
ولم تتم ذكر الاسم.. كأن قلبها سينطلق من فوق لسانها
لو نطقت اسمه..

ثم خرجت مسرعة..
إنها لن تدخل بيت زوجها، وبين ثيابها قميص رجل آخر.
ولكن المصحف الذهبي لا يزال معلقا فوق صدرها، يضم الورقة
التي تحمل خط ابراهيم.. كأنها لا تزال تنتظر لقاءه، لتضع ورقته

بجانب ورقتها، وتتم شهادة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»!!
لعلها أن لم تلتق به في الأرض.. تلتقى به في السماء!
وعلى الأرض، عرف الناس عنها أنها خير الزوجات.. وإن
زوجها أسعد الأزواج..
وفي السماء.. أمل لا يعلمه إلا الله.
ومحيى..

إن التغيير الكبير الذي ألم بتفكيره، ألم أيضا بغرفته..
أصبحت غرفته مزينة بالكتب.. كتب فوق المكتب، وكتب ملقاه
على الأرض، وكتب في دولابه، وكتب فوق فراسه.. كتب قديمة،
وكتب حديثة.. وفي هذا البحر من الكتب، تضع كراسات
المحاضرات، وملزم المواد الدراسية المقررة في كلية الحقوق.
وكان محيى يقرأ.. يقرأ دائما.. وهو جالس إلى مكتبه، ثم وهو
راقده، ثم وهو يأكل.. انفتحت في نفسه طاقة هائلة للقراءة.. طاقة
لا تفرغ ولا تشبع.. وكان يظن أنه يقرأ في موضوع واحد.. ولكنه
اكتشف أن كل المواضيع، متعلقة بهذا الموضوع الواحد.. اكتشف أنه
لا يمكن أن يعرف بلده ويعرف شعبه، إلا إذا قرأ في التاريخ وفي
المذاهب، وفي الدين، وفي الأدب، وفي الاقتصاد.. ولم يكن يقف
للتسلية.. كان يقرأ ليفهم.. كان يقرأ وفي يده قم رصاص، يسج
به ملاحظاته على هوامش الكتاب، ثم لم يتعد تكفيه الهوامش، فكا
يكتب ملاحظاته في أوراق صغيره يحتفظ بها بين صفحات
كتاب..

وعجزت ميزانيته الصغيرة على ملاحقة نهمة للقراءة.. ف
يتردد على دار الكتب، يمضي هناك ساعات طويلة يقرأ كل ش
حتى مجموعات الصحف القديمة.. ثم لم يعد يكفيه أن يقد
بالعربية، فبدأ يقرأ بالانجليزية.. أصبح يعيش كالفأر يقرض بعيني
كل كتاب وكل ورقة تقع بن يديه.. وكان يتلذذ وهو يقرض السطور
بعينه.. كان يحس أنه يكبر عاما مع كل سطر.. أن آفاقا جديدة
تتفتح أمامه.. ونتائج جديدة يصل إليها.. كأنه يجد في كل كتاب
حلا بسيطا لمشكلة حسابية عويصة..

وقد كبر محبى فعلا.. كبرت شخصيته فى بيته، وبين زملائه.. ولكن قراءاته الكثيرة جعلت منه انسانا نظريا يجرى بعقله وراء المثاليات، ووراء النظريات، ووراء المنطق المتحرر.. وظل بعيدا عن النشاط الوطنى العنيف.. لم يعرف عنه انه اشترك فى مظاهرة، أو اشترك فى جمعية، أو انضم لحزب.. إنما عرف بين زملائه بوعيه، وبحوثه.. ورغم ذلك فقد كان لا يتقدم برأيه إلا إذا سأل أحد فيه، ولا يعرض بحثا إلا إذا اضطر إلى عرضه.. كان لا يزال حريصا.. حذرا.. كل هدفه فى الحياة أن يعيش أكثر ليقرأ أكثر.. وهذه القراءات الكثيرة شغلته عن اصراره على أن يكون أول الخريجين فى دفعته.. لقد نجح بتفوق فى الامتحان ولكنه لم يكن الأول.. ولم يسع ليعين معيدا فى الجامعة. بل قبل وظيفة فى إحدى الإدارات القضائية.. ثم استقال واشتغل فى مكتب أحد المحامين، يدرس له القضايا، ويعدها، ويكره أن يذهب إلى دور المحاكم ليترافع أمام القضاة.. وبين الحين والحين كان يكتب بحثا وطنيا مستفيضا.. يكتبه بأسلوب هادئ، لا يحمل حماسا فى كلماته، ولكن منطقته ينبض بالعنف.. عنف الفكرة، وعنفا الاتجاه الوطنى.. ثم يرسل هذا البحث إلى إحدى المجلات الوطنية.. لينشر بلا أمضاء!



وصحا محبى ذات يوم.. فإذا الثورة تحققت.. حدثت.. وأحس بقلبه يخفق فى صدره كأنه يزغرد.. وتابع الأحداث السريعة وابتسامة كبيرة تعلو شفثيه.. أحس كأنه يتباهى بنفسه.. أحس احساسا عميقا صادقا بأنه اشترك فى هذه الثورة.. اشترك فى صنعها.. هو وأبوه وأمه وسامية ونوال وعبد الحميد.. كل العائلة اشتركت فى صنع هذه الثورة.. اشتركوا فيها بالسخط الذى كان ينطلق من أعينهم.. وبالأحاديث التى كانوا يثيرونها حولهم.. وباتجاه تفكيرهم وآمالهم.. وبخلق الوطنى.. وبالأرادة التى تحملت العذاب والحرمان..

هذه الثورة صنعتها عائلته..
وربما كان هذا هو سر فرحه بها.. سر قلبه الذى يزغرد، وسر
ابتسامته التى تملو شفثيه..
وعندما رأى البطل الجديد، أحس أنه يعرفه من زمان طويل ..
أحس كان له شيئاً فيه.. كأنه اشترك فى صنعه إنه ليس غريباً
عليه.. أنه قريب من قلبه.. قريب جداً من قلبه..
نعم.. لقد اشترك فى صنع البطل.. أو ربما كان الأصح أنه
اشترك فى صنع البطولة.. والبطولة ليست فرداً واحداً يمكن أن
يموت، ولكنها قوة تتجدد فى أفراد متتابعين.. قوة لا يصنعها فرد،
ولكن تصنعها أمة وتجسدها فى فرد، فإذا أستهشد هذا الفرد أو
انحرف، جسدها فى فرد آخر.. البطولة لا تموت أبداً، ولا تنحرف
أبداً.. ولم تمت بطولة إبراهيم ولا انحرفت.. ولم تمت بطولة سعد
زغلول، ولا مصطفى كامل، ولا عربى.. لم تمت يوماً واحداً.. كانت
بطولة حيه دائماً.. حيه بحياة الشعب.. تتجسد فى الزعيم تلو
الزعيم..
وأتسعت ابتسامة محبى، وهو يصل بتفكيره إلى هذا الحد، كأنه
اكتشف حلاً بسيطاً لمشكلة حسابية عويصة..
وأدار رأسه عن الموكب الذى يسير فى وسط الشارع، والتفت
إلى الملايين التى تقف مهللة على الجانبين..
كل هؤلاء اشتركوا معه فى صناعة الثورة.. صنعها الفلاحون
من حرمانهم، وصنعها العمال من كنعهم، وصنعها التجار من
أحلامهم.. صناعة احتاجت إلى صبر طويل، وإلى عناء، وإلى أبناء،
وصهرت فى السجون والمعتقلات، وتحت ضربات السياط..
وبوركت بالدم والروح على مدى أجيال.
وسار محبى بين الملايين يقبل كل فرد فيها بعينيه.. يهنئه
بثورته.. ثورة الملايين الذين يسكنون بيوتاً هادئة، ساذجة، طيبة..
بيوتاً لم يكن الانجليز، ولا البوليس السياسى، ولا الحكام، يعتقدون
أنها تصلح لتكون مصانع للثورات.. ومصانع للأبطال
وذاب محبى بين الملايين..

رقم الايداع ١٣٢٧٠ / ٩٧

الترقيم الدولي

I. S. B. N.

977 - 08 - 0688 - 9